

التسهيل لعلوم التنزيل

تأليف العلامة المفسر أبي القاسم

محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الأندلسي الغرناطي

رحمه الله وتقبله في الشهداء - (٦٩٣-٧٤١هـ)

ومعه تقريرات لفضيلة الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر البراك

حفظه الله تعالى ونفع به

على المواضع المشكلة في العقيدة والسلوك

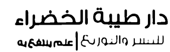
تحقيق

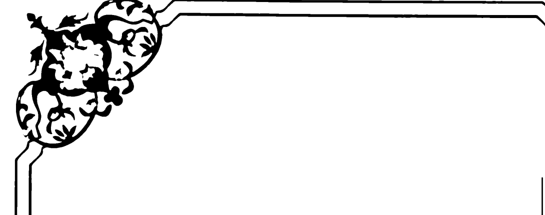
علي بن حمد الصالحي

عضو هيئة التدريس بجامعة أم القرى





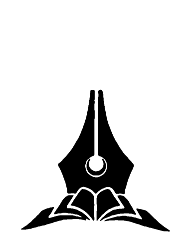




بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م



دار طيبة الخضراء

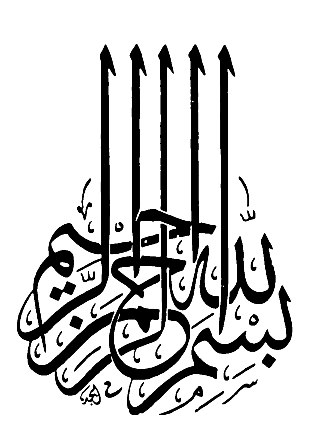
للنشر والتوزيع | علم ينتفع به

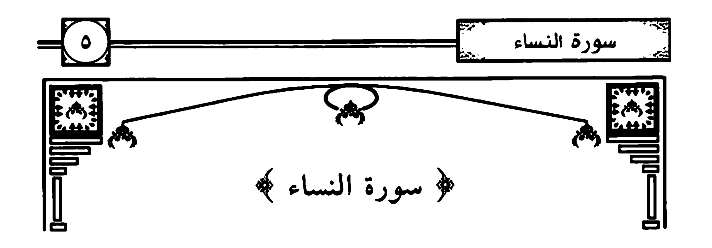
0125562986 I yyy 01@hotmail com



مكة المكرمة ـ العزيزية ـ خلف مسجد فقيه

0503568771 I 0550428992 I yyy.01@hotmail.com I 0125562986


بسم الله الرحمن الرحيم



﴿ سورة النساء ﴾

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا (١) وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا (٢) وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ (٣) وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا (٤) وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا (٥) وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا (٦) لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا (٧) وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا (٨) وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا (٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا (١٠)﴾].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ خطابٌ على العموم، وقد تكلّمنا على التقوى

في أوَّل «البقرة»[١].

﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هو آدمُ عليه السلام.

﴿زَوْجَهَا﴾ هي حوَّاءُ؛ خُلِقت من ضِلَع آدم.

﴿وَبَثَّ﴾ نشَر.

﴿تَسَّاءَلُونَ بِهِۦ﴾ أي: يقول بعضكم لبعض: أسألك بالله أن تفعل كذا.

﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ بالنصب عطفٌ:

على اسم الله؛ أي: اتقوا الأرحام فلا تقطعوها.

أو على موضع الجار والمجرور -وهو ﴿بِهِۦ﴾ -؛ لأنَّ موضعه نصبٌ.

وقرئ بالخفض: عطفًا على الضمير في ﴿بِهِۦ﴾، وهو ضعيف عند البصريين؛ لأن الضمير المخفوض لا يُعطَف عليه إلَّا بإعادة الخافض.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ إذا تحقَّق العبد بهذه الآية وأمثالها استفاد مقام المراقبة، وهو مقام شريفٌ، أصله: علمٌ، وحال، ثم يُثمِر حالَين.

أما العلم: فهو معرفة العبد بأن الله مطَّلِعٌ عليه، ناظرٌ إليه، يرى جميع أعماله، ويسمع جميع أقواله، ويعلم كلَّ ما يخطُر على باله.

وأما الحال: فهو ملازَمة هذا العلم للقلب، بحيث يَغلِب عليه ولا يَغفُل عنه، ولا يكفي العلم دون هذه الحال.

---

(١) انظر صفحة ١/ ٢٦٥.

فإذا حصل العلم والحال:

كانت ثمرتُهما عند أصحاب اليمين: الحياءَ من الله، وهو يوجب بالضَّرورة تركَ المعاصي، والجِدَّ في الطاعات.

وكانت ثمرتُهما عند المقرَّبين: المشاهدةَ التي توجِب التعظيم والإجلال لذي الجلال.

وإلى هاتين الثمرتين أشار رسول الله ﷺ بقوله: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١).

فقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه» إشارةٌ إلى الثمرة الثانية، وهي المشاهدة الموجبة للتعظيم؛ كمن يشاهد مِلكًا عظيمًا، فإنه يعظِّمه إذ ذاك بالضرورة.

وقوله: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» إشارةٌ إلى الثمرة الأولى، ومعناه: إن لم تكن من أهل المشاهدة التي هي مقام المقرَّبين، فاعلمْ أنه يراك؛ فكن من أهل الحياء الذي هو مقام أصحاب اليمين، فلما فسَّر الإحسان أوَّل مرَّةٍ بالمقام الأعلى؛ رأى أن كثيرًا من الناس قد يَعجِزون عنه، فنزل عنه إلى المقام الآخر.

واعلمْ أن المراقبة لا تستقيم حتى يتقدَّمَ(٢) قبلها: المشارطة، والمرابطة، ويتأخَّرَ عنها: المحاسبة، والمعاقبة.

فأما المشارطة: فهي اشتراطُ العبد على نفسه التزامَ الطاعة وترك المعاصي.

---

(١) تقدم تخريجه في صفحة ١/ ١٥٥.

(٢) في أ، ب، ج، هـ: «تتقدم».

وأما المرابطة: فهي معاهدة العبد لربِّه على ذلك.

ثم بعد المشارطة والمرابطة في أول الأمر تكون المراقبة إلى آخره.

وبعد ذلك[١] يحاسب العبدُ نفسَه على ما اشترطه وعاهد عليه، فإن وجد نفسه قد أَوفى بما عاهَد عليه اللهَ: حمِد الله.

وإن وجد نفسه قد حلَّ عُقْدةَ[٢] المشارطة، ونقض عهد المرابطة: عاقب النفس عقابًا يزجرُها[٣] عن العودة إلى مثل ذلك.

ثم عاد إلى المشارطة، والمرابطة، وحافظ على المراقبة، ثم اختَبر بالمحاسبة، فهكذا يكون إلى أن يلقى الله تعالى.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ خطابٌ للأوصياء.

وقيل: للعرب الذين لا يورِّثون الصغير مع الكبير؛ فأُمِروا أن يورِّثوهم.

وعلى القول بأنَّ الخطاب للأوصياء:

فالمراد: أن يؤتوا اليتامى من أموالهم ما يأكلون ويلبَسون في حال صِغَرهم؛ فيكون اليتيم على هذا حقيقةً.

وقيل: المراد: دفع أموالهم إذا بلَغوا؛ فيكون اليتيم على هذا مجازًا؛ لأن اليتيم قد كَبِرَ.

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ كان بعضهم يبدِّل الشاةَ السمينة من مال اليتيم

---

(١) في د زيادة: «تكون المحاسبة».

(٢) في ب، ج، هـ: «عقد».

(٣) في ب: «بأن يزجرها».

بالمهزولة من ماله، والدرهمَ الطيِّب بالزائف؛ فنُهوا عن ذلك.

وقيل: المعنى: لا تأكلوا مالهم[(١)] - وهو الخبيث -، وتدعوا مالكم[(٢)] -وهو الطيب-.

﴿إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾ المعنى: نهيٌ أن يأكلوا أموال اليتامى مجموعةً إلى أموالهم.

وقيل: نهيٌ عن خلط أموالهم بأموال اليتامى، ثم أُبيح ذلك بقوله: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وإنما تعدَّى الفعل بـ «إلى»؛ لأنه تضمَّن معنى الجمع والضم.

وقيل: «إلى» بمعنى «مع».

﴿حُوبٗا﴾ أي: ذنبًا.

﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ﴾ الآيةَ؛ قالت عائشة: نزلت في أولياء اليتامى الذين يعجبهم جمالُ وليَّاتهم، فيريدون أن يتزوجوهنَّ ويَبخسوهنَّ في الصَّداق؛ لمكان ولايتهم عليهنَّ، فقيل لهم: أَقسِطوا في مهورهن، فمن خاف أن لا يُقسِط فليتزوَّجْ ما طاب له من الأجنبيات اللاتي يوفِّيهن حقوقَهنَّ.

وقال ابن عباس: إن العرب كانت تتحرَّج في أموال اليتامى، ولا تتحرَّج في العدل بين النساء، فنزلت الآية في ذلك؛ أي: كما تخافون أن لا تقسطوا

---

(١) في ب، ج، هـ، د: «أموالهم».

(٢) في د: «أموالكم».

في اليتامى فكذلك خافوا في النساء.

وقيل: إن الرجل منهم كان يتزوج العشرَ وأكثر، فإذا ضاق مالُه أخَذ مال يتيمه، فقيل لهم: إن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فاقتصروا في النساء.

﴿مَا طَابَ﴾ أي: ما حلَّ.

وإنما قال «ما» ولم يقل «مَن»:

لأنه أراد الجنس.

وقال الزمخشري: لأن الإناث من العقلاء يُجرَى مُجْرَى غيرِ العقلاء؛ ومنه قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾[1].

﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ لا تنصرف؛ للعدل والوصف.

وهي: حالٌ من ﴿مَا طَابَ﴾.

وقال ابن عطية: بدلٌ[2].

وهي معدولةٌ عن أعدادٍ مكرَّرة، ومعنى التكرار فيها: أن الخطاب لجماعةٍ؛ فيجوز لكل واحد منهم أن يَنكح ما أراد من تلك الأعداد، فتكرَّرت الأعداد بتكرار[3] الناس.

والمعنى: انكحوا اثنتين أو ثلاثًا أو أربعًا، وفي ذلك منْعٌ لما كان في الجاهلية مِن تزوُّج ما زاد على الأربع.

---

(١) الكشاف (٤/ ٤٢٣).

(٢) المحرر الوجيز (٢/ ٤٦٦).

(٣) في ج، هـ: «بتعدُّد».

وقال قوم لا يُعبأ بقولهم: إنه يجوز الجمع بين تسع؛ لأن مثنى وثلاث ورباع يجتمعُ منه تسعةٌ، وهذا خطأ؛ لأن المراد التَّخييرُ بين تلك الأعداد لا الجمع، ولو أراد الجمع لقال: «تسع»، ولم يَعدل عن ذلك إلى ما هو أطولُ منه وأقلُّ بيانًا، وأيضًا قد انعقد الإجماع على تحريم ما زاد على الرابعة.

﴿فَوَٰحِدَةً﴾ أي: إن خفتم أن لا تعدلوا بين الاثنتين[١] أو الثلاث أو الأربع فاقتصروا على واحدة، أو على ما ملكت أيمانكم من قليلٍ أو كثير؛ رغبةً في العدل.

وانتصاب[٢] ﴿فَوَٰحِدَةً﴾ بفعل مضمر؛ تقديره: فانكحوا واحدةً.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ الإشارة إلى الاقتصار على الواحدة، والمعنى: أن ذلك أقربَ إلى أن لا تعولوا.

ومعنى ﴿تَعُولُوا۟﴾: تميلوا، وقيل: يَكثُرَ عيالُكم.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ﴾ خطابٌ للأزواج.

وقيل: للأولياء؛ لأن بعضهم كان يأكل صَداق وليَّته.

وقيل: هي[٣] نهيٌ عن الشِّغار.

﴿نِحْلَةً﴾ أي: عطيَّةً منكم لهنَّ، أو عطيةً من الله.

---

(١) في أ، ب، هـ: «الاثنين».

(٢) في ب: «وانتَصب».

(٣) في ب، د، هـ: «هو».

وقيل: معنى ﴿نِحۡلَةٗ﴾ أي: شِرْعةً ودِيانةً[١].

وانتصابه:

على المصدر من معنى: آتوهن.

أو على الحال من ضمير المخاطَبين.

﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ﴾ الآيةَ؛ إباحة للأزواج أو الأولياء -على ما تقدَّم من الخلاف- أن يأخذوا ما دفعه النساءُ مِن صَدُقاتهنَّ عن طيب أنفسهن.

والضمير في ﴿مِنۡهُ﴾ يعود:

على الصَّداق.

أو على الإيتاء.

﴿هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾ عبارةٌ عن التَّحليل، ومبالغةٌ في الإباحة.

وهما صفتان؛ من قولك: «هَنُؤَ الطعام ومَرُؤَ»: إذا كان سائغًا لا تنغيص فيه.

وهما: وصفٌ للمصدر؛ أي: أكلًا هنيئًا.

أو حال من ضمير الفاعل[٢].

---

(١) في ب: «ودينًا».

(٢) كذا في جميع النسخ الخطية، ولعل صوابه: «حال من ضمير المفعول»، أي: حالَ كونِ المأكول هنيئًا مريئًا، كما تومئ إليه عبارة الزمخشري في كشافه حيث قال (٤/ ٤٣٥): «وهما وصفٌ للمصدر، أي: أكلًا هنيئًا مريئًا، أو حالٌ من الضمير؛ أي: كلوه وهو [أي: المأكول] هنيءٌ مريءٌ»، وقال أبو حيان (٦/ ٤٢٧) «وانتصاب (هنيئًا).. على أنه حال من ضمير المفعول، هكذا أعربه الزمخشري وغيره» والله أعلم.

وقيل: يوقف على ﴿فَكُلُوهُ﴾، ويبتدأ: ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ على الدعاء.

﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ﴾ قيل: هم أولاد الرجل وامرأته؛ أي: لا تؤتوهم أموالكم للتَّبذير.

وقيل: السفهاء: المحجورون، و﴿أَمۡوَٰلَكُمُ﴾ أي: أموال المحجورين، وأضافها إلى المخاطَبين؛ لأنهم ناظرون عليها وهي تحت ولايتهم.

﴿قِيَٰمًا﴾ جمع قِيمَة.

وقيل: بمعنى «قيام» بالألف؛ أي: تقومُ بها معايشُكم(١).

﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ﴾ قيل: إنها فيمن تلزم الرجلَ نفقتُه مِن زوجته وأولاده.

وقيل: في المحجورين؛ يُرزقون ويُكسَون من أموالهم.

﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلًا مَّعۡرُوفًا﴾ أي: ادعوا لهم بخير، أو عِدُوهم وعدًا جميلًا؛ أي: إن رشَدتُم دفَعنا لكم أموالكم.

﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ أي: اختبروا رشدَهم.

﴿بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ بلغوا مَبلَغ الرجال.

﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدًا﴾ الرُّشد: هو المعرفة بمصالحه وتدبير ماله، وإن لم يكن من أهل الدِّين.

واشترط قومٌ الدين.

---

(١) في أ، ب: «معاشكم»، وفي هـ: «على معايشهم»، وفي ج: «على معايشكم».

واعتبر مالك: البلوغَ والرشد؛ وحينئذٍ يدفع المال[١].

واعتبر أبو حنيفة: البلوغ وحده؛ ما لم يَظهرْ سفَهٌ.

وقوله مخالف للقرآن.

﴿وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ معناه: مبادرةً لكِبَرِهم؛ أي: إن الوصيَّ يَستغنم أكْلَ مال اليتيم قبل أن يَكبَر.

وموضع ﴿أَن يَكْبَرُوا۟﴾ نصبٌ:

على المفعولية بـ ﴿وَبِدَارًا﴾.

أو على المفعول من أجله؛ تقديره: مخافةَ أن يَكبَروا.

﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ أمر الوصيَّ[٢] الغنيَّ أن يَستعفف عن مال اليتيم[٣]، ولا يأكلَ منه شيئًا.

﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ قال عمر بن الخطاب: المعنى: أن يَستسلِفَ الوصيُّ الفقيرُ من مال المحجور[٤]، فإذا أيسَر ردَّه.

وقيل: المراد: أن يكون له أُجرةٌ بقدْرِ عمله وخدمته.

ومعنى: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ من غير إسراف.

وقيل: نسَخها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾.

---

(١) في هامش ب زيادة: «إليه».

(٢) في ب: «أمرٌ للوصيِّ».

(٣) في د: «المحجور».

(٤) في د: «اليتيم».

﴿فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ﴾ أمر بالتحرُّز والحزم؛ فهو ندبٌ، وقيل: فرض.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ الآيةَ؛ سببها: أن بعض العرب كانوا لا يورِّثون النساء، فنزلت الآية؛ ليرثَ الرجالُ والنساءُ[1].

﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ منصوبٌ انتصابَ المصدر المؤكَّد؛ كقوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

وقال الزمخشري: منصوب على التَّخصيص؛ بمعنى: أعني نصيبًا[2].

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ الآيةَ؛ خطابٌ للوارثين؛ أُمِروا أن يتصدَّقوا من الميراث على قرابتهم، وعلى اليتامى والمساكين.

فقيل: إن ذلك على الوجوب.

وقيل: على الندب؛ وهو الصحيح.

وقيل: نُسِخ بآية المواريث.

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ﴾ الآيةَ؛ معناها: الأمرُ لأولياء اليتامى أن يُحسِنوا إليهم في نظر أموالهم، فيخافوا اللهَ على أيتامهم كخوفهم على ذُرِّيتهم لو تركوهم ضِعافًا، ويُقَدِّروا ذلك في أنفسهم؛ حتى لا يفعلوا خلاف الشَّفقة والرَّحمة.

وقيل: هم الذين يجلسون إلى المريض فيأمروه أن يتصدَّقَ بماله حتى يُجحِفَ بورثته، فأُمِروا أن يخشوا على الورثة كما يخشون على أولادهم.

وحُذِف مفعولُ ﴿وَلْيَخْشَ﴾.

---

(١) في د: «بميراث الرجالِ والنساء».
(٢) الكشاف (٤/ ٤٤٦).

و﴿خَافُواْ﴾ جواب ﴿لَوْ﴾.

﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ على القول الأول: ملاطفةُ الوصيِّ لليتيم بالكلام الحسن.

وعلى القول الثاني: أن يقول للموروث: «لا تُسرِف في وصيتك وارفُق بورثتك».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ قيل: نزلت في الذين لا يُوَرِّثون الإناث.

وقيل: في الأوصياء.

ولفظها[١] عامٌّ في كل من أكل مال يتيمٍ بغير حق.

﴿يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ أي: إنَّ أكْلَهم لمال اليتامى يؤول إلى دخولهم النار.

وقيل: بل يأكلون النار في جهنم.

* * *

(١) في ج، هـ: «وقولها».

[﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾﴾].

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ هذه الآية نزلت بسبب بنات[1] سعد بن الرَّبيع.

وقيل: بسبب جابر بن عبد الله؛ إذ عاده[2] رسول الله ﷺ في مرضه.

ورَفعت ما كان في الجاهلية من ترك توريث النساء والأطفال.

---

(١) في ب: «بنت»، ولم ترد في ج، هـ.

(٢) في ب: «دعاه».

وقيل: نَسخت: ﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

وإنما قال: ﴿يُوصِيكُمُ﴾ بلفظ الفعل الدَّائم، ولم يقل: «أوصاكم»؛ تنبيهًا على نسْخ ما مضى والشروعِ في حكم آخر.

وإنما قال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ بالاسم الظاهر، ولم يقل: «نوصيكم»؛ لأنه أراد تعظيمَ الوصية، فجاء بالاسم الذي هو أعظم الأسماء.

وإنما قال: ﴿فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ ولم يقل: «في أبنائكم»؛ لأن الابن يقع على الابن من الرَّضاعة، وعلى ابن البنت، وعلى الابن المتبنَّى[١]، وليسوا من الورثة.

﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ هذا بيانٌ للوصية المذكورة.

فإن قيل: هلا قال: «للأنثيين مثل حظ الذكر»، أو «للأنثى نصف حظ الذكر»؟.

فالجواب: أنه بدأ بالذَّكَر لفضله، ولأن القصد ذِكْرُ حظِّه، ولو قال: «للأنثيين مثل حظ الذكر» لكان فيه تفضيلٌ للإناث[٢].

﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً﴾ إنما أنَّث ضمير الجماعة في ﴿كُنَّ﴾؛ لأنه قصَد الإناث وأصله أن يعود على الأولاد؛ لأنه يشمل الذكور والإناث.

وقيل: يعود على المتروكات.

---

(١) في د: «وعلى ابن التبنِّي».
(٢) انظر: الكشاف (٤/ ٤٥٥).

وأجاز الزمخشري أن تكون «كان» تامَّةً، والضمير مبهم، و﴿نِسَآءً﴾ تفسير[(١)].

﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ ظاهره: أكثر من اثنتين، ولذلك أُجمِع على أن للثلاث فما فوقَهن الثلثَين[(٢)].

وأما البنتان: فاختلف فيهما:

فقال ابن عباس: لهما النصف، كالبنت الواحدة.

وقال الجمهور: لهما الثلثان، وتأولوا ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾:

أن المراد: اثنتان فما فوقَهما.

وقال قومٌ: إن ﴿فَوْقَ﴾ زائدةٌ؛ كقوله: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال: ١٢] وهذا ضعيف.

وقال قوم: إنما وجب لهما الثلثان بالسنة لا بالقرآن.

وقيل: بالقياس على الأُختين.

﴿وَإِن كَانَتْ واحِدَةٌ﴾ بالرفع: فاعل، و«كان» تامة.

وبالنصب: خبر «كان».

وقوله تعالى: ﴿فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ نصٌّ على أن للبنت النصفَ إذا انفردت، ودليلٌ على أن للابن جميعَ المال إذا انفرد؛ لأن للذكر مثلَ حظ الأنثيين.

---

(١) الكشاف (٤/ ٤٥٧).

(٢) في أ، ب، ج، هـ: «الثلثان».

﴿إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌۚ﴾ الولد: يقع على الذكر والأنثى، والواحد والاثنين والجماعة، سواءٌ كان للصُّلب، أو ولدَ ابنٍ، وكلُّهم يَرُدُّ الأبوين إلى السدس.

﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ﴾ لم يجعل الله للأمّ الثلث إلَّا بشرطين:

أحدهما: عدم الولد.

والآخر: إحاطة الأبوين بالميراث؛ ولذلك دخلت الواو؛ لتَعطِفَ أحد الشرطين على الآخر.

وسكت عن حظّ الأب؛ استغناءً بفهمه؛ لأنه لا يبقى بعد الثلث إلَّا الثلثان، ولا وارث إلَّا الأبوان، فاقتضى ذلك أن الأبَ[1] يأخذ بقيَّة المال؛ وهو الثلثان.

﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ﴾ أجمع العلماء على أن ثلاثةً من الإخوة يَرُدُّون الأمَّ إلى السدس.

واختلفوا في الاثنين:

فمذهب الجمهور: أنهما يَرُدَّانها إلى السدس.

ومذهب ابن عباس: أنهما لا يردَّانها إليه، بل هما كالأخ الواحد.

وحجَّته: أن لفظ الإخوة لا يقع على الاثنين؛ لأنه جمعٌ لا تثنيةٌ، وأقلُّ الجمع ثلاثة.

وقال غيره: إن لفظ الجمع قد يقع على الاثنين؛ كقوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ

---

(١) في د: «الوالد».

﴿شَـٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨]، و﴿تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١]، و﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ [طه: ١٣٠]، واحتجُوا بقوله ﷺ: «**الاثنان فما فوقهما جماعة**»[1]، وقال مالك: مضت السُّنة أن الإخوةَ اثنان فصاعدًا، ومذهبه: أن أقل الجمع اثنان.

فعلى هذا: يَحجُبُ الأخوان فصاعدًا الأمَّ عن الثلث إلى السدس، سواءٌ كانا شقيقين أو لأب أو لأم، أو مختلفين، وسواءٌ كانا ذكرين أو أُنثيين أو ذكرًا وأنثى.

فإن كان معهما أبٌ: ورث بقيةَ المال، ولم يكن للإخوة شيءٌ عند الجمهور، فهم يحجبون الأم، ولا يرثون.

وقال قومٌ: يأخذون السدس الذي حجبوا عنه الأمَّ.

وإن لم يكن أبٌ ورثوا.

﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ يتعلَّق بالاستقرار المضمر في قوله: ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾؛ أي: استقرَّ لهنَّ الثلثان من بعد وصية.

ويَمتنع أن يتعلَّق بـ ﴿تَرَكَ﴾.

وفاعل ﴿يُوصِى﴾: الميت.

وإنما قُدِّمت الوصية على الدَّين، والدَّين مقدَّمٌ عليها في الشريعة؛ اهتمامًا

---

(١) أخرجه الدارقطني (٢/ ٢٤).

بها، وتأكيدًا للأمر بها[١]، ولئلا يُتهاون بها.

وأُخِّر الدَّين؛ لأن صاحبه يتقاضاه، فلا يحتاج إلى تأكيد في الأمر بإخراجه.

وتُخرَج الوصية من الثلث، والدَّين من رأس المال بعد الكفن.

وإنما ذَكَر الوصية والدَّين نكرتين؛ ليدلَّ على أنهما قد يكونان، وقد لا يكونان؛ فدلَّ ذلك على سقوط وجوب الوصية.

﴿أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ قيل: بالإنفاق إذا احتيج إليه.

وقيل: بالشَّفاعة في الآخرة.

ويَحتمل أن يريد: نفعًا بالميراث من ماله، وهو أَلْيقُ بسياق الكلام.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ الآيةَ؛ خطابٌ للرجال، وأجمع العلماء على ما تضمنته هذه الآية من ميراث الزوج والزوجة، وأن ميراث الزوجة تَنفرد به إن كانت واحدةً، ويُقسَم بينهنَّ إن كنَّ أكثر مِن واحدة، ولا يُنقَص من ميراث الزوج والزوجة وسائر أهل السهام إلَّا ما نَقَصه العَوْلُ على مذهب جمهور العلماء، خلافًا لابن عباس؛ فإنه لا يقول بالعول.

فإن قيل: لم كرَّر قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾ مع ميراث الزوج وميراث الزوجة، ولم يذكرْه قبل ذلك إلَّا مرَّةً واحدة في ميراث الأولاد والأبوين؟

فالجواب: أن الموروث في ميراث الزوج هو الزوجة، والموروث في ميراث الزوجة هو الزوج، فكل واحدة قضيةٌ على انفرادها؛ فلذلك ذكر

---

(١) في د: «لأمرها».

ذلك مع كل واحدة، بخلاف الأُولى؛ فإن الموروث فيها واحدٌ، ذَكَر حكمَ ما يرث منه أولادُه وأبواه؛ وهي قضيةٌ واحدة؛ فلذلك قال فيها: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ﴾ مرَّةً واحدة.

﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ الكلالة: هي انقطاع عمودَي النسب؛ وهي خُلُوُّ الميت عن ولَدٍ و[1] والد.

ويَحتمل أن تطلق هنا على: الميت الموروث، أو على الوَرَثة، أو على الوِرَاثة، أو على القرابة، أو على المال.

[١] فإن كانت للميت فإعرابها:

١- خبر ﴿كَانَ﴾، و﴿يُورَثُ﴾ في موضع الصفة[2].

٢- (أو ﴿يُورَثُ﴾ خبر كان، و﴿كَلَٰلَةً﴾ حالٌ من الضمير في ﴿يُورَثُ﴾.

٣- أو تكون ﴿كَانَ﴾ تامَّة، و﴿يُورَثُ﴾ في موضع الصفة)[3] و﴿كَلَٰلَةً﴾ حال من الضمير.

[٢] وإن كانت للوَرثَة فهي:

١- خبر ﴿كَانَ﴾؛ على حذف مضافٍ تقديره: «ذا كلالةٍ».

٢- أو حالٌ؛ على حذف مضاف أيضًا.

---

(١) في أ، ب، ج، هـ: «أو».

(٢) في ب زيادة: «و(كلالةً) حالٌ من الضمير».

(٣) ما بين القوسين سقط من ج، هـ.

[٣] وإن كانت للوِراثة فهي: مصدرٌ في موضع الحال.

[٤] وإن كانت للقَرابة فهي: مفعولٌ من أجله، (تقديره: «يورث[١] من أجل القربى»)[٢].

[٥] وإن كانت للمال فهي: مفعولٌ ثانٍ لـ ﴿يُورَثُ﴾.

وكل وجه من هذه الوجوه[٣] على أن تكون:

١- ﴿كَانَ﴾ تامةً، و﴿يُورَثُ﴾ في موضع الصفة.

٢- وأن[٤] تكون ناقصةً، و﴿يُورَثُ﴾ خبرها.

﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ المراد هنا: الأخ للأم والأخت للأم بإجماعٍ.

وقرأ سعد بن أبي وقاص: «وله أخ أو أخت لأمِّهِ»؛ وذلك تفسير للمعنى.

﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ إذا كان الأخ للأم واحدًا فله السدس، وكذلك إن كانت الأخت للأم واحدةً.

﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ إذا كان الإخوة للأم اثنين فأكثر فلهم الثلث بالسَّواء بين الذكر والأنثى؛ لأن قولَه: ﴿شُرَكَآءُ﴾ يقتضي التسويةَ بينهم، ولا خلاف في ذلك.

---

(١) هذه الكلمة سقطت من د.

(٢) سقط من ج، هـ.

(٣) في ب: «الأوجه».

(٤) في د: «أو».

﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ منصوبٌ على الحال، والعامل فيه: ﴿يُوصِي﴾، و﴿مُضَآرٍّ﴾ اسم فاعل.

قال ابن عباس: الضِّرار في الوصية من الكبائر.

ووجوه المضارَّةِ كثيرة؛ منها: الوصية لوارث، والوصية بأكثر من الثلث، أو بالثلث؛ فرارًا عن[١] وارثٍ محتاج.

فإن عُلم أنه قَصد بوصيَّته الإضرارَ رُدَّ ما زاد على الثلث اتفاقًا.

واختلف: هل يُرَدُّ الثلث؟ على قولين في المذهب، والمشهور: أنه يَنفُذُ.

﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لقوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾.

ويجوز أن ينتصب بـ ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى ما تقدَّم من المواريث وغيرها.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآيةَ؛ تعلَّق بها المعتزلة في قولهم: إن العصاة من المؤمنين يُخلَّدون في النار.

وتأوَّلها الأشعرية: على أنها في الكفار.

---

(١) في أ، ب: «من».

[﴿وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾].

﴿يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ﴾ هي هنا: الزِّنا.

﴿مِن نِّسَائِكُمْ﴾ أي: من المسلمات؛ لأن المسلمة تُحَدُّ حدَّ الزنا.

وأما الكافر والكافرة: فاختُلف هل يُحدُّ أو يعاقب؟

﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ قيل: إنما جعل شهداء الزنا أربعةً؛ تغليظًا على المدَّعي، وسترًا على العباد.

وقيل: ليكون شاهدان على كلِّ واحدٍ من الزَّانيين.

﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ﴾ كانت عقوبةُ الزنا الإمساكَ في البيوت، ثم نُسِخ ذلك بالأذى المذكور بعد هذا؛ وهو السَّبُّ والتَّوبيخ.

وقيل: إن الإمساك في البيوت للنساء، والأذى للرجال، فلا نسْخ بينهما. ورجَّحه ابن عطية[١] وابن الفرَس[٢] بقوله - في الإمساك -: ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾، وفي الأذى: ﴿مِنكُمۡ﴾.

ثم نُسِخ الإمساك والأذى بالرَّجم للمُحصَن، وبالجلد لغير المحصن، واستقرَّ الأمر على ذلك.

فأما الجلد: فمذكور في سورة «النور».

وأما الرجم: فقد كان في القرآن، ثم نُسِخ لفظُه وبقي حكمُه، وقد رجَم رسول الله ﷺ ماعزًا الأسلميَّ[٣] وغيره.

﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ﴾ لما أمر بالأذى للزاني؛ أَمر بالإعراض عنه إذا تاب، وهو ترك الأذى.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إنما يقبل الله توبةَ مَن كان على هذه الصفة.

وإذا تاب العبد توبةً صحيحة بشروطها:

فيُقطَع بقَبول اللهِ لتوبته عند جمهور العلماء.

---

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٤٩٠).

(٢) أحكام القرآن، لابن الفرس (٢/ ١٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٧١)، ومسلم (١٦٩٥).

وقال أبو المعالي: يَغلب ذلك على الظنِّ، ولا يُقطَع به[١].

﴿يَعْمَلُونَ السُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي: بسفاهة وقلَّة تحصيلٍ أدَّت إلى المعصية.

وليس المعنى: أنه يَجهل أن يكون ذلك الفعل معصيةً؛ قال أبو العالية: أجمع الصحابة على أن كل معصية فهي بجهالةٍ، سواءٌ كانت عمدًا أو جهلًا[٢].

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ قيل: قبل المرض والموت.

وقيل: قبل السِّياق، ومعاينة الملائكة، وفي هذا قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر»[٣].

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ﴾ الآيةَ[٤]؛ في الذين يُصِرُّون على الذنوب إلى حينٍ لا تقبل التوبة؛ وهو معاينة الموت.

فإن كانوا كفارًا فهم مخلَّدون في النار بإجماع.

وإن كانوا مسلمين فهم في مشيئة الله إن شاء عذَّبهم، وإن شاء غفر لهم.

فقوله: ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ثابتٌ في حق الكفار، ومنسوخٌ في حق العصاة من المسلمين بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]؛ فعذابهم مقيَّدٌ بالمشيئة.

---

(١) انظر: الإرشاد لأبي المعالي الجويني (ص: ٤٠٤).

(٢) أخرجه الطبري بإسناده في تفسيره (٦/ ٥٠٧).

(٣) أخرجه أحمد (٦١٦٠)، (٦٤٠٨)، والترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣).

(٤) في د زيادة: «نزلت».

﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ ابن عباس: كانوا في الجاهلية إذا مات الرجل كان أولياؤه أحقَّ بامرأته؛ إن شاؤوا تزوَّجها أحدهم، وإن شاؤوا زوَّجوها من غيرهم، وإن شاؤوا منعوها التزوُّج[١]، فنزلت الآية في ذلك.

فمعنى الآية على هذا: لا يحل لكم أن تجعلوا النساء يُورَثْنَ عن الرجال كما يورث المال.

وقيل: الخطاب للأزواج الذين يمسكون المرأة في العصمة؛ ليرثوا مالها من غير غِبطةٍ بها.

وقيل: الخطاب للأولياء الذين يمنعون وليَّاتهم[٢] من التزوُّج؛ ليرثوهن دون الزوج.

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ معطوفٌ على: ﴿أَن تَرِثُوا﴾، أو نهيٌ.

والعضل: المنع.

فقال ابن عباس: هي -أيضًا- في أولياء الزوج الذين يمنعون زوجته من التزوُّج بعد موته.

إلَّا أنَّ قوله: ﴿مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ على هذا معناه: ما آتاها الرجل الذي مات.

وقال ابن عباس أيضًا: هي في الأزواج الذي يمسكون المرأة ويُسيئون عِشْرتَها؛ حتى تفتديَ بصَداقها.

---

(١) في د: «التزويج».

(٢) في أ، ب، ج، هـ: «وليَّاتهنَّ».

وهو ظاهر اللفظ في قوله: ﴿مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾، ويقوِّيه قوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ فإن الأظهر فيه أن يكون في الأزواج، وقد يكون في غيرهم.

وقيل: هي للأولياء.

﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ **قيل**: الفاحشة هنا: الزنا.

وقيل: نشوزُ المرأة وبغضُها في زوجها، فإذا نَشَزت جاز له أن يأخذ ما آتاها من صَداقٍ وغير ذلك من مالها.

وهذا جارٍ على مذهب مالك في جواز الخلع إذا كان الضَّرر من المرأة، والزنا أصعب على الزوج من النُّشوز؛ فيجوز له أخذ الفدية معه.

﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ الآيةَ؛ معناها: إن كرهتم النساء لوجهٍ فاصبروا عليه؛ فعسى أن يجعل الله الخيرَ في وجهٍ آخر.

وقيل: الخير الكثير: الولد.

والأحسن العموم؛ وهذا معنى قوله ﷺ: **«لا يَفْرَكْ مؤمنٌ مؤمنةً؛ إن سخِط منها خلقًا رضِي منها[1] آخر»[2]**.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾ الآيةَ؛ معناها: المنع مِن أن يأخذ الرجل من المرأة فديةً على الطلاق إذا أراد أن يُبدلها بأخرى، وعلى هذا جرى مذهب مالك وغيره في المنع من (أن يأخذ الرجلُ)[3] الفديةَ إذا كان الضَّررُ

(١) لفظة: «منها» زيادة من د، وهي موافقة لما في الصحيح.

(٢) أخرجه مسلم (١٤٦٩).

(٣) زيادة من هامش أ، ورمز لها بـ «خ».

وإرادةُ الفراقِ من الزوج.

وقال قوم: إنَّ هذه الآية منسوخةٌ بقوله في «البقرة»: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقال قوم: هي ناسخةٌ.

والصحيح: أنها غير ناسخة ولا منسوخة؛ فإنَّ جواز الفدية على وجهٍ، ومنعها على وجهٍ؛ فلا تعارض ولا نسخ.

﴿قِنطَارًا﴾ مثالٌ على جهة[(١)] المبالغة في الكثرة.

وقد استدلَّتْ به المرأةُ على جواز المغالاة في المهور حين نهى عمر بن الخطاب ﷺ عن ذلك؛ فقال عمر ﷺ: «امرأةٌ أصابت، ورجل أخطأ، كلُّ الناس أفقهُ منك يا عمر»[(٢)].

﴿أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ كنايةٌ عن الجماع.

﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ قيل: هو عُقدةُ[(٣)] النكاح.

وقيل: قوله: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقيل: الأمر بحسن العِشْرة.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ كان بعض العرب يتزوَّج امرأة أبيه بعده؛ فنزلت الآية تحريمًا لذلك.

---

(١) في ج، د: «وجه».

(٢) أخرجه البيهقي (١٤/ ٤٧٩).

(٣) في ج: «عقد».

فكلُّ امرأةٍ تزوَّجها رجلٌ حَرُمت على أولاده ما سَفُلوا، سواءٌ دخل بها أو لم يَدخل؛ فالنكاح في الآية بمعنى العقد.

و﴿مَا نَكَحَ﴾ يعني: النساء، وإنما أطلق عليهن «ما» وإن كانت[1] ممن يعقلُ؛ لأنَّ المراد الجنس.

فإن زنى رجلٌ بامرأة فاختُلف هل يَحرم تزوُّجها على أولاده أم لا؟

فحرَّمه أبو حنيفة.

وأجازه الشافعي.

وفي المذهب قولان.

واحتج من حرَّمه: بهذه الآية، وحَمل النكاح فيها على الوطء.

وقال من أجازه: إنَّ الآية لم تتناولْه؛ إذ النكاح فيها بمعنى العقد.

﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: إلَّا ما فعلتم في الجاهلية من ذلك، وانقطع بالإسلام؛ فقد عُفي عنه فلا تؤاخَذون به، ويدلُّ على هذا قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ بعدَ قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ في المرَّة الأُخرى في الجمع بين الأختين.

قال ابن عباس: كانت العرب تحرِّم كل ما حرَّمت الشريعةُ، إلَّا امرأةَ الأبِ، والجمعَ بين الأختين.

وقيل: المعنى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ فدعوه.

---

(١) في د: «كنَّ».

وقال الزمخشريُّ: المعنى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ فانكِحوه إن أمكنكم، وذلك غير ممكن؛ فالمعنى: المبالغة في التحريم[1].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾ «كان» في هذه الآية تقتضي الدَّوام؛ كقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، وشبه ذلك.

وقال المبرِّد: هي زائدة. وذلك خطأ؛ لوجود خبرها منصوبًا.

وزاد هنا المقت على ما وصف به الزنا في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]؛ دلالةً على أن هذا أقبحُ من الزنا.

(١) الكشاف (٤/ ٤٨٩).

[﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾].

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ الآيةَ؛ معناها: تحريم ما ذُكِر من النساء.

والنساءُ المحرَّمات على التأبيد ثلاثة أصناف: بالنَّسب، وبالرَّضاع، وبالمصاهرة.

فأما النَّسب فيَحرُم به سبعة أصناف؛ وهي المذكورة في هذه الآية.

وضابطها: أنه يَحرُم على الرجل فُصولُه ما سفُلت، وأصولُه ما علَت، وفصول أبويه ما سفلت، وأول فصلٍ من كل أصل متقدِّم على أبويه.

﴿أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾ يدخل فيه: الوالدات، والجدَّات من الأم ومن الأب ما علَوْنَ.

﴿وَبَنَاتُكُمۡ﴾ يدخل فيه: البنت، وبنت الابن، وبنت البنت ما سَفُلن.

﴿وَأَخَوَٰتُكُمۡ﴾ يدخل فيه: الأخت الشقيقة، والأخت للأب، والأخت للأم.

﴿وَعَمَّٰتُكُمۡ﴾ يدخل فيه: أخت الوالد، وأخت الجد ما علا؛ سواءٌ كانت شقيقةً أو لأب أو لأم.

﴿وَخَٰلَٰتُكُمۡ﴾ يدخل فيه: أخت الأم، وأخت الجدَّة ما علت؛ سواءٌ كانت شقيقة أو لأب أو لأم.

﴿وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ﴾ يدخل فيه: كل من تناسل من الأخ الشقيق، وللأب، وللأم.

﴿وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ﴾ يدخل فيه: كل من تناسل من الأخت الشقيقة، وللأب، وللأم.

﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ ذكَر تعالى صنفين من الرضاعة وهما: الأم والأخت، وقال رسول الله ﷺ: «**يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب**»[١].

فاقتضى ذلك: تحريمَ الأصناف السبعة التي تحرم من النسب، وهي: الأم، والبنت، والأخت، والعمة، والخالة، وبنت الأخ، وبنت الأخت.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٤٥)، ومسلم (١٤٤٧).

وتفصيل ذلك يطول.

وفي الرَّضاع مسائلُ لم نذكرْها؛ لأنها ليس لها تعلُّقٌ بألفاظ الآية.

﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ المحرَّمات بالمصاهرة أربع؛ وهنَّ: زوجة الأب، وزوجة الابن، وأم الزوجة، وبنت الزوجة.

فأما الثلاث الأُوَل: فتَحرُم بالعقد؛ دخل بها أو لم يدخل.

وأما بنت الزوجة: فلا تَحرم إلَّا بعد الدخول بأمها.

فإن وطئها حرمت عليه بنتها بإجماع.

وإن تلذَّذ بها بما دون الوطء: فحرَّمها مالك والجمهور.

وإن عقد عليها ولم يدخل بها: لم تَحرم بنتها إجماعًا.

وتحرم هذه الأربع بالرَّضاع كما تحرم بالنسب.

﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ الرَّبيبة: هي بنتُ امرأةِ الرجل من غيره، سُمّيت بذلك؛ لأنه يُربِّيها، فلفظها: فَعِيلة بمعنى مفعولة.

وقوله: ﴿ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ على غالب الأمر؛ إذ الأكثر أن تكون الربيبة في حجر زوج أمِّها، وهي محرَّمة؛ سواءٌ كانت في حجره أم لا، هذا عند الجمهور من العلماء، إلَّا ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه أجاز نكاحها إن لم تكن في حجره.

﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ اشتَرط الدخولَ في تحريم بنت الزوجة خاصة، ولم يَشترطه في غيرها، وعلى ذلك جمهور العلماء، إلَّا ما روي عن علي بن أبي طالب أنه اشترط الدخول في تحريم الجميع، وقد

انعقد الإجماع بعده على خلاف ذلك.

﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ﴾ الحلائل: جمع حَلِيلة؛ وهي الزوجة.

﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ تخصيصٌ؛ ليَخرج عنه زوجةُ الابن الذي يتبنَّاه الرجل وهو أجنبيٌّ عنه؛ كتزوُّجِ رسول الله ﷺ زينبَ بنت جحش، امرأةَ زيد بن حارثة الكلبيِّ الذي كان يقال له: زيد بن محمد.

﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾ يقتضي تحريم الجمع بين الأختين؛ سواءٌ كانتا شقيقتَين أو لأب أو لأم؛ وذلك في الزوجتين.

وأما الجمع بين الأختين المملوكتين في الوطء:

فمنعه مالك والشافعي وأبو حنيفة وغيرهم، ورأوا أنه داخل في عموم لفظ: ﴿ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾.

وأجازه الظاهرية؛ لأنهم قصَرُوا الآية على الجمع بالنكاح.

وأما الجمع بين الأختين في الملك دون وطءٍ فجائز باتِّفاق.

﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ﴾ المعنى: إلَّا ما فعلتم من ذلك في الجاهلية وانقطع بالإسلام؛ فقد عُفي عنكم فلا تؤاخذون به، هذا أرجحُ الأقوال حسَبما تقدَّم في الموضع الأول.

﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ المراد هنا: ذوات الأزواج، وهو معطوف على المحرمات المذكورات قبله.

والمعنى: أنه لا يحِلُّ[1] نكاح المرأة إذا كانت في عصمة الرجل.

---

(١) في د: «لا يجوز».

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ يريد: السَّبايا في أشهر الأقوال، والاستثناء متصل.

والمعنى: أن المرأة الكافرة إذا كان لها زوج، ثم سُبِيتْ جاز لمن ملكها من المسلمين أن يطأها.

وسبب ذلك: أن رسول الله ﷺ بعث جيشًا إلى أوطاسٍ، فأصابوا سبايا من العدوِّ لهنَّ(١) أزواج من المشركين، فتأثَّم المسلمون من غشيانهنَّ، فنزلت الآية مبيحةً لذلك.

ومذهب مالك: أن السبي يهدم النكاح؛ سواءٌ سُبي الزوجان الكافران معًا أو سُبي أحدهما قبل الآخر.

وقال ابن الموَّاز: لا يهدم السبيُ النكاحَ.

﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ منصوبٌ على المصدرية؛ أي: كتَب الله ذلك عليكم كتابًا، وهو تحريم ما حرَّم.

وهو عند الكوفيين: منصوب على الإغراء.

﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ معناه: أَحلَّ لكم تزوُّج مَن سوى ما حرَّم من النساء.

وعطف ﴿أَحَلَّ﴾ على الفعل المضمر الذي نصب ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾، والفاعل هو الله؛ أي: كَتب الله عليكم تحريم مَن ذُكر، وأَحلَّ لكم ما وراء ذلكم.

---

(١) في ج، د: «ولهن».

﴿أَن تَبۡتَغُواْ﴾ مفعولٌ من أجله، أو بدلٌ من: ﴿مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾.

وحُذِف مفعوله؛ وهو النساءُ.

﴿مُّحۡصِنِينَ﴾ هنا: أعِفَّةً. ونصْبُه على الحال من الفاعل في ﴿تَبۡتَغُواْ﴾.

﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾ أي: غير زُناةٍ. والسِّفاح: هو الزنا.

﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ﴾ ابنُ عباس وغيره: معناها: إذا استمتعتم بالزوجة، ووقع الوطء، فقد وجب إعطاء الأجر؛ وهو الصَّداق كاملًا.

وقيل: إنها في نكاح المتعة؛ وهو النكاح إلى أجلٍ من غير ميراث، وكان جائزًا في أول الإسلام، فنزلت هذه الآية في وجوب الصداق فيه، ثم حُرِّم عند جمهور العلماء؛ فالآية على هذا منسوخة:

بالخبر الثابت في تحريم نكاح المتعة.

وقيل: نسَخها آية الفرائض؛ لأن نكاح المتعة لا ميراث فيه.

وقيل: نسخها: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥﴾ [المؤمنون: ٥].

وروي عن ابن عباس جواز نكاح المتعة، وروي أنه رجع عنه.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ﴾ مَن قال: إن الآية المتقدِّمة في مهور النساء؛ فمعنى هذه: جواز ما يتراضون به من حطِّ من[1] الصداق، أو تأخيره بعد استقرار الفريضة.

---

(١) لم يرد هذا الحرف في ج، هـ، د.

ومن قال: إن الآية في نكاح المتعة؛ فمعنى هذه: جواز ما يتراضون به من زيادةٍ في مدة المتعة وزيادة في الأجر.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ معناها: إباحة تزوُّج الفتيات - وهنَّ الإماء - للرجل إذا لم يجد طَولًا للمحصنات.

والطَّوْل: هو السعة في المال.

والمحصنات هنا: يراد به[1] الحرائرُ غير المملوكات.

ومذهب مالك وأكثر أصحابه: أنه لا يجوز للحُرِّ نكاحُ أَمَةٍ إلَّا بشرطين:

أحدهما: عدم الطَّول؛ وهو أن لا يجد ما يتزوج به حرةً[2].

والآخر: خوف العنت؛ وهو الزِّنا؛ لقوله بعد هذا: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾.

وأجاز ابن القاسم نكاحَهن دون الشرطين؛ على القول بأن دليل الخطاب لا يعتبر.

واتَّفقوا على اشتراط الإسلام في الأَمَة التي تُتَزوَّج[3]؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، إلَّا أهل العراق فلم يشترطوه.

---

(١) في د: «بهن».

(٢) في ب، ج، هـ: «بما يتزوج حرة».

(٣) في ج، هـ: «لا تتزوج».

وإعراب ﴿طَوْلًا﴾:

[١-] مفعولٌ بالاستطاعة، و﴿أَن يَنكِحَ﴾:

بدلٌ منه، فهو في موضع نصبٍ.

(أو في موضع نصبٍ)[١] بتقدير: «لِأن ينكحَ».

[٢-] ويَحتمل أن يكون ﴿طَوْلًا﴾ نُصِب على المصدر؛ والعامل فيه الاستطاعة لأنهما بمعنى يتقارب، و﴿أَن يَنكِحَ﴾ على هذا مفعول:

بالاستطاعة.

أو بالمصدر.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ معناه: أنه يعلم بواطنَ الأمور ولكم ظواهرُها، فإذا كانت الأَمة ظاهرةَ الإيمان، فنكاحها صحيحٌ، وعِلْمُ باطنها إلى الله.

﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي: إماؤكم منكم؛ وهذا تأنيسٌ بنكاح الإماء؛ لأن بعض العرب كان يأنف من ذلك.

﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أي: بإذن ساداتهنَّ المالكين لهنَّ.

﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: صَدُقاتهن.

وهذا يقتضي أنهنَّ أحقُّ بصَدُقاتهنَّ من ساداتهنَّ، وهو مذهب مالك.

﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بالشَّرع على ما تقتضيه السُّنة.

---

(١) ما بين القوسين لم يرد في أ، ب، ج، د، ومثبت من هـ، وهو موافق لما في المحرر الوجيز (٢/ ٥٢٠).

﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ أي: عفيفاتٍ غيرَ زانيات.

وهو منصوب على الحال؛ والعامل فيه: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾.

﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ جمع خِدْنٍ؛ وهو الخليل، وكان مِن نساء الجاهلية مَن تتخذ خِدنًا تزني معه خاصة، ومنهنَّ مَن كانت لا تردُّ يد لامسٍ.

﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ معنى ذلك: أن الأمة إذا زنت بعد أن أُحصِنت فعليها نصف حدِّ الحرة، فإن الحرة تُجلد في الزنا مئةَ جلدة، والأمة تجلد خمسين.

فـ ﴿إِذَآ أُحْصِنَّ﴾ يريد به هنا: تزوَّجْنَ، والفاحشة هنا: الزنا، و﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ هنا: الحرائر، و﴿ٱلْعَذَابِ﴾ هنا: الحدُّ[(١)].

فاقتضت الآية: حدَّ الأمة إذا زنت بعد أن تزوَّجت، ويؤخذ حدُّ غير المتزوِّجة من السنة؛ وهو مثل حدِّ المتزوِّجة.

وهذا على[(٢)] قراءة ﴿أُحْصِنَّ﴾ بضم الهمزة وكسر الصاد.

وقرئ بفتحهما، ومعناه:

أَسْلَمن.

وقيل: تزوَّجن.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ الإشارةُ إلى تزوُّج الأمة؛ أي: إنما يجوز لمن خَشِي على نفسه الزنا، لا لمن يملك نفسَه.

---

(١) في د: «الجلد».

(٢) في ب، ج، هـ: «وعلى هذا».

﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ المراد: الصبر عن نكاح الإماء، وهذا ندْبٌ إلى تركه، وعِلَّته: ما يؤدي إليه من استرقاق الولد.

* * *

[﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾].

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ قال الزمخشري: «أصله: أن يبيِّنَ؛ فزيدت اللام مؤكِّدةً، كما زيدت في: لا أبا لك»(١).

وقال الكوفيون: اللام مصدرية؛ مثل: «أنْ».

﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: يهديكم مناهجَ مَن كان قبلكم من الأنبياء والصالحين؛ لتقتدوا بهم.

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ كُرِّر توطئةً لفساد إرادة الذين يتبعون الشهوات، وهم هنا:

الزناة عند مجاهد.

---

(١) الكشاف (٤/ ٥١٣).

وقيل: المجوس؛ لنكاحهم ذواتِ المحارم.

وقيل: عامٌّ في كل متبعٍ شهوةً. وهو أرجح.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ﴾ يقتضي سياقُ الكلام التخفيفَ الذي وقع في إباحة نكاح الإماء، وهو مع ذلك عامٌّ في كلِّ ما خفَّف الله عن عباده، وجَعْلِ دينِهم يُسرًا.

﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ قيل: معناه لا يصبر عن النساء؛ وذلك مقتضى سياق الكلام.

واللفظ أعمُّ من ذلك.

﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ يدخل فيه: القمار، والغصب، والسرقة، وغير ذلك.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً﴾ استثناءٌ منقطع، والمعنى: لكن إن كانت تجارةً فكلوها.

وفي إباحة التجارة دليلٌ على أنه يجوز للإنسان أن يشتري بدرهم سلعةً تساوي مئة، والمشهور إمضاء البيع.

وحُكي عن ابن وهب: أنه يُردُّ إذا كان الغبن أكثر من الثلث.

وموضع «أن» نصبٌ، و﴿تِجَٰرَةٌ﴾ بالرفع: فاعل ﴿تَكُونَ﴾؛ وهي تامة.

وقرئ بالنصب: خبر ﴿تَكُونَ﴾؛ وهي ناقصة.

﴿عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ﴾ أي: اتفاقٍ.

وبهذا استدلَّ المالكية على تمام البيع بالعقد دون التفرُّق.

وقال الشافعي: إنما يتمُّ بالتفرق بالأبدان؛ لقوله ﷺ: «المتبايعان بالخيار ما لم يتفرقا»[(١)].

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ قال ابن عطية: أجمع المفسِّرون أن المعنى: لا يقتلْ بعضكم بعضًا[(٢)].

قلت: ولفظها يتناول قتْلَ الإنسانِ لنفسِه[(٣)]، وقد حملها عمرُو بن العاص على ذلك، ولم ينكرْه رسول الله ﷺ إذْ سمعه[(٤)].

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى:

القتل؛ لأنه أقرب مذكور.

وقيل: إليه، وإلى أكل المال بالباطل.

وقيل: إلى كل ما تقدَّم من المنهيات من أوَّل السورة.

﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ اختلف الناس في الكبائر ما هي؟

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣١).

(٢) المحرر الوجيز (٢/ ٥٣٠).

(٣) في ب، د: «نفسَه».

(٤) أخرج أبو داود في سننه (٣٣٤) عن عمرو بن العاص ﷺ، قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشفقت أن اغتسل فأهلِك، فتيمَّمت، ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «يا عمرُو، صليت بأصحابك وأنت جنب؟!» فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئا.

فقال ابن عباس: الكبائر: كلُّ ذنب ختَمه الله بنارٍ أو لعنةٍ أو غضبٍ.

وقال ابن مسعود: الكبائر هي الذُّنوب المذكورة من أول هذه السورة إلى هذه الآية.

وقال بعض العلماء: كل ما عُصِيَ الله به فهو كبيرةٌ.

وعدَّها بعضهم سبعَ عشرة.

وفي البخاري عن النبي ﷺ: «اتقوا السبع الموبقات: الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات»[١] فلا شكَّ أن هذه من الكبائر؛ للنص عليها في الحديث.

وزاد بعضهم عليها أشياءَ وردَ في الأحاديث[٢] النصُّ على أنها كبائر، أو ورد في القرآن أو في الحديث وعيدٌ عليها؛ فمنها: عقوق الوالدين، وشهادة الزور، واليمين الغَموس، والزنا، والسرقة، وشرب الخمر، والنُّهْبة، والقُنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، ومنْع ابن السبيل الماء، والإلحاد في البيت الحرام، والنميمة، وترك التحرُّز من البول، والغُلول، واستطالة المرء في عِرْض أخيه، والجَور في الحكم.

﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ وعْدٌ بغُفران الذنوب الصغائر إذا اجتُنبت الكبائر.

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

(٢) في ب، د: «الحديث».

﴿مَّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ اسم مكان؛ وهو هنا: الجنة.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾ الآيةَ؛ سببها: أن النساء قلن: ليتنا استوينا مع الرجال في الميراث، وشاركناهم في الغزو!، فنزلت نهيًا عن ذلك؛ لأن في تمنِّيهم ردًّا[1] على حكم الشريعة.

فيدخل في النهي: تمنِّي مخالفةِ الأحكام الشرعية كلِّها.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ الآيةَ؛ أي: من الأجر والحسنات.

وقيل: من الميراث؛ ويردُّه لفظ الاكتساب.

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾ الآيةَ؛ في معناها وجهان:

أحدهما: لكل شيءٍ من الأموال جعلنا مواليَ يرثونه؛ فـ ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ -على هذا-: بيان لـ «كُلٍّ».

والآخر: لكلِّ أحدٍ جعلنا موالي يرثون مما ترك الوالدان والأقربون؛ فـ ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ -على هذا-: يتعلَّق بفعل مضمر.

والموالي هنا: الوَرثة[2] والعَصبة.

﴿وَٱلَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ **اختُلف هل هي منسوخة أو مُحْكَمة؟**

فالذين قالوا إنها منسوخة قالوا: معناها:

الميراث بالحِلْف الذي كان في الجاهلية.

---

(١) في ب: «لأن تمنيَهم ردٌّ».

(٢) في ج، هـ: «الذرية»، والمثبت موافق لما في المحرر الوجيز (٢/ ٥٣٧).

وقيل: بالمؤاخاة التي آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه.

ثم نسَخها: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥]؛ فصار الميراث للأقارب.

والذين قالوا إنها محكمة اختلفوا:

فقال ابن عباس: هي في المؤازرة والنُّصرة بالحِلْف، لا في الميراث به.

وقال أبو حنيفة: هي في الميراث؛ وأن الرجلين إذا والَى أحدُهما الآخَرَ على أن يتوارثا صحَّ ذلك، وإن لم تكن بينهما قرابةٌ.

* * *

[﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥) ۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٣٧) وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢)﴾].

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ قوَّام: بناءُ مبالغة؛ من القيام على الشيء والاستبداد بالنظر فيه.

قال ابن عباس: الرجال أمراءُ على النساء.

﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾ الباء: للتعليل، و«ما» مصدرية.

والتفضيل: بالجهاد، والإمامة، ومِلك الطَّلاق، وكمال العقل، وغير ذلك.

﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ﴾ هو: الصَّداقُ، والنفقةُ المستمرَّة على الزوجات.

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾ أي: النساءُ الصالحات في دينهنَّ مطيعاتٌ لأزواجهن.

أو: مطيعاتٌ لله في حقِّ أزواجهن.

﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ﴾ أي: تحفظ كلَّ ما غاب عن علم زوجها، فيدخل في ذلك: صيانةُ نفسها، وحفظ ماله وبيته، وحفظ أسراره.

﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: بحفْظِ الله ورعايته.

أو: بأمره للنساء أن يُطِعْنَ الزوج ويحفظْنَه.

فـ«ما»: مصدرية، أو بمعنى «الذي».

﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ قيل: الخوف هنا بمعنى اليقين.

وقيل: هو على أصله.

﴿فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾ هذه أنواعٌ من تأديب المرأة إذا نشَزت على زوجها؛ وهي على مراتب:

فالوعظ في النُّشوز في الخفيف.

والهِجران فيما هو أشدُّ منه.

والضرب فيما هو أشد منه[1].

ومتى انتهت عن النشوز بوجه من التأديب لم يُتعدَّ إلى ما بعده.

---

(١) لم ترد هذه الكلمة في ب، هـ.

والِهجران هنا: هو ترك مضاجعتها، وقيل: ترك الجماع إذا ضاجعها.

والضرب: غير مُبرِّح.

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أي: إذا أطاعت المرأة زوجَها فليس له أن يؤذيَها بهجران ولا ضرب.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ الشِّقاق: الشرُّ والعداوة.

وكان الأصل: «إن خفتم شقاقًا بينهما»، ثم أُضيف الظرف إلى الشقاق على طريق الاتِّساع؛ كقوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبا: ٣٣]؛ وأصله: «مكرٌ بالليل والنهار».

﴿فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا﴾ الآيةَ؛ ذكر تعالى الحُكْمَ في نشوز المرأة، والحكمَ في طاعتها، ثم ذكر هنا حالةً أخرى؛ وهي: إذا ساء[(١)] ما بين الزوجين ولم يُقدَرْ على الإصلاح بينهما، ولا عُلِم مَن الظالم منهما، فيُبعَث حكَمان مسلمان؛ ليَنظرَا في أمرهما، ويُنفِّذَا[(٢)] ما ظهر لهما من تطليق وخُلع من غير إذن الزوج.

وقال أبو حنيفة: ليس لهما الفراق إلا إن جُعل[(٣)] لهما.

وإن اختلفا لم يَلزم شيءٌ إلَّا باتِّفاقهما.

ومشهور مذهب مالك: أن الحاكم هو الذي يبعث الحكَمين.

---

(١) في ب: «وهي إساءة».

(٢) في ب، ج، هـ: «وينفذ».

(٣) في ب: «أن يجعل».

وقيل: يبعثهما الزوجان.

وجرت عادة القضاة أن يبعثوا امرأةً أمينة، ولا يبعثوا حكمين؛ قال بعض العلماء: هذا تغييرٌ لحكم القرآن والسُّنةِ الجارية.

﴿مِّنْ أَهْلِهِۦ﴾ يجوز في المذهب أن يكون الحكَمان من غير أهل الزوجين والأكملُ أن يكونا من أهلهما؛ كما ذَكر الله.

﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ الضمير في ﴿يُرِيدَآ﴾: للحكَمين، وفي ﴿بَيْنَهُمَآ﴾: للزوجين على الأظهر.

وقيل: الضميران للزوجين.

وقيل: للحكَمين.

﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ ابنُ عباس: الجارُ ذو القربى: هو القريب النَّسب، والجار الجنب: هو الأجنبي.

وقيل: ذو القربى: القريب المسكن منك، والجنب: البعيد المسكن عنك.

وحد الجوار[1] عند بعضهم: أربعون دارًا من كل ناحية.

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ ابنُ عباس: الرفيق في السفر.

عليُّ بن أبي طالب: الزوجة.

---

(١) في د: «الجار».

﴿مُخۡتَالٗا﴾ اسم فاعل؛ وزنه مُفتعِل؛ من الخيلاء، وهي[1] الكبر وإعجاب المرء بنفسه.

﴿فَخُورًا﴾ شديدَ الفخر.

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿مُخۡتَالٗا﴾.

أو نَصْبٌ على الذم.

أو رفْعٌ بخبر ابتداء مضمر.

أو مبتدأ وخبره محذوف؛ تقديره: «يُعذَّبون».

والآية في اليهود؛ نزلت في قوم منهم: كَرْدَمٌ، وحُيي بن أَخطبَ، ورِفاعة بن زيد بن التَّابُوت، كانوا يقولون للأنصار: لا تُنفقوا أموالكم في الجهاد والصدقات.

وهي -مع ذلك- عامةٌ فيمن فعل هذه الأفعالَ من المسلمين.

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾.

وقيل: على: ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

والآية في المنافقين الذين كانوا ينفقون في الزكاة والجهاد رياءً[2] ومُصانعة.

وقيل: في اليهود.

---

(١) في د: «وهو».

(٢) في د: «رياءَ الناس».

وقيل: في مشركي مكة الذين أنفقوا أموالهم[١] في حرب المسلمين.

﴿قَرِينًا﴾ أي: مُلازِمًا له يُغوِيه.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا﴾ الآيةَ؛ استدعاءٌ لهم بملاطفة.

أو: توبيخٌ على ترك الإيمان والإنفاق؛ كأنه يقول: أيُّ مضرَّةٍ عليهم في ذلك.

﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي: وزنَها؛ وهي النملة الصغيرة، وذلك تمثيلٌ بالقليل تنبيهًا على الكثير.

﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةٌ﴾ بالرفع: فاعل، و﴿تَكُ﴾ تامةٌ.

وبالنصب: خبرٌ؛ على أنها ناقصة، واسمها مضمر فيها.

﴿يُضَاعِفْهَا﴾ أي: يكثِّرْها[٢]؛ واحدة بعشرٍ[٣]، إلى سبع مئة وأكثر.

﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ﴾ أي: من عنده؛ تفضُّلًا وزيادةً على ثواب العمل.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا﴾ تقديره: كيف يكون الحال إذا جئنا!.

﴿بِشَهِيدٍ﴾ هو نبيُّهم؛ يشهد عليهم بأعمالهم.

﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ أي: تشهد على قومك.

ولما قرأ ابن مسعود هذه الآية على رسول الله ﷺ ذرفت عيناه[٤].

---

(١) في أ: «مالهم» وفي الهامش: «خ: أموالهم».
(٢) في أ: «يكررها» وفي الهامش: «خ: يكثرها».
(٣) في د: «بعشر أمثالها».
(٤) أخرجه البخاري (٤٥٨٣)، ومسلم (٨٠٠).

﴿لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: يتمنون أن يدفنوا فيها، ثم تَسَوَّى بهم كما تَسَوَّى بالموتى.

وقيل: يتمنون أن يكونوا سواءً مع الأرض؛ كقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ: ٤٠]، وذلك لما يرون من أهوال يوم القيامة.

﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ استئنافٌ، إخبارٌ أنهم لا يكتمون يوم القيامة عن الله شيئًا.

فإن قيل: كيف هذا مع قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن الكتم لا ينفعهم؛ لأنهم إذا كتموا تَنطق جوارحُهم، فكأنهم لم يكتُموا.

والآخر: أنهم طوائفُ مختلفة، ولهم أوقاتٌ مختلفة.

وقيل: إن قوله: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ﴾ عطفٌ على ﴿تُسَوَّىٰ﴾؛ أي: يتمنون أن لا يكتموا؛ لأنهم إذا كتموا افتُضِحوا.

* * *

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾].

﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ سببها: أن جماعةً من الصحابة شربوا الخمر قبل تحريمها، ثم قاموا إلى الصلاة، وأمَّهم أحدُهم فخلط في القراءة.

فمعناها: النهيُ عن الصلاة في حال[1] السُّكر.

قال بعض الناس: هي منسوخة بتحريم الخمر، وذلك لا يلزم؛ لأنها ليس فيها ما يقتضي إباحة الخمر، إنما هي نهيٌ عن الصلاة في حال السكر، وذلك

(١) في هامش أ: «حين».

الحكم ثابت في حين إباحة الخمر وفي حين تحريمها .

وقال بعضهم: معناها : لا يكن منكم سكرٌ يمنع قرب الصلاة؛ إذ المرءُ مأمورٌ بالصلاة، فكأنها تقتضي النهيَ عن السُّكر، وعن سببه وهو الشرب، وهذا بعيدٌ من مقتضى اللفظ .

﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ أي: حتى تعودَ إليكم عقولُكم فتعلمون ما تقرؤون .

ويَظهر من هذا : أن السَّكران (لا يعلمُ ما يقول؛ فأَخذ بعض الناس من ذلك: أن السكرانَ)[1] لا يَلزمه طلاقُه ولا إقرارُه .

﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ عطفَ ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ على موضع : ﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ ؛ إذ هو في موضع الحال .

والجنب هنا : غير الطَّاهر؛ بإنزالٍ أو إيلاج، وهو واقعٌ على جماعة؛ بدليل استثناء الجمع منه .

واختُلف في عابري السبيل :

فقيل: إنه المسافر؛ ومعنى الآيةَ على هذا : نهيٌ أن يقرب الصلاة وهو جنب إلَّا في السفر، فيصلي بالتيمم دون اغتسال .

فمقتضى الآية: إباحة التيمم للجنب في السفر، ويؤخذ إباحة التيمم للجنب في الحضَر من الحديث .

---

(١) ما بين القوسين سقط من ب، ج، هـ.

وقيل: عابرُ السبيل: المارُّ في المسجد، والصلاة هنا يراد بها: المسجد؛ لأنه موضع الصلاة، فمعنى الآية على هذا: النهيُ أن يَقرب الجنبُ المسجد إلَّا خاطِرًا عليه.

وعلى هذا أَخذ[1] الشافعي الآية؛ لأنه يُجِيز للجنب أن يمرَّ في المسجد، ولا يجيز له أن يقعد فيه.

ومنع مالك المرور والقعود.

وأجازهما داود.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ الآيةَ؛ سببها: عَدَمُ الصحابةِ للماء في غزوة المُرَيسِيع، فأبيح لهم التيمُّم في عَدم الماء.

ثم إنَّ عدمَ الماء على ثلاثة أوجه:

أحدها: عدمه في السفر.

والثاني: عدمه في المرض.

فيجوز التيمم في هذين الوجهين بإجماع؛ لأن الآية نصٌّ في المرض والسفر إذا عدم الماء فيهما؛ لقوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ ثم قال: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً﴾.

الوجه الثالث: عدم الماء في الحضَر دون مرضٍ؛ فاختلف الفقهاء فيه:

فمذهب أبي حنيفة: أنه لا يجوز فيه التيمم؛ لأن ظاهر الآية أنَّ عدم الماء إنما يعتبر مع المرض أو السفر.

---

(١) في د: «حمل».

ومذهب مالك والشافعي: أنه يجوز فيه التيمم.

فإن قلنا: إن الآية لا تقتضيه، فيؤخذ جوازه من السنة.

وإن قلنا: إن الآية تقتضيه، فيؤخذ جوازه منها[١].

وهذا هو الأرجح إن شاء الله؛ وذلك أنه ذَكر في أول الآية المرض والسفر، ثم ذكر الأحداث دون مرضٍ ولا سفر، ثم قال بعد ذلك كلِّه: ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءً﴾، فيرجع قوله: ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءً﴾ إلى المرض وإلى السفر وإلى مَن أَحدث في غير مرض ولا سفر؛ فيجوز التيمم على هذا لمَن عَدِمَ الماءَ في غير مرض ولا سفر، فيكون في الآية حجةٌ لمالك والشافعي.

ويجوز التيمم أيضًا في مذهب مالك للمريض إذا وجد الماء، ولم يَقدِر على استعماله؛ لضررٍ بدنه.

فإن قلنا: إن الآية لا تقتضيه، فيؤخذ جوازه من السنة.

وإن قلنا: إن الآية تقتضيه، فيؤخذ جوازه منها[٢]؛ على أن يُتأَوَّلَ قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾ أن معناه: مرضى لا تقدرون على مسِّ الماء.

وحدُّ المرض الذي يجوز فيه التيمم:

عند مالك: هو أن يَخاف الموتَ، أو زيادةَ المرض، أو تأَخُّرَ البُرْءِ.

وعند الشافعي: خوفُ الموت لا غيرُ.

وحدُّ السفر: الغيبة عن الحضَر، سواءٌ كان مما تُقصَر فيه الصلاة أم لا.

---

(١) في د: «منهما».

(٢) في د: «منهما».

﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم﴾ في «أو» هنا تأويلان:

أحدهما: أن تكون للتفصيل والتنويع على بابها.

والآخر: أنها بمعنى الواو.

فعلى القول بأنها على بابها: يكون قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ راجعًا إلى المريض والمسافر، وإلى مَن جاء مِن الغائط، وإلى مَن لامس، سواءٌ كانا مريضين أو مسافرين أم لا؛ حسَبما ذكرنا قبل هذا.

فيقتضي ذلك: جوازَ التيمم للحاضر الصحيح إذا عَدِمَ الماءَ، وهو مذهب مالك والشافعي فيكون في الآية حجةٌ لهما.

وعلى القول بأنها بمعنى الواو: يكون قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ راجعًا إلى المريض والمسافر.

فيقتضي ذلك: أنه لا يجوز التيمم إلَّا في المرض والسفر مع عدَم الماءِ، وأنه لا يجوز للحاضر الصحيح إذا عدِم الماءَ، ولكن يؤخذ جواز التيمم له من موضع آخَر.

والراجح: أن تكون «أو» على بابها؛ لوجهين:

أحدهما: أنَّ جعْلها بمعنى الواو إخراجٌ لها عن أصلها، وذلك ضعيف.

والآخر: أنه[1] إذا كانت على بابها: كان فيها إفادة[2] إباحة التيمم للحاضر الصحيح إذا عدِم الماءَ على ما ظهر لنا فيها، وإذا كانت بمعنى

---

(١) في د: «أنها».

(٢) في ج، د: «فائدة».

الواو لم تُعْطِ[١] هذه الفائدة.

وحجَّةُ مَن جعَلها بمعنى الواو: أنه لو جعَلها على بابها لاقتضى المعنى أن المرض والسفر حدَثٌ يوجِب الوضوء كالغائط؛ لعطفه عليهما.

وهذا لا يَلزم؛ لأن العطف بـ «أو» هنا للتنويع والتفصيل، ومعنى الآية كأنه قال: يجوز لكم التيمم إذا لم تجدوا ماءً إن كنتم مرضى أو على سفر، أو أحدثتم في غير مرض ولا سفر.

﴿ٱلْغَآئِطِ﴾ أصله: المكان المنخفض، وهو هنا: كنايةٌ عن الحدث الخارج من المخرجين، وهو العَذِرة، والرِّيح، والبول؛ لأن مَن ذهب إلى الغائط تكون منه هذه الأحداث الثلاثة.

وقيل: إنما هو كناية عن العذرة، وأما البول والريح، فيؤخذ وجوب الوضوء لهما من السُّنة، وكذلك الوَدْيُ والمذْيُ.

﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ اختُلف في المراد بالملامسة هنا على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها الجماع وما دونه؛ من التقبيل واللمس باليد وغيرها. وهو قول مالك.

فعلى هذا: ينتقض الوضوء باللمس الذي هو دونَ الجماع على تفصيلٍ في المذهب، ويجب معه التيمم إذا عدِم الماء، ويكون الجنب من أهل التيمم.

والقول الثاني: أنها ما دون الجماع.

فعلى هذا: ينتقض الوضوء باللمس، ولا يجوز التيمم للجنب، وقد قال

---

(١) في هامش أ: «خ: تُفِدْ».

بذلك عمر بن الخطاب، ويؤخذ جوازه عند من أجازه من الحديث.

والثالث: أنها الجماع لا غيرُ.

فعلى هذا: يجوز التيمم للجنب، ولا يكون ما دونَ الجماع ناقضًا للوضوء. وهو مذهب أبي حنيفة.

﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً﴾ هذا يفيد وجوب طلب الماء[1]، وهو مذهب مالك، خلافًا لأبي حنيفة.

فإن وجده بثمنٍ فاختلف: هل يجوز له التيمم أم لا؟

وإن وُهِب له فاختلف: هل يلزمه قَبوله أم لا؟

﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ التيمم في اللغة: القصد.

وفي الفقه: الطَّهارة بالتراب، وهو منقولٌ من المعنى اللُّغوي.

﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ الصَّعيد عند مالك: هو وجه الأرض، كان ترابًا أو رملًا أو حجارة، فأجاز التيمم بذلك كلِّه.

وهو عند الشافعي: الترابُ لا غيرُ.

والطيِّب هنا: الطاهر.

واختلف في التيمم بالمعادن كالذهب، وبالملح، وبالتراب المنقول كالمجعول في طبق، وبالآجُرّ، وبالجِصّ المطبوخ، وبالجدار، وبالنبات الذي على وجه الأرض، وذلك كلُّه على الاختلاف في معنى الصعيد.

---

(١) في ب، ج، هـ: «الطلب».

﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ﴾ لا يكون التيمم إلَّا في هذين العضوين، ويُقدِّم الوجهَ على اليدين؛ لظاهر الآية، وذلك على الندب عند مالك، ويَستوعب الوجهَ بالمسح.

وأما اليدان فاختُلف هل يَمسحهما إلى الكوعين، أو إلى المرفقين؟

ولفظ الآيةِ مُحتمِلٌ؛ لأنه لم يُحدَّ.

وقد احتجَّ من قال: إلى المرفقين بأن هذا مطلق، فيُحمل على المقيَّد، وهو تحديدهما في الوضوء بالمرفقين.

﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هم اليهود هنا، وفي الموضع الثاني.

قال السهيلي في الموضع الأول: نزل في رِفاعةَ بن زيد بن التَّابوت، وفي الثاني: نزل في كعب بن الأشرف[1].

﴿يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ عبارةٌ عن إيثارهم الكفرَ على الإيمان، فالشِّراء مجازٌ؛ كقوله: ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦].

وفي تَكرار قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ مبالغةٌ.

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ «مِن»:

راجعةٌ إلى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا﴾، أو إلى: ﴿بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ﴾؛ فهي بيانٌ.

وقال الفارسيُّ[2]: هي ابتداء كلام؛ تقديره: «من الذين هادوا قومٌ».

---

(١) انظر: التعريف والإعلام، للسهيلي، ص: ٨١.

(٢) هو أبو علي الفارسي النحوي، تقدمت ترجمته في ١/ ٩٠.

وقيل: هي متعلِّقةٌ بـ ﴿نَصِيرًا﴾؛ وهو ضعيف.

ويوقَف على ﴿نَصِيرًا﴾ على قول الفارسي.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ يَحتمل: تحريفَ اللفظ، أو المعنى.

و﴿ٱلْكَلِمَ﴾ هنا: التوراة، وقيل: كلام النبي ﷺ.

﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ معناه: لا سَمِعتَ.

﴿وَرَٰعِنَا﴾ ذُكِر في «البقرة»[1].

﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ عوضٌ من قولهم: «سمعنا وعصينا».

﴿وَٱسْمَعْ﴾ عوضٌ من قولهم: «اسمع غير مسمع».

﴿وَٱنظُرْنَا﴾ عوضٌ من قولهم: «راعنا»؛ وهو من النَّظر أو الانتظار.

فهذه الأشياءُ الثلاثة في مقابلة الأشياء الثلاثة التي ذمَّهم على قولها؛ لما فيها من سوء الأدب مع رسول الله ﷺ، وأخبر أنهم لو قالوا هذه الثلاثة الأُخَر عوضًا من تلك لكان خيرًا لهم؛ فإن هذه ليس فيها سوءُ أدب.

﴿مُصَدِّقًا﴾ ذُكِر في «البقرة»[2].

﴿أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ ابنُ عباس: طَمْسُها: أن تُزال العينان منها، وتُردَّ في القفا؛ فيكون ذلك ردًّا على الدُّبر.

وقيل: طمسها: محوُ تخطيط صُوَرِها؛ مِن أنف وعين وحاجب، حتى

---

(١) انظر صفحة ١/ ٣٦٤.

(٢) انظر صفحة ١/ ٣٠٨.

تصيرَ كالأدبار في خُلوِّها عن الحواسّ.

﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ أي: نمسخَهم كما مُسِخ[١] أصحاب السبت، وقد ذُكِروا[٢] في «البقرة»[٣].

أو يكون من اللّعن المعروف.

والضمير يعود:

على الوجوه؛ والمراد أصحابُها.

أو يعود على الذين أوتوا الكتاب؛ على الالتفات.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ هذه الآية هي الحاكمة في مسألة الوعيد، وهي المبيِّنة لما تعارَض فيها من الآيات، وهي الحجَّة لأهل السنة، والقاطعة بالخوارج والمعتزلة والمرجئة.

وذلك أن مذهب أهل السنة: أن العصاة من المؤمنين في مشيئة الله، إن شاء عذَّبهم، وإن شاء غفر لهم، وحجَّتُهم: هذه الآية؛ فإنها نصٌّ في هذا المعنى.

ومذهب الخوارج: أن العصاة يُعذَّبون ولا بدَّ؛ سواءٌ كانت ذنوبهم صغائرَ أو كبائر.

ومذهب المعتزلة: أنهم يعذبون على الكبائر ولا بدَّ.

---

(١) في د: «مسخنا».

(٢) في ج، هـ: «ذكر».

(٣) انظر صفحة ١/ ٣٢٣.

ويَردُّ على الطائفتين قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾.

ومذهب المرجئة: أن العصاة كلَّهم يُغفَر لهم ولا بدَّ، وأنه لا يضرُّ[(١)] ذنبٌ مع الإيمان.

ويَردُّ عليهم قوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾؛ فإنه تخصيصٌ لبعض العصاة.

وقد تأوَّلت المعتزلة الآيةَ على مذهبهم، فقالوا: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾: هو التائب، فإن التائب لا خلاف أنه لا يعذَّب.

وهذا التأويل بعيدٌ؛ لأن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ في غير التائب من الشرك، وكذلك قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ في غير التائب من العصيان؛ ليكون أوَّلُ الآية وآخرُها على نسَقٍ واحد.

وتأوَّلتها المرجئة على مذهبهم، فقالوا: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ معناه: لمن يشاء أن يؤمن.

وهذا أيضًا بعيدٌ، لا يتقضيه اللفظ.

وقد ورد في القرآن آيات كثيرة في الوعيد:

فحملها المعتزلة على العصاة.

وحملها المرجئة على الكفار.

وحملها أهل السنة على الكفار، وعلى مَن لا يَغفر الله له من العصاة.

كما حملوا آيات الوعد على المؤمنين الذين لم يذنبوا، وعلى المذنبين

---

(١) في هامش أ: «خ: لا يضرهم».

التائبين، وعلى مَن يغفر الله له من العصاة غير التائبين.

فعلى مذهب أهل السنة لا يبقى تعارضٌ بين آيات الوعد وآيات الوعيد، بل يُجمَع بين معانيها، بخلاف قول غيرهم؛ فإن الآيات فيه تتعارَض[1].

وتلخيص المذاهب:

أن الكافر إذا تاب من كفره غُفِر له بإجماع، وإن مات على كفره لم يُغفَر له، وخُلِّد في النار بإجماع.

وأن العاصيَ من المؤمنين إن تاب غفر له، وإن مات دون توبة فهو الذي اختَلف الناس فيه.

﴿ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْۚ﴾ هم اليهود، وتزكيتهم:

قولهم: «نحن أبناء الله وأحباؤه».

وقيل: مدحهم لأنفسهم.

﴿فَتِيلًا﴾ الفتيل: هو الخيط الذي في شِقِّ نواة التمرة.

وقيل: ما يخرج بين إصبَعيك وكفَّيك إذا فتلتَهما.

وهو تمثيلٌ وعبارة عن أقلِّ الأشياء؛ فيدلُّ على الأكثر بطريق الأولى.

﴿يَفْتَرُونَ﴾ دليلٌ على أن تزكيتهم لأنفسهم بالباطل.

* * *

---

(١) في أ: «فيها تعارُض» وفي الهامش: «خ: فيه تتعارض».

[﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾].

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ قال ابن عباس: الجبت هنا: حييُّ بن أخطب، والطاغوت: كعب بن الأشرف.

وقال عمر بن الخطاب: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان.

وقيل: الجبت: الكاهن، والطاغوت: الساحر.

وبالجملة هما: كل ما عُبِد و(١) أُطِيع من دون الله.

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآيةَ؛ سببها: أن حُييَّ بن أخطب أو كعب بن

---

(١) في أ، د، هـ: «أو».

الأشرف أو غيرهما من اليهود قالوا لكفار قريش: أنتم أهدى سبيلًا من محمد وأصحابِه.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾ الهمزة للاستفهام مع الإنكار.

﴿نَقِيرًا﴾ النقير: هو النُّقْرةُ في ظهر النواة، وهو تمثيلٌ وعبارة عن أقل الأشياء.

والمراد: وصف اليهود بالبخل لو كان لهم نصيب من الملك، وأنهم حينئذٍ يَبخلون بالنَّقير الذي هو أقلُّ الأشياء، ويبخلون بما هو أكثرُ منه من باب أولى.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ وصَفهم بالحسد مع البخل.

والناس هنا يراد به: النبي ﷺ وأُمَّته، والفضل: النبوة، وقيل: النصر والعزة.

وقيل: الناس: العرب، والفضل: كون النبي ﷺ منهم.

﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ المراد بآل إبراهيم: ذريته من بني إسرائيل وغيرهم؛ ممن آتاه الله الكُتُبَ التي أنزلها والحكمةَ التي علَّمها.

والقصد بالآية: الردُّ على اليهود في حسدهم لمحمدٍ ﷺ.

ومعناها: إلزامٌ لهم بما عرفوه من فضل الله تعالى على آل إبراهيم، فلأيِّ شيء يخصُّون محمدًا ﷺ بالحسد دون غيره ممن أنعم الله عليه.

﴿مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ الملك في آل إبراهيم: هو ملك يوسف، وداود، وسليمان عليهم السلام.

﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ الآيةَ؛ قيل: المراد: مِن اليهود مَن آمن: بالنبي ﷺ.

أو بالقرآن المذكور في قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾.

أو بما ذُكِر من حديث إبراهيم.

فهذه ثلاثة أوجه في ضمير ﴿بِهِۦ﴾.

وقيل: ﴿فَمِنۡهُم﴾ أي: مِن آل إبراهيم مَن آمن بإبراهيم، ومنهم من كفر؛ كقوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦].

﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم﴾ الآيةَ؛ قيل: تُبدَّل لهم جلودٌ بعدَ جلودٍ أُخَرَ؛ إذ نفوسهم هي المعذَّبة.

وقيل: تبديل الجلود: تغيير صفاتها بالنار.

وقيل: الجلود السَّرابيل؛ وهو بعيد.

﴿أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ﴾ ذُكِر في «البقرة»[1].

﴿ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ صفةٌ من لفظ «الظِّلّ» للتأكيد؛ أي: دائمًا لا تنسخه الشمس.

وقيل: يَقي الحرَّ والبردَ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾ الآيةَ؛ قيل: هي خطاب للولاة.

وقيل: للنبي ﷺ حين أخذ مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة.

ولفظها عامٌّ، وكذلك حكمها.

---

(١) انظر صفحة ١/ ٢٩٣.

﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾ هم: الولاة، وقيل: العلماء.

ونزلت في عبد الله بن حذافة؛ بعثه رسول الله ﷺ في سرية.

﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الردُّ إلى الله: هو النظر في كتابه، والردُّ إلى الرسول ﷺ: هو سؤاله في حياته، والنظرُ في سنته بعد وفاته.

﴿إِن كُنتُمْ﴾ يَحتمل أن يكون هذا الشرطُ راجعًا:

إلى قوله: ﴿فَرُدُّوهُ﴾.

أو إلى قوله: ﴿أَطِيعُواْ﴾.

والأول أظهر؛ لأنه أقرب إليه.

﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: مآلًا وعاقبةً.

وقيل: أحسنُ نظرًا منكم.

* * *

[﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾].

﴿الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآيةَ؛ نزلت في المنافقين.

وقيل: في منافقٍ ويهودي؛ كان بينهما خصومةٌ، فتحاكما إلى كعب بن الأشرف اليهودي، وقيل: إلى كاهن.

﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر؛ ليذمَّهم بالنفاق.

ودلَّ ذلك على أن الآية المتقدمة نزلت في المنافقين.

﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ الآيةَ؛ أي: كيف يكون حالهم إذا عاقبهم الله بذنوبهم!.

﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ يَحتمل أن يكون هذا:

معطوفًا على ما قبله.

أو يكون معطوفًا على قوله: ﴿يَصُدُّونَ﴾، ويكون قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم﴾ اعتراضًا.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: عن معاقبتهم.

وليس المراد بالإعراض القطيعةَ؛ لقوله: ﴿وَعِظْهُمْ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ الآيةَ؛ وعدٌ بالمغفرة لمن استغفر، وفيه استدعاءٌ للاستغفار والتوبة.

ومعنى ﴿جَآءُوكَ﴾: أتوك تائبين معتذرين من ذنوبهم، يطلبون أن تستغفر لهم الله.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ «لا» هنا: مؤكِّدةٌ للنفي الذي بعدها.

﴿شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: اختلط واختلفوا فيه.

ومعنى الآية: أنهم لا يؤمنون حتى يرضوا بحكم النبي ﷺ.

ونزلت بسبب:

المنافقين الذين تخاصموا.

وقيل: بسبب خصام الزبير مع رجل من الأنصار في الماء.

وحكمها عامٌّ.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ الآية؛ معناها: لو فُرِض عليهم ما فرض على مَن كان قبلهم من المشقَّات لم يَفْعلوها؛ لقلة انقيادهم، إلَّا القليل منهم الذين هم مؤمنون حقًّا، وقد روي أن من هؤلاء القليل: أبا بكر وعمر وابن مسعود وعمار بن ياسر وثابت بن قيس.

﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ بالرفع: بدلٌ من الضمير.

وقرأ ابن عامر وحده بالنصب:

على أصل الاستثناء.

أو على: إلَّا فِعلًا قليلًا.

﴿مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ من اتِّباع النبي ﷺ وطاعته والانقياد له.

﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ أي: تحقيقًا لإيمانهم.

﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم﴾ جوابٌ لسؤال مقدَّر عن حالهم لو فعلوا ذلك.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ ثوابٌ على الطاعة؛ أي: هم معهم في الجنة.

وهذه الآية مفسِّرةٌ لقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧].

والصدِّيق: فِعِّيل؛ من الصدق، أو من التصديق، والمراد به المبالغة، والصِّدِّيقون أرفع الناس درجةً بعد الأنبياء.

والشهداءُ: المقتولون في سبيل الله، ومَن جرى مجراهم من سائر

الشهداء، كالغريق وصاحب الهدم؛ حسَبما ورد في الحديث أنهم سبعة[1].

﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ الإشارةُ إلى الأصناف الأربعة المذكورة.

والرَّفيق: يقع على الواحد والجماعة؛ كالخَلِيط.

أو هو مفردٌ بيّن به الجنس.

ومعنى الكلام: إخبارٌ، واستدعاءٌ للطاعة التي يُنال بها مرافقةُ هؤلاء.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ﴾ الإشارةُ إلى الثواب على الطاعة بمرافقة مَن ذُكِر في الجنة.

و﴿ٱلْفَضْلُ﴾: صفةٌ، أو خبرٌ.

* * *

(١) أخرج مالك في الموطأ (٩٣٥)، (٩٩٦)، وأبو داود (٣١١١)، والنسائي (١٨٤٧) في حديث طويل أن رسول الله ﷺ قال: «الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله: المطعون شهيد، والغَرِقُ شهيد، وصاحب ذات الجَنْب شهيد، والمبطون شهيد، وصاحب الحريق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجُمْع شهيد» قال أبو داود: الجُمْع: أن يكون ولدها معها.

[﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾].

﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ أي: تحرَّزوا من عدوِّكم واستعدُّوا له.

﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ أي: اخرجوا للجهاد جماعاتٍ متفرِّقين؛ وذلك كنايةٌ عن السرايا.

وقيل: إنَّ الثُّبَة: ما فوق العشرة.

ووزنها فُعَلَةٌ -بفتح العين-، ولامها محذوفة.

﴿أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾ أي: مجتمعين في الجيش[1] الكثيف.

فخيَّرهم بينَ[2] الخروج إلى الغزو في قلة أو في كثرة.

﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ الخطاب للمؤمنين، والمراد بـ«مَن»: المنافقون،

---

(١) كذا في د وفي هامش أ ورمز له بـ«خ»، وفي بقية النسخ: «الجمع».
(٢) في ج، هـ، د: «في».

وعبَّر عنهم بـ ﴿مِنكُمْ﴾؛ إذ هم يزعمون أنهم من المؤمنين، ويقولون: آمنا.

واللام:

في ﴿لَمَن﴾ للتأكيد.

وفي ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ جوابُ قسم محذوف.

ومعناه:

يُبطِّئ غيرَه -أي: يثبِّطه- عن الجهاد، ويَحمِله على التخلُّف عن الغزو.

وقيل: يبطِّئ: يتخلَّف هو عن الغزو ويتثاقل.

﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ أي: قتلٌ وهزيمة.

والمعنى: أنَّ المنافق تسرُّه غَيبته عن المؤمنين إذا هُزِموا.

و﴿شَهِيدًا﴾ معناه: حاضرًا معهم.

﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ﴾ أي: نصرٌ وغنيمة.

والمعنى: أنَّ المنافق يَندم على ترك الغزو معهم إذا غَنِموا؛ فيتمنَّى أن يكون معهم.

﴿كَأَن لَّمْ يَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ جملةُ اعتراضٍ بين القول ومعموله؛ فلا يجوز الوقف عليها.

وهذه المودَّة في ظاهر المنافق، لا في اعتقاده.

﴿ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ﴾ أي: يبيعون.

﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ ذَكر الحالتين للمقاتل، ووَعد بالأجر على كل واحدةٍ[1] منهما.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ﴾ تحريضٌ على القتال.

و«ما» مبتدأ والمجرور خبره، و﴿لَا تُقَٰتِلُونَ﴾ في موضع الحال.

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ هم: الذين حبسهم مشركو قريش بمكة؛ ليَفتنوهم عن الإسلام.

وهو عطفٌ على اسم ﴿ٱللَّهِ﴾، أو مفعولٌ معه.

﴿ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ هي مكة حين كانت للمشركين.

﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وما بعده: إخبارٌ، قصدَ به: تقوية قلوب المسلمين وتحريضهم على القتال.

---

(١) في ب، ج، هـ: «واحد».

[﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾].

﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ الآيةَ؛ قيل: هي في قوم من الصحابة؛ كانوا قد أُمِروا بالكفِّ عن القتال قبل أن يُفرَض الجهاد، فتمنَّوا أن يؤمروا به، فلما أُمِروا به كرهوه، لا شكًّا في دينهم، ولكن خوفًا من الموت.

وقيل: هي في المنافقين؛ وهو أليقُ بسياق الكلام.

﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ وما بعده: تحقيرٌ للدنيا؛ يتضمَّن[١] ردًّا عليهم في كراهتهم للموت.

﴿فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ أي: في حصون منيعة.

وقيل: المشيدة: المطوَّلة.

وقيل: المبنيَّة بالشِّيد؛ وهو الجِصُّ.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ الآيةَ؛ الحسنة هنا: النصر والغنيمة وشبهُ ذلك من المحبوبات، والسيئة: الهزيمة والجوع وشبه ذلك.

والضمير في ﴿تُصِبْهُمْ﴾ وفي ﴿يَقُولُوا﴾ لـ ﴿ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾، وهذا يدلُّ على أنها في المنافقين؛ لأن المؤمنين لا يقولون للنبي ﷺ: إن السيئات من عنده.

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ردٌّ على من نسَب السيئة إلى رسول الله ﷺ، وإعلامٌ أن السيئة والحسنة والخير والشر من عند الله؛ أي: بقضائه وقدره.

﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ توبيخٌ لهم على قلَّة فهمهم.

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ خطابٌ للنبي ﷺ، والمراد به: كل مخاطَب على الإطلاق؛ فدخل فيه غيرُه من الناس.

وفيه تأويلان:

أحدهما: نِسبةُ الحسنة إلى الله، والسيئة إلى العبد؛ تأدُّبًا مع الله في

---

(١) في ب، ج، هـ: «تتضمن».

الكلام، وإن كان كلُّ شيء منه في الحقيقة؛ وذلك كقوله ﷺ: «والخير كله بيديك[١]، والشر ليس إليك»[٢]، وأيضًا فنسبة[٣] السيئة إلى العبد؛ لأنها بسبب ذنوبه؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]، فهي من العبد بتسبُّبه[٤] فيها، ومن الله بالخِلقة[٥] والاختراع.

والثاني: أن هذا كلام القوم المذكورين قبلُ؛ والتقدير: يقولون كذا؛ فمعناها كمعنى التي قبلَها.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ هذه الآية من فضائل رسول الله ﷺ، وإنما كانت طاعته طاعةَ الله؛ لأنه يأمر وينهى عن الله.

﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ أي: مَن أعرض عن طاعتك فما أنت عليه بحفيظٍ تحفظ أعماله، بل حسابُه وجزاؤه على الله.

وفي هذا مُتارَكةٌ ومُوادَعة منسوخة بالقتال.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ﴾ أي: أمرُنا وشأننا طاعةٌ لك.

وهي في المنافقين بإجماعٍ.

﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ﴾ بيَّت: أي: دبَّر الأمرَ بالليل.

---

(١) في ب، ج، د: «بيدك» والمثبت موافق لما في الصحيح.

(٢) أخرجه مسلم (٧٧١).

(٣) في أ: «فنُسِبت».

(٤) في هـ: «بتسبيبه».

(٥) في هامش أ: «خ: بالخَلق».

والضمير في ﴿تَقُولُ﴾:

للمخاطَب؛ وهو النبي ﷺ.

أو للطائفة.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تعاقبْهم.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ حضٌّ على التفكُّر في معانيه؛ لتَظهرَ أدلتُه وبراهينه.

﴿اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أي: تناقضٌ؛ كما في كلام البشر، أو تفاوتٌ في الفصاحة، لكن القرآن منزَّهٌ عن ذلك؛ فدلَّ على أنه كلام الله.

وإن عَرضت لأحدٍ شبهةٌ وظنَّ اختلافًا في شيء من القرآن فالواجب: أن يتَّهمَ نظره، ويسألَ أهل العلم، ويطالعَ تواليفهم؛ حتى يعْلمَ أن ذلك ليس باختلاف.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ قيل: هم المنافقون.

وقيل: قومٌ من ضعفاء المسلمين؛ كانوا إذا بلغهم خبرٌ عن السرايا والجيوش أو غير ذلك أذاعوا به، أي تكلَّموا به وشهَروه قبل أن يعلموا صحته، وكان في إذاعتهم له مفسدةٌ على المسلمين، مع ما في ذلك من العجلة وقلَّة التثبُّت، فأنكر الله عليهم ذلك.

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ أي: لو تَركَ هؤلاء القومُ الكلامَ بذلك الأمر الذي بلغهم، وردُّوه إلى

رسول الله ﷺ وإلى أولي الأمر[١]، وهم كبراءُ الصحابة وأهلُ البصائر منهم= لعلمه القوم الذين يستنبطونه -أي: يستخرجونه- من الرسول وأولي الأمر.

ف ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ على هذا: طائفةٌ من المسلمين؛ يسألون عنه الرسولَ ﵇ وأولي الأمر.

وحرف الجر في قوله: ﴿يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ لابتداء الغاية؛ وهو[٢] يتعلَّق بالفعل.

والضمير المجرور يعود على: الرسول وأولي الأمر.

وقيل: إن ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ هم أولوا الأمر؛ كما جاء في الحديث عن عمر ﷺ: أنه سمع أن رسول الله ﷺ طلَّق نساءه، فدخل عليه، فقال: أطلقت نساءك؟ فقال: «لا»، فقام على باب المسجد، فقال: إن رسول الله ﷺ لم يطلق نساءه[٣]. فأنزل الله هذه القصة، قال: وأنا الذي استنبطتُه.

فعلى هذا: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ هم أولوا الأمر.

والضمير المجرور يعود عليهم، و﴿مِنۡهُمۡۗ﴾ لبيان الجنس.

واستنباطه على هذا:

هو بسؤالهم عنه النبيَّ ﷺ.

---

(١) في د زيادة: «منهم».
(٢) سقط من ب، ج، هـ.
(٣) أخرجه البخاري (٨٩)، ومسلم (١٤٧٩).

أو بالنظر والبحث.

واستنباطه على التأويل الأول: هو بسؤال الذين أذاعوه للرسول ﷺ ولأولي الأمر.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ أي: هُداه وتوفيقُه، أو بعثه للرَّسول(١)، وإنزاله للكتاب(٢).

والخطاب في هذه الآية للمؤمنين.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلَّا اتباعًا قليلًا؛ فالاستثناء من المصدر، والمعنى: لولا فضل الله ورحمته لاتبعتم الشيطان إلَّا في أمورٍ قليلة كنتم لا تتبعونه فيها.

وقيل: إنه استثناءٌ من الفاعل في ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ﴾؛ أي: إلَّا قليلًا منكم، وهم الذين كانوا قبل الإسلام غيرَ متَّبعين للشيطان؛ كورقةِ بن نوفل.

والفضل والرحمة على هذا: بعث الرسول(٣) وإنزال الكتاب(٤).

وقيل: إن الاستثناء من قوله: ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾.

﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ لما تثاقل بعض الناس عن القتال قيل هذا للنبي ﷺ؛ أي: إن أفردوك فقاتلْ وحدَك؛ فإنما عليك ذلك.

---

(١) في أ، ج، هـ: «للرسل».
(٢) في أ، ب، ج، هـ: «للكتب».
(٣) في ج: «الرسل».
(٤) في أ، ب، ج، هـ: «الكتب».

﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ أي: ليس عليك في شأن المؤمنين إلَّا التحريض.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ قيل: «عسى» من الله واجبة.

و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هنا: قريش، وقد كفَّهم الله بهزيمتهم في بدر وغيرها، وبفتح مكة.

﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾ أي: عقابًا وعذابًا.

﴿شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ﴾ هي الشفاعةُ في مسلم؛ لتُفرَّجَ عنه كربةٌ، أو تُدفَعَ[1] مظلمةٌ، أو يُجلَب إليه خيرٌ[2]، والشفاعة السيئة بخلاف ذلك.

وقيل: الشفاعة الحسنة: هي الطاعة، والشفاعة السيئة: هي المعصية.

والأول أظهر.

والكِفْل: هو النَّصيب.

﴿مُّقِيتٗا﴾ قيل: قديرًا.

وقيل: حفيظًا.

وقيل: الذي يُقِيت الحيوانَ؛ أي: يرزقهم القوتَ.

﴿فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾ معنى ذلك: الأمر بردِّ السلام، والتخييرُ بين أن يردَّ بمثل ما سلَّم عليه أو بأحسنَ منه، والأحسنُ أفضل؛ مثل أن يقال له: «سلام عليك»، فيردُّ السلام ويزيد الرحمةَ، أو يزيد الرحمة والبركة.

---

(١) في د: «أو ترفع عنه».

(٢) في ب: «ليُفرِّجَ عنه كربةً، أو يَدفَعَ مظلمةً، أو يَجلِب إليه خيرًا».

وردُّ السلام واجب على الكفاية عند مالك والشافعي.

وقال بعض الناس: هو فرض عين.

واختُلف في الردِّ على الكفار:

فقيل: يردُّ عليهم؛ لعموم الآية.

وقيل: لا يردُّ عليهم.

وقيل: يقال لهم: «عليكم»؛ حسَبما جاء في الحديث[1]، وهو مذهب مالك.

ولا يُبتَدؤون بالسلام.

﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ جواب قسمٍ محذوف، وتضمَّن معنى الحشر؛ ولذلك تعدَّى بـ «إلى».

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ﴾ لفظه استفهامٌ؛ ومعناه: لا أحدَ أصدقُ من الله.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٦٢٥٨)، ومسلم (٢١٦٣).

[﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾].

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ «ما» استفهاميةٌ بمعنى التوبيخ، والخطاب للمسلمين.

ومعنى ﴿فِئَتَيْنِ﴾ أي: طائفتين مختلفتين، وهو منصوب على الحال.

والمراد بالمنافقين هنا:

ما قال ابن عباس: إنها نزلت في قوم كانوا بمكة مع المشركين؛ فزعموا أنهم آمنوا ولم يهاجروا، ثم سافر قوم منهم إلى الشام بتجارات، فاختلف المسلمون هل يقاتلونهم ليغنموا تجارتَهم؛ لأنهم لم يهاجروا؟ أو هل يتركونهم لأنهم مؤمنون؟

وقال زيد بن ثابت: نزلت في المنافقين الذين رجعوا عن القتال يوم أحد، فاختلف الصحابة في أمرهم.

ويردُّ هذا قولُه: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾.

﴿أَرْكَسَهُم﴾ أي: أضلَّهم وأهلكهم.

﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ الضمير للمنافقين؛ أي: تمنَّوا أن تكفروا.

﴿فَخُذُوهُمْ﴾ يريد به: الأسر.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ الآيةَ؛ استثناءٌ من قوله: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ﴾.

ومعناها:

أن مَن وصل مِن الكفار غيرِ المعاهَدين إلى الكفار المعاهدين -وهم الذين بينهم وبين المسلمين عهدٌ ومهادنة - فحكمه[1] كحكمهم في المسالمة وترك قتاله[2]، وكان ذلك في أول الإسلام، ثم نسخ بالقتال في أول سورة «براءة».

قال السهيلي وغيره: ﴿ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ﴾: هم بنو مُدْلِجِ بن كِنانة ﴿إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾: بنو خزاعة، فدخل بنو مدلجٍ في صلح خزاعة مع رسول الله ﷺ[3]، فمعنى: ﴿يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ﴾: ينتهون إليهم، ويدخلون فيما دخلوا فيه من المهادنة.

وقيل: معنى ﴿يَصِلُونَ﴾: ينتسبون؛ وهذا ضعيف جدًّا؛ بدليل قتال رسول الله ﷺ لقريش، وهم أقاربه وأقارب المؤمنين؛ فكيف لا يقاتل أقارب الكفار المعاهدين!.

---

(١) في د: «فحكمهم».

(٢) في ج: «قتله»، وفي د: «القتال».

(٣) انظر: التعريف والإعلام، للسهيلي، ص: ٨٤.

﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ عطفٌ:

على ﴿يَصِلُونَ﴾.

أو على صفةِ ﴿قَوْمٍ﴾؛ وهي: ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾.

والمعنى يختلف على ذلك، والأول أظهر.

و﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ في موضع الحال؛ بدليل قراءة يعقوب: «حَصِرَةً»، ومعناه: ضاقت عن القتال وكرهته.

ونزلت الآية في قوم جاؤوا إلى المسلمين، وكرهوا أن يقاتلوا المسلمين، وكرهوا أيضًا أن يقاتلوا قومَهم -وهم أقاربهم الكفار-، فأمر الله بالكفِّ عنهم، ثم نُسِخ[1] أيضًا ذلك بالقتال.

﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ﴾ أي: سالموكم فلا تقاتلوهم، و﴿السَّلَمَ﴾ هنا: الانقياد.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ﴾ الآيةَ؛ نزلت في قوم مخادِعين، وهم من أسدٍ وغطفانَ، كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا؛ ليأمنوا المسلمين، فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا؛ ليأمنوا قومَهم.

و﴿الْفِتْنَةِ﴾ هنا: الكفر على الأظهر. وقيل: الاختبار.

---

(١) في ج: «أبيح».

[﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَـٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾].

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ نزلت بسبب قتل عيَّاشِ بن ربيعة للحارث بن زيد، وكان الحارث يُعذِّبه على الإسلام، ثم أسلم وهاجر، ولم يعلم عياش بإسلامه فقتَله.

وقيل: إنَّ الاستثناء هنا منقطع؛ والمعنى: لا يَحلُّ لمؤمن أن يقتل مؤمنًا بوجه، لكن الخطأ قد يقع.

والصحيح: أنه متصل؛ والمعنى: لا ينبغي لمؤمن ولا يليق به أن يقتل مؤمنًا إلَّا على وجه الخطإ، من غير قصدٍ ولا تعمُّدٍ؛ إذ هو مغلوبٌ فيه.

وانتصاب ﴿خَطَئًا﴾ على أنه:

مفعولٌ من أجله.

أو حالٌ.

أو صفةٌ لمصدر محذوف.

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ﴾ هذا بيانُ ما يجب على القاتل خطأً، فأوجب الله عليه التَّحريرَ والدية، فأما التحرير ففي مال القاتل، وأما الدية ففي مال عاقلته، وجاء ذلك عن النبي ﷺ[1]، وهو بيانٌ للآية؛ إذ لفظها يَحتمل ذلك وغيره، وأجمع الفقهاء عليه.

واشترط مالك في الرَّقبة التي تُعتَق: أن تكون مؤمنةً، ليس فيها عقدٌ من عقود الحرية، سالمةً من العيوب.

فأما إيمانها: فنصٌّ هنا؛ ولذلك أجمع العلماء عليه هنا، واختلفوا في رقبة الظِّهار وكفارة اليمين.

وأما سلامتها من عقود الحرية: فيظهر من قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾؛ لأنَّ ظاهرَه أنه ابتداءُ عتق عند التكفير بها.

وأما سلامتها من العيوب: فزعموا أن إطلاق الرقبة يقتضيه؛ وفي ذلك نظر.

ولم يبين في الآية مقدار الدية، وهي عند مالك: مئة من الإبل على أهل الإبل، وألف دينار شرعية على أهل الذهب، واثنا عشر ألف درهم شرعية على أهل الوَرِق، وروي ذلك عن عمر بن الخطاب.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩١٠) ومسلم (١٦٨١).

﴿مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ﴾ أي: مدفوعةٌ إليهم، والأهل هنا: الورثة.

واختُلف في مدَّة تسليمها:

فقيل: هي حالَّة عليهم.

وقيل: يؤدُّونها في ثلاث سنين.

وقيل: في أربع.

ولفظ التَّسليم مطلقٌ؛ وهو أظهر في الحلول لولا ما جاء من السنة في ذلك.

﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ﴾ الضمير يعود على أولياء المقتول؛ أي: إذا أسقطوا الدية سقطت.

وإذا أسقطها المقتولُ سقطت أيضًا عند مالك والجمهور، خلافًا لأهل الظاهر؛ وحجَّتهم: عَودُ الضمير على الأولياء.

وقال الجمهور: إنما هذا إذا لم يُسقِطْها المقتولُ.

﴿فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ﴾ معنى الآية: أنَّ المقتولَ خطأً إن كان مؤمنًا وقومه كفارٌ[1] أعداءٌ - وهم المحارِبون -، فإنما في قتله التَّحريرُ خاصةً دون الدية، فلا تُدفع لهم؛ لئلا يتقوَّوا بها على المسلمين.

ورأى ابن عباس أن ذلك إنما هو فيمن آمن وبقي في دار الحرب لم يهاجر، وخالفه غيره.

---

(١) في ج، هـ: «كفارًا».

ورأى مالك أن الدية في هذا لبيت المال؛ فالآية عنده منسوخةٌ.

﴿وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ﴾ الآيةَ؛ معناها: أن المقتول خطأً إن كان قومه كفارًا معاهَدين ففي قتله تحريرُ رقبة والديةُ إلى أهله؛ لأجل معاهدتهم.

والمقتول على هذا مؤمن؛ ولذلك قال مالك: لا كفارةَ في قتل الذمِّيِّ.

وقيل: إن المقتول في هذه الآية كافرٌ؛ فعلى هذا: تجب الكفارة في قتل الذمي.

وقيل: هي عامةٌ في المؤمن والكافر.

ولفظ الآية مطلقٌ؛ إلَّا إنْ قيَّده قوله: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ في الآية التي قبلها، وقرأ الحسن هنا: «وهو مؤمن».

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ﴾ أي: من لم يجد العتقَ ولم يَقدِر عليه فصيام الشهرين المتتابعين عِوَضٌ منه.

﴿تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ منصوبٌ على المصدر؛ ومعناه: رحمةً منه وتخفيفًا.

﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ الآيـةَ؛ نزلت بسبب مِقْيَسِ بن صُبَابةَ؛ كان قد أخذ دية أخيه هشام المقتول خطأً، ثم قَتل رجلًا من القوم الذين قتلوا أخاه وارتدَّ مشركًا، فأمر رسول الله ﷺ بقتله.

والمتعمِّد عند الجمهور: هو الذي يَقصِد القتل بحديدٍ أو حجر أو عصًا أو غير ذلك.

وهذه الآية مُعْضِلةٌ على مذهب الأشعرية وغيرهم ممن يقول: لا يُخلَّدُ عصاةُ المؤمنين في النار.

واحتجَّ بها المعتزلة وغيرهم ممن يقول بتخليد العصاة في النار؛ لقوله: ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾.

وتأوَّلها الأشعرية بأربعة أوجه:

أحدها: أنْ قالوا: إنها في الكافر إذا قَتل مؤمنًا.

والثاني: قالوا: معنى المتعمِّد هنا: المستحلُّ للقتل؛ وذلك يؤول إلى الكفر.

والثالث: قالوا: الخلود فيها ليست بمعنى الدَّوام الأبديِّ، وإنما هو عبارةٌ عن طول المدة.

والرابع: أنها منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وأما المعتزلة: فحملوها على ظاهرها، ورأوا أنها ناسخةٌ لقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، واحتجوا على ذلك: بقول زيد بن ثابت: «نزلت الشديدة بعد الهيِّنة»[1]، وبقول ابن عباس: «الشرك والقتل من مات عليهما خُلِّد»[2]، وبقول رسول الله ﷺ: «**كلُّ ذنب عسى الله أن**

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٣٤٩).

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وكذلك أورده ابن عطية في تفسيره (٣/ ٦٣٤) بغير إسناد، فقال: «وكان ابن عباس يقول: الشرك والقتل مبهمان، من مات عليهما خُلِّد»، وعند الطبري (٧/ ٣٤٧) والخلال في جامعه (/ ٩٤)، وابن أبي شيبة (٥/ ٤٣٣) بلفظ: =

يغفره، إلَّا الرجلَ يموت كافرًا، أو الرجلَ يقتل المؤمن متعمِّدًا»[1]، وتقتضي الآية وهذه الآثار: أن للقتل حُكمًا يخصُّه مِن بين سائر المعاصي[2].

واختلف الناس في القاتل عمدًا إذا تاب؛ هل تقبل توبته أم لا؟.

= «هما المبهمتان: الشرك والقتل»، قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في تعليقه على تفسير الطبري (٩/ ٦٧): «يعني بقوله: «المبهمتان»، يعني: الآيتان اللتان لا مخرج منهما، كأنها باب مبهم مصمت، أي: مستغلق لا يفتح، ولا مأتى له. وذلك أن الشرك والقتل، جزاؤه التخليد في نار جهنم، أعاذنا الله منها».

(١) أخرجه أحمد (١٦٩٠٧)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤١٦).

(٢) قال الشيخ عبد الرحمن البراك: قوله: (وهذه الآية مُعضِلة على مذهب الأشعرية وغيرهم) إلخ، أقول: ما ذكره من أن هذه الآية معضلة، أي مشكلة إشكالا قويا، على مذهب الأشاعرة وغيرهم من القائلين بأن عصاة الموحدين لا يخلدون في النار، وأجاب من جهة الأشاعرة وغيرهم من القائلين بعدم خلود أهل الكبائر في النار بأربعة أجوبة؛ أقول: أجودها: تفسير الخلود بالمكث الطويل، وأجود منه تقييد الآية بما تواترت به السنة من خروج عصاة الموحدين من النار بشفاعة الشافعين ورحمة أرحم الراحمين.

وكذلك ما ذكره من احتجاج المعتزلة بهذه الآية على قولهم بتخليد أهل الكبائر في النار، أقول: ما ذكره من المذهبين في تخليد العصاة صحيحٌ، ولكنه رحمه الله ذكر احتجاج المعتزلة على مذهبهم بأثر ابن عباس وزيد وبالحديث، ولم يجب عن ذلك، بل أيده بقوله: (وتقتضي الآية وهذه الآثار: أن للقتل حُكمًا يخصه من بين سائر المعاصي). وهذا يجعل في كلامه نوع تناقض؛ لأنه قد أجاب عن الآية، وأما أثر ابن عباس وزيد والحديث فلا تقاوم دلالتها دلالة قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ في موضعين من سورة النساء. وهي التي ذكر فيها وعيد القاتل بالخلود في النار، ولا تقاوم دلالة السنة على خروج عصاة الموحدين من النار، وقد أجمع أهل السنة على ما دلت عليه آيتا النساء، وما دل عليه حديث الشفاعة. والله أعلم.

وكذلك حَكى ابن رُشدِ الخلافَ في القاتل إذا اقتُصَّ منه؛ هل يَسقط عنه العقاب[١] في الآخرة أم لا؟[٢].

والصحيح: أنه يسقط عنه؛ لقول رسول الله ﷺ: «من أصاب ذنبًا فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة»[٣]، وبذلك قال جمهور العلماء.

﴿ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: سافرتم في الجهاد.

﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ من البيان.

وقرئ: بالثاء المثلثة؛ من الثبات.

والتَّفَعُّل فيها بمعنى الاستفعال؛ أي: اطلبوا[٤] بيان الأمر أو[٥] ثبوته.

﴿أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ بغير ألف؛ أي: انقادَ وألقى بيده.

وقرئ: ﴿السَّلَامَ﴾؛ بمعنى التحية.

ونزلت في سريةٍ لقيت رجلًا فسلَّم عليهم، وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فحمَل عليه أحدُهم فقتله، فشقَّ ذلك على رسول الله ﷺ.

وكان القاتل: مُحَلِّمُ بن جَثَّامة، والمقتول: عامرُ بن الأَضْبَط.

وقيل: القاتل أسامة بن زيد، والمقتول: مِرْداس بن نَهِيك.

---

(١) في أ: «العذاب»، وفي الهامش: «خ: العقاب».

(٢) انظر: المقدمات الممهدات، لأبي الوليد ابن رشد الجدّ (ت ٥٢٠هـ) (٣/ ٢٧٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٩٢)، ومسلم (١٧٠٩).

(٤) في أ: «يطلب».

(٥) في ب، د: «و».

﴿تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ يعني: الغنيمةَ، وكان للرجل المقتول غَنَمٌ.

﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞ﴾ وعدٌ، وتزهيدٌ في غنيمة مَن أظهر الإسلام.

﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ﴾ قيل: معناه: كنتم كفَّارًا، فهداكم الله للإسلام.

وقيل: كنتم تخفون إيمانكم من قومكم، فمَنَّ الله عليكم بالعزة والنصر حتى أَظهرتموه.

﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ﴾ الآيةَ؛ معناها: تفضيلُ المجاهدين على مَن لم يجاهد؛ وهم القاعدون.

﴿غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ لما نزلت الآية قام ابن أمِّ مكتوم الأعمى، فقال: يا رسول الله هل من رخصة؛ فإني ضَرير البصر؟ فنزل: ﴿غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾.

وقرئ ﴿غَيۡرَ﴾ بالحركات الثلاث:

فالرفعُ؛ صفةٌ للقاعدين.

والنصب؛ على الاستثناء، أو الحال.

والخفض؛ صفةٌ للمؤمنين.

﴿دَرَجَةٗ﴾ قيل: هي تفضيلٌ على القاعدين من أهل العذر، والدرجات: على القاعدين بغير عذر.

وقيل: إن الدرجات مبالغةٌ وتأكيدٌ للدرجة.

﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الجنة.

﴿أَجْرًا﴾ منصوب:

على الحال من ﴿دَرَجَٰتٍ﴾[1].

أو على المصدرية من معنى ﴿فَضَّلَ﴾.

وانتصب ﴿دَرَجَٰتٍ﴾:

على البدل من الأجر.

أو بفعل مضمر.

وانتصب ﴿وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ بإضمار فعلِهما؛ أي: غَفر لهم ورحمهم مغفرةً ورحمةً.

---

(١) قال في الكشاف (١٢٩/٥): «ونُصب ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ على أنه حالٌ عن النكرة التي هي ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ مقدَّمةً عليها».

[﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الآيةَ؛ نزلت في قوم أسلموا بمكة ولم يهاجروا فلما كان يوم بدر خرجوا مع الكفار فقُتِلوا؛ منهم: قيس بن الفاكِه، والحارث بن زَمْعة، وقيس بن الوليد بن المغيرة، وعلي بن أمية بن خلف.

ويَحتمل ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ أن يكون: ماضيًا، أو مضارعًا.

وانتصب ﴿ظَالِمِىٓ﴾ على الحال.

﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾ أي: في أيِّ شيءٍ كنتم من أمر دينكم.

﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ اعتذارٌ عن التَّوبيخ الذي وبَّخهم الملائكة؛ أي: لم نَقدِر[1] على الهجرة، وكان اعتذارًا بالباطل.

﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾ ردٌّ عليهم، وتكذيبٌ لهم في اعتذارهم.

﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ أي: الذين كان استضعافُهم حقًّا، قال ابن عباس: كنت أنا وأبي وأمي ممن عنَى اللهُ بهذه الآية.

﴿مُرَٰغَمًا﴾ أي: مُتحوَّلًا وموضعًا يُرغِم عدوَّه بالذَّهاب إليه.

---

(١) في أ: «تقدروا».

﴿وَسَعَةً﴾ أي: اتساع في الأرض.

وقيل: في الرزق.

(﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ﴾ أي: ثبت وصحَّ)[١].

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ﴾ الآيةَ؛ حكمها على العموم.

ونزلت في ضَمْرَةَ بن العِيس[٢] وكان من المستضعفين بمكة، وكان مريضًا فلما سمع ما أنزل الله في الهجرة قال: أَخرجوني[٣]، فهُيِّئ له فراشٌ فوُضع عليه وخرج، فمات في الطريق.

وقيل: نزلت في خالد بن حِزام؛ فإنه هاجر إلى أرض الحبشة، فنهشته حيةٌ في الطريق فمات قبل أن يصل إلى أرض الحبشة.

---

(١) هكذا جاء موضع تفسير هذه الجملة من الآية، متقدِّمًا على تفسير جملة (ومن يخرج من بيته) في جميع النسخ الخطية!، وحقُّه أن يكون متأخرًا عن تفسير جملة (ومن يخرج من بيته)؛ جريًا على ترتيب الآية.

(٢) كذا في جميع النسخ الخطية «العيس» بالسين، والذي في تفسير الطبري (٧/ ٣٩٣)، والإصابة لابن حجر (٢/ ٢٥٩): «العِيص» بالصاد.

(٣) في هامش أ: «خ: اخرُجوا بي».

[﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾].

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ اختلف العلماء في تأويلها على خمسة أقوال:

الأول: أنها في قَصْر الصلاة الرُّباعيَّة إلى ركعتين في السَّفر، وأن ذلك لا يجوز إلَّا في حال الخوف على ظاهر الآية، وهو قول عائشة وعثمان ابن عفان رضي الله عنهما.

الثاني: أن الآية تقتضي ذلك، ولكن يؤخذ القصرُ في السفر دون الخوف من السُّنة، ويؤيد هذا: حديثُ يَعلى بن أمية قال: قلت لعمر بن الخطاب: إنَّ الله يقول: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ وقد أَمِن الناس؟ فقال: عجبتُ مما عجبتَ منه، فسألتُ رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «صدقة تصدَّق الله بها عليكم فاقبلوا

صدقته»[١]، وقد ثبت أن النبي ﷺ قصَر في السفر وهو آمن[٢].

الثالث: أن قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ راجعٌ إلى قوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ الآيةَ التي بعد ذلك، والواو زائدة، وهذا بعيد.

الرابع: أنها في صلاة الخوف؛ على قول مَن يرى أن تُصلِّيَ كلُّ طائفةٍ ركعةً خاصة، قال ابن عباس: فرضت الصلاةُ في الحضَر أربعًا، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة.

الخامس: أنها في صلاة المسايَفة؛ فالقصر على هذا هو من هيئات الصلاة؛ كقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩].

وإذا قلنا: إنها في القصر في السفر:

فظاهرها: أن القصرَ رخصةٌ، والإتمام أفضل. وهو مذهب الشافعي.

وقال مالك: القصر أفضل.

وقيل: إنهما سواءٌ.

وأوجب أبو حنيفة القصر.

وليس في لفظ الآيةِ ما يدلُّ على مقدار المسافة التي يقصر فيها؛ لأن قوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ معناه: السفر مطلقًا؛ ولذلك أجاز الظاهرية القصر في كل سفرٍ؛ طويلٍ أو قصير.

---

(١) أخرجه مسلم (٦٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٨٣)، ومسلم (٦٩٦).

ومذهب مالك والشافعي: أن مسافة القصر ثمانيةٌ وأربعون مِيلًا؛ واحتجُّوا بآثار عن ابن عمر وابن عباس.

وكذلك ليس في الآية ما يدلُّ على تخصيص القصر بسفر القُرْبة، أو السفر المباح دون سفر المعصية؛ فإنَّ لفظها مطلقٌ في السفر، ولذلك أجاز أبو حنيفة: القصر في سفر القربة، وفي المباح، وفي سفر المعصية.

ومنعه مالك: في سفر المعصية.

ومنعه ابن حنبل: في المعصية، وفي المباح[1].

وللقصر أحكامٌ لا تتعلَّق بالآية؛ فأضربْنا عن ذكرها.

والمراد بالفتنة في هذه الآية: القتال والتعرُّض بما يُكرَه.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ الآيةَ؛ في صلاة الخوف، وظاهرها يقتضي: أنها لا تُصلَّى بعد رسول الله ﷺ؛ لأنه شرَط كونَه فيهم، وبذلك قال أبو يوسف.

وأجازها الجمهور بعده ﷺ؛ لأنهم رأوا أن الخطاب له يتناول أُمَّته، وقد فعلها الصحابة بعده عليه السلام.

واختلف الناس في صفة صلاة الخوف على عشرة أقوال؛ لاختلاف الأحاديث فيها، ولسنا نضطرُّ إلى ذكرها؛ فإنَّ تفسيرها لا يتوقَّف على ذلك.

وكانت صلاة رسول الله ﷺ لصلاة الخوف في غزوة ذات الرِّقاع.

---

(١) معتمد المذهب عند الحنابلة: جواز القصر في السفر المباح، وهذه الرواية عن الإمام اختارها جماهير الأصحاب، وعن أحمد رواية أخرى: لا يقصر إلا في سفر الطاعة، اختارها بعض الأصحاب. انظر: المسائل الفقهية من الروايتين والوجهين، لأبي يعلى (١/ ١٧٦)، والمقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٥/ ٢٨).

﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ يَقْسم الإمام المسلمين على طائفتين؛ فيصلي بالأُولى نصفَ الصلاة، وتقف الأخرى تحرس، ثم يصلي بالثانية بقيَّةَ الصلاة، وتقف الأولى تحرس.

واختُلف هل تُتِمُّ كلُّ طائفة صلاتَها -وهو مذهب الجمهور-، أم لا؟

وعلى القول بالإتمام اختُلف؛ هل يُتمُّونها في إِثْر صلاتهم مع الإمام أو بعد ذلك؟

﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ اختُلف مَن المأمور بأخذ الأسلحة؟.

فقيل: الطائفة المصلِّية.

وقيل: الحارسة.

والأول أرجح؛ لأنه قد قال بعد ذلك في الطائفة الأخرى: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾.

ويدلُّ ذلك على أنهم إن قوتلوا وهم في الصلاة جاز لهم أن يقاتلوا مَن قاتلهم؛ وإلَّا لم يكن معنى لأخذ الأسلحة إذا لم يَدفعوا بها مَن قاتلهم.

﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ الضمير في قوله: ﴿سَجَدُواْ﴾ للمصلين، والمعنى: إذا سجدوا معك في الركعة الأُولى.

وقيل: إذا سجدوا في ركعة القضاء.

والضمير في قوله: ﴿فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾:

[أ-] يَحتمل أن يكون للذين سجدوا؛ أي: إذا سجدوا فلْيقوموا ولْيرجعوا وراءكم.

وعلى هذا:

إن كان السجود هنا في الركعة الأولى: فيقتضي ذلك أنهم يقومون للحراسة بعد انقضاء الركعة الأولى، ثم يَحتمل بعد ذلك أن يقضوا بقيةَ صلاتهم أو لا يقضونها.

وإن كان السجود ركعةَ القضاء: فيقتضي ذلك أنهم لا يقومون للحراسة إلَّا بعد القضاء، وهو مذهب مالك والشافعي.

[ب -] ويَحتمل أن يكون الضمير في قوله: ﴿فَلْيَكُونُواْ﴾ للطائفة الأخرى؛ أي: يقفون وراء المصلِّين يحرسونهم في حال سجودهم.

﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ﴾ يعني: الطائفةَ الحارسة.

﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآيةَ؛ إخبارٌ عما جرى في غزوة ذات الرقاع مِن عزْم الكفار على الإيقاع بالمسلمين إذا اشتغلوا بصلاتهم، فنزل جبريل على النبي ﷺ، وأخبره بذلك، وشُرِعت صلاة الخوف؛ حذرًا من الكفار.

وفي قوله تعالى: ﴿مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ مبالغةٌ؛ أي: مُستأصِلةً لا يُحتاج معها إلى ثانية.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ الآيةَ؛ نزلت بسبب عبد الرحمن بن عوف، كان مريضًا فوَضع سلاحه فعنَّفه[1] بعض الناس، فرخَّص الله في وضع السلاح في حال المرض والمطر، ويُقاس عليهما: كلُّ عذر يَحدث في ذلك الوقت.

---

(١) في أ: «فعتبه» وفي الهامش: «خ: فعنفه».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ إن قيل: كيف طابَق الأمرُ بالحذر للعذاب المهين؟

فالجواب: أن الأمر بالحذر من العدوِّ يقتضي توهُّمَ قوَّتِهم وعزَّتهم، فنفى ذلك الوهمَ بالإخبار أن الله يُهِينهم ولا ينصرهم؛ لتَقْوى قلوبُ المؤمنين. قال ذلك الزمخشري(١).

وإنما يصحُّ ذلك إذا كان العذاب المهين في الدنيا، والأظهر: أنه في الآخرة.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ﴾ الآيةَ؛ أي: إذا فرَغتم من الصلاة فاذكروا الله بألسنتكم.

وذكَرَ القيامَ والقعود وعلى الجُنوب؛ ليَعُمَّ جميع أحوال الإنسان.

وقيل: المعنى: إذا تلبَّستم بالصلاة فافعلوها قيامًا، فإن لم تقدروا فقعودًا، فإن لم تقدروا فعلى جنوبكم.

﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: إذا اطمأننتم من الخوف فأقيموا الصلاة على هيئتها المعهودة.

﴿كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ أي: محدودًا بالأوقات.

وقال ابن عباس: فرضًا مفروضًا.

﴿وَلَا تَهِنُوا فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: لا تَضعُفوا في طلب الكفار.

---

(١) الكشاف (٥/ ١٤٣).

﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ﴾ الآيةَ؛ معناها: إن أصابكم ألمٌ من القتال فكذلك يصيب الكفارَ ألمٌ مثلُه، ومع ذلك فإنكم ترجون -إذا قاتلتموهم- النصرَ في الدنيا، والأجر في الآخرة، وذلك تشجيعٌ للمسلمين.

* * *

[﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾].

﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ يحتمل أن يريد: بالوحي، أو بالاجتهاد أو بهما.

وإذا تضمَّنت الاجتهادَ؛ ففيها دليلٌ على إثبات النظر والقياس، خلافًا لمن منع ذلك من الظاهرية وغيرهم.

﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ نزلت هذه الآية وما بعدها في قصة طِعْمَة ابن الأُبَيْرِق؛ إذ سَرق طعامًا وسلاحًا لبعض الأنصار، وجاء قومُه إلى النبي ﷺ وقالوا: إنه بريءٌ، ونسبوا السرقةَ إلى غيره، وظنَّ رسول الله ﷺ أنهم صادقون، فجادل عنهم؛ ليَدفع ما نُسِب إليهم، حتى نزَل القرآن فافتُضِحوا.

فالخائنون في الآية: هم السُّرَّاق بنو الأبيرق، وقال السهيلي: هم بِشْرٌ

وبُشَير ومُبَشِّر وأُسَير[١].

ومعناها: لا تكن لأجل الخائنين مخاصِمًا لغيرهم.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ﴾ أي: مِن خِصامك عن الخائنين؛ على أنه ﷺ إنما تكلَّم على الظاهر وهو يعتقد براءَتهم.

﴿إِذۡ يُبَيِّتُونَ﴾ أي: يُدبِّرون ليلًا، وإنما سُمِّي التدبير قولًا؛ لأنه كلامُ النفس، وربما كان معه كلام باللسان.

﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا﴾ قيل: إن الخطيئة تكون عن عمدٍ وعن غير عمد، والإثم لا يكون إلَّا عن عمد.

وقيل: هما بمعنًى[٢]؛ وكُرِّر لاختلاف اللفظ.

﴿ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا﴾ كان القوم قد نسبوا السرقة إلى لَبِيدِ بن سهلٍ.

﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ﴾ هم الذين جاؤوا إلى النبي ﷺ وأبرؤوا ابنَ الأُبيرق من السرقة.

وهذه الآيات[٣]، وإن كانت إنما نزلت بسبب هذه القصة؛ فهي أيضًا تتضمَّن أحكامَ غيرِها.

وبقية الآية تشريفٌ للنبي ﷺ، وتقرير لنِعَم الله عليه.

---

(١) انظر: التعريف والإعلام، للسهيلي، ص: ٨٧.

(٢) في د زيادة: «واحد».

(٣) في ب: «الآية».

[﴿ ۞ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾].

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ إن كانت النجوى هنا بمعنى: الكلام الخفي؛ فالاستثناء الذي بعد هذا منقطعٌ.

وقد يكون متَّصلًا؛ على حذف مضاف تقديره: إلَّا نجوى مَن أمر.

وإن كانت النجوى بمعنى: الجماعة؛ فالاستثناء متصلٌ.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: يُعاديه؛ والشِّقاق: هو العداوة.

ونزلت الآية بسبب ابن الأبيرق؛ لأنه ارتدَّ وسار إلى المشركين ومات على الكفر، وهي عامةٌ فيه وفي غيره.

﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ استدلَّ الأصوليون بهذا[١] على صحة إجماع المسلمين، وأنه لا تجوز مخالفته؛ لأن مَن خالفه اتَّبع غيرَ سبيل المؤمنين. وفي ذلك نظر.

﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أي: نتركُه مع اختياره الفاسد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ قد تقدَّم الكلام على نظيرتها[٢].

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ الضمير في ﴿يَدْعُونَ﴾ للكفار.

ومعنى ﴿يَدْعُونَ﴾: يعبدون.

واختُلف في الإناث هنا:

فقيل: هي الأصنام؛ لأن العرب كانت تسمِّي الأصنام بأسماءَ مؤنثةٍ، كاللَّات والعزى.

وقيل: المراد: الملائكة؛ لقول الكفار: إنهم إناثٌ، وكانوا يعبدونهم؛ فذكر ذلك على وجه إقامة الحجة عليهم بقولهم الفاسد.

وقيل: المراد: الأصنام؛ لأنها لا تَعْقِل، فيُخبَر عنها كما يُخبَر عن المؤنث.

---

(١) في ب، د: «بها».

(٢) انظر صفحة ٦٦.

﴿إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ يعني: إبليس، وإنما قال: إنهم يعبدونه؛ لأنهم يطيعونه في الكفر والضَّلال.

والمَرِيد: هو الشديدُ العُتوِّ والإضلال.

﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ صفةٌ للشيطان.

﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ الضمير في ﴿قَالَ﴾: للشيطان.

و﴿مَّفْرُوضًا﴾ أي: فَرَضْتُه لنفسي؛ من قولك: فَرَضَ للجندِ وغيرهم، والمراد بهم: أهلُ الضلال.

﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ أي: أَعِدُهم الأمانيَّ الكاذبة.

﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: يُقَطِّعونها، والإشارةُ بذلك إلى البَحِيرة وشبهها.

﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ التَّغيير: هو الخِصاءُ وشبهُه؛ وقد رخَّص جماعة من العلماء في خِصاء البهائم إذا كان فيه منفعةٌ، ومنَعه بعضهم؛ لظاهر الآية.

وقيل: التغيير: هو الوَشْمُ وشبهُه؛ ويدلُّ على هذا الحديثُ الذي لعن فيه الواشمات، والمستوشمات، والمتنمِّصات، والمتفلِّجات للحسن، المغيِّرات خلق الله[1].

﴿مَحِيصًا﴾ أي: مَعدِلًا ومَهرَبًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٨٦)، ومسلم (٢١٢٥).

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ مصدران:

الأول: مؤكِّدٌ للوعد الذي يقتضيه قوله: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾.

والثاني: مؤكِّد لـ ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾.

﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾ الآيةَ؛ اسم «ليس» مضمر؛ تقديره: «الأمرُ» وشبهه.

والخطاب للمسلمين، وقيل: للمشركين.

أي: لا يكون ما تتمنَّون[1]، ولا ما يتمنَّى أهل الكتاب، بل يَحكم الله بين عباده، ويجازيهم بأعمالهم.

﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ وعيدٌ حتمٌ في الكفار، ومقيَّدٌ بمشيئة الله في المسلمين.

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دخلت «مِن» للتبعيض؛ رِفقًا بالعباد؛ لأن الصالحات على الكمال لا يُطِيقها البشر.

﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ تقييدٌ باشتراط الإيمان؛ فإنه لا يقبل عملٌ إلَّا به.

﴿نَقِيرٗا﴾ هو النُّقْرَة التي في ظهر نواة التمرة، والمعنى: تمثيلٌ بأقلِّ الأشياء.

﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي: دينَ الإسلام.

﴿حَنِيفٗاۗ﴾ حالٌ: مِن المتَّبِع، أو من ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾.

﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ أي: صَفِيًّا؛ وهو مشتقٌّ مِن الخُلَّة بمعنى المودَّة، وفي ذلك تشريفٌ لإبراهيم، وترغيبٌ في اتِّباعه.

---

(١) في ب، ج، هـ، د: «تمنَّون».

[﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾].

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ﴾ أي: يسألونك عمَّا يجب عليهم في أمر النساء.

﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ عطفٌ على اسم ﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: يُفتيكم اللهُ والمتلوُّ[1] في الكتاب؛ يعني: القرآنَ.

﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ كان الرجل من العرب يتزوَّج اليتيمةَ من أقاربه بدون ما تستحقُّه من الصَّداق.

فقوله: ﴿مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ يعني: ما تستحقه المرأةُ من الصداق.

---

(١) في ب، د زيادة: «عليكم».

وقوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ يعني: لجمالهنَّ ومالهنَّ من غير توفيةِ حقوقهنَّ، فنهاهم الله ﷻ عن ذلك في قوله أوَّلَ السورة: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ الآيةَ، وهذه هي التي تُلِيت عليهم في يتامى النساء.

﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ عطفٌ على: ﴿يَتَامَى النِّسَاءِ﴾؛ أي: والذي يُتلى في المستضعفين مِن الولدان؛ وهو قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾؛ لأن العرب كانت لا تُوَرِّثُ البنتَ ولا الابنَ الصغير، فأمر الله أن يأخذوا نصيبَهم من الميراث.

﴿وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ عطفٌ على: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾؛ أي: والذي يُتلى عليكم في أن تقوموا لليتامى بالقسط.

ويجوز أن يكون منصوبًا[1]؛ تقديره: ويأمركم أن تقوموا.

والخطاب في ذلك: للأولياء والأوصياء، أو للقضاة وشبهِهم.

والذي تُلي[2] عليهم في ذلك هو قولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ الآيةَ، وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨] إلى غير ذلك.

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصَالِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ معنى الآية: إباحةُ الصُّلح بين الزوجين إذا خافت النُّشوزَ أو الإعراض، وكما يجوز الصلح مع الخوف؛ كذلك يجوز بعد وقوع

---

(١) في د زيادة: «بفعل محذوف».

(٢) في د: «يتلى».

النشوز أو[١] الإعراض.

وقد تقدَّم معنى النشوز[٢]، وأما الإعراض فهو أخفُّ منه.

ووجوه الصلح كثيرةٌ؛ منها: أن يعطيَها الزوج شيئًا، أو تعطيَه هي، أو تسقطَ حقَّها من النفقة أو الاستمتاع أو غير ذلك.

وسبب الآية: أن سَودةَ بنت زَمْعة لما كَبِرَتْ خافت أن يطلِّقها رسول الله ﷺ، فقالت له: أَمسِكني في نسائك ولا تَقسِم لي، وقد وهبتُ يومي لعائشة.

﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ لفظٌ عامٌّ؛ يدخل فيه صُلح الزوجين وغيرهما.

وقيل: معناه: صلح الزوجين خيرٌ من فراقهما؛ فـ ﴿خَيْرٌ﴾ على هذا للتفضيل، واللام في ﴿وَٱلصُّلْحُ﴾ للعهد.

﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ معناه: أن الشحَّ جُعِل حاضرًا مع النفوس لا يَغيب عنها؛ لأنها جُبِلت عليه.

والشحُّ: هو أن لا يسمح الإنسانُ لغيره بشيءٍ من حظوظ نفسه.

وشحُّ المرأة من[٣] هذا: هو طلبها لحقِّها من النفقة والاستمتاع.

وشحُّ الزوج: هو منع الصَّداق، أو التضييق في النفقة، وزهده في المرأة؛ لكِبَر سنِّها أو قُبح صورتها.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ معناه: العدلُ التامُّ الكامل في

---

(١) في ج، هـ، د: «و».

(٢) انظر صفحة ٥١.

(٣) في د: «على».

الأقوال والأفعال والمحبَّة وغيرِ ذلك، فرفَع الله ذلك عن عباده؛ فإنهم لا يستطيعونه، وقد كان رسول الله ﷺ يَقْسِم بين نسائه ثم يقول: «اللهم هذا فعلي فيما أَمْلك؛ فلا تؤاخذْني فيما[1] لا أملك»[2] يعني: مَيْلَه بقلبه.

وقيل: إنَّ الآية نزلت في مَيْلِه ﷺ بقلبه إلى عائشة.

ومعناها: اعتذارٌ مِن الله تعالى عن عباده.

﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ أي: لا ذات زوج ولا مطلَّقة.

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ الآيةَ؛ معناها: إن تفرَّق الزوجان بطلاقٍ أغنى الله كلَّ واحد منهما من فضله عن صاحبه، وهذا وعدٌ بخيرٍ وتأنيسٌ.

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا﴾ الآيةَ؛ إخبارٌ أنَّ الله وصَّى الأوَّلِين والآخِرين بأن يتقوه.

﴿وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ أي: بقومٍ غيرِكم، وروي أنَّ النبي ﷺ لما نزلت ضرب بيده على كَتِف سلمان الفارسي، وقال: «هم قوم هذا»[3].

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ الآيةَ؛ تقتضي الترغيبَ في طلب ثواب الآخرة؛ لأنه خيرٌ من ثواب الدنيا.

وتقتضي -أيضًا- أن يُطلَب ثوابُ الدنيا والآخرة من الله وحدَه؛ فإنَّ ذلك بيده لا بيد غيره.

---

(١) في أ، ب، ج، هـ: «بما»، والمثبت موافق لما في السنن والمسند.

(٢) أخرجه أحمد (٢٥١١١)، وأبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠)، والنسائي (٣٣٩٥)، وابن ماجه (١٩٧١).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٥٨٢).

وعلى أحد هذين الوجهين يَرتبط الشرطُ بجوابه:

فالتقدير على الأول: من كان يريد ثواب الدنيا فلا يَقتصِرْ عليه خاصةً؛ فعند الله ثواب الدنيا والآخرة.

وعلى الثاني: من كان يريد ثواب الدنيا فلْيطلبْه من الله؛ فعنده ثواب الدنيا والآخرة.

[﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾].

﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: مجتهدين في إقامة العدل.

﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ معناه: لوجه الله ولمرضاته.

﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ يتعلّق بـ ﴿شُهَدَآءَ﴾.

وشهادة الإنسان على نفسه: هي إقرارُه بالحقّ.

ثم ذكر الوالدَين والأقربين؛ إذ هم مَظِنَّةٌ للتعصب والميل؛ فإقامة الشهادة على الأجنبيين من باب أحرى وأولى.

﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ جواب «إن» محذوفٌ على الأظهر؛ أي: إن

يكن المشهودُ عليه غنيًا فلا يَمتنِعْ[١] من الشهادة عليه تعظيمًا له، وإن كان فقيرًا فلا يَمتنعْ[٢] من الشهادة عليه إشفاقًا عليه؛ فإنَّ اللهَ أولى بالغني والفقير؛ أي: بالنظر لهما.

﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾ «أنْ» مفعولٌ من أجله، ويَحتمل أن يكون المعنى:

مِن العَدل؛ فالتقدير: إرادةَ أن تَعدِلوا بين الناس.

أو من العُدول؛ فالتقدير: كراهةَ أن تَعدِلوا عن الحقِّ.

﴿وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا﴾ قيل: إنَّ الخطاب للحُكَّام.

وقيل: للشُّهود.

واللفظ عامٌّ في الوجهين.

واللّيُّ: هو تحريف الكلام.

أي: إن تَلْوُوا عن الحكم بالعدل أو عن الشهادة بالحقِّ، أو تُعرِضوا عن صاحب الحق، أو عن المشهود[٣] له فإنَّ الله يُجازيكم؛ فإنه خبير بما تعملون.

وقرئ: ﴿وَإِن تَلُوا﴾ بضم اللام؛ من الوِلاية؛ أي: إن وَلِيتم إقامةَ الشهادة، أو أَعرضتم عنها.

---

(١) في د: «تمتنع».
(٢) في د: «تمتنع».
(٣) في د: «الشهادة».

﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ الآيةَ؛ خطابٌ للمسلمين، معناه:

الأمر بأن يكون إيمانُهم على الكمال بكلِّ ما ذُكِر.

أو يكونُ أمرًا بالدَّوام على الإيمان.

وقيل: خطابٌ لأهل الكتاب الذين آمنوا بالأنبياء المتقدِّمين، معناه: الأمر بأن يؤمنوا مع ذلك بمحمد ﷺ.

وقيل: خطابٌ للمنافقين، معناه: الأمر بأن يؤمنوا بألسنتهم وقلوبهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ الآيةَ؛ قيل: هي في المنافقين؛ لتردُّدهم بين الإيمان والكفر.

وقيل: في اليهود والنصارى؛ لأنهم آمنوا بأنبيائهم ثم[1] كفروا بمحمد ﷺ.

والأول أرجح؛ لأنَّ الكلام مِن هنا فيهم.

والأَظهر: أنها فيمن آمن بمحمد ﷺ، ثم ارتدَّ، ثم عاد إلى الإيمان، ثم ارتدَّ وزاد كفرًا.

﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ذلك فيمن عَلِمَ اللهُ أنه يموت على كفره، وقد يكون إِضلالهم عقابًا لهم بسوءِ أفعالهم.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآيةَ؛ إشارةٌ إلى قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨] وغيرِها.

---

(١) في د: «و».

وفي الآية دليلٌ على وجوب تجنُّب أهل المعاصي.

والضمير في قوله: ﴿مَعَهُمْ﴾ يعود على: ما يدلُّ عليه سياق الكلام مِن الكافرين والمنافقين.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ صفةٌ للمنافقين؛ أي: ينتظرون بكم دوائرَ الزمان.

﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: نَغْلِبْ على أمركم بالنُّصرة لكم والحَمِيَّة.

﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ قال علي بن أبي طالب وغيره: ذلك في الآخرة.

وقيل: السبيل هنا: الحجة الغالبة[1].

---

(١) كذا في ب، وهامش أ ورمز له بـ«خ» وهو موافق لما في المحرر الوجيز (٣/ ٤٩)، وفي بقية النسخ: «البالغة».

[﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾].

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ ذُكِر في «البقرة»[1].

﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ تسميةٌ للعقوبة باسم الذنب؛ لأنَّ وبالَ خِداعهم راجعٌ عليهم[2].

﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾ أي: مضطربين متردِّدين، لا إلى المسلمين ولا إلى الكفار.

﴿سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي: حجةً ظاهرة.

---

(١) انظر صفحة ١/ ٢٧٣.

(٢) انظر تعليق الشيخ عبد الرحمن البراك ١/ ٢٧٥، ١/ ٥٤٥، وصفحة ٤٢٢، و٥١٢ من هذا الجزء.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ﴾ أي: في الطبقة السُّفلى من جهنم، وهي سبعُ طبقاتٍ.

وفي ذلك دليلٌ على أنهم شرٌّ من الكفار.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ استثناءٌ من المنافقين، والتوبة هنا: الإيمان الصَّادق في الظاهر والباطن.

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ المعنى: أيُّ حاجةٍ أو منفعة لله بعذابكم وهو الغنيُّ عنكم!.

وقدَّم الشكر على الإيمان؛ لأنَّ العبد ينظر إلى النعم فيَشكر عليها ثم يؤمن بالمنعِم، فكأنَّ الشكر سببٌ للإيمان متقدِّمٌ عليه.

ويَحتمل أن يكون الشكر يتضمَّن الإيمان، ثم ذكر الإيمان بعده توكيدًا واهتمامًا به.

والشَّاكر اسم الله، ذُكِر في «اللغات»[١].

﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ أي: إلَّا جَهْرَ المظلوم، فيجوز له مِن الجهر:

أن يدعوَ على مَن ظَلمه.

وقيل: أن يَذكر ما فُعل به من الظُّلم.

وقيل: أن يَرُدَّ عليه بمثل مَظلمته إن كان شتَمه.

﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ الآيةَ؛ ترغيبٌ في فعل الخير سرًّا وعلانية،

(١) انظر المادة (٥٤٠) في اللغات.

وفي العفو عن الظلم بعد أن أَباح الانتصارَ؛ لأن العفوَ أحبُّ إلى الله من الانتصار، وأكَّد ذلك بوصفه تعالى نفسَه بالعَفْو مع القُدرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ﴾ الآيةَ؛ [1] في اليهود والنصارى؛ لأنهم آمنوا بأنبيائهم وكفروا بمحمدٍ ﷺ وغيرِه.

ومعنى التَّفريق بين الله ورسله: الإيمانُ به والكفر برسله.

وكذلك التفريق بين الرُّسل: هو الكفر ببعضهم والإيمان ببعضهم، فحَكم الله على مَن كان كذلك بحُكم الكفر الحقيقيِّ الكامل.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآيةَ؛ في أمة محمد ﷺ؛ لأنهم آمنوا بالله وجميع رسله.

---

(١) في د زيادة: «نزلت».

[﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾].

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية؛ روي أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: لن نؤمن بك حتى تأتينا بكتابٍ من السماء جملةً كما أتى موسى بالتوراة.

وقيل: كتابٌ إلى فلان، وكتابٌ إلى فلان بأنك رسول الله.

وإنما طلبوا ذلك على وجه التعنُّت، فذَكر الله سؤالهم من موسى، وسوءَ أدبهم معه؛ تسليةً للنبي ﷺ بالتأسِّي بغيره.

ثم ذَكر أفعالهم القبيحة؛ ليُبيِّن أنَّ كفرَهم إنما هو عنادٌ، وقد تقدَّم في «البقرة»[١] ذِكْرُ طلبِهم للرؤية، واتخاذهم العجلَ، ورَفْع الطورِ فوقَهم، واعتدائهم في السَّبت وغيرِ ذلك مما أشير إليه هنا.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ «ما» زائدةٌ؛ للتأكيد، والباء تتعلَّق:

بمحذوفٍ؛ تقديره: بسبب نقْضِهم فَعَلْنا بهم ما فعلنا.

أو تتعلَّق بقوله: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾، ويكون ﴿فَبِظُلْمٍ﴾ -على هذا- بدلًا من قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾.

﴿بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ هو أنْ رَمَوْا مريمَ بالزِّنا مع رؤيتهم الآيةَ في كلام عيسى في المهد.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ عدَّد اللهُ في جملة قبائحهم قولَهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ﴾؛ لأنهم قالوها افتخارًا وجُرْأةً مع أنهم كذَبوا في ذلك، ولزِمهم الذنبُ وهم لم يقتلوه؛ لأنهم صلبوا الشخص الذي أُلْقِي شَبَهُه عليه، وهم يعتقدون أنه عيسى.

وروي أن عيسى قال للحواريين: أيُّكم يُلْقَى عليه شَبَهِي فيُقتَل ويكون رفيقي في الجنة؟ فقال أحدهم: أنا، فأُلقِي عليه شَبَهُ عيسى فقُتِل على أنه عيسى.

وقيل: بل دلَّ على عيسى يهوديٌّ، فألقى اللهُ شَبه عيسى على اليهودي،

---

(١) انظر صفحة ١/ ٣١٥ وما بعدها.

فقُتِل اليهوديُّ، ورُفِع عيسى إلى السماء حيًّا، حتى ينزلَ إلى الأرض فيقتلَ الدَّجَّالَ.

﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ إن قيل: كيف قالوا فيه ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ وهم يكفرون به ويسبُّونه؟

فالجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنهم قالوا ذلك على وجه التهكُّم والاستهزاء.

والثاني: أنهم قالوه على حسَب اعتقاد المسلمين فيه؛ كأنهم قالوا: رسول الله عندَكم أو بزعمِكم.

الثالث: أنه مِن قول الله لا من قولهم؛ فيوقف قبله، وفائدته: تعظيمُ ذنبهم، وتقبيح قولهم: إنا قتلناه.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ ردٌّ عليهم وتكذيبٌ لهم وللنصارى أيضًا في قولهم: إنه صُلِب؛ حتى عبدوا الصَّليب من أجل ذلك، والعَجب كلُّ العجب مِن تناقضهم في قولهم: إنه إلهٌ أو ابن إلهٍ، ثم يقولون: إنه صُلِب!.

﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ فيه تأويلان:

أحدهما: ما ذكرناه مِن إلقاء شَبَهِه على الحواريِّ، أو على اليهودي.

والآخر: أنَّ معناه: شُبِّه لهم الأمرُ؛ أي: خَلط لهم القومُ الذين حاولوا قتله؛ فإنهم قتلوا رجلًا آخر وصلبوه ومنعوا الناس أن يَقرُبوا منه، حتى تغيَّر بحيث لا يُعرف، وقالوا للناس: هذا عيسى، ولم يكن عيسى، فاعتقد الناس صدقَهم وكانوا متعمِّدين للكذب.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنۡهُۚ﴾ روي أنه لما رُفع عيسى وأُلقي شَبهه على غيره فقتلوه قالوا: إن كان هذا المقتولُ عيسى فأين صاحبُنا؟، وإن كان هذا صاحبَنا فأين عيسى؟ فاختلفوا، فقال بعضهم: هو هو، وقال بعضهم: ليس هو، فأجمعوا أنَّ شخصًا قُتِل، واختلفوا مَن كان.

﴿إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ﴾ استثناءٌ منقطع؛ لأنَّ العلم تحقيقٌ والظن تردُّدٌ.

وقال ابن عطية: هو متَّصلٌ؛ إذ الظنُّ والعلم يَجمعهما جنسُ المعتقدات[1].

فإن قيل: كيف وصفهم بالشكِّ وهو تردُّدٌ بين احتمالين على السَّواء، ثم وصفهم بالظنِّ وهو ترجيحُ أحد الاحتمالين؟

فالجواب: أنهم كانوا على الشكِّ، ثم لَاحَتْ لهم أَمارةٌ فظنُّوا. قاله الزمخشري[2].

وقد يقال: الظنُّ بمعنى الشك، وبمعنى الوَهْم الذي هو أضعف من الشك.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾ أي: ما قتلوه قتلًا يقينًا؛ فإعراب ﴿يَقِينَۢا﴾ على هذا: صفةٌ لمصدر محذوف.

وقيل: هو مصدرٌ في موضع الحال؛ أي: ما قتلوه متيقِّنين.

وقيل: هو تأكيدٌ للنفي الذي في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾؛ أي: تَيقَّنَ نفيُ قتلِه، وهو على هذا منصوبٌ على المصدرية.

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٦٢).

(٢) الكشاف (٥/ ٢٢١).

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ أي: إلى سمائه[١]، وقد ورد في حديث الإسراء أنه في السماء الثانية[٢].

﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ﴾ فيها تأويلان:

أحدهما: أنَّ الضمير في ﴿مَوۡتِهِۦ﴾ لعيسى، والمعنى: أنَّ كلَّ أحدٍ من أهل الكتاب يؤمن بعيسى حين ينزلُ إلى الأرض، قبل أن يموت عيسى، وتصيرُ الأديان كلُّها حينئذٍ دينًا واحدًا، وهو دين الإسلام.

والثاني: أنَّ الضمير في ﴿مَوۡتِهِۦ﴾ للكتابيِّ الذي تضمَّنه قولُه: ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، **التقدير**: وإن من أهل الكتاب أحدٌ إلَّا ليؤمننَّ بعيسى ويَعلمُ أنه نبيٌّ قبل أن يموت هذا الإنسان؛ وذلك حين معاينة الموت، وهو إيمانٌ لا ينفعه، وقد روي هذا المعنى عن ابن عباس وغيره.

وفي مصحف أُبيِّ بن كعب: «قبل موتهم»، وفي هذه القراءة تقويةٌ للقول الثاني.

والضمير في ﴿بِهِۦ﴾: لعيسى على الوجهين.

وقيل: هو لمحمد ﷺ.

﴿وَبِصَدِّهِمۡ﴾ يَحتمل أن يكون:

بمعنى الإعراض؛ فيكون ﴿كَثِيرًا﴾ صفةً لمصدر محذوف؛ تقديره: صدًّا كثيرًا.

---

(١) انظر تعليق الشيخ عبد الرحمن البراك في صفحة ١/ ٥٤٦.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

أو بمعنى صدِّهم لغيرهم؛ فيكون ﴿كَثِيرًا﴾ مفعولًا بالصدِّ؛ أي: صَدُّوا كثيرًا من الناس عن سبيل الله.

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ﴾ هم عبد الله بن سلَام، ومُخَيْرِيق، ومَن جرى مجراهم.

﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ﴾ منصوبٌ على المدح بإضمارِ فعلٍ، وهو جائزٌ كثيرٌ في الكلام.

وقالت عائشة: هو مِن لحن كُتَّاب المصحف[1].

وفي مصحف ابن مسعود: «والمقيمون» على الأصل.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٦٨٠)، والفراء في معاني القرآن (١/ ١٠٦) بإسنادهما عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة ﵂ عن قوله: ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وعن قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ وعن قوله: ﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ فقالت: «يا ابن أختي، هذا عمل الكُتَّاب أخطؤوا في الكتاب»، وقال السيوطي في الإتقان (٢/ ٢٦٩): «هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين»، وقال الطبري تعليقًا على هذا الأثر (٧/ ٦٨٤): «فلو كان ذلك خطأً من الكاتب لكان الواجب أن يكون في كل المصاحف غيرِ مصحفنا الذي كتبه لنا الكاتب الذي أخطأ في كتابه= بخلاف ما هو في مصحفنا، وفي اتفاق مصحفنا ومصحف أبيٍّ في ذلك ما يدل على أن الذي في مصحفنا من ذلك صوابٌ غيرُ خطإٍ، مع أن ذلك لو كان خطأً من جهة الخط لم يكن الذين أُخِذ عنهم القرآن من أصحاب رسول الله ﷺ يعلِّمون مَن علَّموا ذلك من المسلمين على وجه اللحن، ولأصلحوه بألسنتهم، ولقَّنوه للأمة تعليمًا على وجه الصواب، وفي نقل المسلمين جميعًا ذلك قراءةً على ما هو به في الخط مرسومًا أدلُّ الدليل على صحة ذلك وصوابه، وأن لا صُنْعَ في ذلك للكاتب»، وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٥/ ٢٤٨) وما بعدها.

[﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٦٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ١٦٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧٠ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾].

﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ الآيةَ؛ ردٌّ على اليهود الذين سألوا من النبي[1] ﷺ أن يُنزِّلَ عليهم كتابًا من السماء، واحتجاجٌ عليهم بأن الذي أتى به وحيٌ، كما أتى مَن تقدَّم مِن الأنبياء بالوحي من غير إنزال كتابٍ من السماء، ولذلك أكثرَ مِن ذكْر الأنبياء الذين كان شأنهم هذا؛ لتقومَ بهم الحجة.

﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ﴾ منصوبٌ بفعل مضمر؛ أي: أرسلنا رسلًا.

---

(١) في أ: «سألوا النبيَّ».

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ تصريحٌ بالكلام، مؤكَّدٌ بالمصدر، وذلك دليلٌ على بطلان قول المعتزلة: إنَّ الشجرة هي التي كلَّمت موسى.

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ﴾ منصوبٌ:

بفعل مضمر.

أو على البدل.

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: بعَثهم الله ليَقطعَ حجَّةَ مَن يقول: لو أُرسِل إليَّ رسولٌ لآمنت.

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾ الآيةَ؛ معناها: أنَّ الله يشهد بأن القرآن مِن عنده، وكذلك تشهد الملائكة بذلك.

وسبب الآية: إنكارُ اليهود للوحي، فجاء الاستدراك؛ على تقدير أنهم قالوا: لن نشهدَ بما أُنزِل إليك، فقيل: لكن الله يشهد بذلك.

وفي الآية من أدوات البيان: التَّرديد، وهو ذكر الشهادة أوَّلًا، ثم ذكرها في آخر الآية.

﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ في هذا دليلٌ لأهل السنة على إثبات علم الله، خلافًا للمعتزلة في قولهم: إنه عالم بلا علم، وقد تأوَّلوا الآيةَ بتأويلٍ بعيد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطابٌ عام؛ لأن النبي ﷺ بُعِث إلى جميع الناس.

﴿فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ انتصب ﴿خَيْرًا﴾ هنا، وفي قوله: ﴿ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾:

بفعلٍ مضمر لا يظهر؛ تقديره: ائتوا خيرًا لكم. هذا مذهب سيبويه.

وقال الخليل: انتصب بقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾ و﴿ٱنتَهُوا۟﴾ على المعنى.

وقال الفرَّاء: فآمنوا إيمانًا خيرًا لكم؛ فنصبه على النعت لمصدر محذوف.

وقال بعض الكوفيين: هو خبر «كان» المحذوفة؛ تقديره: يكن الإيمان خيرًا لكم.

﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو غنيٌّ عنكم، لا يضرُّه كفرُكم.

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ هذا خطابٌ للنصارى؛ لأنهم غلَوْا في عيسى حتى كفَروا، فلفظ «أهل الكتاب» عمومٌ يراد به الخصوص في النصارى؛ بدليل ما بعد ذلك.

والغلو: هو الإفراط وتجاوز الحد.

﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾ أي: مكوَّنٌ عن كلمته التي هي «كن»، مِن غير واسطةِ أبٍ ولا نطفة.

﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي: ذو روحٍ من الله، فـ«مِن» هنا: لابتداء الغاية، والمعنى: مِن عند الله.

وجعَله من عند الله؛ لأن الله أَرسل به جبريلَ عليه السلام إلى مريم.

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ﴾ نهيٌ عن التَّثليث الخبيث، وهو مذهب النصارى.

وإعراب ﴿ثَلَـٰثَةٌ﴾: خبر ابتداءٍ مضمر.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ برهانٌ على تنزيهه تعالى عن الولد؛ لأنه مالك كل شيء.

[﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾].

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ﴾ لن يأنف. وكذلك[1] حيث وقع.

﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فيه دليلٌ لمن قال: إنَّ الملائكة أفضل من الأنبياء؛ لأن المعنى: لن يستنكف عيسى ولا مَن فوقه.

﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ﴾ هو القرآن، وهو أيضًا النور المبين.

ويَحتمل أن يريد بالبرهان: الدلائلَ والحُجج، وبالنور: النبيَّ ﷺ؛ لأنه سمَّاه سراجًا.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ أي: يَطلبون منك الفُتْيا.

ويَحتمل أن يكون هذا الفعل:

طالبًا للكلالة، و﴿يُفْتِيكُمْ﴾ أيضًا طالبًا لها؛ فيكون من باب الإعمال،

(١) في د زيادة: «معناه».

وأُعمِل العامل الثاني على اختيار البصريين.

أو يكون ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ مقطوعًا عن ذلك؛ فيوقَف عليه.

والأول أظهر.

وقد تقدَّم معنى الكلالة في أوَّل السورة[١].

والمراد بالأخت والأخِ هنا: الشَّقائق، والذين للأبِ إذا عَدِم الشقائقُ، وقد تقدَّم حكم الإخوة للأمِّ في قوله: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ الآية.

﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾ ارتفع بفعل مضمر عند البصريين.

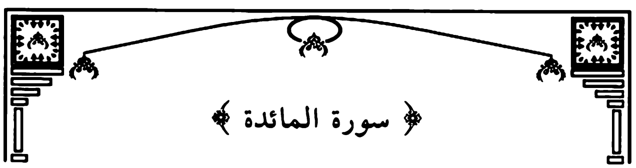
ولا إشكال فيما ذُكِر هنا من أحكام المواريث.

﴿أَن تَضِلُّوا۟﴾ مفعولٌ من أجله؛ تقديره: كراهةَ أن تَضِلُّوا.

---

(١) انظر صفحة ٢٣.





﴿ سورة المائدة ﴾

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًاۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾].

﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ﴾ قيل: إن العقود هنا: ما عقده الإنسانُ مع غيره مِن بيعٍ

ونكاح وعتق وشبه ذلك.

وقيل: ما عقده مع ربِّه من الطَّاعات، كالحج والصيام وشبه ذلك.

وقيل: ما عقده اللهُ عليهم من التَّحليل والتحريم في دينه؛ ذُكِر مجمَلًا ثم فُصِّل بعد ذلك في قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم﴾ وما بعده.

﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ هي: الإبل والبقر والغنم.

وإضافة البهيمة إليها من باب إضافة الشيء إلى ما هو أخصُّ منه؛ لأن البهيمة تقع على الأنعام وغيرها.

قال الزمخشري: هي الإضافة التي بمعنى «مِن»، كخاتمٍ مِن حديد؛ أي: البهيمة من الأنعام[١].

وقيل: هي الوحش؛ كالظِّباءِ، وبقر الوحش.

والمعروف من كلام العرب: أن الأنعام لا يقع إلَّا على الإبل والبقر والغنم، وأن البهيمة تقع على كلِّ حيوانٍ ما عدا الإنسان.

﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يريد: الميتةَ وأخواتها.

﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ﴾ نُصِب على الحال من الضمير في ﴿لَكُم﴾.

﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ حالٌ من ﴿مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ﴾.

و﴿حُرُمٌ﴾ جمع حرامٍ؛ وهو المُحْرِم بالحج.

---

(١) الكشاف (٥/ ٢٥٥).

فالاستثناء بـ «إِلَّا» من البهائم المحلَّلة، والاستثناء بـ «غير» من القوم المخاطَبين.

﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ قيل: هي مناسك الحج؛ كان المشركون يحجُّون ويعتمرون، فأراد المسلمون أن يُغِيروا عليهم، فقيل لهم: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا تُغِيروا عليهم ولا تصدُّوهم.

وقيل: هي الحَرَم، وإحلالُه: الصيد فيه.

وقيل: هي ما يَحرُم على الحاج من النساء والصَّيد[1] وغير ذلك، وإحلالُه: فعله.

﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ قيل: هو جنس الأشهر الحُرُم الأربعة؛ وهي: رجب، وذو القَعدة، وذو الحِجَّة، والمحرَّم.

وقيل: أشهر الحج؛ وهي: شوال، وذو قَعدة، وذو الحجة.

وإحلالها: هو القتال فيها، وتغيير حالها.

﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾ هو ما يُهدَى إلى البيت الحرام من الأنعام، ويذبح تقرُّبًا إلى الله، فنَهى الله أن يُستحَلَّ؛ بأن يُغار عليه، أو يُصَدَّ عن البيت.

﴿وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ قيل: هي التي تُعلَّق في أعناق الهدي؛ فنَهى عن التعرُّض لها.

وقيل: أراد: ذواتِ القلائد من الهدي؛ وهي البُدْن، وجرَّدَها بالذِّكْر بعد دخولها في الهدي؛ اهتمامًا بها وتأكيدًا لأمرها.

---

(١) في ب، د: «والطيب» بدل «والصيد»، وكذا في هامش أ ورمز له بـ«خ».

﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي: القاصدين إلى البيت لحجٍّ أو عمرة، نهى الله عن الإغارة عليهم أو صدِّهم عن البيت.

ونزلت الآية - على ما قال السهيلي- بسبب الحُطَم البَكْريِّ - واسمه: شُريح بن ضُبَيعة -[1]، أخذته خيل رسول الله ﷺ وهو يَقصِد إلى الكعبة ليعتمر[2].

وهذا النهي عن إحلال هذه الأشياء عامٌّ في المسلمين والمشركين، ثم نُسِخ النهي عن قتال المشركين بقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وبقوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [التوبة: ٢٨]، وبقوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٧].

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ الفضل: الربح في التجارة، والرضوان: الرحمة[3] في الدنيا أو[4] في الآخرة.

---

(١) الحطم لقبٌ له، ومعناه: الراعي الذي يسوق ماشيته سوقًا عنيفًا، لقب بذلك لأنه غزا اليمن في جموعٍ جمعها من ربيعة فغنم وسبى بعد حربٍ كانت بينه وبين كندة، ثم رجع وأخذ في طريقِ مفازةٍ فضلَّ بهم دليلُهم ثمَّ هرب مِنْهُم، فهلك أناسٌ كثير بالعطش، فجعل شريح يسوق بأصحابه سَوقًا حثيثًا حتى نجوا ووردوا الماء، فقال فيه رشيد ابن رميض العَنْزي:

هـذا أوانُ الـشـدِّ فـاشـتـدِّي زِيَمْ　　　قـد لـفَّـهـا الـلـيـلُ بـسَـوَّاقٍ حُـطَـمْ

إلى آخر الأبيات. انظر: فوات الوفَيات، للصفدي (١٦/ ٨٤).

(٢) انظر: التعريف والإعلام، للسهيلي، ص: ٩١.

(٣) في ب، د: «الربح».

(٤) في ب، د: «و».

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ أي: إذا حللتم مِن إحرامكم بالحج فاصطادوا إن شئتم؛ فالأمر هنا إباحةٌ بإجماع.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ معنى ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾: لا يُكسِبنَّكم؛ يقال: جَرَم فلانٌ فلانًا هذا الأمرَ: إذا أكسبَه إيَّاه وحمَله عليه.

والشنآن: هو البغض والحِقد؛ ويقال بفتح النون وإسكانها.

و﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ مفعولٌ من أجله.

و﴿أَن تَعْتَدُوا۟﴾ مفعولٌ ثانٍ لـ ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾.

ومعنى الآية: لا تَحملنَّكم[1] عداوةُ قومٍ على أن تعتدوا عليهم مِن أجل أنْ صدُّوكم عن المسجد الحرام.

ونزلت عام الفتح؛ حين ظفِر المسلمون بأهل مكة فأرادوا أن يستأصلوهم بالقتل؛ لأنهم كانوا قد صدُّوهم عن المسجد الحرام عامَ الحديبية، فنهاهم الله عن قتلهم؛ لأن الله عَلِم أنهم يؤمنون.

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ وصيةٌ عامة.

والفرق بين البرِّ والتقوى:

أن البرَّ: عامٌّ في فعل الواجبات والمندوبات، وترك المحرمات، وفي كل ما يُقرِّب إلى الله.

---

(١) في أ، ب، د: «لا تحملْكم».

والتقوى: في الواجبات، وترك المحرمات، دونَ فعل المندوبات.

فالبرُّ أعم من التقوى.

﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ الفرق بينهما:

أن الإثم: كلُّ ذنب بين العبد وبين الله (أو بينه وبين الناس)[١].

والعدوان: على الناس.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ تقدَّم الكلام عليها في «البقرة»[٢].

﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ هي التي تُخنَق بحبلٍ وشبهه.

﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ هي المضروبة بعصًا أو حجرٍ وشبهه.

﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ هي التي تَسقط من جبلٍ وشبهه[٣].

﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ هي التي نَطَحتْها بهيمةٌ أخرى.

﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ أي: أكلَ بعضَه، والسَّبُعُ: كلُّ حيوانٍ مفترس؛ كالذئب والأسد والنَّمِر والثعلب والعُقَاب والنَّسْر.

﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ قيل: إنه استثناءٌ منقطع؛ وذلك إذا أريد بالمنخنقة وأخواتها: ما مات من الاختناق والوَقْذ والتَّرَدِّي والنَّطح وأكْل السَّبُعِ، والمعنى: حُرِّمت عليكم هذه الأشياء، لكن ما ذكَّيتم من غيرها فهو حلال.

---

(١) سقط من ب، ج، هـ.

(٢) انظر صفحة ١/ ٣٩٤.

(٣) في ب، د: «وشبه ذلك».

وهذا القول ضعيف؛ لأنها إذا ماتت بهذه الأسباب فهي مَيْتةٌ؛ فقد دخلت في عموم الميتة، فلا فائدة لذكرها بعدَها.

وقيل: إنه استثناءٌ متصلٌ؛ وذلك إن أُرِيد بالمنخنقة وأخواتها: ما أصابته تلك الأسباب وأُدْرِكت ذكاتُه، والمعنى على هذا: إلَّا ما أدركتم ذكاتَه من هذه الأشياء فهو حلال.

ثم اختَلف أهلُ هذا القول: هل يشترط أن تكون لم تُنْفَذْ مَقاتِلُها أم لا؟

وأما إذا لم تُشرِف على الموت من هذه الأسباب فذكاتها جائزةٌ باتفاق.

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ عطفٌ على المحرمات المذكورة.

و﴿ٱلنُّصُبِ﴾ حجارةٌ كان أهل الجاهلية يُعظِّمونها ويَذْبحون عليها، وليست بالأصنام؛ لأن الأصنامَ مصوَّرةٌ والنُّصُب غير مصوَّرة، وهي الأنصاب، والمفرد: نِصَابٌ.

وقد قيل: إن النُّصُب بضمتين: مفرد، وجمعه: أَنصاب.

﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾ عطفٌ على المحرمات أيضًا.

والاستقسام: هو طلب ما قُسِم له.

والأزلام: هي السِّهَام؛ واحدها: زلَمٌ - بضم الزاي وفتحها -، وكانت ثلاثةً قد كُتِب على أحدها: «افعل»، وعلى الآخر: «لا تفعل»، والثالث مهملٌ، فإذا أراد الإنسان أن يَعمل أمرًا جعلها في خَرِيطةٍ، وأدخل يده وأخرج أحدَها، فإن خرج له الذي فيه «افعل» فعَل ما أراد، وإن خرج له

الذي فيه «لا تفعل» تركه، وإن خرج[1] المهمل أعاد الضَّرْب.

﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ الإشارةُ:

إلى تناول المحرمات المذكورة كلِّها.

أو إلى الاستقسام بالأزلام، وإنما حرَّمه الله وجعله فسقًا؛ لأنه دخولٌ في علم الغيب الذي انفرد الله به، فهو كالكِهانة وغيرها مما يرام به الاطِّلاعُ على الغيوب.

﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ أي: يئسوا أن يَغلبوه أو يُبطِلوه.

ونزلت بعد العصر مِن يوم الجمعة يومَ عرَفة في حجة الوداع؛ فذلك هو اليوم المذكور؛ لظهور الإسلام فيه وكثرة المسلمين.

ويَحتمل أن يكون المرادُ باليوم: الزمانَ الحاضر، لا اليومَ بعينه.

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ هذا الإكمال يَحتمل أن يكون:

بالنصر والظهور.

أو بتعليم الشرائع، وبيان الحلال والحرام.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ راجعٌ إلى المحرمات المذكورة قبلَ هذا، أباحها الله عند الاضطرار.

﴿فِى مَخْمَصَةٍ﴾ في مجاعةٍ.

---

(١) في ج، د زيادة: «له».

﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ هو بمعنى: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ وقد تقدَّم في «البقرة»[١].

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قام مقام: «فلا جناح عليه»، وتضمَّن زيادةَ الوعد.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ سببها: أن المسلمين سألوا رسول الله ﷺ عما يَحِلُّ لهم من المآكل.

وقيل: لما أمر رسول الله ﷺ بقتل الكلاب سألوه: ماذا يحل لنا من الكلاب؟ فنزلت مبيِّنةً للصيد بالكلاب.

﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَٰتُ﴾ هي عند مالك: الحلال؛ وذلك ما لم يرد تحريمُه في كتاب ولا سنة.

وعند الشافعي: الحلال المستلَذُّ؛ فحرَّم كل مستقذَرٍ كالخنافس وشبهها؛ لأنها من الخبائث.

﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ عطفٌ على ﴿الطَّيِّبَٰتُ﴾؛ على حذف مضاف تقديره: وصيدُ ما علَّمتم.

أو: مبتدأ وخبره: ﴿فَكُلُوا مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا أحسن؛ لأنه لا حذفَ فيه.

والجوارح: هي الكلاب ونحوها مما يُصَاد به، وسُمِّيت جوارح؛ لأنها كواسبُ لأهلها، فهو من الجَرْح بمعنى الكسب.

(١) انظر صفحة ١/ ٣٩٥.

ولا خلاف في جواز الصيد بالكلاب.

واختُلف فيما سواها:

ومذهب الجمهور: الجواز؛ للأحاديث الواردة في البُزَاة وغيرها.

ومنع بعضهم ذلك؛ لقوله: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾؛ فإنه مشتقٌّ من الكلب.

ونزلت الآية بسبب عَدي بن حاتم؛ فإنه كان له كلاب يَصطاد بها، فسأل رسول الله ﷺ عما يحل من الصيد.

﴿مُكَلِّبِينَ﴾ أي: معلِّمين للكلابِ[1] الاصطيادَ.

وقيل: معناه: أصحاب كلاب.

وهو منصوبٌ على الحال من ضمير الفاعل في ﴿عَلَّمْتُم﴾.

ويقتضي قولُه: ﴿عَلَّمْتُم﴾ و﴿مُكَلِّبِينَ﴾: أنه لا يجوز الصيد إلَّا بجارحٍ معلَّم؛ لقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم﴾ ولقوله: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ على القول الأول، ولتأكيده ذلك بقوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾.

وحدُّ التَّعليم:

عند ابن القاسم: أن يَفهم الجارحُ الإيسادَ[2] والزَّجرَ.

---

(١) في ج، د: «معلمين الكلابَ».

(٢) في د هنا وفي الموضع التالي: «الإشلاء». قال في لسان العرب (٤/ ٣٨): «وآسَدَ الكَلْبَ بالصيدِ إيسادًا: هيَّجه وأغراهُ، وأشلاه: دعاه»، وقال الإمام ثعلب في كتاب الفصيح (ص: ١٥٥): «وتَقُولُ: أَشْلَيْتُ الكَلْبَ وغَيْرَهُ: إِذَا دَعَوْتَهُ إِلَيْكَ. وقَوْلُ النَّاسِ: أَشْلَيْتُهُ عَلَى الصَّيْدِ خَطَأٌ. فَإِنْ أَردتَ ذَلِكَ قُلْتَ: آسَدْتُهُ عَلَى الصَّيْدِ، وأَوْسَدتُهُ».

وقيل: الإيسادَ خاصةً.

وقيل: الزجرَ خاصة.

وقيل: أن يُجِيب إذا دُعِي.

﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: تعلمونهنَّ مِن الحيلة في الاصطياد وتأتِّي تحصيلِ الصيد، وهذا جزءٌ مما علمه الله الإنسانَ؛ فـ «من» للتبعيض.

ويَحتمل أن تكون لابتداء الغاية.

والجملة في موضع: الحال، أو استئنافٌ.

﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ الأمر هنا إباحةٌ.

ويَحتمل أن يريد: مما أمسكن سواءٌ أكلت الجوارح منه أو لم تأكل، وهو ظاهر إطلاق اللفظ، وبذلك أخذ مالك.

ويَحتمل أن يريد: مما أمسكن ولم يأكلن منه؛ وبذلك فسَّره رسول الله ﷺ بقوله: «**فإن أكل منه فلا تأكل؛ فإنه إنما أَمسك على نفسه**»[١]، وقد أَخذ بهذا بعض العلماء.

وقد ورد في حديثٍ آخر: «**إذا أكل فكل**»[٢]، وهو حجة لمالك.

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ هذا أمرٌ بالتسمية على الصَّيد، ويجري الذبح مجراه.

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٥)، ومسلم (١٩٢٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٨٥٢).

وقد اختَلف الناس في حكم التَّسمية:

فقال الظاهرية: إنها واجبةٌ؛ حملًا للأمر على الوجوب، فإن تُرِكت التسمية عمدًا أو نسيانًا، لم تؤكل عندهم.

وقال الشافعي: إنها مستحبة؛ حملًا للأمر على الندب، وتؤكل عنده؛ سواءٌ تركت التسمية عمدًا أو نسيانًا.

وجَعل بعضهم الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ عائدًا على الأكل؛ فليس فيها - على هذا - أمرٌ بالتسمية على الصيد.

ومذهب مالك: أنه: إن تُرِكت التسمية عمدًا لم تؤكل، وإن تركت نسيانًا أُكِلت؛ فهي عنده واجبةٌ مع الذُّكْرِ، ساقطةٌ مع النسيان.

﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ معنى ﴿حِلٌّ﴾: حلالٌ، و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هم اليهود والنصارى.

واختُلف في نصارى بني تَغْلِبٍ من العرب، وفيمن كان مسلمًا ثم ارتدَّ إلى اليهودية أو النصرانية هل يَحلُّ لنا طعامُهم أم لا؟.

ولفظ الآية يقتضي الجواز؛ لأنهم من أهل الكتاب.

واختُلف في المجوس والصابئين هل هم أهل كتاب أم لا؟.

وأما الطعام؛ فهو على ثلاثة أقسام:

أحدها: الذبائح؛ وقد اتَّفق العلماء على أنها مُرادة في الآية، فأجازوا أكْل ذبائح اليهود والنصارى.

واختلفوا فيما هو محرَّمٌ عليهم في دينهم، هل يحل لنا أم لا؟.

على ثلاثة أقوال: الجواز، والمنع، والكراهة.

وهذا الاختلاف مبنيٌّ على: هل هو من طعامهم أم لا؟

فإن أريد بطعامهم ما ذبحوه: جاز.

وإن أريد به ما يَحلُّ لهم: مُنِع.

والكراهة توسُّطٌ بين القولين.

القسم الثاني: ما لا محاولةَ لهم فيه؛ كالقمح والفاكهة، فهو جائز لنا باتِّفاقٍ.

والثالث: ما فيه محاولةٌ؛ كالخبز، وتَعصِير الزَّيت، وعَقْد الجُبْن، وشبه ذلك مما يمكن استعمال النجاسة فيه:

فمنعه ابن عباس؛ لأنه رأى أن طعامهم هو الذَّبائح خاصةً، ولأنه يمكن أن يكون نجسًا.

وأجازه الجمهور؛ لأنهم رأوه داخلًا في طعامهم.

وهذا إذا كان استعمال النجاسة فيه محتملًا، فأمَّا إذا تحقَّقْنا استعمالَ النجاسة فيه كالخمر والخنزير والميتة فلا يجوز أصلًا، وقد صنف الطُّرطوشيُّ[1] في تحريم جُبْن النصارى، وقال: إنه يُنَجِّس البائعَ

---

(١) هو أبو بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي نسبة إلى بلدة طُرطوشة بالأندلس، الفقيه المالكي، توفي بالاسكندرية سنة (٥٢٠هـ). انظر: الديباج المذهب، لابن فرحون (٢/ ٢٤٤).

والمشتري والآلة؛ لأنهم يُعْقِدُونه بإِنْفَحَةِ[1] الميتة[2].

ويجري مجرى ذلك الزيت إذا عَلِمنا أنهم يجعلونه في ظروف الميتة.

﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ هذه إباحةٌ للمسلمين أن يُطعِموا أهلَ الكتاب من طعامهم.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ عطفٌ على الطعام المحلَّل.

وقد تقدَّم أن الإحصان له أربعة معان: الإسلام، والتزوُّج، والعِفَّة، والحرية.

فأما الإسلام فلا يصحُّ هنا؛ لقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾.

وأما التزوج فلا يصحُّ أيضًا؛ لأن ذاتَ الزوج لا تحلُّ لغيره.

ويَحتمل هنا: العفةَ والحرية.

فمَن حمَله على العفة أجاز نكاح المرأة الكتابية سواءٌ كانت حرة أو أَمَة.

ومن حمله على الحرية أجاز نكاح الكتابية الحرة ومنع الأَمة، وهو مذهب مالك.

ولا تعارض بين هذه الآية وبين قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ [البقرة: ٢٢١] لأنه هذه في الكتابيَّات، والأخرى في المشركين من العرب.

---

(١) قال في «القاموس»: «الإنفَحَة بكسر الهمزة، وقد تشدد الحاء، وقد تكسر الفاء: شيءٌ يستخرج من بطن الجدْي الرضيع، أصفرُ، فيُعصر في صوفةٍ، فيغلظ كالجبن».

(٢) انظر: رسالة في تحريم الجبن الرومي، تحقيق: عبد المجيد التركي، ط: دار الغرب الإسلامي، سنة (١٤١٧هـ)، صفحة (١٣١).

وقد جعل بعضُ الناس هذه ناسخةً لتلك.

وقيل بالعكس.

وقد تقدَّم معنى: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٤]، ومعنى الأَخدان[١].

* * *

(١) انظر صفحة ٤٢.

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٦ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٨ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ۝١٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١١﴾].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ نزلت في غزوة المريسيع، حين انقطعَ[١] عِقد عائشة رضي الله عنها، فأقام الناس على الْتِماسِه وليسوا على ماءٍ، وليس معهم ماءٌ، فنزلت الرُّخصة في التيمم، فقال أُسيد بن حُضير: ما هذه بأوّل بركاتكم يا آلَ أبي بكر[٢]، ولذلك سُمِّيت الآيةُ آيةَ التيمم، وقد كان الوضوء مشروعًا قبلها، ثابتًا بالسنة.

---

(١) في د: «تلف».

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٢)، ومسلم (٣٦٧).

وقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ معناه: إذا أردتم القيام إلى الصلاة فتوضؤوا.

ويقتضي ظاهرُها: وجوبَ تجديد الوضوء لكل صلاة، وهو مذهب ابن سيرين وعكرمة.

ومذهب الجمهور: أنه لا يجب، واختلفوا في تأويل الآية على أربعة أقوال:

الأول: أنَّ وجوب تجديد الوضوء لكل صلاة منسوخٌ بفعل رسول الله ﷺ؛ إذ صلى الصلوات الخمس يومَ الفتح بوُضوء واحد(١).

والثاني: أن ما تقتضيه الآيةُ من التجديد يُحمَل على الندب.

والثالث: أن تقديرها: إذا قمتم مُحْدِثين؛ فإنما يجب على من أحدث.

والرابع: أن تقديرها: إذا قمتم من النوم.

﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ ذكَر في هذه الآية أربعة أعضاء:

اثنين محدودين؛ وهما اليدان والرجلان.

واثنين غير محدودين؛ وهما الوجه والرأس.

فأما المحدودان: فتُغسَل اليدان إلى المرفقين، والرجلان إلى الكعبين وجوبًا بإجماع؛ فإنَّ ذلك هو الحدُّ الذي جعَل الله لهما.

واختُلف: هل يجب غَسل المرفقين مع اليدين، وغسل الكعبين مع

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٧).

الرجلين أم لا؟ وذلك مبنيٌّ على معنى «إلى»:

فمن جعل «إلى» بمعنى «مع» في قوله: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ و﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ﴾ أوجب غَسْلَهما.

ومَن جعَلها بمعنى الغاية لم يوجِب غسلهما.

واختلف في الكعبين؛ هل هما اللَّذان عند مَعقِد الشِّراك؟ أو العظمان النَّاتِئان في طرف السَّاق؟ وهو أظهر؛ لأنه ذكَرهما بلفظ التثنية، ولو كان اللذان عند معقد الشراك لذكرهما بلفظ الجمع كما ذكر المرافق؛ لأنه على ذلك في كل رِجلٍ كعبٌ واحد.

وأما غير المحدودين: فاتُّفق على وجوب إيعاب الوجه.

وحدُّه طولًا: من أول منابت الشَّعر إلى آخر الذَّقَن أو اللحية، وحدُّه عرضًا: من الأذن إلى الأذن، وقيل: من العِذَار إلى العذار.

وأما الرأس: فمذهب مالك: وجوب إيعابه؛ كالوجه.

ومذهب كثيرٍ من العلماء: جواز الاقتصار على بعضه؛ لما ورد في الحديث: أن رسول الله ﷺ مسح على ناصيته[1]. ولكنهم اختلفوا في القدْر الذي يُجزئ على أقوال كثيرة.

﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ اختُلف في هذه الباء:

فقال قومٌ: إنها للتَّبعيض؛ وبنَوا على ذلك: جوازَ مسح بعض الرأس. وهذا القول غير صحيح عند أهل العربية.

---

(١) أخرجه أحمد (١٨١٣٤)، والنسائي (١٠٧).

وقال القَرَافيُّ: إنها باءُ الاستعانة التي تَدخل على الآلات، وإن المعنى: امسحوا أيديكم برؤوسكم[١]. وهذا ضعيف؛ لأن الرأس على هذا ماسحٌ لا ممسوح، وذلك خلاف المقصود.

وقيل: إنها زائدة. وهو ضعيف؛ لأن هذا ليس موضعَ زيادتها.

والصحيح عندي: أنها باء الإلصاق التي تُوصِل الفعلَ إلى مفعوله؛ لأن المسح تارةً يتعدَّى بنفسه، وتارةً بحرف الجر؛ كقوله: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ﴾، وكقوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣].

﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ قرئ: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالنصب؛ عطفًا على الوجوه[٢] والأيدي، فيقتضي ذلك: وجوبَ غَسل الرجلين.

وقرئ بالخفض:

فحمَله بعضهم على أنه عطفٌ على قوله: ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾، فأجاز مسح الرجلين، روي ذلك عن ابن عباس.

وقال الجمهور: لا يجوز مسحُهما، بل يجب غسلهما، وتأوَّلوا قراءة الخفض بثلاثة تأويلات:

أحدها: أنه خفضٌ على الجِوار، لا على العطف.

والآخر: أنه يراد به المسح على الخفين.

والثالث: أن ذلك منسوخٌ بالسنة.

---

(١) انظر: شرح تنقيح الفصول، للقرافي (ص: ١٠٤).

(٢) في ب، ج، هـ: «الوجه».

والفرق بين الغَسل والمسح:

أن المسح: إمرارُ اليدين بالبلل الذي يبقى من الماء.

والغسل: عند مالك: إمرارُ اليد بالماء، وعند الشافعي: إمرار الماء، وإن لم يدْلك باليد.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ تقدَّم الكلام على نظيرتها في «النساء»[1].

﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ أي: مِن ضيقٍ ولا مشقَّة؛ كقول رسول الله ﷺ: «دين الله يُسْرٌ»[2].

وبقيَّة الآية تفضُّلٌ مِن الله على عباده ورحمةٌ، وفي ضمن ذلك ترغيبٌ في الطهارة وتنشيط عليها.

﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ هو ما وقع في بيعة العقبة، وبيعة الرِّضوان، وكلِّ موطن قال المسلمون فيه: سمعنا وأطعنا.

﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ﴾ تقدَّم الكلام على نظيرتها في «النساء»[3].

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي: لا يَحملنَّكم بغضُ قومٍ على تركِ العدل فيهم.

﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ في سببها أربعةُ أقوال:

الأول: أن النبي ﷺ ذهب إلى بني النَّضِير من اليهود، فهمُّوا أن يَصبُّوا عليه صخرةً يقتلونه بها، فأخبره جبريل بذلك فقام من المكان، ويقوِّي هذا

---

(١) انظر صفحة ٥٩.

(٢) أخرجه البخاري (٣٩)، ولفظه: «إن الدين يسرٌ..».

(٣) انظر صفحة ١٢٠.

القولَ: ما ورد من الآيات بعد هذا في غدر اليهود.

الثاني: أنها نزلت في شأن الأعرابي الذي سلَّ السيف على رسول الله ﷺ حين وجده في سفر وهو وحده، وقال له: من يمنعك مني؟ قال: «الله»، فأغمد السيف وجلس[١]. واسمه: غَوْرَثُ بن الحارث الغَطَفانيُّ.

الثالث: أنها فيما همَّ به الكفار من الإيقاع بالمسلمين حين نزلت صلاة الخوف.

الرابع: أنها على الإطلاق في دفْع اللهِ الكفارَ عن المسلمين.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩١٠)، ومسلم (٨٤٣).

[﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾].

﴿ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ﴾ النَّقيب: هو كبير القوم القائمُ بأمورهم.

﴿إِنِّي مَعَكُمۡۖ﴾ أي: بنصري.

والخطاب: لبني إسرائيل، وقيل: للنُّقَباء.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾ اختُلف: هل أُرِيد تحريفُ الألفاظ أو المعاني؟.

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: على خيانةٍ؛ فهو مصدر كالعاقبة.

وقيل: على طائفةٍ خائنة.

وهو إخبارٌ بأمرٍ مُستقبَل.

﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾ منسوخٌ بالسيف والجزية.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ أي: ادَّعوا أنهم أنصار الله، وسَمَّوا أنفسهم بذلك، ثم كفروا بالله، ووصفوه بما لا يليق به.

ويتعلَّق[1] ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ﴾ بـ﴿أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ﴾، والضمير عائد على النصارى.

﴿فَأَغۡرَيۡنَا﴾ أي: أثبتنا وألصقْنا؛ وهو مأخوذٌ مِن الغِرَاء.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في الموضعين: يَعمُّ اليهود والنصارى.

وقيل: إنها نزلت بسبب اليهود الذين كانوا بالمدينة؛ فإنهم كانوا يَذْكرون رسول الله ﷺ ويصفونه بصفته، فلما حلَّ بالمدينة كفروا به.

﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾ يعني: محمدًا ﷺ، وفي الآية دلالةٌ على صحة

---

(١) في أ، ب، د: «وتتعلق».

نبوته؛ لأنه بيَّن لهم ما أخفَوه مما في كتبِهم، وهو أُمِّيٌّ لم يقرأ كتبَهم.

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ أي: يتركُه ولا يفضحُكم فيه.

﴿نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ محمدٌ ﷺ، والقرآن.

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ الآيةَ؛ ردٌّ على الذين قالوا: إن الله هو عيسى، وهم فرقة من النصارى.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ إشارة إلى خِلْقَةِ[1] عيسى من غير والدٍ.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ أي: قالت كل فرقةٍ عن نفسها: إنهم أبناء الله وأحِبَّاؤه.

والبُنوَّة هنا: بُنوَّة الحنان والرَّأفة.

وقال الزمخشريُّ: المعنى: نحن أشياعُ أبناءِ الله -عندهم-، وهما المسيح وعُزَير، كما يقول حَشَم الملوك: نحن الملوك[2].

﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾ ردٌّ عليهم؛ لأنهم قد اعترفوا أنهم يدخلون النار أيامًا معدوداتٍ.

وقد أخذ الصوفيةُ مِن الآية أن المحِبَّ لا يعذِّب حبيبَه[3]، ففي ذلك بِشارةٌ لمن أحبَّه الله.

---

(١) في ب: «خَلقِهِ».

(٢) الكشاف (٥/ ٣١٧).

(٣) قال ذلك أبو بكر الشِّبلي الصوفي لابن مجاهد المقرئ في محادثةٍ جرت بينهما في مجلس، أوردها الخطيب البغدادي بإسناده في تاريخ بغداد (١٦/ ٥٦٧)، وابن الصلاح في طبقات الشافعية (١/ ٤٨٩)، وفيها -كما عند الخطيب-: «ثم قال [الشبلي] له =

[﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾].

﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ قيل: جعل منكم ملوكًا؛ أي: أمراءَ.

وقيل: الملك: مَن له مسكنٌ وامرأة وخادِم.

﴿مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قيل: يعني: المنَّ والسلوى والغمام وغير ذلك من الآيات، وعلى هذا: يكون ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خاصًا بأهل زمانهم؛ لأن أمة محمد ﷺ قد أُوتيت مِن آياته مثل ذلك وأعظم.

وقيل: المراد: كثرةُ الأنبياء، فعلى هذا: يكون عامًّا؛ لأن الأنبياء في

= [أي: لابن مجاهد]: قد أجمع الناس أنك مقرئ الوقت، أين في القرآن الحبيب لا يعذِّب حبيبَه؟ قال: فسكت ابن مجاهد، فقال له أبي: قل يا أبا بكر، قال: قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾، فقال ابن مجاهد: كأنني ما سمعتُها قطّ!».

بني إسرائيل أكثرُ منهم في سائر الأمم.

﴿ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ أرض بيت المقدس، وقيل: الطُّور، وقيل: دمشق.

﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: قضى أن تكون لكم.

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ يَحتمل أن يريد:

الارتدادَ عن الدين والطاعة.

أو الرجوعَ إلى الطريق الذي جاؤوا منه؛ فإنه رُوي أنه لما أمرهم موسى عليه السلام بدخول الأرض المقدَّسة خافوا من الجبارين الذين فيها، وهمُّوا أن يُقدِّموا على أنفسهم رئيسًا ويرجعوا إلى مصر.

﴿قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ هم العمالقة.

﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ هما: يُوشَع وكالِب.

﴿يَخَافُونَ﴾ أي: يخافون الله.

وقيل: يخافون الجبارين، ولكن الله أنعم عليهم بالصبر والثبوت؛ لصدق إيمانهما.

﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ أي: باب المدينة.

﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ إفراطٌ في العصيانِ وسوءِ الأدب بعبارة تقتضي الكفر والاستهانة بالله ورسوله، وأين هؤلاء من الذين قالوا لرسول الله ﷺ: لسنا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى، ولكن نقول لك: اذهب أنت

وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون![(١)].

﴿لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾ قاله موسى عليه السلام؛ ليتبرَّأَ إلى الله من قول بني إسرائيل، ويَبذلَ جهده في طاعة الله، ويعتذرَ إلى الله.

وإعراب ﴿أَخِي﴾:

عطفٌ على ﴿نَفۡسِي﴾؛ لأن أخاه هارون كان يُطيعه.

وقيل: عطفٌ على الضمير في ﴿أَمۡلِكُ﴾؛ أي: لا أملك أنا إلَّا نفسي، ولا يملك أخي إلَّا نفسَه.

وقيل: مبتدأ، وخبره محذوف؛ أي: أخي لا يملك إلا نفسه.

﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا﴾ أي: فارِقْ بيننا وبينهم؛ فهو من الفُرْقة.

وقيل: افصِلْ بيننا وبينهم بحُكم.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ﴾ الضمير في ﴿قَالَ﴾ لله تعالى.

وحرَّم الله على جميع بني إسرائيل دخولَ تلك المدينة أربعين سنةً، وتركهم في هذه المدة يتيهون في الأرض؛ أي: في أرض التِّيهِ - وهو ما بين مصر والشام -، حتى مات كلُّ من قال: «إن لن ندخلها»، ولم يدخلْها أحدٌ من ذلك الجيل إلَّا يُوشَع وكالِب، ومات هارون في التيه، ومات موسى بعده في التيه أيضًا.

وقيل: إن موسى وهارون لم يكونا في التيه؛ لقوله: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

---

(١) قاله المقداد بن الأسود رضي الله عنه يوم بدر. أخرجه البخاري (٣٩٥٢)، (٤٦٠٩).

وخرج يوشع ببني إسرائيل بعد الأربعين سنة، وقاتل الجبَّارين، وفتح المدينة.

والعامل في ﴿أَرْبَعِينَ﴾: ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾ على الأصحِّ؛ فيجب وصله معه.

وقيل: العامل فيه: ﴿يَتِيهُونَ﴾، فعلى هذا يجوز الوقف على قوله: ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾، وهذا ضعيف؛ لأنه لا حاملَ على تقديم المعمول هنا، مع أن القول الأوَّل أكمل معنًى؛ لأنه بيانٌ لمدة التَّحريم والتِّيه.

﴿يَتِيهُونَ﴾ أي: يتحيَّرون، وروي أنهم كانوا يسيرون الليل كلَّه، فإذا أصبحوا وجدوا أنفسهم في الموضع الذي كانوا فيه.

﴿فَلَا تَأْسَ﴾ أي: لا تحزن، والخطاب: لموسى.

وقيل: لمحمد ﷺ، ويراد بـ﴿الْفَاسِقِينَ﴾: مَن كان في عصره من اليهود.

* * *

[﴿ ۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾].

﴿نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾ هما قابيلُ وهابيلُ.

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ روي أن قابيل كان صاحب زرع فقرَّب أرْذل زرعه، وكان هابيل صاحب غنَم فقرَّب أحسن كبشٍ عنده، وكانت العادة حينئذ أن يُقرِّب الإنسان قُرْبانه إلى الله ويقوم يصلي، فإذا نزلت نارٌ من السماء وأكلت القربان فذلك دليلٌ على القَبول وإلَّا فلا قَبولَ، فنزلت النار فأخذت كبش هابيل ورفعته، وتركت زرع قابيل، فحسده قابيلُ فقتله.

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ استدلَّ بها المعتزلة وغيرهم على أن العاصيَ لا يُتَقبَّلُ عمله.

وتأوَّلها الأشعرية: بأن التقوى هنا يراد بها: تقوى الشرك[١].

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ﴾ الآيةَ؛ قيل: معناها: لئن بدأتني بالقتل لم أبدأْك به.

وقيل: لئن بدأتني بالقتل لم أُدافعْك، ثم اختُلف على هذا القول:

هل تَرْكه لدفاعه عن نفسه تورُّعٌ[٢] وفضيلة؟ وهو الأظهر والأشهر.

أو كان واجبًا عندهم أن لا يدافع أحد عن نفسه؟ وهو قول مجاهد.

وأما في شرعنا: فيجوز دفْعُ الإنسان عن نفسه؛ بل يجب.

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ الإرادة هنا ليست بإرادة محبَّةٍ وشهوة، وإنما هو تَخيُّرٌ في أهون الشَّرَّين؛ كأنه قال: إن قتلتني فذلك أحبُّ إلي مِن

---

(١) قال الشيخ عبد الرحمن البراك: قوله: (استدل بها المعتزلة..) إلخ، أقول: ذكر المؤلف قول المعتزلة وقول الأشاعرة، وظاهر كلامه أنه يرد قول المعتزلة، ويرضى قول الأشاعرة، وقولُ المعتزلة ظاهر الفساد؛ لأنه مبنيٌّ على أن العاصي ليس بمؤمن، وشرط قبول العمل الإيمان، وأما قول الأشاعرة فصحيحٌ من جهة أن الشرك يحبط العمل، لكن هذا القول يقتضي أن من لم يكن مشركا فالله يقبل عمله مطلقا، وليس هذا بمستقيم؛ فإن المؤمن الموحد قد يعرض له في العمل ما يبطله كالرياء، والمن والأذى في الصدقة، ومخالفة السنة، ومن الخطأ في فهم الآية ظنُّ بعض الناس أن المراد أن الله لا يتقبل إلا من تقيٍّ فاعل للمأمورات، تارك للمعاصي، وهذا يؤول إلى قول المعتزلة، والصواب في الآية أن الله لا يتقبل إلا ممن اتقى الله في عمله ذلك، بأن أتى به على الوجه المشروع، خالصا صوابا، ولم يأت بما يبطله. والله أعلم.

(٢) في د زيادة: «منه».

أن أقتلك، كما ورد في الأثر: «كن عبد الله المقتول، ولا تكن عبد الله القاتل»[١].

وأما قوله: ﴿بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ﴾ فمعناه:

بإثم قتلي لك لو قتلتك، وبإثم قتلك لي، وإنما تَحمَّل القاتل الإثمين؛ لأنه ظالمٌ، فذلك مثل قوله ﷺ: «المستبَّان ما قالا فهو على البادئ»[٢].

وقيل: ﴿بِإِثْمِى﴾ أي: تَحْمِلُ عني سائرَ ذنوبي؛ لأن الظالم تُجعَل عليه في القيامة ذنوبُ المظلوم، ﴿وَإِثْمِكَ﴾ أي: في قتلك لي، وفي غير ذلك من ذُنوبك.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يَحتمل أن يكون:

من كلام هابيل.

أو استئنافًا من كلام الله تعالى.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا﴾ الآيةَ؛ روي أن غرابين اقتتلا حتى قتل أحدهما الآخر، ثم جَعل القاتل يبحثُ عن التراب ويواري الميت.

وقيل: بل كان غرابًا واحدًا يبحث ويُلقِي التراب على هابيل.

﴿سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ أي: عورته، وخُصَّت بالذِّكر؛ لأنها أحقُّ بالسَّتر من سائر الجسد.

والضمير في ﴿أَخِيهِ﴾ عائدٌ على ابن آدم، ويظهر من هذه القصة أن هابيل

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٠٦٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٧).

كان أول مَن دُفِن مِن بني آدم.

﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ أصله: «يا ويلتِي»، ثم أبدل من الياء ألف، وفتحت التاء.

وكذلك: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾، و﴿يَٰحَسْرَتَىٰ﴾.

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ أي: على ما وقع فيه من قتل أخيه.

واختُلف في قابيل؛ هل كان كافرًا أو عاصيًا؟

والصحيح: أنه لم يكن كافرًا؛ لأنه قصَد التقرُّبَ إلى الله بالقربان، ولأنه لم يكن في تلك المدة كافرٌ.

و﴿أَصْبَحَ﴾ هنا وفي الموضع الأول: عبارةٌ عن جميع الأوقات، لا مختصَّةٌ بالصباح.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ يتعلَّق بـ﴿كَتَبْنَا﴾.

وقيل: بـ﴿ٱلنَّٰدِمِينَ﴾؛ وهو ضعيف.

﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: فرضنا عليهم، أو كتبناه في كتبهم.

﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ معناه: مِن غير أن يَقتل نفسًا يجب عليه به القِصاص.

﴿أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: الفسادَ الذي يجب به القتل؛ كالحرابة.

﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ تمثيلُ قاتل الواحد بقاتل الجميع يُتصوَّر من ثلاث جهات:

إحداها: القصاص؛ فإن القصاص في قتل الواحد والجميع سواءٌ.

والثاني: انتهاك الحرمة والإقدام على العصيان.

والثالث: الإثم والعذاب الأُخراوي، قال مجاهد: أوعد[1] الله قاتل النفس بجهنمَ، والخلودِ فيها، والغضب، واللعنة، والعذاب العظيم، فلو قتل جميع الناس لم يزد على ذلك. وهذا الوجه هو الأظهر؛ لأن القصدَ بالآية تعظيمُ قتل النفس والتشديد فيه؛ ليَزدجرَ الناس عنه، وكذلك الثواب في إحيائها كثواب إحياء الجميع؛ لتعظيم الأمر والترغيب فيه.

وإحياؤها: هو بإنقاذها من الموت؛ كإنقاذ الغريق والحريق وشبه ذلك.

وقيل: بترك قتلها.

وقيل: بالعفو إذا وجب القصاص.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ﴾ الضمير لبني إسرائيل، والمعنى: تقبيح أفعالهم، وفي ذلك إشارةٌ إلى ما همُّوا به من قتل رسول الله ﷺ.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآيةَ؛ سببها عند ابن عباس: قومٌ من اليهود كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد، فنقضوا العهد وقطعوا السبيل.

وقال جماعة: نزلت في نفر من عُكْلٍ وعُرَينة، أسلموا، ثم إنَّهم قتلوا راعيَ النبي ﷺ وأخذوا إبله.

ثم حكمها بعدَ ذلك في كل مُحارِبٍ.

والحرابة عند مالك: هي حمل السِّلاح على الناس في بلد أو في خارج بلد.

---

(١) في ج، د: «وعد».

وقال أبو حنيفة: لا يكون المحارب إلّا خارج البلدان.

وقوله: ﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ﴾ تغليظٌ ومبالغة.

قال بعضهم: تقديره: يحاربون رسول الله ﷺ. وذلك ضعيف؛ لأن الرسول عليه السلام قد ذُكِر بعد ذلك.

وقيل: يحاربون عباد الله[1]. وهو أحسن.

﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ بيانٌ للحرابة، وهي على درجات؛ فأدناها: إخافةُ الطريق، ثم أخذ الأموال، ثم قتل النفس.

﴿أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟﴾ الصَّلْب مضاف إلى القتل:

فقيل: يقتل ثم يصلب؛ ليراه أهل الفساد فيزدجروا. وهو قول أشهب.

وقيل: يصلب حيًا، ويقتل في الخشبة. وهو قول ابن القاسم.

﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ معناه: أن تُقطَع يده اليمنى ورجله اليسرى، ثم إن عاد قُطِعت يده اليسرى ورجله اليمنى.

وقَطعُ اليدِ[2] عند مالك والجمهور: من الرُّسغ، وقطع الرجل: من المَفصِل، وذلك في الحرابة وفي السرقة.

﴿أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ مشهور مذهب مالك: أن يُنفَى من بلد إلى بلد آخر، ويسجن فيه إلى أن تظهر توبته.

---

(١) في ب: «يحاربون الناس».

(٢) في د: «وتقطع اليدُ».

وروَى عنه مطرِّفٌ[١]: أنه يسجن في البلد بعينه، وبذلك قال أبو حنيفة.

وقيل: ينفى إلى بلد آخر دون أن يسجن فيه.

ومذهب مالك: أن الإمام مخيَّرٌ في المحارب بين أن يقتله ويَصلِبه، أو يقتله ولا يصلِبه، أو يَقطَع يده ورجله، أو يَنفيَه، إلَّا أنه قال: إن كان قتَلَ فلا بدَّ من قتله، وإن لم يَقتل فالأحسن أن يُؤخَذ فيه بأيسر العقاب.

وقال الشافعي وغيره: هذه العقوبات مرتَّبة؛ فمن قَتل وأخذ المال قُتل وصُلب، ومن قَتل ولم يأخذ مالًا[٢] قُتل ولم يُصلَب، ومن أخذ المال ولم يقتل قطعت يده ورجله، ومن أخاف السبيل ولم يَقتل ولم يأخذ مالًا نُفِي.

وحجة مالك: عطف هذه العقوبات بـ «أو» التي تقتضي التخيير.

﴿خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ هو العقوبة، وعذاب الآخرة: النار.

وظاهر هذا: أن العقوبة في الدنيا لا تكون كفَّارة للمحارب، بخلاف سائر الحدود.

ويَحتمل أن يكون الخزيُ في الدنيا لمن عوقب (في الدنيا)[٣]، والعذاب في الآخرة لمن لم يعاقب.

---

(١) هو مطرِّف بن عبد الله بن مطرف الهلالي أبو مصعب، مولى ميمونة وزوج النبي ﷺ، وهو ابن أخت الإمام مالك، ومن كبار أصحابه، توفي سنة (٢٢٠). انظر: الديباج المذهب (٢/ ٣٤٠).

(٢) في ج: «المال».

(٣) لم ترد في ج، د، هـ.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ قيل: هي في المشركين. وهو ضعيف؛ لأن المشرك لا يَختلف حكم توبته قبل القدرة عليه وبعدها.

وقيل: هي في المحارِبين من المسلمين. وهو الصَّحيح، وهم الذين جاءت فيهم العقوبات المذكورة، فمن تاب منهم قبل أن يُقدَر عليه فقد سقط عنه حكم الحِرابة؛ لقوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

واختُلف هل يطالب بما عليه من حقوق الناس في الدماء والأموال أم لا؟.

فوجه المطالبة بها: أنها زائدة على حدِّ الحرابة الذي سقط[1] عنه بالتوبة.

ووجه سقوطها: إطلاق[2] قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

* * *

(١) في د: «التي سقطت».

(٢) لم ترد في ج، هـ.

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٠﴾ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾].

﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ أي: ما يُتوسَّل به ويُتقرَّب به إليه؛ من الأعمال الصالحة والدعاء وغير ذلك.

﴿لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ﴾ إن قيل: لم وحَّد الضمير وقد ذكر شيئين وهما: ﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ و﴿وَمِثۡلَهُۥ﴾؟

فالجواب:

أنه وَضع المفرد موضعَ الاثنين.

أو أجرى الضمير مجرى اسم الإشارة؛ كأنه قال: ليفتدوا بذلك.

أو تكون[١] الواو بمعنى «مع»[٢].

﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائمٌ، وكذلك: ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١].

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ عموم الآية يقتضي قطعَ كل سارق؛ إلَّا أن الفقهاء اشترطوا في القطع شروطًا خصَّصوا بها العموم، فمن ذلك:

أنَّ مَن اضطرَّه الجوع إلى السرقة لم يُقطَع عند مالك؛ لتحليل الميتة له.

وكذلك مَن سرق مال ولده أو سيده.

أو من سرق من غير حرزٍ.

أو سرق أقل من النصاب؛ وهو عند مالك: ربع دينار من الذهب، أو ثلاثة دراهم من الفضة، أو ما يساوي أحدَهما.

وأدلَّة التَّخصيص بهذه الأشياء في غير هذه الآية.

وقد قيل: إن الحرز مأخوذ من الآية؛ لأن ما أُهمِل بغير حرز أو اؤتمن عليه فليس أخْذُه سرقةً، وإنما هو اختلاس أو خيانة.

---

(١) في أ، ب، د: «يكون».

(٢) انظر: الكشاف (٥/ ٣٤٩).

وإعراب ﴿وَٱلسَّارِقُ﴾ :

عند سيبويه : مبتدأ ، وخبره محذوف ؛ كأنه قال : فيما يتلى عليكم السارقُ والسارقة .

والخبر عند المبرّد وغيره : ﴿فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ ، ودخلت الفاء ؛ لتضمُّن معنى الشرط .

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾ الآيةَ ؛ توبة السارق : هي أن يندمَ على ما مضى ، ويُقلِعَ فيما يستقبل ، ويَردَّ ما سرق إلى من يستحقُّه .

واختلف إذا تاب قبل أن يصل إلى الحاكم :

هل يسقط عنه القطع؟ وهو مذهب الشافعي ؛ لظاهر الآية .

أو لا يسقط عنه؟ وهو مذهب مالك ؛ لأن الحدود عنده لا تسقط بالتوبة ، إلَّا المحارِب ؛ للنصِّ عليه .

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ قدَّم العذاب على المغفرة ؛ لأنه قوبل بذلك تقدُّم[1] السرقة على التوبة .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ الآيةَ ؛ خطاب للنبي ﷺ على وجه التسلية له .

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ هم المنافقون .

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ يَحتمل أن يكون :

عطفًا على ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾ ، ثم يكون ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ استئنافَ إخبارٍ عن

---

(١) في د : «تقديم».

الصِّنفَين المنافقين واليهود.

ويَحتمل أن يكون ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ استئنافًا منقطعًا مما قبله، و﴿سَمَّٰعُونَ﴾ راجعٌ إليهم خاصَّةً.

﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي: يسمعون[1] كلام قوم آخرين من اليهود الذين لا يأتون النبي ﷺ؛ لإفراط البُغْضَة والمجاهرة بالعداوة؛ فقوله: ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ صفةٌ لـ ﴿قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾.

والمراد بالقوم الآخرين: يهود خيبر، والسَّمَّاعون للكذب: بنو قُرَيظة.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ أي: يبدِّلونه مِن بعد أن وُضِع في مواضعه، وقُصِدت به وجوهُه القويمة، وذلك من صفة اليهود.

﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ نزلت بسبب أن يهوديًا زنى بيهودية؛ فسأل رسولُ الله ﷺ اليهودَ عن حدِّ الزاني عندهم فقالوا: نجلدهما ونُحمِّم وجوههما، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن في التوراة الرجم»، فأنكروا ذلك، فأمرهم أن يأتوا بالتوراة فقرؤوها، وجعل أحدهم يده على آية الرجم، فقال له عبد الله بن سلَام: ارفع يدك!، فرَفع، فإذا آية الرجم، فأمر رسول الله ﷺ باليهودي واليهودية فرُجِما[2].

فمعنى قولهم: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾: إن أوتيتم هذا الذي ذَكرتم من الجَلْد والتَّحميم فخذوه واعملوا به، ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ﴾ وأفتاكم محمد ﷺ بغيره ﴿فَٱحْذَرُوا۟﴾.

---

(١) في د: «سماعون».

(٢) أخرجه البخاري (١٣٢٩)، ومسلم (١٦٩٩).

﴿فِتۡنَتَهُۥ﴾ أي: ضلالته[١] في الدنيا، أو عذابه في الآخرة.

﴿فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾ أي: الذِّلة، والمسكنة، والجزية[٢].

﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ إن كان الأول في اليهود: فكُرِّر هنا تأكيدًا.

وإن كان الأول في المنافقين واليهود: فهذا في اليهود خاصة.

﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾ أي: للحرام؛ من الرشوة والربا وشبه ذلك.

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ﴾ هذا تخيير للنبي ﷺ في أن يحكمَ بين اليهود أو يتركَهم، وهو أيضًا يتناول الحكّام.

وقيل: إنه منسوخ بقوله: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ الآيةَ؛ استبعادٌ لتحكيمهم النبيَّ ﷺ وهم لا يؤمنون به، مع أنهم يخالفون حكم التوراة التي يدَّعون الإيمانَ بها.

فمعنى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ﴾ أي: يتولَّون عن اتباع حكم الله في التوراة مِن بعد كون حكم الله فيها موجودًا عندهم، ومعلومًا في قضية[٣] الرجم وغيرها.

﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يعني: أنهم لا يؤمنون بالتوراة وبموسى عليه السلام، وهذا إلزامٌ لهم؛ لأن من خالف كتاب الله وبدَّله فدعواه الإيمانَ به باطلةٌ.

---

(١) في ب، ج، هـ: «ضلاله».

(٢) هذه الكلمة لم ترد في ج، هـ.

(٣) في ب، د: «قصة».

[﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾].

﴿ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ هم الأنبياء الذين بين موسى ومحمد ﷺ.

ومعنى ﴿أَسْلَمُوا۟﴾ هنا: أخلصوا لله، وهي صفة مدح أُريد بها التَّعريض باليهود؛ لأنهم بخلاف هذه الصفة.

وليس المراد هنا: الإسلام الذي هو ضدُّ الكفر؛ لأن الأنبياء لا يقال فيهم: أسلموا على هذا المعنى؛ لأنهم لم يكفروا قط، وإنما هو كقول

إبراهيم عليه السلام: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، وقوله تعالى: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ متعلِّقٌ بـ ﴿يَحْكُمُ﴾؛ أي: يحكم الأنبياء بالتوراة للذين هادوا، ويحملونهم عليها.

وقيل: يتعلَّق بقوله: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾.

﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا﴾ أي: كُلِّفوا حفظَه، والباء هنا: سببية. قاله الزمخشري[١].

ويَحتمل أن تكون بدلًا من المجرور في قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا﴾.

﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ﴾ وما بعده: خطابٌ لليهود.

ويحتمل أن تكون[٢] وصيةً للمسلمين يراد بها التعريض باليهود؛ لأن ذلك من أفعالهم.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال ابن عباس: نزلت الثلاثةُ في اليهود؛ ﴿الْكَافِرُونَ﴾، و﴿الظَّالِمُونَ﴾، و﴿الْفَاسِقُونَ﴾. وقد روي في هذا أحاديثُ عن النبي ﷺ[٣].

وقال جماعة: هي عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله من اليهود والمسلمين وغيرهم، إلَّا أن الكفر في حق المسلمين كفر معصية لا يخرجهم عن الإيمان.

---

(١) الكشاف (٥/ ٣٦٧).

(٢) في ب، ج، هـ، د: «يكون».

(٣) أخرجه مسلم (١٧٠٠).

وقال الشعبيُّ: ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: في المسلمين، و﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: في اليهود، و﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ في النصارى.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾ ﴿كَتَبْنَا﴾ بمعنى:

الكتابة في الألواح.

أو بمعنى الفرض والإلزام.

والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لبني إسرائيل، وفي قوله: ﴿فِيهَآ﴾ للتوراة.

﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ أي: تُقتَل النفس إذا قَتلت نفسًا، وهذا إخبارٌ عما في التوراة، وهو حكمٌ في شريعتنا بإجماع، إلَّا أن هذا اللفظ عام، وقد خَصص العلماء منه أشياءَ، فقال مالك: لا يقتل مؤمن بكافر؛ للحديث الوارد في ذلك[1]، ولا يقتل حرٌّ بعبد؛ لقوله: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وقد تقدَّم الكلام على ذلك في «البقرة»[2].

﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ وما بعدَه: حُكم القِصاص في الأعضاء.

والقراءة بنصب ﴿وَٱلْعَيْنَ﴾ وما بعده: عطفٌ على ﴿ٱلنَّفْسَ﴾.

وقرئ بالرفع، ولها ثلاثة أوجه:

أحدها: العطف على موضع ﴿ٱلنَّفْسَ﴾؛ لأن المعنى: قلنا لهم: النفسُ بالنفس.

والثاني: العطف على الضمير الذي في الخبر؛ وهو ﴿بِٱلنَّفْسِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (١١١).

(٢) انظر صفحة ١/ ٤٠٠.

والثالث: أن يكون مستأنفًا مرفوعًا بالابتداء.

﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ بالنصب: عطفٌ على المنصوبات قبله.

وبالرفع: على الأوجه الثلاثة التي في رفع ﴿وَٱلْعَيْنَ﴾.

وهذا اللفظ عامٌّ، يراد به الخصوص في الجِراح التي لا يُخاف على النفس منها.

﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ فيه تأويلان:

أحدهما: مَن تصدَّق من أصحاب الحق بالقصاص وعفا عنه فذلك كفارةٌ له؛ يكفِّر الله ذنوبَه؛ لعفوه وإسقاطه حقه.

والثاني: مَن تصدق وعفا فهو كفارة للقاتل أو الجارح؛ يعفو الله عنه في ذلك؛ لأن صاحب الحق قد عفا عنه.

فالضمير في ﴿لَّهُۥ﴾:

على التأويل الأول: يعود على «مَن» التي هي كناية عن المقتول أو المجروح، أو الولي.

وعلى الثاني: يعود على القاتل أو الجارح وإن لم يَجْرِ له ذكرٌ؛ ولكن سياق الكلام يقتضيه.

والأول أرجح؛ لعود الضمير على مذكور؛ وهو «مَن»، ومعناها واحد على التأويلين.

والصدقة بمعنى العفو على التأويلين:

إلَّا أن التأويل الأول: بيانٌ لأجر من عفا، وترغيبٌ في العفو.

والتأويل الثاني: بيانٌ لسقوط الإثم عن القاتل أو الجارح إذا عُفي عنه.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قد تقدَّم معنى ﴿مُصَدِّقًا﴾ في «البقرة»[(١)].

و﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني: التوراةَ؛ لأنها قبله، والقرآنُ مصدِّقٌ للتوراة والإنجيل، لأنهما قبله.

﴿وَمُصَدِّقًا﴾ عطفٌ على موضعِ قولِه: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾؛ لأنه في موضع الحال.

﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ ابنُ عباس: شاهدًا، وقيل: مؤتمَنًا.

﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ تضمَّن الكلام معنى: «لا تنصرف» أو «لا تنحرف» ولذلك تعدى بـ «عن».

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ ابنُ عباس: سبيلًا وسُنَّة.

والخطاب: للأنبياء، أو للأمم.

والمعنى: أن الله جعل لكلِّ أمةٍ شريعةً يتَّبعونها.

وقد استدلَّ بها من قال: إن شريعة مَن قبلنا ليس بشرعٍ لنا؛ وذلك في الأحكام والفروع.

وأما الاعتقادات[(٢)]؛ فالدين فيها واحدٌ لجميع العالم؛ وهو الإيمان بالله، وتوحيدُه، وتصديق رسله، والإيمان بالدار الآخرة.

---

(١) انظر صفحة ١/٣٠٨.

(٢) في أ، ب، د: «في الاعتقادات».

﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ استدلَّ بها[١] قومٌ على أن تقديم الواجبات أفضلُ من تأخيرها، وهذا متفق عليه في العبادات كلِّها، إلا الصلاة؛ ففيها خلاف:

فمذهب الشافعي: أن تقديمها في أوَّل وقتها أفضلُ.

وعكَس أبو حنيفة.

وفي مذهب مالك خلافٌ وتفصيل.

واتفقوا أن تقديم المغرب أفضل.

﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم﴾ عطفٌ:

على «الكتاب» في قوله: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

أو على «الحق» في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾.

وقال قوم: إنَّ هذا وقولَه قبله: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ﴾ ناسخٌ لقوله: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ﴾؛ أي: ناسخٌ للتخيير الذي في الآية.

وقيل: إنه ناسخ للحكم بالتوراة.

ونزلت الآية بسبب قوم من اليهود؛ طَلبوا من رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم فأبى من ذلك، ونزلت الآية تقتضي أن يحكم بينهم.

﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ﴾ توبيخٌ لليهود.

وقرئ بالياء: إخبارًا عنهم، وبالتاء: خطابًا لهم.

---

(١) في ج، هـ: «به».

﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ قال الزمخشري: اللام للبيان؛ أي: هذا الخطاب لقوم يوقنون؛ فإنهم الذين يتبيَّن لهم أنه لا أحسن من الله حكمًا[١].

(١) انظر: الكشاف (٥/ ٣٨٥).

[﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦ ﴾].

﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ سببها: موالاة عبد الله بن أبيّ بن سلول ليهود بني قينقاع، وخلعُ عبادة بن الصامت الحِلْفَ الذي كان بينه وبينهم.

ولفظها عامٌّ، وحكمها باقٍ.

ولا يدخل فيه معاملتهم في البيع وشبهه.

﴿فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ تغليظٌ في الوعيد، فمن كان يعتقد مُعتقَدهم فهو منهم من كل وجه، ومن خالفهم في اعتقادهم وأحبَّهم فهو منهم في المقت عند الله، واستحقاقِ العقوبة.

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ هم المنافقون؛ والمراد هنا: عبد الله بن أبي بن سلول ومن كان معه.

﴿يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ﴾ كان عبد الله بن أبيّ يوالي اليهود ويستكثرُ بهم، ويقول: إني رجل أخشى الدوائر.

﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ الفتح: هو ظهور النبي ﷺ والمسلمين.

والأمر من عند الله:

هو هلاك الأعداء بأمرٍ من عنده لا يكون فيه تسببٌ لمخلوق.

أو أمرٌ من الله لرسوله عليه السلام بقتل اليهود.

﴿فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ الضمير في ﴿فَيُصْبِحُواْ﴾ للمنافقين، والذي أسرُّوه: هو قصدهم الاستعانةَ باليهود على المسلمين، وإضمارُ العداوة للمسلمين.

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ قرئ: ﴿يَقُولُ﴾ بغير واو؛ استئنافُ إخبارٍ.

وقرئ بالواو والرفع؛ وهو عطف جملة على جملة.

وبالواو والنصب؛ عطفًا على ﴿أَن يَأْتِيَ﴾، أو على ﴿فَيُصْبِحُواْ﴾.

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ﴾ الإشارةُ إلى المنافقين؛ لأنهم كانوا يحلفون أنهم مع المؤمنين.

وانتصبَ ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ على المصدر المؤكِّد.

﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ يَحتمل أن يكون: من كلام المؤمنين، أو من كلام الله.

ويَحتمل أن يكون: دعاءً، أو خبرًا.

﴿وَمَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ خطابٌ على وجه التحذير والوعيد، وفيه

إعلامٌ بارتداد بعض المسلمين، فهو إخبار بالغيب قبل وقوعه، ثم وقع؛ فارتدَّ في حياة رسول الله ﷺ بنو حنيفة قومُ مُسيلِمةَ الكذابِ، وبنو مُدْلِج قوم الأسودِ العَنْسِيِّ الذي ادعى النبوة، وقُتِل في حياة رسول الله ﷺ، وبنو أسَدٍ قومُ طُلَيحة بن خويلد الذي ادَّعى النبوة ثم أسلم وجاهد، ثم كثر المرتدون، وفشا أمرُهم بعد موت رسول الله ﷺ، حتى كفى اللهُ أمرَهم على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وكانت القبائل التي ارتدَّت بعد وفاة رسول الله ﷺ سبعَ قبائل: بنو فَزَارة، وغَطَفانُ، وبنو سُلَيم، وبنو يَربُوعٍ، وكِنْدَةُ، وبنو بكرِ بن وائل، وبعضُ بني تميم، ثم ارتدَّت غسَّانُ في زمان عمر بن الخطاب، وهم قوم جَبَلةَ بنِ الأَيْهَم الذي تنصَّر من أجل اللَّطمة[1].

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ روي أن رسول الله ﷺ قرأها، وقال: «هم قوم هذا»[2]، يعني: أبا موسى الأشعريَّ، والإشارةُ بذلك - والله أعلم - إلى أهل اليمن؛ لأن الأشعريين من أهل اليمن.

وقيل: المراد أبو بكر الصديقُ وأصحابُه الذين قاتلوا أهل الردَّة، ويقوِّي ذلك: ما ظهر من أبي بكر الصديقِ رضي الله عنه من الجِدِّ في قتالهم، والعزم عليه حين[3] خالفه في ذلك بعض الناس، فاشتدَّ عزمه حتى وافقوه وأجمعوا معه، فنصرهم الله على أهل الردة، ويقوي ذلك أيضًا: أنَّ الصفاتِ التي وُصِف

(١) انظر قصته في فتوح الشام، للواقدي (١/ ١٠٠).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ٥٢١).

(٣) في ب، ج، هـ: «حتى».

بها هؤلاء القوم هي أوصاف أبي بكر، ألَا ترى قولَه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وكان أبو بكر ضعيفًا في نفسه، قويًا في الله، وكذلك قوله: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ إشارةٌ إلى مَن خالف أبا بكر ولامَه في قتال أهل الردَّة فلم يَرجع عن عزمه.

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كقوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وإنما تعدَّى ﴿أَذِلَّةٍ﴾ بـ «على»؛ لأنه تضمَّن معنى العطف والحنُوّ.

فإن قيل: أين الراجع من الجزاء إلى الشرط؟

فالجواب: أنه محذوف؛ تقديره: من يرتدُّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم مكانَهم، أو بقوم يقاتلونهم[١].

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾ ذَكَر الوليَّ بلفظ المفرد؛ إفرادًا لله تعالى بها، ثم عَطف على اسمه تعالى الرسولَ ﷺ والمؤمنين على سبيل التَّبع، ولو قال: «إنما أولياؤكم» لم يكن في الكلام أصلٌ وتبع.

﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ **قيل**: نزلت في عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه؛ فإنه سأله سائلٌ وهو راكع في الصلاة، فأعطاه خاتمه.

وقيل: هي عامةٌ، وذَكر الركوع بعد الصلاة؛ لأنه من أشرف أعمالها.

فالواو:

على القول الأوَّل: واو الحال.

---

(١) انظر: الكشاف (٥/ ٣٩٥).

وعلى الثاني: للعطف[١].

﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ﴾ هذا من إقامة الظاهر مقامَ المضمر؛ معناه: فإنهم هم الغالبون.

* * *

(١) في د: «عطفٌ على (الذين)».

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾].

﴿وَٱلۡكُفَّارَ﴾ بالنصب: عطفٌ على ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾.

وقرئ بالخفض: عطفٌ على ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، ويعضُده قراءة ابن مسعود: «ومن الكفار».

ويراد بهم: المشركون من العرب.

﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الآية؛ روي أن رجلًا من النصارى كان بالمدينة إذا

سمع المؤذن يقول: «أشهد أن محمدًا رسول الله» قال: حَرَّق اللهُ الكاذبَ، فوقعت النار في بيته واحترق هو وأهلُه.

واستدلَّ بعضهم بهذه الآية على ثبوت الأذان من القرآن.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ جَعل قِلَّة عقولهم علةً لاستهزائهم بالدين.

﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ أي: هل تَعِيبون علينا وتُنكِرون منَّا إلَّا إيمانَنا بالله، وبجميع كتبه ورسله!، وذلك أمرٌ لا ينكر ولا يعاب، ونظيرُ هذا في الاستثناء العجيب قول النابغة:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أن سيوفهم بهنَّ فُلولٌ من قِراع الكتائبِ[1]

ونزلت الآية بسبب أبي ياسر بن أخطب، ونافع بن أبي نافع، وجماعة من اليهود؛ سألوا رسول الله ﷺ عن الرسل الذين يؤمِن بهم، فتلا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦] إلى آخر الآية، فلما ذكر عيسى قالوا: لا نؤمن بعيسى ولا بمن آمن به.

﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ قيل: إنه معطوف على ﴿أَنْ ءَامَنَّا﴾.

وقيل: على ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾.

وقيل: هو تعليلٌ معطوف على تعليلٍ محذوف؛ تقديره: هل تنقمون منَّا إلَّا لِقلة إنصافكم ولأن أكثركم فاسقون!.

ويَحتمل أن يكون ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ﴾ مبتدأً، وخبره محذوف تقديره: فِسْقُكم معلومٌ، أو ثابت.

---

(١) انظر: ديوان النابغة، بتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (ص: ٤٤).

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ لمَّا ذَكر أن أهل الكتاب يَعيبون المسلمين بالإيمان بالله، ورسله؛ ذَكر عيوب أهل الكتاب في مقابلة ذلك؛ ردًّا عليهم.

فالخطاب في ﴿أُنَبِّئُكُم﴾ لليهود، والإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدَّم من حال المؤمنين.

﴿مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾ هي من الثواب، ووضع الثواب موضع العقاب؛ تهكُّمًا بهم؛ نحو قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ يعني: اليهودَ، و«مَن»:

في موضع رفعٍ بخبر ابتداءٍ مضمر؛ تقديره: هو مَن لعنهُ الله.

أو في موضع خفضٍ على البدل مِن ﴿شَرٍّ﴾.

ولا بدَّ في الكلام من حذفِ مضافٍ؛ تقديره: «بِشرٌّ من أهل ذلك»، أو تقديره: «دين مَن لعنه اللهُ».

﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ مُسِخ قومٌ من اليهود قرودًا[1] حين اعتدوا في السبت، ومُسِخ قومٌ منهم خنازيرَ حين كذَّبوا عيسى بنَ مريم.

﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ القراءة بفتح الباء: فعلٌ معطوف على ﴿لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾.

وقرئ بضم الباء وخفض ﴿الطَّاغُوتَ﴾؛ على أن يكون «عَبُدَ» اسمًا على وجه المبالغة كـ«يَقُظٍ»، أُضيف إلى «الطاغوت».

وقرئ: «وعابِدَ» «وعُبَّادَ» =

---

(١) في د: «قردة».

وهي في هذه الوجوه عطفٌ على ﴿ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾.

﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: منزلةً، ونَسب الشرَّ للمكان وهو في الحقيقة لأهلِه؛ وذلك مبالغةٌ في الذمِّ.

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ﴾ نزلت في منافقين من اليهود.

﴿دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ﴾ تقديره: مُلْتَبِسينَ[1] بالكفر، والمعنى: دخلوا كفَّارًا وخرجوا كفارًا.

ودخلت «قد» على ﴿دَّخَلُوا۟﴾ و﴿خَرَجُوا۟﴾؛ تقريبًا للماضي من الحال؛ أي: ذلك حالُهم في دخولهم وخروجهم على الدَّوام.

﴿فِى ٱلْإِثْمِ﴾ الكذبِ، وسائرِ المعاصي.

﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ الظلمِ.

﴿ٱلسُّحْتَ﴾ الحرامَ.

﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ﴾ عرضٌ وتحضيضٌ وتقريعٌ.

﴿لَبِئْسَ﴾ اللام في الموضعين للقسم.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ غَلُّ اليد: كنايةٌ عن البخل، وبَسْطُها: كنايةٌ عن الجود؛ ومنه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ أي: لا تَبخَلْ كلَّ البخل، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] أي: لا تَجُدْ كلَّ الجود.

وروي أنَّ اليهود أصابتهم سَنةُ جَهدٍ فقالوا هذه المقالة الشَّنيعة، وكان

---

(١) في ب، د: «متلبسين».

الذي قالها فِنْحَاصُ، ونُسِبت إلى جملةِ اليهود؛ لأنهم رضُوا بقوله.

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يَحتمل أن يكون: دعاء أو خبرًا.

ويَحتمل أن يكون: في الدنيا أو في الآخرة.

فإن كان في الدنيا: فيَحتمل أن يراد به: البُخل، أو غَلُّ أيديهم في الأَسْر.

وإن كان في الآخرة: فهو جعلُ الأَغلال في جهنم.

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ عبارةٌ عن إنعامه وجوده.

وإنما ثُنِّيت اليدان هنا وأفردت في قول اليهود: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾؛ ليكون ردًّا عليهم، ومبالغةً في وصفه تعالى بالجود؛ كقول العرب: «فلان يعطي بكلتا يديه»؛ إذا كان عظيم السَّخاء[1].

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ إيقادُ النار: عبارةٌ عن محاولة الحرب،

---

(١) قال الشيخ عبد الرحمن البراك: قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾: (عبارة عن إنعامه وجوده) إلخ، أقول: إن أراد بذلك تفسير اليدين، فهذا تأويل يجري على طريقة أهل التأويل من نفاة الصفات؛ فإنهم يجمعون بين التعطيل والتحريف، وإن أراد ما يدل عليه بسط اليدين بكثرة الإنفاق فهو معنى صحيح، يزيده قوله تعالى: ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، ولا يقتضي ذلك نفي حقيقة اليدين، وسياق كلام المؤلف يشعر بالنفي، وليرجع في معرفة حقيقة مذهبه إلى كلامه عند قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾؛ فإنه قال هناك «قوله: ﴿بِيَدَيَّ﴾ من المتشابه الذي ينبغي الإيمان به، وتسليم علم حقيقته إلى الله، وقال المتأوّلون: هو عبارة عن القدرة» أهـ، وقال نظير ذلك عند قوله تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾. ويظهر من ذلك أن ابن جزي يذهب إلى التفويض، وحقيقته إجراء النصوص ألفاظا، من غير فهم لمعناها. والتفويض والتأويل مذهبان لنفاة الصفات، كلها أو بعضها.

وإطفاؤها: عبارة عن خذلانهم وعدم نصرهم.

ويَحتمل أن يراد بذلك:

أسلافُهم.

أو يراد مَن كان معاصرًا للنبي ﷺ منهم، ومَن يأت بعدهم، (فيكون على هذا إخبارًا بغيب، وبِشارةً للمسلمين[١].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟﴾ الآيةَ؛ يَحتمل أن يريد:

أسلافَهم.

أو المعاصرين للنبي ﷺ)[٢]، فيكون على هذا ترغيبًا لهم في الإيمان والتقوى.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ إقامتُها: بالعلم والعمل.

وذِكْرُ الإنجيل دليلٌ على دخول النصارى في لفظ أهل الكتاب.

﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ قيل: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ عبارةٌ عن المطر، ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ عبارةٌ عن النبات والزرع.

وقيل: ذلك استعارةٌ في توسعة الرزق من كل وجه.

﴿أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ أي: معتدلة، ويراد به:

مَن أسلم منهم؛ كعبد الله بن سلَام.

وقيل: مَن لم يُعادِ الأنبياءَ المتقدمين.

---

(١) في ب: «فهو على هذا إخبارٌ بغيب وبشارةٌ للمسلمين».

(٢) ما بين القوسين سقط من ج، هـ.

[﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أمرٌ بتبليغ جميع ما أوحي إليه على الاستيفاء والكمال؛ لأنه كان قد بلَّغ، وإنما أُمِر هنا أن لا يتوقَّفَ عن شيءٍ مخافةَ أحد.

﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَاتِهِ﴾ هذا وعيدٌ على تقدير عدم التَّبليغ.

وفي ارتباط هذا الشرط مع جوابه قولان:

أحدهما: أن المعنى: إن تركت منه شيئًا فكأنك لم تبلِّغْ شيئًا، وصار ما بلَّغتَ لا يُعتدُّ به، فمعنى ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾: إن لم تستوفِ التبليغَ على الكمال.

والآخر: أن المعنى: إن لم تبلِّغ الرسالةَ وجب عليك عقابُ مَن كتَمها، ووضع السبب موضعَ المسبَّب.

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وعدٌ وضمانٌ للعصمة، وكان رسول الله ﷺ يَخاف أعداءَه ويحترس منهم في غزَواته وغيرها، فلما نزلت هذه الآية قال: «**يا أيها الناس!، انصرفوا فإن الله قد عصمني**»[1] وترك الاحتراس.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ الآيةَ؛ أي: لستم على دينٍ يُعتدُّ به يسمى شيئًا حتى تقيموا التوراةَ والإنجيلَ، ومن إقامتِها: الإيمانُ بمحمد ﷺ.

وقوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾ قال ابن عباس: يعني: القرآنَ.

ونزلت الآية بسبب رافعِ بن حارثة وسلَّامِ بن مِشْكَمٍ ورافعِ بن حُرَيملةَ[2] وغيرهم من اليهود؛ جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: إنا نتبع التوراة ولا نتبع غيرها، ولا نؤمن بك ولا نتبعك.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٤٦).

(٢) في أ، د كذا: «خرعلة»! وهو تصحيف، والمثبت هو الصواب كما في سيرة ابن هشام (١/٥٦٨).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ تقدَّم الكلام على نظيرتها في «البقرة»[١] .

﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ قراءة السبعة بالواو؛ وهي مشكلةٌ، حتى قالت عائشة: «هي من لحن كُتَّاب المصحف»[٢] .

وإعرابُها:

عند أهل البصرة: مبتدأٌ وخبره محذوف؛ تقديره: والصابُون كذلك، وهو مقدَّمٌ في نية التأخير.

وأجاز بعض الكوفيين فيه: أن يكون معطوفًا على موضع اسم «إنَّ».

وقيل: «إنَّ» هنا بمعنى «نَعَمْ»، وما بعدها مرفوع بالابتداء. وهو ضعيف.

﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: بلاءٌ واختبار.

وقرئ ﴿تَكُونَ﴾:

بالرفع؛ على أن تكون «أنْ» مخففةً من الثقيلة.

وبالنصب؛ على أنها مصدريةٌ.

﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ عبارةٌ عن تماديهم على المخالفة والعصيان.

﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ قيل: إن هذه التوبةَ ردُّ مُلكهم ورجوعُهم إلى بيت المقدس بعد خروجهم منه، ثم أُخرِجوا المرة الثانية فلم يَنجبر حالهم أبدًا.

وقيل: التوبة: بعث عيسى.

---

(١) انظر صفحة ١/ ٣٢٢.

(٢) انظر تخريجه والتعليق عليه صفحة ١٣٢.

وقيل: بعث محمد ﷺ.

﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ بدلٌ من الضمير.

أو فاعلٌ؛ على لغة: «أكلوني البراغيثُ».

والبدل أرجح وأفصح.

﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ﴾ الآيةَ؛ ردٌّ على النصارى، وتكذيبٌ لهم.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ يَحتمل أن يكون: من كلام المسيح، أو من كلام الله.

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ الآيةَ؛ ردٌّ على من جعله إلهًا.

﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ بناءُ مبالغةٍ؛ من الصِّدق، أو من التَّصديق.

ووصْفُها بهذه الصفة دون النبوَّة يَدفع قولَ من قال: إنها نبيَّةٌ.

﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ استدلالٌ على أنهما ليسا بإلهين؛ لاحتياجِهما إلى الغذاء الذي لا يَحتاج إليه إلَّا مُحْدَثٌ مُفتقِرٌ، ومن كان كذلك فليس بإله؛ لأن الإله منزَّهٌ عن صفات الحدوث[1]، وعن كلِّ ما يَلحق بالبشر.

وقيل: إن قوله: ﴿يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ عبارةٌ عن الاحتياج إلى الغائط.

ولا ضرورةَ تدعو إلى إخراج اللفظ عن ظاهره؛ لأن الحجة قائمةٌ بالوجهين.

---

(١) انظر تعليق الشيخ عبد الرحمن البراك في المقدمة الثانية في اللغات عند المادة رقم (٤٩٥).

﴿ثُمَّ ٱنظُرْ﴾ دخلت «ثم»؛ لتفاوت الأمرين، ولقصد التَّعجيب مِن كُفْرهم بعد بيان الآيات.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ؛ إقامةُ حجةٍ على مَن عبد عيسى وأمِّه وهما لا يملكان ضرًّا ولا نفعًا.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ خطابٌ للنصارى، والغلوُّ: الإفراط، وبسبب ذلك كفَر النصارى.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ﴾ **قيل**: هم أئمتُهم في دين النصرانية؛ كانوا على ضلالٍ في عيسى، وأضلُّوا كثيرًا من الناس، ثم ضلُّوا بكفرهم بمحمد ﷺ.

وقيل: هم اليهود.

والأول أرجح؛ لوجهين:

أحدهما: أنَّ الضَّلال وصفٌ لازم للنصارى، ألَا ترى قولَه تعالى: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾!.

والآخر: أنه يَبعد نهيُ النصارى عن اتباع اليهود، مع ما بينهم من الخلاف والشِّقاق.

* * *

[﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ۞لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾].

﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾ أي: في الزَّبور والإنجيل.

﴿لَا يَتَنَاهَوۡنَ﴾ أي: لا يَنهى بعضهم بعضًا عن منكرٍ.

فإن قيل: لم وصف المنكر بقوله: ﴿فَعَلُوهُۚ﴾ والنهيُ لا يكون بعد الفعل؟

فالجواب: أن المعنى: لا يتناهون عن مثل منكر فعلوه، أو عن منكر[1] أرادوا فعله[2].

﴿تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ إن أراد أسلافهم: فالرؤية بالقلب.

---

(١) في هامش أ زيادة: «خ: إن» أي: إن أرادوا فعله، والمثبت موافق لما في الكشاف.

(٢) انظر: الكشاف (٥/ ٤٥٤).

وإن أراد المعاصرين للنبي ﷺ -وهو الأظهر-: فهي رؤية عين.

﴿وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ﴾ يعني: محمدًا ﷺ.

﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي: ما اتخذوا الكفارَ أولياء.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً﴾ الآيةَ؛ إخبارٌ عن شدة عداوة اليهود وعبَدَة الأوثان للمسلمين.

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾ الآيةَ؛ إخبارٌ أن النصارى أقربُ إلى مودَّة المسلمين.

وهذا الأمر باقٍ إلى آخر الدهر، فكل يهوديٍّ شديدُ العداوة للإسلام والكيدِ لأهله.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا﴾ تعليلٌ لقرب مودَّتهم، والقِسِّيس: العالم، والرَّاهب: العابد.

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ الآيةَ؛ هي في النجاشيِّ، وفي الوفد الذين بعثهم إلى رسول الله ﷺ، وهم سبعون رجلًا، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ القرآن، فبكَوا كما بكى النجاشي حين قرأ عليه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه سورة «مريم».

وقال السهيلي: نزلت في وفد نجران، وكانوا نصارى عشرين رجلًا، فلما سمعوا القرآن بكوا[1].

﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ «مِن» الأولى: سببيةٌ، والثانية: لبيان الجنس.

---

(١) انظر: التعريف والإعلام، للسهيلي، ص: ٩٩.

﴿ءَامَنَّا﴾ أي: بالقرآن من عند الله.

﴿مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: مع المسلمين، وكذلك: ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ توقيفٌ لأنفسهم، أو محاجَّةٌ لغيرهم.

﴿وَنَطْمَعُ﴾ قال الزمخشري: الواو للحال[١].

وقال ابن عطية: لعطف جملة على جملة، لا لعطف فعل على فعل[٢].

* * *

(١) انظر: الكشاف (٥/ ٤٦٠).

(٢) انظر: المحرر الوجيز (٣/ ٢٣٦).

[﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾].

﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ سببها: أن قومًا من الصحابة غلب عليهم خوف الله إلى أن حرَّم بعضُهم النساءَ، وبعضُهم النومَ بالليل، وبعضُهم أكْلَ اللحم، وهمَّ بعضُهم أن يَخْتَصُوا ويَسيحوا في الأرض، فقال رسول الله ﷺ: «أمَّا أنا فأقوم وأنام، وأصوم وأُفطِر، وآتي النساءَ، فمن رغب عن سنتي فليس مني»(١).

﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ أي: لا تُفْرِطوا في التَّشديد على أنفسكم أكثرَ مما شُرِع لكم.

﴿وَكُلُوا﴾ أي: تمتَّعوا بالمآكل الحلال، وبالنساء وغير ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

وإنما خصَّ الأكل بالذِّكر؛ لأنه أعظمُ حاجات الإنسان.

﴿بِٱللَّغۡوِ﴾ تقدَّم في «البقرة»(١).

﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾ أي: بما قصدتم عَقْدَه بالنية.

وقرئ ﴿عَقَدتُّمُ﴾ بالتخفيف، و﴿عَاقَدتُّمُ﴾ بالألف.

﴿إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ اشتراطُ المسكنة دليلٌ على أنه لا يُجزِئ في الكفارة إطعام غنيٍّ، فإن أطعمه جهلًا لم يُجْزِئه على المشهور من المذهب.

واشترط مالك أيضًا: أن يكونوا أحرارًا مسلمين، وليس في الآية ما يدلُّ على ذلك.

﴿مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ﴾ اختُلف في هذا التوسط؛ هل هو في القَدْر أو في الصِّنف؟ واللفظ يَحتمل الوجهين.

فأما القَدْر:

فقال مالك: يُطعَم بالمدينة: مدٌّ بمدِّ النبي ﷺ، وبغيرها: وسَطٌ من الشِّبَع.

وقال الشافعي وابن القاسم: يُجزِئ المدُّ في كل مكان.

وقال أبو حنيفة: إن غدَّاهم وعشَّاهم أجزأه.

وأما الصِّنف: فاختُلف هل يُطعِم من عيش نفسه، أو من عيش أهل بلده؟

فمعنى الآية على التأويل الثاني: من أوسط ما تطعمون -أيها الناس-

---

(١) انظر صفحة ١/ ٤٤٢.

أهليكم على الجملة.

وعلى الأول: يختصُّ الخطاب بالمكفِّر.

﴿أَو كِسْوَتُهُمْ﴾ قال كثيرٌ من العلماء: يُجزئ ثوبٌ واحد لمسكين؛ لأنه يقال فيه: كِسوةٌ.

وقال مالك: إنما يُجزئ[1] ما تصحُّ به الصلاة، فالرجلُ[2] ثوبٌ واحد، والمرأةُ[3] قميصٌ وخِمار.

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ اشترط مالك فيها: أن تكون مؤمنة؛ لتقييدها بذلك في كفارة القتل، فحَمل هذا المطلق على ذلك المقيد.

وأجاز أبو حنيفة هنا: عتقَ الكافر؛ لإطلاق اللفظ هنا.

واشترط مالك أيضًا: أن تكون سليمةً من العيوب. وليس في اللفظ ما يدلُّ على ذلك.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي: مَن لم يملك ما يُعتِق ولا ما يُطعِم ولا ما يَكسو؛ فعليه صيام ثلاثة أيام، فالخصالُ الثلاثة[4] على التَّخيير، والصيامُ مرتَّبٌ بعدَها لمن عَدِمها.

وهو عند مالك: مَن لم يَفضُل عن قوته وقوت عياله في يومه زيادةٌ.

---

(١) في د: «يجزئه».

(٢) في ج، د: «فللرجلِ».

(٣) في ج، د: «وللمرأةِ».

(٤) في أ: «الثلاث».

﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ معناه: إذ حلَفتم وحَنِثتم، أو أردتم الحِنْثَ.

واختُلف: هل يجوز تقديم الكفَّارة على الحِنث أم لا؟.

﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ أي: احفظوها فبَرُّوا فيها، ولا تَحنَثوا.

وقيل: احفظوها بأن تكفِّروها إن[1] حَنِثتم.

وقيل: احفظوها؛ أي: لا تنسَوْها تهاونًا بها.

﴿ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ مذكوران في «البقرة»[2].

﴿وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ مذكوران في أول هذه السورة[3].

﴿رِجْسٌ﴾ هو في اللغة: كلُّ مكروهٍ مذموم، وقد يطلق بمعنى النَّجس، وبمعنى الحرام.

وقال ابن عباس هنا[4]: ﴿رِجْسٌ﴾: سُخْطٌ.

﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ نصٌّ في التحريم، والضمير يعود على الرِّجس؛ الذي هو خبرٌ عن جميع الأشياء المذكورة.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ تقبيحٌ للخمر والميسر، وذكرٌ لبعض عيوبها، وتعليلٌ لتحريمها.

---

(١) في د: «إذا»، وكذا في هامش أ ورمز لها بـ«خ».

(٢) انظر صفحة ١/ ٤٣٦.

(٣) انظر صفحة ١٤٤.

(٤) في د: «معنى» بدل «هنا».

وقد وقعت في زمان الصحابة عداوةٌ بين أقوام بسبب شربهم لها قبل تحريمها، ويقال: إن ذلك كان سببَ نزول الآية.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ توقيفٌ يتضمَّن الزَّجر والوعيد؛ ولذلك قال عمر لما نزلت: «انتهينا انتهينا»[١].

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا﴾ فيها تأويلان:

أحدهما: أنه لما نزل تحريم الخمر قال قومٌ من الصحابة: كيف بمن مات منَّا وهو يشربها؟، فنزلت الآية مُعْلِمةً أنه لا جُناح على من شربها قبل التَّحريم؛ لأنه لم يعص اللهَ بشربها حينئذٍ.

والآخر: أن المعنى: رفْعُ الجُناح عن المؤمنين فيما طعموا من المطاعم إذا اجتنبوا الحرامَ منها، وعلى هذا أخذها عمرُ ﷺ حين قال لقُدَامةَ: «إنك إذا اتَّقيتَ الله اجتنبت ما حرم عليك»، وكان قدامةُ قد شربها واحتجَّ بهذه الآية على رفع الجناح عنه، فقال له عمر: «أخطأتَ التأويل»[٢].

﴿إِذَا مَا اتَّقَوا وَّءَامَنُوا﴾ الآيةَ؛ قيل: كَرَّر التقوى مبالغةً.

وقيل: الرُّتبة الأولى: اتقاء الشرك، والثانيةُ: اتقاء المعاصي، والثالثةُ: اتقاء ما لا بأس به؛ حذرًا مما به البأسُ.

وقيل: الأولى: للزمان الماضي، والثانيةُ: للحال، والثالثةُ: للمستقبل.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩)، والنسائي (٥٥٤٢).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٧/ ٤٧٢).

﴿وَأَحْسَنُواْ﴾ يَحتمل أن يريد:

الإحسانَ إلى الناس.

أو الإحسانَ في طاعة الله؛ وهو[١] المراقبة، وهذا أرجح؛ لأنه درجةٌ فوق التقوى، ولذلك ذكَره في المرة الثالثة وهي الغاية، ولذلك قالت الصوفية: المقامات ثلاثةٌ: مقام الإسلام، ثم مقام الإيمان، ثم مقام الإحسان.

* * *

(١) في أ، ب، هـ: «وهي».

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠٠﴾].

﴿لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ﴾ أي: يختبر طاعتَكم من معصيتكم بما يَظهر لكم من الصيد مع الإحرام، أو في الحرم.

وكان الصيد من معايش العرب ومستعملًا عندهم، فاختُبِروا بتركه كما اختُبِر بنو إسرائيل بالحوت في السَّبت.

وإنما قلَّله في قوله: ﴿بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ﴾ إشعارًا بأنه ليس من الفتن العِظام، وإنما هو من الأمور التي يمكن الصبر عنها.

﴿تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ﴾ قال مجاهد: الذي تناله الأيدي: الفِراخ، والبَيض، وما لا يستطيع أن يَفِرَّ، والذي تناله الرماح: كبارُ الصيد.

والظاهر عدم هذا التَّخصيص.

﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ أي: يَعلَمه علمًا تقوم به الحجة؛ وذلك إذا ظهر في الوجود.

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ﴾ أي: بقتل الصيد وهو مُحرِمٌ.

والعذاب الأليم هنا: في الآخرة.

﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ معنى ﴿حُرُمٌ﴾: داخلين في الإحرام، أو في الحرَم.

و﴿الصَّيْدَ﴾ هنا: عامٌّ، خَصَّص منه الحديثُ: الغرابَ، والحِدَأة، والفأرة، والعقرب، والكلب العقور[1].

وأَدخل مالك في الكلب العقور: كلَّ ما يؤذي الناس من السِّباع وغيرها.

وقاس الشافعي على هذه الخمسة: كلَّ ما لا يؤكَل لحمُه.

ولفظ الصيد يدخل فيه: ما صيد، وما لم يُصَدْ مما شأنه أن يصاد.

وورد النهي هنا عن القتل؛ قبل أن يصاد وبعد أن يصاد، وأما النهي عن الاصطياد فيؤخذ من قوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾.

﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ مفهوم الآية يقتضي: أن جزاءَ الصيد على المتعمِّد لا على الناسي، وبذلك قال أهل الظاهر.

وقال جمهور الفقهاء: إن المتعمدَ والناسيَ سواءٌ في وجوب الجزاء، ثم اختلفوا في تأويل قوله: ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ على ثلاثة أقوال:

أحدها: أن المتعمد إنما ذُكِر ليُناط به الوعيدُ الذي في قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٢٩)، ومسلم (١١٩٨).

﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ﴾؛ إذ لا وعيدَ على الناسي.

والثاني: أن الجزاء على الناسي بالقياس على المتعمد.

والثالث: أن الجزاء على المتعمد ثبَت بالقرآن، وأنَّ الجزاء على الناسي ثبت بالسنة(١).

﴿فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ المعنى: فعليه جزاءٌ.

وقرئ بإضافة ﴿جَزَآءٞ﴾ إلى ﴿مِّثۡلُ﴾؛ وهو من إضافة المصدر إلى المفعول به.

وقيل: ﴿مِّثۡلُ﴾ زائدةٌ؛ كقولك: «أنا أكرمُ مثلَك» أي: أكرمُك.

وقرئ ﴿فَجَزَآءٞ﴾ -بالتنوين- ﴿مِّثۡلُ﴾ بالرفع؛ على البدل، أو الصفة.

و﴿ٱلنَّعَمِ﴾: الإبل والبقر والغنم خاصةً.

ومعنى الآية:

عند مالك والشافعي: أنَّ من قتل صيدًا وهو مُحرِمٌ أنَّ عليه في الفدية ما يشبه ذلك الصيدَ في الخِلْقة والمنظر، ففي النعامة بدَنةٌ، وفي حمار الوحش بقرة، وفي الغزالة شاة، فالمثْلِيَّة -على هذا-: هي في الصورة والمقدار، فإن لم يكن له مِثلٌ: أطعَم أو صامَ.

---

(١) هذا من قول الزهري، كما في مصنف عبد الرزاق (٤/ ١٧٠): «عن الزهري قال: يُحكَم عليه في العمد، وهو في الخطإ سُنة»، وليس المراد بالسنة هنا حديثٌ معيَّن واردٌ فيه، وإنما المراد: أنه عليه عمل أهل العلم وطريقتهم، ولذا قال عبد الرزاق معلّقًا: «وهو قول الناس، وبه نأخذ».

ومذهب أبي حنيفة: أنَّ المثلَ القيمةُ؛ يقوَّمُ الصيد المقتول، ويخيَّر القاتل بين أن يتصدَّقَ بالقيمة، أو يشتريَ بالقيمة من النَّعم ما يُهديه.

﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ هذه الآية تقتضي: أن التَّحكيم شرطٌ في إخراج الجزاء، ولا خلاف في ذلك، فإن أخرج أحدٌ الجزاءَ قبل الحكم عليه فعليه إعادتُه بالحكم، إلَّا حمامَ مكة؛ فإنه لا يَحتاج إلى حَكَمين، قاله مالك.

ويجب عند مالك التَّحكيمُ فيما حَكَمت فيه[1] الصحابةُ، وفيما لم يحكموا به؛ لعموم لفظ الآية.

وقال الشافعي: يُكتفَى في ذلك بما حكمت به الصحابة.

﴿هَدْيًا﴾ يقتضي ظاهرُه: أن ما يُخرَج من النَّعم جزاءً عن الصيد يجب أن يكون مما يجوز أن يُهدَى؛ وهو الجذَع من الضأن والثَّنيُّ مما سواه.

وقال الشافعي: يُخرِج المثلَ في اللحم، ولا يُشترَط السن.

﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ لم يُرِد الكعبة بعينِها، وإنما أراد الحرمَ.

ويقتضي: أن يصنع بالجزاء ما يصنع بالهدي؛ مِن سَوْقِه من الحلِّ إلى الحرَم[2].

وقال الشافعي وأبو حنيفة: إن اشتراه في الحرم أجزأه.

﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ عدَّد تعالى ما يجب في قتل المحرم للصَّيد، فذكر أوَّلًا الجزاءَ من النَّعم، ثم الطعامَ، ثم الصيامَ.

---

(١) في د: «به».

(٢) في أ، ب، هـ: «الحرام».

ومذهب مالك والجمهور: أنها على التَّخيير، وهو الذي يقتضيه العطف بـ «أو».

ومذهب ابن عباس: أنها على التَّرتيب.

ولم يبيِّن الله هنا مقدارَ الطعام، فرأى العلماءُ أن يُقدَّر بالجزاء من النَّعَم، إلَّا أنهم اختلفوا في كيفية التَّقدير:

فقال مالك: يقدَّر الصيد المقتول نفسُه بالطعام، أو بالدراهم ثم تقوَّم الدراهم بالطعام، فيُنظَر كم يساوي من طعام أو من دراهم وهو حيٌّ.

وقال بعض أصحاب مالك: تقدير الصيد بالطعام أن يقال: كم كان يُشبع الصيدُ من نفسٍ، ثم يُخرِج قَدْر شِبَعِهم طعامًا.

وقال الشافعي: لا يقدَّر الصيد نفسُه، وإنما يقدَّر مثلُه، وهو الجزاء الواجب على القاتل له.

﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ تَحتمل الإشارةُ بذلك أن تكون:

إلى الطعام، وهو أحسن؛ لأنه أقرب.

أو إلى الصيد.

واختُلف في صفة تعديل الصيام بالطعام:

فقال مالك: يصوم مكان كل مدٍّ يومًا.

وقال أبو حنيفة: مكان كل مدَّين يومًا.

وقيل: مكان كلِّ صاعٍ يومًا.

ولا يجب الجزاء ولا الإطعام ولا الصيام إلَّا بقتل الصيد، لا بأخذه دون قتل؛ لقوله: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ﴾.

وفي كلِّ وجهٍ يشترط حُكْم الحَكَمين، وإنما لم يذكره الله في الصيام والطعام؛ استغناءً بذكره في الجزاء.

﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ الذَّوْقُ هنا: مستعارٌ؛ لأن حقيقتَه بحاسَّة اللسان.

والوبالُ: سوء العاقبة، وهو هنا: ما لَزِمه من التَّكفير.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي: عمَّا فعلتم في الجاهلية مِن قتل الصَّيد في الحرم.

﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ أي: مَن عاد إلى قتل الصيد وهو مُحرِمٌ بعد النهي عن ذلك فينتقمُ الله منه بوجوب الكفارة عليه، أو بعذابه في الآخرة.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ أحلَّ الله بهذه الآية صيدَ البحر للحلال والمحرم.

والصيد هنا: المصيد، والبحر: هو الماء الكثير؛ سواءٌ كان مِلْحًا أو عَذْبًا، كالبِرَك ونحوها.

﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ هو ما يطفو على الماء، وما قَذف به البحر؛ لأنَّ ذلك طعامٌ وليس بصيد. قاله أبو بكر الصدِّيق وعمر بن الخطاب.

وقال ابن عباس: طعامه: ما مُلِّح منه وبقي.

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ الخطاب بـ ﴿لَكُمْ﴾ للحاضرين في البحر، والسيارة: المسافرون.

أي: هو متاعٌ[1] تأتدِمون به.

---

(١) في د زيادة: «لكم».

﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ الصَّيد هنا يَحتمل أن يراد به: المصدرُ، أو الشيءُ المصيد، أو كلاهما.

فنشأ من هذا: أن ما صاده المحرم فلا يحلُّ له أكله بوجهٍ.

ونشأ الاختلاف فيما صاد[1] غيرُه:

فإذا اصطاد حلالٌ:

فقيل: يجوز للمُحرِم أكلُه.

وقيل: لا يجوز.

وقيل: لا يجوز إن اصطاده لمحرمٍ.

والأقوال الثلاثة مرويةٌ عن مالك.

وإن اصطاد حرامٌ: لم يَجُزْ لغيره أكلُه عند مالك، خلافًا للشافعي.

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ أي: أمرًا يقوم للناس بالأمن والمنافع.

وقيل: موضعَ قيامٍ بالمناسك.

ولفظ «الناس» هنا: عامٌّ.

وقيل: أراد العربَ خاصةً؛ لأنهم الذين كانوا يعظِّمون الكعبةَ.

﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ يريد: جنسَ الأشهر الحرم الأربعة؛ لأنهم كانوا يكفُّون فيها عن القتال.

---

(١) في ب، د: «صاده».

﴿وَالْهَدْيَ﴾ يريد: أنه أمانٌ لمن يسوقه؛ لأنه يُعلِم أنه في عبادةٍ لم يأت لحرب.

﴿وَالْقَلَٰٓئِدَ﴾ كان الرجل إذا خرج يريد الحج تقلَّد شيئًا من السَّمُر، وإذا رجع تقلَّد شيئاً من شجر الحرم؛ ليُعلِم أنه كان في عبادة، فلا يتعرَّض له أحدٌ بِشرٍّ[١]؛ فالقلائد هنا: هو[٢] ما يُقلِّدُه[٣] المحرمُ من الشجر.

وقيل: أراد قلائد الهدي.

قال سعيد بن جبير: جعل الله هذه الأمور للناس في الجاهلية، وشدَّدها في الإسلام[٤].

﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟﴾ الإشارةُ إلى جعل الله هذه الأمور قيامًا للناس.

والمعنى: فعل[٥] الله ذلك لتعلموا أنه يَعلم تفاصيلَ الأمور.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ لفظٌ عام في جميع الأمور؛ من المكاسب والأعمال والناس وغير ذلك.

---

(١) في ب، هـ: «بشيء» ولم ترد في ج.
(٢) في ج، هـ: «هي».
(٣) في د: «ما تقلَّده».
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ٨).
(٥) في د: «جعل».

[﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾].

﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ قيل: سببها: سؤال عبد الله بن حذافة: مَنْ أبي؟، فقال له النبي ﷺ: «أبوك حذافة»، وقال آخر: أين أنا[١]؟ قال: «في النار»[٢].

وقيل: سببها: أن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب عليكم الحجَّ فحجوا»

---

(١) في هامش ب: «أين أبي»، والمثبت موافق لما في الصحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٩٤).

فقالوا: يا رسول الله أفي كلِّ عامٍ؟ فسكت، فأعادوا، قال: «لا، ولو قلتُ: نعم لوجبت»(١).

فعلى الأول: ﴿تَسُؤْكُمْ﴾ بالإخبار بما لا يعجبكم.

وعلى الثاني: ﴿تَسُؤْكُمْ﴾ بتكليف ما يشقُّ عليكم، ويقوِّي هذا قولُه: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ أي: سكت عن ذكرها ولم يطالبكم بها؛ كقوله ﷺ: «عفا الله عن الزكاة في الخيل»(٢).

وقيل: إن معنى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ عفا عنكم فيما تقدَّم من سؤالكم؛ فلا تعودوا إليه.

﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ فيه معنى الوعيد على السؤال؛ كأنه قال: لا تسألوا، وإن سألتم أُبدِيَ لكم ما يسؤوكم.

والمراد بـ ﴿حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ﴾: زمانُ الوحي.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ الضمير في ﴿سَأَلَهَا﴾ راجعٌ إلى المسألة التي دلَّ عليها ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ﴾، وهي مصدرٌ؛ ولذلك لم يتعدَّ بـ «عن» كما تعدَّى قولُه: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا﴾.

وذلك أن بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم عن أشياءَ، فإذا أُمِروا بها تركوها فهلكوا، فالكفر هنا: عبارةٌ عن ترك ما أُمِروا به.

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٣٧).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٧٤)، والترمذي (٦٢٠)، والنسائي (٢٤٨٠) بلفظ: «قد عفوت عن صدقة الخيل..».

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ لما سأل قومٌ عن هذه الأمور التي كانت في الجاهلية هل تعظَّم كتعظيم الكعبة والهدي؟؛ أخبرهم الله أنه لم يَجعلْ شيئًا من ذلك لعبادِه؛ أي: لم يَشرعْه لهم، وإنما الكفَّارُ جعلوا ذلك.

فأما البَحيرة: فهي فَعِيلة بمعنى مفعولة؛ مِن بَحَرَ إذا شَقَّ؛ وذلك أن الناقة إذا نُتِجَتْ[1] عشرةَ أَبْطُنٍ شقُّوا أُذنَها، وتركوها ترعى ولا ينتفع بها.

وأما السَّائبة: فكان الرجل يقول: إذا قدمتُ من سفري أو برئت من مرضي فناقتي سائبة، وجعَلها كالبَحيرة في عدم الانتفاع بها.

وأما الوَصيلة: فكانوا إذا وَلَدت الناقة ذكرًا وأنثى في بطنٍ واحد قالوا: وصلت الناقةُ أخاها، فلم يذبحوهُ[2].

وأما الحامي: فكانوا إذا نُتِجَ مِن صلب الجمل عشرةُ بطون قالوا: قد حمَى ظَهْرَه، فلا يُركَب ولا يُحمَل عليه شيءٌ.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: يكذبون عليه بتحريمهم ما لم يحرِّمْ.

---

(١) في أ، ب، د: «أنتجت» بالألف، والمثبت هو الفصيح كما نص عليه الإمام ثعلب في كتابه الفصيح، يقال: «نُتِجت الناقةُ تُنتَج، ونَتَجها أهلُها»، وانظر: شرح الفصيح لابن درستويه (ص: ١٠٤).

(٢) في أ، د: «يذبحوها»، والمثبت هو الصواب، والضمير يعود على الذَّكَر، قال في الكشاف (٥/ ٥٠٨): «فإن ولدت ذكرًا وأنثى قالوا: وصلتْ أخاها، فلم يذبحوا الذَّكرَ لآلهتهم»، وانظر أيضًا: المحرر الوجيز (٣/ ٢٧٧).

﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الذي يفترون: هم الذين اخترعوا تحريمَ تلك الأشياء.

والذين لا يعقلون: هم أتباعُهم المقلِّدون لهم.

﴿قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أي: يكفينا دينُ آبائنا.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ قال الزمخشري: الواو: واو الحال، دخلت عليها همزة الإنكار؛ كأنه قيل: أَحَسْبُهم هذا وآباؤهم لا يعقلون![١].

وقال ابن عطية: «ألف التَّوقيف دخلت على واو العطف»[٢].

وقول الزمخشري أحسنُ في المعنى.

﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ قيل: إنها منسوخةٌ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقيل: إنها خطابٌ للمسلمين من ذرية الذين حرَّموا البَحيرةَ وأخواتِها؛ كأنه يقول: لا يضرُّكم ضلال أسلافكم إذا اهتديتم.

والقول الصحيح فيها: ما ورد عن أبي ثعلبة الخشني أنه قال: سألت عنها رسول الله ﷺ، فقال: «مُروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، فإذا رأيتم[٣] شُحًا مطاعًا، وهوى متَّبعًا، ودنيا مُؤْثَرةً، وإعجابَ كلِّ ذي رأي برأيه؛ فعليك بخويصة نفسك وذَرْ عوامَّهم»[٤]، ومثل ذلك قول عبد الله بن

---

(١) انظر: الكشاف (٥/ ٥٠٩).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٢٧٨).

(٣) في د: «رأيت».

(٤) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤).

مسعود ﷺ: «ليس هذا بزمان هذه الآية؛ قولوا الحق ما قُبِل منكم، فإذا رُدَّ عليكم[١] فعليكم أنفسكم»[٢].

﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ﴾ قال مكيٌّ: هذه الآية أشكلُ آيةٍ مِن القرآن؛ إعرابًا، ومعنًى، وحكمًا[٣].

ونحن نبيِّن معناها على الجملة، ثم نبين أحكامها، وإعرابها على التفصيل.

وسببها: أنَّ رجلين خرجا إلى الشام، وخرج معهما رجلٌ آخر لتجارة[٤]، فمرض في الطريق، فكتب كتابًا قيَّد فيه كلَّ ما معه، وجعله في متاعه، وأوصى الرجلين أن يؤديا رَحْلَه إلى ورثته، فمات، فقَدِمَ الرجلان المدينة، ودفعَا رَحله إلى ورثته، فوجودوا فيه كتابه، وفقدوا منه أشياءَ قد كتبها، فسألوهما عنها فقالا: لا ندري، هذا الذي قبضناه، فرفعوهما إلى رسول الله ﷺ فاستحلَفهما رسول الله ﷺ، فبقي الأمر مدَّةً، ثم عُثِر على إناءٍ عظيم من فضة، فقيل لمن وُجِد عنده: من أين لك هذا؟، فقال: اشتريته من فلان وفلان، يعني الرجلين، فارتفع الأمر في ذلك إلى رسول الله ﷺ فأمر رسول الله ﷺ رجلين من أولياء الميت أن يحلفا، فحلفا واستحقًا.

فمعنى الآية: إذا حضر الموتُ أحدًا في السفر فليُشهِد عَدْلين بما معه، فإن

---

(١) سقطت هذه الكلمة من ب، ج، هـ.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ٤٣).

(٣) انظر: مشكل إعراب القرآن، لمكي بن أبي طالب القيسي (١/ ٢٤٣).

(٤) في ج، د: «بتجارة».

وقعت ريبةٌ في شهادتهما حلَفا أنهما ما كذَبا ولا بدَّلا ، فإن عُثِر بعد ذلك على أنهما كذَبا أو خانا حلف رجلان من أولياء الميت، وغَرِم الشَّاهدان ما ظهر عليهما.

﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾ مرفوعٌ بالابتداء، وخبره: ﴿ٱثۡنَانِ﴾، التقدير: شهادةُ بينكم شهادةُ اثنين.

أو: مقيمُ شهادةِ بينكم اثنان.

﴿إِذَا حَضَرَ﴾ أي: إذا قارب[١] الحضورَ، والعامل في ﴿إِذَا﴾: المصدرُ الذي هو ﴿شَهَٰدَةُ﴾، وهذا على أن يكون ﴿إِذَا﴾ بمنزلة «حين»؛ لا تحتاج جوابًا.

ويجوز أن تكون شرطيةً، وجوابها محذوف؛ يدلُّ عليه ما تقدَّم قبلها؛ فإنَّ المعنى: إذا حضر أحدَكم الموتُ فينبغي أن يُشهِدَ.

﴿حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ﴾ ظرفٌ؛ العامل فيه: ﴿حَضَرَ﴾.

أو يكون بدلًا من ﴿إِذَا﴾.

﴿ذَوَا عَدۡلٖ﴾ صفةٌ للشاهدين.

﴿مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ قيل: معنى ﴿مِّنكُمۡ﴾: من عشيرتكم وأقاربكم، و﴿مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾: من غير العشيرة والقرابة.

وقال الجمهور: ﴿مِّنكُمۡ﴾ أي: من المسلمين، و﴿مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ أي: من الكفار إن لم يوجد مسلمٌ.

---

(١) في ج، د: «قرب».

ثم اختُلف على هذا:

هل هي منسوخةٌ بقوله: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] فلا تجوز شهادة الكفار أصلًا -وهو قول مالك والشافعي والجمهور-؟.

أو هي مُحْكَمةٌ وأن شهادة الكفار جائزةٌ على الوصية في السفر -وهو قول ابن عباس-؟.

﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: سافرتم، وجواب ﴿إِنْ﴾ محذوفٌ؛ يدلُّ عليه ما تقدَّم قبلها، والمعنى: إن ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت فشهادة بينكم شهادةُ اثنين.

﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ قال أبو علي الفارسيُّ: هو صفة لـ ﴿ءَاخَرَانِ﴾، واعتُرِض بين الصفة والموصوف بقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمَوْتِ﴾؛ ليُفيدَ أن العُدول إلى آخَرينِ من غير الملَّة إنما يجوز لضرورةِ الضَّرب في الأرض، وحلولِ الموت في السَّفَر.

وقال الزمخشري: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ استئنافُ كلامٍ[1].

﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ قال الجمهور: هي صلاة العصر؛ فاللام للعهد؛ لأنها وقت اجتماع الناس، وبعدها أمر النبي ﷺ باللِّعان، وقال: «مَن حلَفَ على سلعة بعد العصر..»[2]، وكان التحليفُ بعدها معروفًا عندهم.

وقال ابن عباس: هي صلاة الكافرَينِ في دينهما؛ لأنهما لا يُعظِّمان صلاةَ العصر.

---

(١) انظر: الكشاف (٥/ ٥١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٦٩)، ومسلم (١٠٨).

﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ أي: يحلفان، ومذهب الجمهور: أن تحليف الشاهدين منسوخٌ.

وقد أَحْلَفهما عليُّ بن أبي طالب وأبو موسى الأشعري.

﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أي: إن شككتم في صدقهما، وأمانتهما.

وهذه الكلمة اعتراضٌ بين القَسَم والمُقسَم عليه.

وجواب ﴿إِنِ﴾ محذوفٌ؛ يدل عليه: ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾.

﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا﴾ هذا هو المقسَم عليه، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ للقسم، وفي ﴿كَانَ﴾ للمُقسَم له؛ أي: لا نَستبدلُ بصحة القسم بالله عرَضًا من الدنيا؛ أي: لا نحلف بالله كاذبَيْنِ لأجل المال؛ ولو كان مَن نُقسِمُ له قريبًا لنا؛ وهذا لأن عادة الناس الميلُ إلى أقاربهم.

﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: الشهادةَ التي أمر الله بحفظها وأدائها، وأضافها[١] إلى الله؛ تعظيمًا لها.

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ أي: إن اطُّلِع بعد ذلك على أنهما فعَلَا ما أوجب إثمًا.

فالإثم: الكذب، أو[٢] الخيانة. واستحقاقُه: الأهليةُ للوصف به.

﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ أي: اثنان من أولياء الميت يقومان مقام الشاهدَينِ في اليمين.

---

(١) في ج: «وإضافتها».

(٢) في د: «و».

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُحِقَّ عَلَيْهِمُ﴾ أي: من الذين استُحِقَّ عليهم الإثم، أو المال.

ومعناه: من الذي جُنِي عليهم؛ وهم أولياء الميت.

﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ تثنية «أَوْلَى»؛ بمعنى: أحقُّ؛ أي: الأحَقَّان بالشهادة؛ لمعرفتهما، أو الأحقَّان بالمال؛ لقرابتهما.

وهو مرفوعٌ؛ على أنه:

خبر ابتداءٍ؛ تقديره: «هما الأَوْليان».

أو مبتدأٌ مؤخَّرٌ؛ تقديره: «الأولیان آخران يقومان».

أو بدلٌ من الضمير في ﴿يَقُومَانِ﴾.

ومنع الفارسيُّ أن يُسنَد ﴿اسْتُحِقَّ﴾ إلى ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾، وأجازه ابن عطية[1].

وأما على قراءة ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾ -بفتح التاء والحاء- على البناء للفاعل:

فـ ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ فاعلٌ بـ ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾.

ومعنى ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾ على هذا: أَخَذ المال وجعَل يدَه عليه.

و﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ -على هذا- هما: الشَّاهدان اللذان ظهرت خيانتُهما؛ أي: الأوليان بالتَّحليف والتَّعنيف والفضيحة.

وقرئ ﴿الأَوَّلِينَ﴾ جمع أوَّلٍ، وهو:

مخفوضٌ؛ على الصفة لـ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتُحِقَّ عَلَيْهِمُ﴾.

أو منصوبٌ بإضمار فعلٍ.

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٣/ ٢٨٩).

ووصفهم بالأَوَّلِيَّة؛ لتقدُّمهم على الأجانب في استحقاق المال، وفي صدق الشهادة.

﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا﴾ أي: يَحلفُ هذان الآخران أنَّ شهادتَهما أحقُّ -أي: أصحُّ- من شهادة الشاهدَينِ اللذَينِ ظهرت خيانتهما.

﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: إن اعتدَينا فإنّا من الظالمين؛ وذلك على وجه التبرِّي، ومثلُه قول الأوَّلَينِ: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْأَثِمِينَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ الإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الحكم الذي وقع في هذه القضية[1].

ومعنى ﴿أَدْنَىٰٓ﴾: أقربُ، و﴿عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ أي: كما وقعت من غير تبديل ولا تغيير.

﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ أي: يخافوا أن يحلف غيرُهم بعدَهم فيَفتضِحوا.

* * *

(١) في ب: «القصة»، وفي د: «الوصية».

[﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾].

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ هو يوم القيامة، وانتصابُ الظَّرف بفعل مضمر.

﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ أي: ماذا أجابكم به الأمم؛ من إيمان وكفر وطاعة ومعصية؟

والمقصود بهذا السؤال: توبيخُ مَن كفر من الأمم، وإقامةُ الحجة عليهم.

وانتصب ﴿مَاذَآ﴾ بـ ﴿أُجِبْتُمْ﴾ انتصابَ مصدرِه.

ولو أُريد الجواب لقيل: «بماذا أُجبتم؟».

﴿قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ إنما قالوا ذلك تأدُّبًا مع الله، فوكَلوا العلم إليه.

قال ابن عباس: المعنى: لا علم لنا إلا ما علَّمتنا.

وقيل: معناه: عِلْمُنا ساقطٌ في جنب علمك، ويقوِّي ذلك قولُهم: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾؛ لأنَّ مَن عَلِم الخفيَّات لم تَخْفَ[1] عليه الظواهر.

وقيل: ذَهَلُوا عن الجواب؛ لهولِ ذلك اليوم. وهذا بعيد؛ لأنَّ الأنبياءَ في ذلك اليوم آمنون.

وقيل: أرادوا بذلك توبيخَ الكفار.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ يَحتمل:

أن يكون ﴿إِذْ﴾ بدلًا من ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ﴾، ويكون هذا القولُ يومَ القيامة.

أو يكونَ العامل في ﴿إِذْ﴾ مضمرًا، ويَحتمل على هذا أن يكون القولُ: في الدنيا.

أو يوم القيامة، وإذا جعلناه يومَ القيامة؛ فقوله: ﴿قَالَ﴾ بمعنى: يقول.

وقد تقدَّم تفسير ألفاظ هذه الآية في «آل عمران»[2].

﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ الضمير المؤنَّث عائدٌ على الكاف؛ لأنها صفة الهيئة، وكذلك الضمير في ﴿فَتَكُونُ﴾.

وكذلك الضمير المذكَّر في قوله في «آل عمران»: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٤٩] عائدٌ على الكاف أيضًا؛ لأنها بمعنى: «مِثْلَ».

وإن شئت أن تقول: هو في الموضعين عائدٌ على الموصوف المحذوف

---

(١) في ب، هـ: «يخف».

(٢) انظر صفحة ١/ ٥٤٢.

الذي وُصِف بقوله: ﴿كَهَيْـَٔةِ﴾ فتُقدِّرُه[١] في التَّأنيث: «صورةً»، وفي التَّذكير: «شخصًا» أو «خَلْقًا» وشبهَ ذلك.

وقيل: المؤنَّثُ يعود: على الهيئة، والمذكَّرُ[٢]: على الطَّير، أو الطِّين. وهو بعيدٌ في المعنى.

﴿بِإِذْنِي﴾ كرَّره مع كل معجزة؛ ردًّا على من نسَب الربوبيةَ لعيسى.

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾ يعني: اليهودَ؛ حين همُّوا بقتله فرفَعه الله إليه.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ﴾ معطوفٌ على ما قبله؛ فهو من جملة نعم الله على عيسى.

والوحيُ هنا يَحتمل أن يكون: وحيَ إلهامٍ، أو وحيَ كلامٍ.

﴿وَٱشْهَدْ﴾ يَحتمل أن يكون خطابًا: لله تعالى، أو لعيسى عليه السلام.

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ نداؤهم له باسمه دليلٌ على أنهم لم يكونوا يعظِّمونه كتعظيم المسلمين لمحمد ﷺ؛ فإنهم كانوا لا ينادونه باسمه، وإنما يقولون: يا رسول الله، يا نبي الله.

وقولهم: ﴿ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ دليلٌ على أنهم كانوا يعتقدون فيه الاعتقادَ الصحيح مِن نِسْبتِه إلى أمِّ دون والد، بخلاف ما اعتقده النصارى.

﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ ظاهرُ هذا اللفظ: أنهم شكُّوا في قدرة الله تعالى على إنزال المائدة. وعلى هذا أخَذه الزمخشري، وقال: ما وصفهم الله

(١) في أ، ب: «فتقديره».

(٢) في د زيادة: «يعود».

بالإيمان، وإنما حكَى دعواهم في قولهم: «آمنَّا»[١].

وقال ابن عطية وغيره: ليس لأنهم شكُّوا في قدرة الله؛ لكنه بمعنى: هل يفعل ربك هذا؟، وهل يقع منه إجابةٌ إليه؟[٢].

وهذا أرجحُ؛ لأن الله أثنى على الحواريين في مواضعَ من كتابه، مع أنَّ في اللفظ بشاعةً تُنكَر.

وقرئ: ﴿تَسْتَطِيعُ﴾ - بتاء الخطاب - ﴿رَبَّكَ﴾ بالنصب؛ أي: هل تستطيع سؤالَ ربِّكَ.

وهذه القراءة لا تقتضي أنهم شكُّوا، وبها قرأت عائشة ﵂، وقالت: «كان الحواريون أعرفَ بربِّهم من أن يقولوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾»[٣].

﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ موضعُ ﴿أَن﴾:

مفعولٌ بقوله: ﴿يَسْتَطِيعُ﴾ على القراءة بالياء.

ومفعولٌ بالمصدر - وهو السؤالُ المقدَّر - على القراءة بالتاء.

والمائدة: التي عليها طعامٌ، فإن لم يكن عليها طعام فهي خِوَانٌ.

﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قوله لهم: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ يَحتمل أن يكون:

زجرًا عن طلبِ المائدة، واقتراحِ الآيات.

---

(١) انظر: الكشاف (٥/ ٥٣٣).

(٢) انظر: المحرر الوجيز (٣/ ٢٩٨).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٢٤٣).

ويَحتمل أن يكون زجرًا عن الشكِّ الذي يقتضيه قولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ على مذهب الزمخشري.

أو عن البشاعة التي في اللفظ وإن لم يكن فيه شكٌّ.

وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾:

هو على ظاهره على مذهب الزمخشري.

وأما على مذهب ابن عطية وغيره: فهو تقريرٌ لهم؛ كما تقول: «افعل كذا إن كنت رجلًا»، ومعلوم أنه رجل.

وقيل: إنَّ هذه المقالةَ صدرت منهم في أوَّل الأمر، قبل أن يروا معجزات عيسى.

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ أي: أكلًا نتشرَّف به بين الناس، وليس مرادُهم شهوةَ البطن.

﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ أي: نعاينَ الآية، فيصيرَ إيمانُنا بالضَّرورة والمشاهدة فلا تَعرِضُ لنا الشكوكُ التي تعرض في الاستدلال.

﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ ظاهرُه يقوِّي قولَ من قال: إنهم إنما قالوا ذلك قبل تمكُّن إيمانهم.

ويَحتمل أن يكون المعنى: نعلمَ علمًا ضروريًا لا يحتمل الشكَّ.

﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: نشهدُ بها عند مَن لم يحضرها من الناس.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا﴾ أجابهم عيسى إلى سؤال المائدة من الله.

وروي أنه لبس جُبَّةَ شَعر ورداءَ شعر، وقام يصلي ويدعو ويبكي.

﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ قيل: نتَّخذُ يومَ نزولها عيدًا يدور كلَّ عام، لأول الأمة، ثم لمن بعدَهم.

وقال ابن عباس: المعنى: تكون مجتمَعًا لجميعنا أوَّلِنا وآخِرِنا في يوم نزولها خاصة، لا عيدًا[1] يدور.

﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ أي: علامةً على صدقي.

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ أجابهم الله إلى ما طلبوا، ونزلت المائدة عليها خبز وسمك.

وقيل: زيتون وتمر ورمان.

وقال ابن عباس: كان طعام المائدة ينزل عليهم حيثما نزلوا.

وفي قصة المائدة قَصص كثيرٌ غيرُ صحيح.

﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ﴾ عادةُ الله ﷻ عقابُ مَن كفر بعد اقتراحِ آيةٍ فأُعطِيَتْهُ، ولما كفر بعض هؤلاء مسَخهم الله خنازير.

قال عبد الله بن عمر: أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة مَن كفر من أصحاب المائدة، وآلُ فرعون، والمنافقون[2].

---

(١) في أ، ب، ج، هـ: «لا عيد».

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٣٢).

[﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾].

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾ قال ابن عباس والجمهور: هذا القول من الله يكون يومَ القيامة على رؤوس الخلائق؛ ليَرى الكفارُ تبرئةَ عيسى مما نسبوه إليه، ويعلمون أنهم كانوا على باطل.

وقال السُّدِّيُّ: لما رَفع الله عيسى إليه قالت النصارى ما قالت، وزعموا أن عيسى أمرَهم بذلك، فسأله الله حينئذ عن ذلك، فقال: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ الآيةَ، فعلى هذا:

يكون ﴿إِذْ قَالَ﴾ ماضيًا في معناه؛ كما هو في لفظه.

وعلى قول ابن عباس: يكون بمعنى المستقبل.

﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ﴾ نفيٌ يَعضُده دليل العقل؛ لأن المحْدَث لا يكون إلهًا.

﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ اعتذارٌ وبراءةٌ من ذلك القول، ووكَلَ العلم إلى الله؛ لتَظهرَ براءتُه؛ لأن الله عَلِم أنه لم يقل ذلك.

﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ أي: تعلم مَعلومِي ولا أعلم مَعلومَك، ولكنه سلك باللفظ مَسْلَك المشاكَلة؛ فقال: ﴿فِى نَفْسِكَ﴾؛ مقابلةً لقوله: ﴿فِى نَفْسِى﴾[1].

وبقيةُ كلامِه تعظيمٌ لله، وإخبارٌ بما قال للناس في الدنيا.

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟﴾ ﴿أَن﴾ حرف عبارة وتفسير.

أو مصدرية؛ بدلٌ من الضمير في ﴿بِهِۦ﴾.

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فيها سؤالان:

الأول: كيف قال: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وهم كفَّارٌ؛ والكفَّار لا يُغفَر لهم؟

---

(١) قال الشيخ عبد الرحمن البراك: قوله في تفسير الآية: «أي تعلم معلومي ولا أعلم معلومك» إلخ، أقول: هذا تفسير منه للموصول في الموضعين: ﴿مَا فِى نَفْسِى﴾ و﴿مَا فِى نَفْسِكَ﴾، فيكون المعنى تعلم الذي أعلمه، ولا أعلم الذي تعلمه، وهذا يشمل ما يُبدَى وما يُخفَى، وهذا أعم مما يدل عليه لفظ الآية، والله يعلم ما يبديه العبد وما يخفيه، ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾، والعبد يعلم من معلوم الله ما أعلمَه به، ولا يعلم العبد ما يخفيه سبحانه، فلا يعلم ما استأثر الله بعلمه، ولا كلَّ ما أعلم به بعضَ عباده، فقول عيسى ﷺ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ أي ما أخفيه، ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ أي ما تخفيه. ولم يذكر المؤلف رحمه الله معنى النفس في الآية، وأليقُ معاني النفس في مثل هذا السياق أن يراد بها الذات، كما يقال: جاء محمد نفسه، وهذا الشيء نفسُ ذاك، أي هو هو، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾. والله أعلم.

والجواب: أن المعنى: تسليمُ الأمر لله، وأنه إن عذَّب أو غفر فلا اعتراضَ عليه؛ لأن الخلق عبادُه، والمالك يفعل في مُلكه ما يشاء، ولا يَلزم من هذا وقوعُ المغفرة للكفار، إنما يقتضي جوازَها في حِكْمة الله تعالى وعزَّته، وفَرقٌ بين الجواز والوقوع.

وأما على قول من قال: إن هذا الخطاب لعيسى عليه السلام حين رفعه الله إلى السماء، فلا إشكالَ؛ لأن المعنى: إن تغفر لهم بالتوبة، وكانوا حينئذ أحياءَ، وكل حيٍّ معرَّضٌ للتوبة.

السؤال الثاني: ما مناسبةُ قولِه: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ لقوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾؛ والأليق مع ذكر المغفرة أنْ لو قيل: «فإنك أنت الغفور الرحيم»؟.

والجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: يظهر لي: أنه لما قَصد التَّسليم لله والتَّعظيم له، كان قوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أليقَ؛ فإن الحكمة تقتضي التسليم له، والعزَّة تقتضي التعظيم له؛ فإن العزيز: هو الذي يفعل ما يريد، ولا يَغلِبه غيرُه، ولا يَمتنع عليه شيءٌ أراده، فاقتضى الكلام تفويضَ الأمر إلى الله في المغفرة لهم أو عدم المغفرة؛ لأنه قادرٌ على كلا الأمرين؛ لعزَّته، وأيهما فعَل فهو جميل؛ لحكمته.

الجواب الثاني: -قاله شيخُنا الأستاذ أبو جعفر ابنُ الزبير-: إنما لم يقل «الغفور الرحيم»؛ لئلا يكون في ذلك تعريضٌ بطلب المغفرة لهم، فاقتصر

على التسليم والتفويض دون الطلب؛ إذ لا تطلب المغفرة لكافرٍ[١]. وهذا قريبٌ من قولنا.

الثالث: حكى شيخُنا الخطيب أبو عبد الله ابنُ رُشَيدٍ[٢] عن شيخه إمام البلغاء في وقته حازم ابن حازم[٣] أنه كان يقف على قوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾، ويجعل ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ استئنافًا، وجواب ﴿إِن﴾ في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾؛ كأنه قال: إن تعذبهم وإن تغفر لهم فإنهم عبادك على كل حال.

﴿هَٰذَا يَوْمَ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ عمومٌ في جميع الصادقين، وخصوصٌ في عيسى بن مريم؛ فإن في ذلك إشارةً إلى صدْقِه في الكلام الذي حكاه الله عنه.

وقرأ غيرُ نافع: ﴿هَٰذَا يَوْمُ﴾ بالرفع؛ على الابتداء والخبر.

وقرأ نافعٌ بالنصب؛ وفيه وجهان:

أحدهما: أن يكون ﴿يَوْمَ﴾ ظرفًا لـ﴿قَالَ﴾؛ فعلى هذا: لا تكون الجملة معمولَ القول، وإنما معموله ﴿هَٰذَا﴾ خاصةً، والمعنى: قال الله هذا القَصص أو[٤] الخبر في يوم. وهذا بعيدٌ مُزِيلٌ لرَوْنَقِ الكلام.

---

(١) انظر: ملاك التأويل (١/ ٤٠٨).

(٢) هو محمد بن عمر، ابنُ رُشَيد الفهري السبتي، أبو عبد الله محب الدين، ولد سنة (٦٥٧هـ)، وتوفي سنة (٧٢١هـ). انظر: بغية الوعاة، للسيوطي (١/ ١٩٩).

(٣) هو حازم بن محمد بن حسن بن محمد بن خلف بن حازم الأنصاري القرطبي النحوي، أبو الحسن، شيخ البلاغة والأدب في عصره، له كتاب «سراج البلغاء» في البلاغة، ولد سنة (٦٠٨هـ)، وتوفي سنة (٦٨٤هـ). انظر: بغية الوعاة، للسيوطي (١/ ٤٩١).

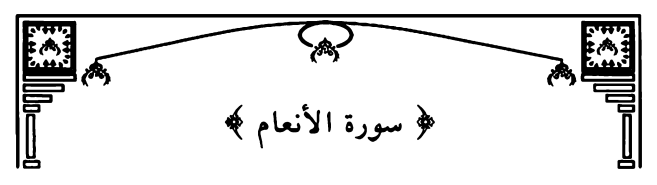
(٤) في ب، د: «و».

والآخر: أن يكون ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ، و﴿يَوْمَ﴾ في موضع خبره، والعامل فيه محذوفٌ؛ تقديره: هذا واقعٌ يومَ ينفع الصادقين صدقهم.

ولا يجوز أن يكون ﴿يَوْمَ﴾ مبنيًا على قراءة نافع؛ لأنه أضيف إلى مُعْرَبٍ. قاله الفارسي والزمخشري[١].

* * *

(١) انظر: الكشاف (٥/ ٥٤٩).



﴿ سورة الأنعام ﴾

قال كعبٌ[(١)]: أوّل الأنعام هو أول التوراة[(٢)].

[﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾].

﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ «جعل» هنا بمعنى: خلق، والظلمات: الليل، والنور: النهار، والضَّوء الذي في الشمس والقمر وغيرهما.

---

(١) في د زيادة: «الأحبار».

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٤٧).

وإنما أَفرد النورَ؛ لأنه أراد الجنس.

وفي الآية ردٌّ على المجوس في عبادتهم النارَ وغيرَها من الأنوار، وقولِهم: إن الخيرَ من النور والشرَّ من الظلمة؛ فإن المخلوق لا يكون إلهًا ولا فاعلًا لشيءٍ من الحوادث.

﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يُسَوُّون ويُمَثِّلون؛ من قولك: عدَلتُ فلانًا بفلان: إذا جعلتَه نظيرَه وقرينه.

ودخلت ﴿ثُمَّ﴾ لتدلَّ على استبعاد أن يَعدِلوا بربِّهم بعد وضوح آياته في خلق السموات والأرض، والظلمات والنور.

وكذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾؛ استبعادٌ لأن يمتروا فيه بعدما ثبت أنه أحياهم وأماتهم.

وفي ضمن ذلك تعجيبٌ من فعلهم، وتوبيخٌ لهم.

و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هنا: عامٌّ في كل مشرك.

وقد يختصُّ:

بالمجوس؛ بدليل الظلمات والنور.

أو بعَبَدة الأصنام؛ لأنهم المجاورون للنبي ﷺ، وعليهم يقع الردُّ في أكثر القرآن.

﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ أي: خلق أباكم آدمَ من طين.

﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ الأجل الأول: الموتُ، والثاني: يومُ القيامة، وجَعَله عنده؛ لأنه استأثر بعلمه.

وقيل: الأوَّل: النوم، والثاني: الموت.

ودخلت ﴿ثُمَّ﴾ هنا لترتيب الإخبار، لا لترتيب الوقوع؛ لأن القضاء متقدِّمٌ على الخلق.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ يتعلَّق ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بمعنى اسم الله؛ فالمعنى كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، كما يقال: أمير المؤمنين الخليفةُ في المشرق والمغرب.

ويَحتمل أن يكون المجرور في موضع الخبر؛ فيتعلَّق باسم فاعلٍ محذوف، والمعنى على هذا قريبٌ من الأول.

وقيل: المعنى أنه في السموات والأرض بعلمه؛ كقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

والأول أرجح وأفصح؛ لأن اسم الله جامعٌ للصفات كلِّها من العلم والقدرة والحكمة وغير ذلك فقَصَد جمْعَها مع الإيجاز.

ويترجَّح الثاني: بأن سياق الكلام في اطِّلاع الله تعالى وعلمه؛ لقوله بعدها: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾.

وقيل: يتعلَّق بمحذوف؛ تقديره: المعبود في السموات والأرض، وهذا المحذوف صفة لـ ﴿ٱللَّهُ﴾.

واسم ﴿ٱللَّهُ﴾ على هذا القول، وعلى الأول: هو خبر المبتدأ.

وأما إذا كان المجرور الخبر: فاسم ﴿ٱللَّهُ﴾ بدلٌ من الضمير.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ «مِن» الأولى: زائدة.

والثانية: للتَّبعيض، أو لبيان الجنس.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: ما جاء به محمد ﷺ.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ﴾ الآيةَ؛ وعيد بالعذاب والعقاب على استهزائهم.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ حضٌّ للكفار على الاعتبار بغيرهم.

والقَرْن: مئة سنة، وقيل: سبعون، وقيل: أربعون.

﴿مَّكَّنَّٰهُمْ﴾ الضمير عائدٌ على القرن؛ لأنه في معنى الجماعة.

﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ الخطاب لجميع أهل ذلك العصر من مؤمن وكافر.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ السماءُ هنا: المطر، أو السحاب، أو السماء حقيقةً.

و﴿مِّدْرَارًا﴾: بناءُ مبالغةٍ وتكثيرٍ؛ من قولك: درَّ المطر: إذا غَزُرَ.

﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ التَّقدير: فكفروا وعصَوا فأهلكناهم، وهذا تهديدٌ للكفار أن يصيبَهم مثلُ ما أصاب هؤلاء على حال قوتهم وتمكينهم.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ الآيةَ؛ إخبارٌ أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم أوضح الآيات.

والمراد بقوله: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾[1] لو بالغوا في مَيْزِه وتقليبه ليرتفع الشكُّ؛ لعاندوا بعد ذلك.

---

(١) في د «أي»، وكذا في هامش أ ورمز له بـ«خ».

ويُشبِه أن يكون سببُ هذه الآية قولَ بعضهم للنبي ﷺ: لا أؤمن لك[١] حتى تأتيَني بكتاب من السماء يأمرني بتصديقك، وما أُرَاني مع هذا[٢] أصدِّقك.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ حكايةٌ عن طلب بعض العرب، روي أن العاصيَ بن وائل، والنضرَ بن الحارث، وزمعة بن الأسود، والأسود بن عبد يغوث قالوا للنبي ﷺ: يا محمد، لو كان معك مَلَك!.

﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ قال ابن عباس: المعنى: لو أنزلنا ملكًا فكفروا بعد ذلك لعُجِّل لهم العذاب، ففي الكلام على هذا حذفٌ، وقضاء الأمر على هذا: تعجيلُ أَخْذِهم.

وقيل: المعنى: لو أنزلنا ملكًا لماتوا من هَوْلِ رؤيته، فقضاء الأمر على هذا: موتهم.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ أي: لو جعلنا الرسول ملَكًا لكان في صورة[٣] رجل؛ لأنهم لا طاقة لهم على رؤية الملَك في صورته.

﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي: لخلَطنا عليهم ما يَخلِطون على أنفسهم وعلى ضعفائهم؛ فإنهم إذا رأوا الملَك في صورة إنسان قالوا: هذا إنسان وليس بملك.

---

(١) في د: «بك».

(٢) في د: «بعد ذلك».

(٣) في د: «في صفة».

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ﴾ الآية؛ إخبارٌ قُصِد به تسليةُ النبي ﷺ عما كان يلقى من قومه.

﴿فَحَاقَ﴾ أي: أحاط بهم، وفي هذا الإخبارِ تهديدٌ للكفار.

* * *

[﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّا أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ۘ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾].

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآيةَ؛ حضٌّ على الاعتبار بغيرهم إذا رأوا منازل الكفار الذين هلَكوا قبلهم.

﴿ثُمَّ انظُرُوا﴾ قال الزمخشري: إن قلتَ: أيُّ فَرْقٍ بين قوله: ﴿فَانظُرُوا﴾ وبين قوله: ﴿ثُمَّ انظُرُوا﴾؟

قلت: جعل النظر مسبَّبًا عن السَّيْر في قوله: ﴿فَانظُرُوا﴾؛ فكأنه قال: سيروا لأجل النظر، وأما قوله: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا﴾ فمعناه: إباحةُ السَّير للتجارة وغيرها من المنافع، وإيجابُ النظر في الهالكين، ونبَّه على

ذلك بـ «ثم»؛ لتَباعُدِ ما بين الواجب والمباح[1].

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾ القصد بالآية: إقامةُ برهانٍ على صحة التوحيد وإبطال الشرك، وجاء ذلك بصيغة الاستفهام؛ لإقامة الحجة على الكفار، فسأل أولًا: ﴿لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ثم أجاب عن السؤال بقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾؛ لأن الكفار يوافقون على ذلك بالضَّرورة، فيَثبت بذلك أن الإله الحقَّ هو الله الذي له ما في السموات والأرض.

وإنما يَحسن أن يكون السائل مجيبًا عن سؤاله، إذا علم أنَّ خصمه لا يخالفه في الجواب الذي به يقيم الحجةَ عليه.

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أي: قضاها؛ وتفسير ذلك: بقول النبي ﷺ: «إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق السموات والأرض، وفيه: إن رحمتي سبقت غضبي»[2]، وفي رواية: «تغلب غضبي»[3].

﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ مقطوعٌ مما قبله، وهو جوابٌ لقسَمٍ محذوف.

وقيل: هو تفسيرٌ للرحمة المذكورة؛ تقديره: أنْ يَجمعَكم. وهذا ضعيفٌ؛ لدخول النون الثقيلة في غير موضعها؛ فإنها لا تدخل إلّا في القسم، أو في غير الواجب.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قيل: «إلى» هنا بمعنى «في». وهو ضعيف.

والصحيح: أنها للغاية على بابها.

---

(١) انظر: الكشاف (٦/ ٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١).

(٣) أخرجها البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١).

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأٌ، وخبره: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، ودخلت الفاء؛ لما في الكلام من معنى الشَّرط. قاله الزجاج، وهو حسَنٌ.

وقال الزمخشري: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نَصْبٌ على الذمِّ، أو رَفْعٌ بخبر ابتداء مضمر[1].

وقيل: هو بدلٌ من الضمير في ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾ وهو ضعيف.

وقيل: منادى، وهو باطل.

﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾.

ومعنى ﴿سَكَنَ﴾: حلَّ؛ فهو من السُّكْنى.

وقيل: هو من السُّكون. وهو ضعيف؛ لأن الأشياء منها ساكنة ومتحركة؛ فلا يَعُمُّ، والمقصود عمومُ مُلْكه تعالى لكل شيء.

﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾ إقامةُ حجةٍ على الكفار، وردٌّ عليهم بصفات الله الكريمة التي لا يشاركه غيره فيها.

﴿أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ﴾ أي: من هذه الأمة؛ لأن النبي ﷺ سابقُ أمَّتِه إلى الإسلام.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ في الكلام حذفٌ؛ تقديره: وقيل لي: ولا تكونن من المشركين.

---

(١) انظر: الكشاف (٦/ ٣٤).

أو يكون معطوفًا على معنى ﴿أُمِرْتُ﴾ فلا حذفَ، وتقديره: أُمِرت بالإسلام، ونُهِيت عن الإشراك.

﴿مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ أي: من يُصرَف عنه العذابُ يومَ القيامة فقد رحمه الله.

وقرئ: ﴿يَصْرِفْ﴾ بفتح الياء، وفاعله: الله.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى: صَرْف العذاب، أو إلى الرحمة.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ معنى ﴿يَمْسَسْكَ﴾: يُصِبْك، والضُّرُّ: المرض وغيره على العموم في جميع المُضِرَّات، والخير: العافية وغيرها على العموم أيضًا.

والآية برهانٌ على الوَحدانية؛ لانفراد الله تعالى بالضر والخير، وكذلك ما بعد هذا من الأوصاف؛ براهينُ وردٌّ على المشركين.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ سؤالٌ يقتضي جوابًا ينبني عليه المقصود.

وفيه دليلٌ على أن الله يقال فيه: شيء؛ ولكن ليس كمثله شيء.

﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يَحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، و﴿شَهِيدٌ﴾ خبره.

والآخر: أن يكون تمام الجواب عند قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾؛ بمعنى: أن الله أكبر شهادة، ثم يبتدئ؛ على تقدير: هو شهيدٌ بيني وبينكم.

والأول أرجح؛ لعدم الإضمار.

والثاني أرجح؛ لمطابقته للسؤال؛ لأن السؤال بمنزلة من يقول: من أكبر الناس؟ فيقال في الجواب: فلان، وتقديره: فلان أكبر الناس.

والمقصود بالكلام: الاستشهاد بالله -الذي هو أكبر شهادة- على صدق رسوله ﷺ.

وشهادة الله بهذا:

هي عِلْمه بصحة نبوة محمد ﷺ.

أو إظهاره لمعجزاته الدَّالَّة على نبوته.

﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ عطفٌ على ضمير المفعول في ﴿لِأُنذِرَكُم﴾، والفاعل بـ﴿بَلَغَ﴾: ضميرُ ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾، والمفعول: محذوف يعود على «مَن»؛ تقديره: ومَن بلغه.

والمعنى: أُوحِيَ إليَّ هذا القرآنُ لأنذر به المخاطَبين - وهم أهل مكة -، وأنذر كلَّ مَن بلغه القرآنُ من العرب والعجم إلى يوم القيامة، قال سعيد بن جبير: من بلغه القرآن فكأنما رأى محمدًا ﷺ[1].

وقيل: المعنى: ومَن بلَغ الحُلُمَ. وهو بعيد.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ الآيةَ؛ تقريرٌ للمشركين على شِرْكهم، ثم تبرَّأ من ذلك بقوله: ﴿لَّآ أَشْهَدُۚ﴾، ثم شهد لله بالوحدانية.

---

(١) لم أقف عليه من قول سعيد بن جبير، ووقفتُ عليه من قول محمد بن كعب القُرَظي، أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٨٢).

وروي أنها نزلت بسبب قوم من الكفار؛ أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد!، أما تعلم مع الله إلهًا آخر؟.

﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ تقدَّم في «البقرة»[1].

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأٌ، وخبرُه: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نعتٌ لـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وهو فاسدٌ؛ لأن الذين أوتوا الكتاب استَشهَد بهم هنا ليُقيم الحجةَ على الكفار.

* * *

(١) انظر ١/ ٣٧١.

[﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لفظه استفهام، ومعناه: لا أحد أظلم ممن افترى على الله، وذلك تنصُّلٌ مِن الكذب على الله، وإظهارٌ لبراءة رسول الله ﷺ مما نسبوه إليه من الكذب.

ويَحتمل أن يريد بالافتراء على الله: ما نَسب إليه الكفارُ مِن الشُّركاء والأولاد.

﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: علاماته، وبراهين دينه.

﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾ يقال لهم ذلك على وجه التَّوبيخ.

﴿تَزْعُمُونَ﴾ أي: تزعمون أنهم آلهةٌ؛ فحَذفه لدلالة المعنى عليه.

والعامل في ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ محذوفٌ(١).

---

(١) في هامش أ هنا زيادة: «تقديره: ويوم نحشرهم كان كَيْتَ وكيت، فتُرِك ليبقى على =

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ الفتنة هنا يَحتمل أن تكون:

بمعنى الكفر؛ أي: لم تكن عاقبة كفرهم إلَّا جحودَه والتبرِّيَ منه.

وقيل: ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾: معذرتهم.

وقيل: كلامهم.

وقرئ ﴿فِتْنَتَهُمْ﴾:

بالنصب؛ على خبر «كان»، واسمُها: ﴿أَن قَالُوا۟﴾.

وقرئ بالرفع؛ على اسم «كان»، وخبرُها: ﴿أَن قَالُوا۟﴾.

﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ جحودٌ لشركهم.

فإن قيل: كيف يجحدونه وقد قال الله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]؟

فالجواب: أن ذلك يختلف باختلاف طوائف الناس واختلاف المواطن، فيَكتُم قومٌ ويُقِرُّ آخرون، ويكتمون في موطن ويُقِرُّون في موطنٍ آخَرَ؛ لأن يوم القيامة طويل.

وقد قال ابن عباس - لما سئل عن هذا السؤال -: إنهم جحدوا طمَعًا في النجاة، فختم الله على أفواههم، وتكلَّمت جوارحهم؛ فلا يكتمون الله حديثًا[١].

= الإبهام الذي هو أدْخلُ في التَّخويف»، وكتب بعدها: «صح منه»، وهذه عبارة الزمخشري في الكشاف (٦/ ٥٠)، وليست موجودة في بقية النسخ، فيظهر أنها حاشية، وليست من عبارة التسهيل.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٩٤).

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ الضمير عائدٌ على الكفار، وأفرد ﴿يَسْتَمِعُ﴾ وهو فعلُ[١] جماعةٍ؛ حَمْلًا على لفظ «مَن».

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ ﴿أَكِنَّةً﴾ جمع كِنَان؛ وهو الغِطاء، و﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ في موضع مفعولٍ من أجله؛ تقديره: كراهةَ أن يفقهوه.

ومعنى الآية: أن الله حال بينهم وبين فَهْم القرآن إذا استمعوه، وعبر بالأكنَّة والوَقر؛ مبالغةً، وهي استعارة.

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: قَصَصُهم وأخبارُهم، وهو جمع أَسْطَار وأُسطورة.

قال السُّهيلي: حيثما ورد[٢] في القرآن ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ فإن قائلها هو النَّضْر بن الحارث، وكان قد دخل بلاد فارس، وتعلم أخبار ملوكهم، فكان يقول: حديثي أحسن من حديث محمد[٣].

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ ﴿هُمْ﴾ عائدٌ على الكفار، والضمير في ﴿عَنْهُ﴾ يعود على القرآن، والمعنى: وهم ينهون الناس عن الإيمان به، ويَنأون هم عنه - أي يَبعُدون -، والنَّأْيُ: هو البُعْدُ[٤].

وقيل: الضمير في ﴿عَنْهُ﴾ يعود على النبي ﷺ، ومعنى ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾: ينهون الناس عن إذَايته، وهم مع ذلك يَبعُدون عنه، والمراد بالآية - على هذا -: أبو طالب ومن كان معه يحمي النبيَّ ﷺ ولا يُسلِمُ.

---

(١) في ب: «لفظ».

(٢) في د: «وقع».

(٣) انظر: التعريف والإعلام، للسهيلي (ص: ١٠١).

(٤) في د، هـ: «والناني هو البعيد» وكذا في هامش أ، ورمز له بـ«خ».

وفي قوله: ﴿يَنْهَوْنَ﴾ و﴿يَنْئَوْنَ﴾ ضربٌ من ضروب التَّجنيس.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾: جواب «لو» محذوفٌ هنا وفي قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾، وإنما حُذِف ليكون أبلغَ ما يُقدِّره السَّامع؛ أي: لو ترى لرأيت أمرًا شنيعًا هائلًا.

ومعنى ﴿وُقِفُواْ﴾: حُبِسوا. قاله ابن عطية[1].

ويَحتمل أن يريد بذلك:

إذا دخلوا النار.

أو إذا عاينوها وأشرفوا عليها.

ووضع «إذ» موضع «إذا»؛ لتحقيق وقوع الفعل حتى كأنه ماضٍ.

﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ﴾ قرئ برفع ﴿نُكَذِّبُ﴾ و﴿نكونُ﴾؛ على الاستئنافِ والقطعِ عن التمني، ومثَّله سيبويه بقولك: دعني ولا أعودُ؛ أي: وأنا لا أعود.

ويَحتمل أن يكون:

حالًا؛ تقديره: نُرَدُّ غيرَ مكذِّبين.

أو عطفًا على ﴿نُرَدُّ﴾.

وقرئ بالنصب؛ بإضمار «أنْ» بعد الواو في جواب التمني.

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ﴾ المعنى: ظهر لهم يوم القيامة في

---

(١) انظر المحرر الوجيز (٣/ ٣٤١).

صحائفهم ما كانوا يخفون في الدنيا من عيوبهم وقبائحهم.

وقيل: هي في أهل الكتاب؛ أي: بدا لهم ما كانوا يخفون من أمر محمد ﷺ.

وقيل: هي في المنافقين؛ أي: بدا لهم ما كانوا يخفون من الكفر.

وهذان القولان بعيدان؛ فإن الكلام من أوَّله ليس في حق المنافقين ولا أهل الكتاب.

وقيل: إن الكفار كانوا إذا وعظهم النبي ﷺ خافوا وأخفوا ذلك الخوف؛ لئلا يشعر به[1] أتباعهم، فظهر لهم ذلك يوم القيامة.

﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾ إخبارٌ بأمر لا يكون، لو كان كيف كان يكون، وذلك مما انفرد الله بعلمه.

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ يعني في قولهم: ﴿وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولا يصحُّ أن يرجع إلى قولهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾؛ لأن التمنيَ لا يحتمل الصدق ولا الكذب.

﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ حكايةٌ عن[2] قولهم في إنكار البعث الأخراوي.

﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ تقريرٌ لهم وتوبيخٌ.

---

(١) في ب: «بهم».

(٢) سقط الحرف من ب، ج، هـ.

[﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾].

﴿قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ الضمير في ﴿فِيهَآ﴾ للحياة الدنيا؛ لأن المعنى يقتضي ذلك وإن لم يَجْرِ لها ذكرٌ.

وقيل: للساعة؛ أي: فرَّطنا في شأنها، والاستعدادِ لها.

والأول أظهر.

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ﴾ كنايةٌ[1] عن تحمُّلِ الذنوب، وقال:

---

(١) في د: «عبارة».

﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ ؛ لأن العادة حَمل الأثقال على الظهور.

وقيل: إنهم يحملونها على ظهورهم حقيقةً، وروي في ذلك أن الكافر يَركبُه عملُه بعد أن يتمثَّل له في أقبح صورة، وأن المؤمن يَركبُ عملَه بعد أن يتصوَّر له في أحسن صورة.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ إخبارٌ عن سوء ما يفعلون من الأوزار.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ قرأ نافع «يحزن» حيث وقع بضم الياء؛ من «أَحزن»، إلَّا قولَه: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وقرأ الباقون بفتح الياء؛ من «حزَن» الثلاثي، وهو أشهر في اللغة.

و﴿ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾: قولهم: إنه ساحرٌ، شاعرٌ، كاهنٌ.

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ من قرأ بالتَّشديد فالمعنى: لا يكذِّبونك معتقدين لكَذِبك، وإنما هم يجحدون الحقَّ مع علمهم به.

ومن قرأه بالتخفيف:

فقيل: معناه: لا يجدونك كاذبًا؛ يقال: أَكْذَبْتُ فلانًا؛ إذا وجدتَه كاذبًا، كما يقال: أَحْمدتُه: إذا وجدتَه محمودًا.

وقيل: هو بمعنى التَّشديد؛ يقال: كذَّب فلان فلانًا وأَكْذَبه بمعنًى واحدٍ، وهو الأظهر؛ لقوله بعد هذا: ﴿يَجْحَدُونَ﴾، ويؤيِّد هذا: ما روي أنها نزلت في أبي جهل؛ فإنه قال لرسول الله ﷺ: إنا لا نكذِّبك ولكن نكذِّب ما جئتَ به، وأنه قال للأَخنس بن شَرِيقٍ: والله إن محمدًا لصادق، ولكني أحسده على الشَّرف.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: ولكنهم، ووَضع الظاهر موضعَ المضمر؛ للدَّلالة على أنهم ظَلموا في جحودهم.

﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ﴾ الآيةَ؛ تسليةٌ للنبي ﷺ، وحضٌّ له على الصَّبر، ووعدٌ له بالنصر.

﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: لمواعيده لرسله؛ كقوله: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ۝١٧٢﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٢]، وفي هذا تقويةٌ للوعد.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أي: مِن أخبارهم، ويعني بذلك: صبْرَهم ثم نصْرَهم، وهذا أيضًا تقويةٌ للوعد والحضّ على الصبر.

وفاعل ﴿جَآءَكَ﴾ محذوفٌ؛ تقديره: نبأٌ أو جَلاءٌ[1].

وقيل: هو المجرور.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ﴾ الآيةَ؛ مقصودها: حمل النبي ﷺ على الصبرِ، والتسليمِ لما أراد الله بعباده من إيمان أو كفر، فإنه ﷺ كان شديد الحرص على إيمانهم، فقيل له: إن استطعت أن تدخل في الأرض أو تصعد إلى السماء لتأتيهم[2] بآية يؤمنوا بسببها فافعلْ، وأنت لا تَقدِرُ على ذلك، فاستسلم لأمر[3] الله.

---

(١) في هامش ب: «خ: بيان»، وفي د: «خبرٌ».
(٢) في د: «فتأتيهم».
(٣) في ب، هـ: «بأمر».

والنَّفَق في الأرض معناه: مَنْفذٌ تَنفُذ فيه إلى ما تحت الأرض.

وحُذِف جواب «إن»؛ لفهم المعنى.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ حجةٌ لأهل السنة على القدرية.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: من الذين يجهلون أن الله لو شاءَ لجمعهم على الهدى.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ المعنى: إنما يستجيب لك الذين يسمعون فيَفهمون ويَعقِلون.

﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ فيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: أن الموتى: عبارةٌ عن الكفار؛ (لموت قلوبهم، والبعث يراد به: الحشر يوم القيامة، فالمعنى: أن الكفار في الدنيا كالموتى في قلة سمعهم وعدم فهمهم)[1] فيبعثهم الله في الآخرة، وحينئذ يسمعون.

والآخر: أن الموتى: عبارةٌ عن الكفار، والبعث: عبارةٌ عن هدايتهم للفَهْم والسَّماع.

والثالث: أن الموتى على حقيقته، والبعث على حقيقته؛ فهو إخبارٌ عن بعث الموتى يوم القيامة.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الضمير في ﴿وَقَالُوا۟﴾ للكفار، و﴿لَوْلَآ﴾ عَرْضٌ، والمعنى: أنهم طلبوا أن يأتيَ النبيُّ ﷺ بآية على نبوَّته.

---

(١) سقط من ب.

فإن قيل: فقد أتى بآياتٍ ومعجزات كثيرة فلِمَ طلبوا آيةً؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنهم لم يعتدُّوا بما أتى به؛ فكأنه لم يأت بشيءٍ عندَهم؛ لعنادهم وجحدهم.

والآخر: أنهم إنما طلبوا آيةً تضطَرُّ إلى الإيمان مِن غير نظر ولا تفكُّر[1].

﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ جوابٌ على قولهم، وقد حُكي هذا القول عنهم في مواضع من القرآن، وجُووِبوا عليه بأجوبة مختلفة:

منها: ما يقتضي الردَّ عليهم في طلبهم للآيات؛ فإنهم[2] قد أتاهم بآيات، وتحصيل الحاصل لا يُبتغى؛ كقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَـٰتِ﴾ [البقرة: ١١٨]، وكقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

ومنها: ما يقتضي الإعراضَ عنهم؛ لأن الخصم إذا تبين عناده سقطت مكالمته، ويَحتمل أن يكون من هذا قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾.

ويَحتمل أيضًا أن يكون معناه: قادرٌ على أن ينزل آية تضطرُّهم إلى الإيمان.

﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حُذِف مفعول ﴿يَعْلَمُونَ﴾، وهو يَحتمل وجهين:

أحدهما: لا يعلمون أن الله قادر.

والآخر: لا يعلمون أن الله إنما منع الآيات التي تضطرُّ إلى الإيمان

---

(١) في د: «فكرٍ».

(٢) في ب، هـ «بأنهم».

لمصالح العباد؛ فإنهم لو رأوها ولم يؤمنوا لعُوجِلوا بالعذاب.

﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ تأكيدٌ، وبيانٌ، وإزالةٌ للاستعارة المتعاهَدة في هذه اللفظة؛ فقد يقال: طائرٌ للسَّعْد والنَّحْس.

﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ أي: في الخلق والرزق والحياة والموت وغير ذلك.

ومناسبةُ ذِكْر هذا لما قبله من وجهين:

أحدهما: أنه تنبيهٌ على مخلوقات الله تعالى؛ فكأنه يقول: تفكَّروا في آياته في مخلوقاته، ولا تطلبوا غير ذلك من الآيات.

والآخر: أنه تنبيهٌ على البعث؛ كأنه يقول: جميع الدوابِّ والطَّير يحشر يوم القيامة كما تحشرون أنتم، وهو أظهر؛ لقوله بعده: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: ما أغفلنا، والكتاب هنا: اللوح المحفوظ، والكلام على هذا عام.

وقيل: هو القرآن، والكلام على هذا خاص؛ أي: ما فرَّطنا فيه من شيءٍ فيه هدايتُكم والبيانُ لكم.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي: تُبعَثُ الدوابُّ والطُّيور[1] يوم القيامة للجزاء والفصل بينها.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ الآيةَ؛ لما ذكَر قدرته على بعث الخلق كلِّهم أتْبعه بأن

---

(١) في د: «والطير».

وصف من كذَّب بذلك بالصَّمَم والبَكَم.

وقوله: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ يقوم مقام الوصف بالعمى.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾ معناه: أخبروني، والضمير الثاني للخطاب، ولا محلَّ له من الإعراب.

وجواب الشرط محذوف؛ تقديره: إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة مَن تَدْعون؟، ثم وقَّفهم على أنهم لا يدعون حينئذ إلَّا اللهَ، ولا يدعون آلهتَهم.

والآيةُ احتجاجٌ عليهم، وإثباتٌ للتوحيد، وإبطالٌ للشرك.

﴿إِن شَآءَ﴾ استثناءٌ؛ أي: يكشف ما نزل بكم إن أراد، ويصيبكم به إن أراد.

﴿وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ﴾ يَحتمل أن يكون من: النسيان، أو الترك.

[﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾].

﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ كان ذلك على وجه التَّخويف والتَّأديب.

﴿فَلَوْلَا﴾ هنا: عَرْضٌ وتَحضيضٌ.

وفيه دليل على نفع التضرُّع حين الشدائد.

﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ الآيةَ؛ أي: لما تركوا الاتِّعاظ بما ذُكِّروا به من الشدائد فَتح عليهم أبوابَ الرزق والنِّعَم ليَشكروا عليها، فلم يشكروا، فأخذهم الله.

﴿مُّبْلِسُونَ﴾ آيسون من الخير.

﴿دَابِرُ الْقَوْمِ﴾ أي: آخِرُهم، وذلك عبارةٌ عن استئصالهم بالكلية.

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ شكرٌ على إهلاك الكفار؛ فإنه[1] نعمة على المؤمنين.

---

(١) في د: «لأنه».

وقيل: إنه[١] على ما تقدَّم من ملاطفته في أخذه لهم بالشرِّ ليزدجروا، أو[٢] بالخير ليشكروا، حتى وجب عليهم العذاب[٣] بعد الإنذار والإعذار.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ الآيةَ؛ احتجاجٌ على الكفار أيضًا.

﴿يَأْتِيكُم بِهِ﴾ الضمير عائدٌ على المأخوذ.

﴿يَصْدِفُونَ﴾ أي: يُعرِضون.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ الآيةَ؛ وعيدٌ وتهديد، والبغتَةُ: ما لم يتقدَّمْ لهم شعورٌ به، والجَهْرةُ: ما بدتْ لهم مَخايِلُه.

وقيل: ﴿بَغْتَةً﴾ بالليل، و﴿جَهْرَةً﴾ بالنهار.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ؛ أي: لا أدَّعي شيئًا ينكر ولا يُستبعَد، إنما أنا نبيٌّ رسول كما كان غيري من الرسل.

﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ مثالٌ للضال والمهتدي.

* * *

(١) أي: الحمد. انظر: المحرر الوجيز (٣/ ٣٦٣).

(٢) في د، هـ «و».

(٣) في ب، د، هـ: «العقاب».

[﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾].

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود على ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾.

والإنذار عامٌّ لجميع الناس، وإنما خُصّص هنا بالذين يخافون؛ لأنه قد تقدَّم في الكلام ما يقتضي اليأسَ[1] من إيمان غيرهم، فكأنه يقول: أنذِر الخائفين؛ لأنهم ينفعهم الإنذار[2]، وأعرِض عمن تقدَّم ذكْره من الذين لا يسمعون ولا يعقلون.

﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ في موضع الحال من الضمير في ﴿يُحْشَرُوٓاْ﴾.

أو استئنافُ إخبارٍ.

﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يتعلَّق بـ ﴿أَنذِرْ﴾.

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآيةَ؛ نزلت في ضعفاء المؤمنين، كبلال، وعمار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود، وخبَّاب، وصُهَيب، وأمثالهم، وكان

---

(١) في أ: «الإياس» وفي الهامش: «خ: اليأس».
(٢) في أ: «فكأنه أنذرَ الخائفين لأنه ينفعهم الإنذار».

بعض المشركين من قريش قد قالوا للنبي ﷺ: لا يمكننا أن نختلط مع هؤلاء؛ لشَرَفِنا فلو طردتَّهم لاتَّبعناك، فنزلت الآية.

﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ قيل: هي الصلاة بمكة قبل فرض الخَمس، وكانت غُدْوةً وعشيةً.

وقيل: هي عبارةٌ عن دوام الفعل.

و﴿يَدْعُونَ﴾ هنا:

مِن الدعاء وذِكْر الله.

أو بمعنى العبادة.

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ إخبارٌ عن إخلاصهم لله، وفيه تزكيةٌ لهم.

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ الآيةَ؛ قيل: الضمير في ﴿حِسَابِهِم﴾ لـ ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾.

وقيل: للمشركين؛ والمعنى على هذا: لا تُحاسَبُ عنهم، ولا يُحاسَبون عنك، فلا تهتَمَّ بأمرهم حتى تطردَ هؤلاء من أجلهم.

والأول أرجح؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [هود: ٢٩]، وقوله: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى﴾ [الشعراء: ١١٣]، والمعنى على هذا: أنَّ الله هو الذي يحاسبُهم فلأي شيء تطردُهم!.

﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ هذا جواب النفي في قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ﴾.

﴿فَتَكُونَ﴾ هذا جواب النهي في قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾.

أو عطف على ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: ابتَلينا الكفار بالمؤمنين، وذلك أن الكفار كانوا يقولون: هؤلاء العبيد والفقراء منَّ الله عليهم بالتوفيق للحق والسعادة دوننا، ونحن أشرافٌ أغنياءُ!، وكان هذا الكلام منهم على جهة الاستبعاد لذلك.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ردٌّ على الكفار في قولهم المتقدِّم.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ هم الذين نُهيَ النبي ﷺ عن طردهم، أُمِر بأن يُسلِّم عليهم؛ إكرامًا لهم، وأن يُؤَنِّسهم بما بعد هذا.

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أي: حتَمها، وفي الصحيح: «إن الله كتب كتابًا فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي»[1].

﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا﴾ الآيةَ؛ وعدٌ بالمغفرة والرحمة لمن تاب وأصلح، وهو خطاب للقوم المذكورِين قبلُ، وحكمُه عامٌّ فيهم وفي غيرهم.

والجهالة قد ذكرت في «النساء»[2].

وقيل: نزلت بسبب أن عمر بن الخطاب أشار على رسول الله ﷺ أن يطرد الضعفاء عسى أن يُسلِم الكفار، فلما نزلت ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ ندم عمر على قوله، وتاب منه؛ فنزلت الآية.

وقرئ ﴿أَنَّهُۥ﴾:

بالفتح؛ على البدل من ﴿ٱلرَّحْمَةَ﴾.

---

(١) تقدم تخريجه في صفحة ٢٤٧.

(٢) انظر صفحة ٢٨.

وبالكسر؛ على الاستئناف.

وكذلك ﴿فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بالكسر: على الاستئناف.

وبالفتح:

خبرُ ابتداءٍ مضمر؛ تقديره: فأمره أنه غفور.

وقيل: تَكرارٌ للأولى؛ لطول الكلام.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ﴾ الإشارة إلى ما تقدَّم من النهي عن الطَّرد وغير ذلك.

وتفصيلُ الآيات: شَرْحُها وبيانُها.

﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بتاء الخطاب ونصب السبيل: على أنه مفعول به.

وقرئ بتاء التأنيث ورفع السبيل: على أنه فاعلٌ مؤنَّث.

وبالياء والرفع: على تذكير السبيل؛ لأنه يجوز فيه التذكير والتأنيث.

* * *

[﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾].

﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أي: تعبدون.

﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي: إن اتَّبعت أهواءكم ضللتُ.

﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ أي: على أمرٍ بيِّنٍ من معرفة ربي.

والهاء في ﴿بَيِّنَةٍ﴾: للمبالغة، أو للتأنيث.

﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ الضمير عائد على: الربِّ، أو على البينة.

﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: العذابُ الذي طلبوه في قولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقيل: الآياتُ التي اقترحوها.

والأول أظهر.

﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ مِن القَصص.

وقرئ ﴿ يَقْضِ ﴾ بالضاد المعجمة؛ من القضاء، وهو أرجح؛ لقوله: ﴿خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ أي: الحاكمين.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: لو كان عندي العذابُ -على التأويل الأوَّل-، أو الآياتُ المقترحة -على التأويل الآخر-؛ لوقع الانفصال وزال النِّزاع؛ لنزول العذاب، أو لظهور الآيات.

﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ استعارةٌ وعبارةٌ عن التوصُّل إلى الغيوب كما يُتَوصَّل بالمفاتح إلى ما في الخزائن.

وهو جمع مِفتَح -بكسر الميم-؛ بمعنى: مفتاح.

ويَحتمل أن يكون جمع مَفتَح -بالفتح-؛ وهو المخزون.

﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ تنبيهٌ بها على غيرها؛ لأنها أشدُّ تغيُّبًا من كل شيء.

﴿فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ اللوح المحفوظ، وقيل: علم الله.

﴿ يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ أي: إذا نمتم، وفي ذلك اعتبارٌ واستدلال على البعث الأخراوي.

﴿مَا جَرَحْتُم﴾ أي: ما كسبتم من الأعمال.

﴿ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي: يوقظكم من النَّوم، والضمير عائدٌ على النهار؛ لأن غالبَ اليقظة فيه، وغالب النوم بالليل.

﴿أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أجلُ الموت.

[﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾].

﴿حَفَظَةً﴾ جمع حافظ؛ وهم الملائكة الكاتبون.

﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي: الملائكة الذين مع ملَك الموت.

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ﴾ خروجٌ من الخطاب إلى الغَيْبة، والضمير لجميع الخلق.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم﴾ الآيةَ؛ إقامةُ حجةٍ.

و﴿ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾: عبارةٌ عن شدائدهما وأهوالهما؛ كما يقال لليوم الشديد: مُظْلمٌ.

﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قيل: الذي من فوق: إمطار الحجارة ومن تحت: الخسف.

وقيل: ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾: تسليطُ أكابركم، و﴿مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾: تسليط سَفِلَتِكم، وهذا بعيد.

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ أي: يَخلِطكم فِرَقاً مختلفين.

﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ بالقتال.

واختُلف هل الخطاب بهذه الآية للكفار أو للمؤمنين؟.

وروي أنه لما نزلت ﴿أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك»، فلما نزلت ﴿مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك»، فلما نزلت ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾، قال النبي ﷺ: «هذه أهون»[(١)]، فقضى الله على هذه الأمة بالفتن والقتال إلى يوم القيامة.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ الضمير عائدٌ:

على القرآن.

أو على الوعيد المتقدِّم.

و﴿قَوْمُكَ﴾ هم قريش.

﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي: بحفيظٍ ومتسلِّطٍ، وفي ذلك متارَكةٌ نسَخها القتال.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢٨).

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي: غايةٌ يُعرَفُ عندها صِدْقُه مِن كَذِبه.

﴿يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ في الاستهزاء بها، والطَّعن فيها.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: قمْ ولا تجالسْهم.

﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ «إمَّا» مركَّبة مِن «إنْ» الشرطية و«ما» الزائدة، والمعنى: إن أنساك الشيطان النهيَ عن مجالستهم فلا تَقعدْ بعد أن تذكُر النهيَ.

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾: هم المؤمنون، والضمير في ﴿حِسَابِهِم﴾ للكفار المستهزئين، والمعنى: ليس على المؤمنين شيءٌ من حساب الكفار على استهزائهم وضَلالهم[1].

وقيل: إن ذلك يقتضي إباحةَ جلوس المؤمنين مع الكافرين؛ لأنهم شقَّ عليهم النهيُ عن ذلك؛ إذ كانوا لا بدَّ لهم من مخالطتهم في طلب المعاش، وفي الطواف بالبيت وغير ذلك، ثم نُسِخت بآية «النساء»؛ وهي: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٠] الآية.

وقيل: إنها لا تقتضي إباحةَ القعود.

﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن المعنى: ليس على المؤمنين حسابُ الكفار، ولكن عليهم تذكيرٌ لهم، ووعظ[2].

---

(١) في أ: «وإضلالهم».

(٢) في د: «تذكيرهم ووعظهم».

وإعراب ﴿ذِكْرَىٰ﴾ على هذا:

نَصْبٌ على المصدر؛ وتقديره: يذكِّرونهم ذكرى.

أو رَفْعٌ على المبتدأ؛ تقديره: عليهم ذكرى.

والضمير في ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ عائدٌ:

على الكفار؛ أي: يذكِّرونهم رجاءَ أن يتقوا.

أو عائدٌ على المؤمنين؛ أي: يذكِّرونهم ليكون تذكيرهم ووعظهم تقوى لله.

والوجه الثاني: أن المعنى: ليس نهيُ المؤمنين عن القعود مع الكافرين بسبب أنَّ عليهم من حسابهم شيء، وإنما هو ذكرى للمؤمنين.

وإعراب ﴿ذِكْرَىٰ﴾ على هذا:

خبرُ ابتداءٍ مضمر؛ تقديره: ولكن نَهْيهم ذكرى.

أو مفعولٌ من أجله؛ تقديره: إنما نهوا ذكرى.

والضمير في ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ على هذا: للمؤمنين لا غيرُ.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ﴾ قيل: إنها متارَكةٌ منسوخة بالسيف.

وقيل: بل هي تهديدٌ فلا[1] متاركةَ؛ فلا نسخ فيها.

﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ أي: اتَّخذوا الدين الذي كان ينبغي لهم لعبًا ولهوًا؛ لأنهم سخروا منه.

---

(١) في د: «بلا».

أو اتَّخذوا الدين الذي يعتقدونه لعبًا ولهوًا؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث فهم يلعبون ويَلهُون.

﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ الضمير عائد: على الدين، أو على القرآن.

﴿أَن تُبْسَلَ﴾ قيل: معناه: تُحْبَس، وقيل: تُفضَح، وقيل: تَهْلِك.

وهو في موضع مفعولٍ من أجله؛ أي: ذكِّرْ به؛ كراهةَ أن تبسل نفسٌ.

﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ أي: وإن تُعْطِ كلَّ فدية لا يؤخذْ منها.

[﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾].

﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟﴾ الآيةَ؛ إقامةُ حجة، وتوبيخٌ للكفار.

﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ أي: نرجع من الهدى إلى الضَّلال، وأصل الرجوع على العَقِب: في المشي، ثم استُعِير في المعاني.

وهذه الجملةُ معطوفةٌ على ﴿أَنَدْعُوا۟﴾، والهمزة فيه للإنكار والتوبيخ.

﴿كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ الكاف:

في موضع نصب على الحال من الضمير في ﴿نُرَدُّ﴾؛ أي: كيف نرجع مُشْبِهين مَن استهوته الشياطين.

أو نعتٌ لمصدر محذوف؛ تقديره: ردًّا كردِّ الذي.

ومعنى ﴿اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾: ذهبتْ به في مَهامِه الأرض، وأخرجته عن الطريق؛ فهو استفعال مِن هوَى في الأرض: إذا ذهبَ فيها.

وقال الفارسي: استهوى بمعنى: أهوى؛ مثل استزلَّ بمعنى أزلَّ.

و﴿حَيْرَانَ﴾ أي: ضال[١] عن الطريق، وهو نَصْبٌ على الحال من المفعول في ﴿اسْتَهْوَتْهُ﴾.

﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا﴾ أي: لهذا المستهوِي أصحابٌ - وهم رُفْقةٌ - يدعونه إلى الهدى؛ أي: إلى أن يَهدوه الطريقَ، يقولون له: ائتنا، وهو قد تاهَ وبَعُدَ عنهم فلا يُجِيبهم، وهذا كلُّه تمثيلٌ لمن ضلَّ في الدين عن الهدى، وهو يُدعَى إلى الإسلام فلا يجيب.

وقيل: نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق حين كان أبواه يدعوانه إلى الإسلام، ويُبطِل هذا قولُ عائشة: ما نزل في آل أبي بكر شيءٌ من القرآن إلَّا براءتي[٢].

---

(١) في د: «أي: ضالًا».

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٢٧).

﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ﴾ عطفٌ:

على ﴿لِنُسْلِمَ﴾.

أو على مفعول ﴿وَأُمِرْنَا﴾.

﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ مرفوعٌ بالابتداء، وخبرُه: ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾، وهو مقدَّمٌ عليه، والعامل فيه: معنى الاستقرار؛ كقولك: يومَ الجمعة القتالُ، واليومُ: بمعنى الحين، وفاعل ﴿يَكُونُ﴾ مضمر، وهو فاعل ﴿كُن﴾؛ أي: حين يقول لشيءٍ كن: فيكون ذلك الشيء.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ ظرفٌ لقوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾؛ كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦].

وقيل في إعراب الآية غير هذا مما هو ضعيفٌ أو تَخليطٌ.

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ خبرُ ابتداءٍ مضمرٍ.

﴿لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ هو اسم أبي إبراهيم، فإعرابه: عطفُ بيان، أو بدلٌ، ومُنِع من الصَّرف للعُجْمة والعلَمية، لا للوزن؛ فإن وزنه: فاعَل؛ نحو: عابَر وشالَخ.

وقرئ بالرفع؛ على النداء.

وقيل: إنه اسم صنم؛ لأنه ثبت أن اسم أبي إبراهيم تارَح؛ فعلى هذا يَحتمل:

أن يكون لقِّب به؛ لملازمته له.

أو أريد: عابِد آزَرَ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وذلك بعيد.

ولا يَبعُدُ أن يكون له اسمان.

﴿نُرِيَ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قيل: إنه فَرَج له السموات والأرض حتى رأى ببصره المُلْك الأعلى والأسفل، وهذا يفتقرُ إلى صحة نقل.

وقيل: رأى ما يراه الناس من الملكوت، ولكنه وقع له بها من الاعتبار والاستدلال ما لم يقع لأحد من أهل زمانه.

﴿وَلِيَكُونَ﴾ يتعلَّق بمحذوف؛ تقديره: وليكون من الموقنين فَعَلْنا به ذلك.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أي: ستَره؛ يقال: جنَّ عليه الليل وأجنَّهُ.

﴿رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ يَحتمل أن يكون هذا الذي جرى لإبراهيم في الكوكب والقمر والشمس:

أن يكون قبل البلوغ والتكليف، وقد روي أن أمَّه وَلَدته في غار؛ خوفًا من نمروذ؛ إذ كان يقتل الأطفال؛ لأن المنجِّمين أخبروه أن هلاكه على يد صبيٍّ.

ويَحتمل أن يكون جرى له ذلك بعد بلوغه وتكليفه، وأنه قال ذلك لقومه على وجه الردِّ عليهم والتوبيخ لهم، وهذا أرجح؛ لقوله بعد ذلك: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

ولا يُتَصوَّر أن يقول ذلك وهو منفرد في الغار؛ لأن ذلك يقتضي محاجَّةً وردًّا على قومه.

وذلك أنهم كانوا يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن يبينَ لهم الخطأ في دينهم، وأن يرشدَهم إلى أن هذه الأشياء لا يصح أن يكون واحدٌ منها إلهًا؛ لقيام الدليل على حدوثها، وأن الذي أحدثها ودبَّر طلوعَها وغروبها وأُفُولها هو الإله الحق وحده، فقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ قول مَن يُنصِف خصمه مع علمه أنه مُبْطِلٌ؛ لأن ذلك أَدْعى إلى الحق وأقربَ إلى رجوع الخصم، ثم أقام عليه الحجة بقوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾؛ أي: لا أحب عبادةَ المتغيِّرين؛ لأن التغيُّر دليل على الحدوث، والحدوث ليس من صفات الإله، ثم استمرَّ على ذلك المنهاج في القمر وفي الشمس، فلما أوضح البرهانَ، وأقام عليهم الحجة، جاهرهم بالبراءة من باطلهم، فقال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، ثم أعلن بعبادتِه لله وتوحيدِه له فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، ووصف الله تعالى بوصف يقتضي توحيده وانفراده بالملك.

فإن قيل: لم احتجَّ بالأُفول دون الطُّلوع، وكلاهما دليلٌ على الحدوث؛ لأنهما انتقالٌ من حال إلى حال؟

فالجواب: أنه أظهرُ في الدلالة؛ لأنه انتقالٌ مع اختفاءٍ[١] واحتجاب[٢].

---

(١) في ب، ج، هـ: «خفاء».

(٢) قال الشيخ عبد الرحمن البرَّاك: قوله: «.. ثم أقام عليهِ الحجةَ بقوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ أي: لا أحب عبادةَ المتغيِّرين؛ لأن التغيُّرَ دليلٌ على الحدوثِ»، إلخ =

﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾ أي: في الإيمان بالله وفي توحيده، والأصل: أتحاجونَنِي -بنونين-.

وقرئ:

بالتشديد؛ على إدغام إحداهما في الأخرى.

وبالتخفيف؛ على حذف إحداهما، واختُلف هل حذفت الأولى أو الثانية؟.

﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ ﴿مَا﴾ هنا بمعنى: «الذي»، ويريد بها: الأصنام، وكانوا قد خوَّفوه أن تصيبه أصنامُهم بضُرٍّ، فقال: لا أخاف منهم؛ لأنهم لا يَقدِرون على شيء.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ﴾ استثناءٌ منقطع بمعنى: «لكن»؛ أي: إنما أخاف من ربي إن أراد بي شيئًا.

= أقول: عليه في هذا الكلام مأخذان:
أحدهما: تفسير الأفول بالتغيُّر، وهو من التَّفسيرِ باللازم؛ فإنَّ أفلَ في اللغة بمعنى غاب، والأُفولُ هو الغيابُ بعد الظهور، فعليه يكون ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ أي: الغائبين بعد الظهور.
الثاني: جزمُه بأنَّ كلَّ متغيِّر محدَثٌ؛ فيقتضي ذلك نفيَ التغيُّرِ عن اللهِ، وابن جزي وأمثالُه يطلقون نفيَ التغيُّرِ عنِ الله بهذه الشُّبهة، والصواب أن التغير من الألفاظ المحدَثة المجملة التي لا تجوز إضافتُها إلى الله، لا نفيا ولا إثباتا، إلا بعد الاستفصال عن مراد المتكلم بها؛ فإن أراد حقًّا قبل، وإن أراد باطلا رُدَّ، وإن أرادهما مُيِّز الباطلُ من الحقِّ، فعلى هذا؛ إنْ أُريد بالتغيُّر قيامُ الأفعالِ الاختياريةِ بِهِ سبحانه، فالنفيُ باطلٌ، والإثباتُ حقٌّ، وإن أُريد بالتغيُّر النقصُ بعد الكمالِ في ذاتِه تعالى وصفاتِه، فالنفي حقٌّ، والإثباتُ باطلٌ، وابن جزي وأمثاله هم من نفاة الصفات الفعلية في الجملة.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ أي: كيف أخاف شركاءكم الذين لا يَقدِرون على شيء، وأنتم لا تخافون ما فيه كلُّ خوفٍ؛ وهو إشراككم بالله؟، فأنتم تنكرون عليَّ الأمنَ في موضع الأمن، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف، ثم أوقفهم على ذلك بقوله: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ يعني: فريقَ المؤمنين، وفريق الكافرين، ثم أجاب عن السؤال بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآيةَ.

وقيل: إن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآيةَ استئنافٌ، وليس من كلام إبراهيم.

﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ لما نزلت هذه الآية أشفق منها أصحاب النبي ﷺ، فقالوا: وأينا لم يَظْلِمْ نفسَه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما ذلك كما قال لقمان لابنه: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»[١].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢)، ومسلم (١٢٤).

[﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾].

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ إشارةٌ إلى ما تقدَّم من استدلاله واحتجاجه.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ الضمير: لنوح، أو إبراهيم عليه السلام، والأول هو الصحيح؛ لذِكْر لوطٍ؛ وليس من ذرية إبراهيم.

﴿دَاوُۥدَ﴾ عطف على ﴿نُوحًا﴾؛ أي: وهدينا داود.

﴿وَعِيسَىٰ﴾ فيه دليلٌ على أن أولاد البنات يقال لهم: ذرية؛ لأن عيسى ليس له أبٌ؛ فهو ابن بنتِ نوح.

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ في موضع نصب؛ عطفًا على ﴿كُلًّا﴾؛ أي: وهدينا بعضَ آبائهم.

﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أهلُ مكة.

﴿وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ هم: الأنبياء المذكورون، وقيل: الصحابة، وقيل: كلُّ مؤمن.

والأول أرجح؛ لدلالة ما بعده على ذلك.

ومعنى توكيلهم بها: توفيقُهم للإيمان بها والقيامِ بحقوقها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ إشارةٌ إلى الأنبياء المذكورين.

﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ استدلَّ به من قال: إن شرع من قبلنا شرعٌ لنا.

فأما أصول الدين من التوحيد والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؛ فاتفقت فيه جميع الشرائع.

وأما الفروع ففيها وقع الاختلاف بين الشرائع، والخلاف: هل يقتدي النبي ﷺ فيها بمن قبله أم لا؟.

والهاء في ﴿ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ للوقف؛ فينبغي أن تَسقُط في الوصل، ولكنَّ من أثبتها فيه راعى ثبوتها في خطِّ المصحف.

* * *

[﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾].

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي: ما عرفوه حقَّ معرفته في اللطف بعباده والرحمة لهم؛ إذ أنكروا بعثه للرسل وإنزاله للكتب.

والقائلون هم: اليهود؛ بدليل ما بعده، وإنما قالوا ذلك مبالغةً في إنكار نبوة محمد ﷺ، وروي أن الذي قالها منهم مالك بن الصَّيْف، فردَّ الله عليهم بأن ألزمهم ما لا بدَّ لهم من الإقرار به؛ وهو إنزال التوراة على موسى.

وقيل: القائلون قريش، وأُلزِموا ذلك؛ لأنهم كانوا مقرِّين بالتوراة.

﴿وَعُلِّمْتُم مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ الخطاب: لليهود، أو لقريش؛ على وجه إقامة الحجة والردِّ عليهم في قولهم: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِن شَيْءٍ﴾.

فإن كان لليهود: فالذي عُلِّموه: التوراة.

وإن كان لقريش: فالذي عُلِّموه: ما جاء به محمد ﷺ.

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ جواب: ﴿مَنْ أَنزَلَ﴾، واسم ﴿ٱللَّهُ﴾:

مرفوعٌ بفعل مضمر؛ تقديره: أنزله الله.

أو مرفوع بالابتداء.

﴿وَلِتُنذِرَ﴾ عطفٌ على صفة الكتاب.

﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ مكة، وسميت أم القرى:

لأنها مكان أوَّلِ بيت وضع للناس.

ولأنه جاء أن الأرض دُحِيت منها.

ولأنها يَحُجُّ إليها أهلُ القرى من كل فجٍّ عميق.

﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ هو مُسيلِمة وغيره من الكذَّابين الذين ادَّعوا النبوَّة.

﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ هو النَّضر بن الحارث؛ لأنه عارض القرآن، واللفظ عام فيه وفي غيره من المستهزئين.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ جوابه محذوف؛ تقديره: لرأيت أمرًا عظيمًا.

و﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

مَن تقدَّم ذكره من اليهود والكذَّابين والمستهزئين؛ فتكون اللام للعهد.

أو أعمُّ من ذلك؛ فتكون للجنس.

﴿بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: تبسط الملائكة أيديَهم إلى الكفار، يقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾؛ وهذه عبارةٌ عن التَّعنيف في السِّياق، والشدَّة في قبض الأرواح.

﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ﴾ يَحتمل أن يريد:

ذلك[١] الوقتَ بعينِه.

أو الوقت الممتدَّ من حينئذٍ إلى الأبد.

﴿ٱلۡهُونِ﴾ الذِّلة.

﴿فُرَٰدَىٰ﴾ منفردين:

عن أموالكم وأولادكم.

أو عن شركائكم.

والأول يترجَّح بقوله[٢]: ﴿وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ﴾؛ أي: ما أعطيناكم من الأموال والأولاد.

ويترجح الثاني بقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ﴾.

﴿تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ﴾ تفرَّق شَملُكم.

ومن قرأه بالرفع:

أسند الفعل إلى الظَّرف واستعمله استعمال الأسماء.

أو يكون البَيْن بمعنى الفُرْقة، أو بمعنى الوَصْل.

ومن قرأه بالنصب: فالفاعل:

مصدرُ الفعل.

أو محذوفٌ؛ تقديره: تقطع الاتِّصال بينكم.

---

(١) في ب، د، هـ: «بذلك».

(٢) في أ، ب، ج، هـ: «لقوله».

[﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾].

﴿فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾ أي: يَفلِق الحبَّ تحت الأرض؛ لخروج النبات منها، ويفلق النوى؛ لخروج الشجر منها.

وقيل: أراد الشِّقَّين اللذينِ في النواة والحِنطة.

والأول أرجح؛ لعمومه في أصناف الحبوب.

﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ﴾ تقدَّم في «آل عمران»[1].

﴿وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ﴾ معطوفٌ على ﴿فَالِقُ﴾.

---

(١) انظر ١/ ٥٢٧.

﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ أي: الصبح؛ فهو مصدر سُمِّي به الصبح، ومعنى فَلْقِه: إخراجه من الظلمة.

وقيل: إن الظلمة هي التي تنفلق عن الصبح، فالتقدير: فالقُ ظلمةِ الإصباح.

﴿سَكَنًا﴾ أي: يُسكَنُ فيه عن الحركات ويُستَراحُ.

﴿حُسۡبَانًاۚ﴾ أي: يُعلَم بهما حساب الأزمان والليل والنهار.

﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ ما أحسنَ ذِكْرَ هذين الاسمين هنا!؛ لأن العزيز يغلِب كل شيء ويقهره، وهو قد قهر الشمس والقمر وسخَّرهما كيف شاء، والعليم لما في تقدير الشمس والقمر والليل والنهار من العلوم والحكمة العظيمة وإتقان الصنعة.

﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾ أي: في ظلمات الليل في البر والبحر، وأضاف الظلمات إليهما لملابستها[1] لهما.

أو شبَّه الطرق المشتبهة بالظلمات.

﴿فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ﴾ مَن كسَر القاف مِن ﴿مُسۡتَقِرّٞ﴾: فهو اسم فاعل، و﴿وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ﴾ اسم مفعول، والتقدير: فمنكم مستقِرٌّ ومستودَع.

ومَن فتَحها: فهو اسم مكان أو مصدر، و﴿وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ﴾ مثله، والتقدير على هذا: لكم مستقَرٌّ ومستودَع.

والاستقرار: في الرَّحِم، والاستيداع: في الصُّلْب.

---

(١) في د: «لمناسبتها».

وقيل: الاستقرار: فوق الأرض، والاستيداع: تحتها.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ الضمير يعود على الماء.

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ الضمير عائدٌ على النبات.

﴿خَضِرًا﴾ أي: أخضر غضًا، وهو يتولَّد من أصل النبات من الفِرَاخ.

﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ الضمير عائد على الخضِر.

﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ يعني: السُّنبلَ؛ لأن حبَّه بعضه على بعض، وكذلك الرُّمان وشبهها.

﴿قِنْوَانٌ﴾ جمع قِنْوٍ، وهو العنقود من التمر.

وهو مرفوع بالابتداء، وخبره ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ﴾، و﴿مِن طَلْعِهَا﴾ بدل.

والطَّلع: أول ما يخرج من التمر في أكمامه.

﴿دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبةٌ سهلة للتناول.

وقيل: قريب بعضها من بعض.

﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ بالنصب؛ عطفًا على ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

وقرئ - في غير السبع - بالرفع؛ عطفًا على ﴿قِنْوَانٌ﴾.

﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ نَصْبٌ على الحال:

مِن ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾.

أو من كلِّ ما تقدَّم من النبات.

والمشتبه والمتشابه بمعنًى واحدٍ؛ أي: مِن النبات ما يشبه بعضُه بعضًا

في اللون والطعم والصورة، ومنه ما لا يشبه بعضه بعضًا، وفي ذلك دليلٌ قاطع على الصانع المختار القدير[١] العليم المُريد.

﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ أي: انظروا إلى ثمره أوَّلَ ما يخرج ضعيفًا لا منفعة فيه، ثم يُنقَل من حال إلى حال حتى يَيْنَعَ؛ أي: يَنضَجَ ويطيب.

﴿شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ نَصْبُ ﴿الْجِنَّ﴾ على أنه:

مفعولٌ أول لـ ﴿جَعَلُوا﴾، و﴿شُرَكَاءَ﴾ مفعولٌ ثانٍ، وقُدِّم لاستعظام الإشراك.

أو ﴿شُرَكَاءَ﴾ مفعول أول، و﴿لِلَّهِ﴾ في موضع المفعول الثاني، و﴿الْجِنَّ﴾ بدلٌ من ﴿شُرَكَاءَ﴾.

والمراد بهم هنا:

الملائكةُ؛ وذلك ردٌّ على من عبدهم.

وقيل: المراد الجن، والإشراك بهم: طاعتهم.

﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ الواو للحال، والمعنى: الردُّ عليهم؛ أي: جعلوا لله شركاء وهو خلقهم.

والضمير عائد: على الجنِّ، أو على الجاعلين؛ والحجة قائمةٌ على الوجهين.

---

(١) في ب، ج، هـ: «العزيز».

﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ﴾ أي: اختلقوا وزوَّروا، والبنين قول النصارى في المسيح، واليهود في عزير، والبنات قول العرب في الملائكة.

﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ﴾ أي: قالوا ذلك بغير دليل؛ بل مجرَّد افتراءٍ.

﴿بَدِيعُ﴾ ذُكِر معناه في «البقرة»[1]، ورفعه على أنه:

خبرُ ابتداءٍ مضمرٍ.

أو مبتدأٌ وخبره: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ﴾.

أو فاعلُ ﴿ تَعَٰلَىٰ ﴾.

والقصد به الردُّ على مَن نَسب لله البنين والبنات؛ وذلك من وجهين:

أحدهما: أن الولد لا يكون إلَّا من جنس والده، والله تعالى متعالٍ عن الأجناس؛ لأنه مُبدِعُها، فلا يصحُّ أن يكون له ولد.

والآخر: أن الله خلق السموات والأرض، ومن كان هكذا فهو غنيٌّ عن الولد وعن كل شيء.

﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ مسبَّبٌ عن مضمون الجملة؛ أي: مَن كان هكذا فهو المستحِقُّ للعبادة وحده.

﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ يعني: في الدنيا، وأما في الآخرة؛ فالحقُّ أن المؤمنين يرون ربهم؛ بدليل قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ [القيامة: ٢٣]، وقد جاءت في ذلك أحاديثُ صحيحةٌ صريحة المعنى، لا تحتمل التأويل.

---

(١) انظر ١/ ٣٥٣.

وقالت الأشعرية: إن رؤية الله تعالى في الدنيا جائزةٌ عقلًا؛ لأن موسى سألها من الله، ولا يسأل موسى ما هو محال.

وقد اختلف الناس هل رأى رسول الله ﷺ ربَّه ليلةَ الإسراء أم لا؟.

﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾ قال بعضهم: الفرق بين الرؤية والإدراك: أن الإدراك يتضمَّن الإحاطةَ بالشيء والوصولَ إلى غايته؛ فلذلك نفَى أن تُدرِك أبصارُ الخلق ربَّهم، ولا يقتضي ذلك نفيَ الرؤية؛ وحَسُن على هذا قوله: ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾؛ لإحاطة علمه تعالى بالخفيَّات.

﴿ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ أي: لَطُفَ عن أن تدركه الأبصار، وهو الخبير بكل شيء؛ فهو يدرك الأبصار.

[﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ اتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾].

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾ جمع بصيرة؛ وهي نور القلب، والبصر نور العين.

وهذا الكلام على لسان النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾.

﴿وَلِيَقُولُوا﴾ متعلّق بمحذوف؛ تقديره: ليقولوا؛ صرفنا الآيات.

﴿دَرَسْتَ﴾ -بإسكان السين وفتح التاء-؛ أي: درستَ العلم وقرأته.

و﴿دَارَسْتَ﴾ -بالألف-؛ أي: دارستَ العلماء وتعلّمت منهم.

و﴿دَرَسَتْ﴾ -بفتح السين وإسكان التاء-؛ بمعنى: قدُمَتْ هذه الآيات ودَثَرَتْ.

﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾ الضمير للآيات، وجاء مذكّرًا؛ لأن المراد بها القرآن.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ إن كان معناه: أعرض عما يدعونك إليه، أو عن مجادلتهم فهو مُحْكَم.

وإن كان: عن قتالهم وعقابهم فهو منسوخ.

وكذلك: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ و﴿بِوَكِيلٖ﴾.

﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تسبُّوا آلهتهم فيكون ذلك سببًا لأن يسبوا الله.

واستدلَّ المالكية بهذا على سدِّ الذرائع.

﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ أي: هي بيد الله لا بيدي.

﴿وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ﴾ أي: ما يُدرِيكم؛ وهو من الشُّعور بالشيء.

و«ما»: نافيةٌ، أو استفهامية.

﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ مَن قرأ بفتح ﴿أَنَّهَا﴾:

فهو معمولُ ﴿يُشۡعِرُكُمۡ﴾؛ أي: ما يدريكم أن الآيات إذا جاءتهم لا يؤمنون بها؟!، نحن نعلم ذلك وأنتم لا تعلمونه.

وقيل: ﴿لَا﴾ زائدة؛ والمعنى: ما يُشعِركم أنهم يؤمنون.

وقيل: «أنَّ» هنا بمعنى «لعلَّ».

ومَن قرأ بالكسر: فهي استئنافُ إخبارٍ، وتمَّ الكلام في قوله: ﴿وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ﴾؛ أي: ما يشعركم ما يكون منهم.

فعلى القراءة بالكسر: يوقف على ﴿وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ﴾.

وأما على القراءة بالفتح:

فإن كانت «أنَّ» مصدرية لم يوقف عليه؛ لأنه عاملٌ فيها.

وإن كانت بمعنى «لعلَّ»: فأجاز بعض الناس الوقف، ومنعه شيخُنا أبو جعفر بن الزبير؛ لما في «لعلَّ» من معنى التَّعليل.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي: نطبعُ عليها ونصدُّها عن الفهم فلا يفقهون.

﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ الكاف للتعليل؛ أي: نطبع على أفئدتهم وأبصارهم؛ عقوبةً لهم على أنهم لم يؤمنوا به أول مرةٍ.

ويَحتمل أن تكون للتشبيه؛ أي: نطبع عليها إذا رأوا الآيات مثلَ ما طبَعنا عليها أول مرة.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ الآيةَ؛ ردٌّ عليهم في قسَمهم أنهم لو جاءتهم آية لآمنوا بها؛ أي: لو أعطيناهم هذه الآيات التي اقترحوها وكلَّ آية لم يؤمنوا إلَّا أن يشاء الله.

﴿قِبَلًا﴾ - بكسر القاف وفتح الباء -؛ أي: معاينةً، فنَصْبُه على الحال.

وقرئ بضمتين؛ ومعناه: مواجهةً؛ كقوله: ﴿قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ [يوسف: ٢٦].

وقيل: هو جمع قَبِيلٍ بمعنى كفيل؛ أي: كُفَلاءَ بتصديق رسول الله ﷺ.

[﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ الآيةَ؛ تسليةٌ للنبي ﷺ بالتأسّي بغيره.

﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ أي: المتمرِّدين من الصنفَين، ونَصْبُ ﴿شَيَٰطِينَ﴾:

على البدل من ﴿عَدُوًّا﴾؛ إذ هو بمعنى الجمع.

أو مفعول أول، و﴿عَدُوًّا﴾ مفعول ثان.

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: يوسوس ويُلقِي الشرَّ.

﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ ما يزيِّنه من القول.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ الضمير عائدٌ:

على وحيهم.

أو على عداوة الكفار.

﴿فَذَرْهُمْ﴾ وعيدٌ.

﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ «ما» في موضع نصب؛ على أنها:

مفعولٌ معه.

أو عطفٌ على الضمير.

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾ أي: تميلَ، وهو متعلِّق بمحذوف، واللام لام الصيرورة.

﴿إِلَيْهِ﴾ الضمير لوحيهم.

﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟﴾ يكتسبوا.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ معمولٌ لقول محذوف؛ أي: قل لهم.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾ أي: صحَّتْ، والكلمات: ما نزَّل على عباده من كتبه.

﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أي: صدقًا فيما أخبر، وعدلًا فيما حكَم.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ القصد بهذا الأمر: إباحةُ ما ذُكِر اسم الله عليه، والنهيُ عما ذبح للنُّصُب وغيرها، وعن الميتة، وهذا النهي يقتضيه دليل الخطاب من الأمر، ثم صرَّح به في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

وقد استدلَّ بذلك مَن أوجب التسمية على الذبيحة، وإنما جاء الكلام في سياق تحريم الميتة وغيرها، فإن حملناه على ذلك لم يكن فيه دليلٌ على وجوب التسمية في ذبائح المسلمين، وإن حملناه على عمومه كان فيه دليل على ذلك.

وقال عطاء: هذه الآية أمرٌ بذكر الله على الذبح والأكل والشرب[1].

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا﴾ المعنى: أيُّ غرَضٍ لكم في ترك الأكل مما ذكر اسم الله عليه وقد بيَّن لكم الحلال من الحرام؟.

﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ استثناءٌ مما حرَّم.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ لفظٌ يعمُّ أنواع المعاصي؛ لأن جميعها إما باطن وإما ظاهر.

وقيل: الظاهر: الأعمال، والباطن: الاعتقاد.

﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ الضمير لمصدر ﴿لَا تَأْكُلُوا﴾.

﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ سببها: أن قومًا من الكفار قالوا: إنَّا نأكل ما قتلنا، ولا نأكل ما قتل الله -يعنون الميتة-!.

* * *

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ٥١١-٥١٢).

[﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾].

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ الموت هنا: عبارةٌ عن الكفر، والإحياء: عبارة عن الإيمان، والنور: نور الإيمان، والظلمات: الكفر؛ فهي استعاراتٌ.

وفي قوله: ﴿مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ مطابقةٌ؛ وهي من أدوات البيان.

ونزلت الآية في عمار بن ياسر، وقيل: في عمر بن الخطاب.

والذي في الظلمات: أبو جهل.

ولفظها أعمُّ من ذلك.

﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ﴾ مثَل هنا: بمعنى صفة، وقيل: هو زائدٌ؛ والمعنى: كمن هو.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ﴾ أي: كما جعلنا في مكة أكابرَها ليمكروا فيها جعلنا في كل قرية، وإنما ذكَر الأكابرَ؛ لأن غيرهم تبعٌ لهم، والمقصود: تسلية النبي ﷺ.

﴿مُجْرِمِيهَا﴾ إعرابُه:

مضافٌ إليه عند الفارسي وغيره.

وقال ابن عطية وغيره: إنه مفعولٌ أول لـ ﴿جَعَلْنَا﴾، و﴿أَكَٰبِرَ﴾ مفعولٌ ثانٍ مقدَّم[1]، وهذا جيدٌ في المعنى ضعيفٌ في العربية؛ لأن ﴿أَكَٰبِرَ﴾ جمع أكبر وهو مِن أفعل؛ فلا يستعمل إلَّا بـ «مِن» أو بالإضافة.

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ﴾ الآيةَ؛ قال[2] هذه المقالة أبو جهل.

وقيل: الوليد بن المغيرة؛ لأنه قال: أنا أَولى بالنبوة من محمد.

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ ردٌّ عليهم فيما طلبوه، والمعنى: أن الله عَلِم أن محمدًا ﷺ أهلٌ للرسالة، فخصَّه بها، وعَلِم أنهم ليسوا بأهلٍ لها فحرَمهم إيَّاها.

وفي الآية من أدوات البيان: الترديد؛ لكونه ختم كلامهم باسم الله، ثم ردَّه في أول كلامه.

﴿صَغَارٌ﴾ أي: ذِلَّةٌ.

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٤٥٣).

(٢) في د: «قائل».

﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ﴾ شَرْحُ الصدرِ، وضِيقُه، وحَرَجُه: ألفاظٌ مستعارة.

ومن قرأ ﴿حَرَجًا﴾ -بفتح الراء-: فهو مصدر وُصِف به.

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: كأنما يحاول الصعود في السماء، وذلك غير ممكن؛ فكذلك يصعب عليه الإيمان.

وأصل ﴿يَصَّعَّدُ﴾ المشدد: يتصعَّد، وقرئ بالتخفيف.

﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ الجنة، والسَّلام هنا يَحتمل أن يكون:

اسمَ الله، فأضافها إليه؛ لأنها مُلْكُه وخَلْقه.

أو بمعنى السلامة.

أو التحية.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ العامل في ﴿يَوْمَ﴾ محذوفٌ؛ تقديره: اذكر.

أو تقديره: قلنا، ويكون -على هذا- عاملًا في ﴿يَوْمَ﴾ وفي ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾.

﴿ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أي: أضْللتم منهم كثيرًا، وجعلتموهم أتباعَكم؛ كما تقول: استكثر الأمير من الجيش.

﴿ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ استمتاعُ الجنِّ بالإنس: طاعتهم لهم، واستمتاع الإنس بالجن: كقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦] فإن الرجل كان إذا نزل واديًا قال: أعوذ بصاحب هذا الوادي -يعني: كبيرَ الجن-.

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا﴾ هو الموت، وقيل: الحشر.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ قيل: الاستثناء من الكاف والميم في ﴿مَثْوَىٰكُمْ﴾؛ فـ«ما» بمعنى «مَن»؛ لأنها وقعت على صنف من الجن والإنس، والمستثنى على هذا: مَن آمن منهم.

وقيل: الاستثناء من مدَّة الخلود، وهو الزمان الذي بين حشرهم إلى دخول النار.

وقيل: الاستثناء من النار، وهو دخولهم الزَّمهريرَ.

وقيل: ليس المراد هنا بالاستثناء الإخراج، وإنما هو على وجه الأدب مع الله، وإسناد الأمور إليه.

﴿نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾ أي: نجعل بعضهم وليًّا لبعض.

وقيل: نُتبِعُ بعضَهم بعضًا في دخولهم النارَ.

وقيل: نسلِّطُ بعضَهم على بعض.

* * *

[﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٣٢ وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ١٣٤ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١٣٥﴾].

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ﴾ تقرير للجن والإنس؛ فقيل: إن الجن بُعِث فيهم رسلٌ منهم؛ لظاهر الآية.

وقيل: إنما الرسل من الإنس خاصة؛ وإنما قال: ﴿رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾؛ لأنه جمَع الثقلين في الخطاب.

﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ لا تنافي بينه وبين قولهم: ﴿مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ لما تقدَّم هناك.

فإن قيل: لم كرَّر شهادتهم على أنفسهم؟

فالجواب: أن قولهم: ﴿شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾ قولٌ قالوه هم، وقوله: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ ذمٌّ لهم، وتقبيحٌ لحالهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر ابتداء مضمر؛ تقديره: الأمر ذلك.

أو مفعولٌ بفعل مضمر؛ تقديره: فعلنا ذلك.

والإشارةُ إلى بعث الرسل.

﴿أَن لَّمْ يَكُن﴾ تعليلٌ لبعث الرسل.

وهو في موضع مفعول من أجله، أو بدلٌ من ﴿ذَٰلِكَ﴾.

﴿بِظُلْمٍ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن الله لم يكن ليُهلِكَ القرى دون بعث رسل إليهم، فيكون إهلاكهم ظلمًا؛ إذ لم يُنذِرْهم، فهو كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

والآخر: أن الله لا يهلك القرى بظلم إذا ظلموا دون أن يُنذرَهم؛ ففاعل الظلم -على هذا-: أهلُ القرى، وغفلتهم: عدم إنذارهم.

حكى الوجهين ابن عطية والزمخشري[(١)]، والوجه الأول صحيحٌ[(٢)] على مذهب المعتزلة، ولا يصحُّ على مذهب أهل السنة؛ لأن الله لو أهلك عباده بغير ذنب لم يكن ظالمًا عندهم[(٣)].

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٣/ ٤٦٣)، والكشاف (٦/ ٢٥٠).

(٢) هذه الكلمة لم ترد في أ، ب، ج، هـ.

(٣) قال الشيخ عبد الرحمن البراك: قوله: «ولا يصح على مذهب أهل السنة»، يريد الأشاعرة، فمن مذهبهم أنَّ كلَّ ممكنٍ جائزٌ على الرب فعله؛ فعندهم يجوز أن يعذب أولياءه، وأن ينعّم أعداءه، فعليه: يجوز أن يعذب من شاء بغير ذنب، أو يعذبه بذنب غيره، ومنشأ هذا المذهب هو أن مردَّ أفعال الله تعالى وشرعِه محضُ المشيئة، فلا حكمة ولا غاية في مفعولاته ومأموراته، والظلم عندهم هو المستحيل لذاته، كالجمع بين النقيضين، قال ابن القيم:

والظلمُ عندهمُ المحالُ لذاته ... أنَّى ينزهُ عنه ذو السلطانِ =

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ أي: منازلُ في الجزاء على أعمالهم؛ من الثواب والعقاب.

﴿مِن ذُرِّيَّةِ﴾ أي: مِن ذرية أهلِ سفينة نوح، أو مَن كان قبلهم إلى آدم.

﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ الأمر هنا للتهديد، والمكانة: التمكُّن.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديدٌ.

﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ﴾ يَحتمل أن تكون «مَن»:

موصولةً في موضع نصْبٍ على المفعولية.

أو استفهاميةً في موضع رَفْعٍ بالابتداء.

﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: الآخرة، أو الدنيا، والأول أرجح؛ لقوله: ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ [الرعد: ٢٢ - ٢٣].

= وأما الظلم عند أهل السنة والجماعة، فهو أن يعذب أحدا بغير ذنب، أو يعذبه بذنب غيره، وقد حرَّم الله تعالى ذلك على نفسه، قال في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمتُ الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا»، وقد نزه الله نفسه عن الظلم في آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، والظلم عند أهل السنة مقدور لله، لكنه لا يفعله لكمال عدله وحكمته، وأما الظلم عند الأشاعرة فهو غير مقدور له، والمدحُ والكمالُ في ترك الظلم مع القدرة عليه.

[﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾].

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ الضمير في ﴿جَعَلُوا﴾ لكفار العرب.

قال السهيلي: هم حيٌّ من خَوْلانَ، يقال لهم: الأديم، كانوا يجعلون من زروعهم وثمارهم ومن أنعامهم نصيبًا لله ونصيبًا لأصنامهم(١).

ومعنى ﴿ذَرَأَ﴾: خلَق وأنشأ؛ ففي ذلك ردٌّ عليهم؛ لأن الله الذي خلقها وذرأها هو مالكها لا ربَّ غيره.

﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ أي: بدعواهم وقولهم من غير دليل ولا شرع، وأكثر ما يقال الزعم: في الكذب.

(١) انظر: التعريف والإعلام، للسهيلي (ص: ١٠٥).

وقرئ بفتح الزاي وضمها، وهما لغتان.

﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الآيةَ؛ كانوا إذا هبَّت الريح فحملت شيئًا من الذي لله إلى الذي للأصنام أقرُّوه، وإذا حملت شيئًا من الذي للأصنام إلى الذي لله ردُّوه، وإذا أصابتهم سنة أكلوا نصيب الله، وتحامَوا نصيب شركائهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ كانوا يقتلون أولادهم بالوَأْدِ، ويذبحونهم تقرُّبًا إلى الأصنام.

و﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾ هنا: هم الشياطين، أو القائمون على الأصنام.

وقرأ الجمهور بفتح الزاي من ﴿زَيَّنَ﴾ على البناء للفاعل، ونَصْب ﴿قَتْلَ﴾ على أنه مفعول، وخَفْض ﴿أَوْلَٰدِهِمْ﴾ بالإضافة، ورَفْع ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾ على أنه فاعل بـ ﴿زَيَّنَ﴾.

والشُّركاء على هذه القراءة: هم الذين زيَّنوا القتل.

وقرأ ابن عامر[1]: بضم الزاي على البناء للمفعول، ورفْع ﴿قَتْلُ﴾ على أنه مفعول لم يسمَّ فاعلُه، ونصْب ﴿أَوْلَٰدَهُمْ﴾ على أنه مفعول بـ ﴿قَتْلُ﴾، وخفض ﴿شُرَكَآئِهِمْ﴾ على الإضافة إلى ﴿قَتْلُ﴾ إضافة المصدر إلى فاعله، وفُصِلَ بين المضاف والمضاف إليه بقوله: ﴿أَوْلَٰدَهُمْ﴾، وذلك ضعيفٌ في العربية، وقد سُمِع في الشعر.

والشُّركاء على هذه القراءة: هم القاتلون للأولاد.

---

(١) في أ، ب، ج، هـ: «ابن عباس» والمثبت هو الصواب. انظر: المحرر الوجيز (٣/ ٤٦٨).

﴿لِيُرۡدُوهُمۡ﴾ أي: ليُهلِكوهم، وهو مِن الرَّدى بمعنى الهلاك.

﴿أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ﴾ أي: حرامٌ، وهو فِعْل بمعنى مفعولٍ، نحو ذِبْح، فيستوي في الوصف به المذكَّرُ والمؤنث والواحد والجمع.

﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ أي: لا يأكلها إلَّا من شاؤوا؛ وهم: القائمون على الأصنام، أو الرجال دون النساء.

﴿وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا﴾ أي: لا تُركَبُ، وهي السائبة وأخواتها.

﴿وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾ قيل: معناه: لا يُحَجُّ عليها؛ فلا يُذكَر اسم الله بالتلبية.

وقيل: لا يذكر عليها إذا ذُبِحت.

﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾ كانوا قد قسَّموا أنعامهم هذه الأقسام، ونسَبوا ذلك إلى الله افتراءً وكذبًا.

ونصْبُه: على الحال، أو مفعول من أجله، أو مصدر مؤكَّد.

﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا﴾ الآيةَ؛ كانوا يقولون في أجنَّة البَحيرة والسائبة: ما وُلِد منها حيًّا فهو للرجال خاصة ولا يأكل منها النساء، وما وُلِد منها ميتًا اشترك فيه الرجال والنساء.

وأنَّث ﴿خَالِصَةٞ﴾ للحمل على المعنى؛ وهي الأجنَّة، وذكَّر ﴿مُحَرَّمٌ﴾ حملًا على لفظ «ما».

ويجوز أن تكون التاء للمبالغة.

﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: البَحيرةَ والسائبة وشبهَهما.

[﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾].

﴿جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ﴾ مرفوعاتٍ على دعائمَ وشبهِها، ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ متروكاتٍ على وجه الأرض.

وقيل: المعروشات: ما غرَسه الناس في العمران، وغير معروشات: ما أنبته الله في الجبال والبراري.

﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ في اللون والطعم والرائحة والحجم، وذلك دليلٌ على أن الخالق مختارٌ مُريد.

﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ قيل: ﴿حَقَّهُۥ﴾ هنا: الزكاة، وهو ضعيفٌ؛ لوجهين:

أحدهما: أن الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة.

والآخر: أن الزكاة لا تعطى يوم الحصاد، وإنما تعطى يوم[1] ضمِّ الحبوب والثمار.

وقيل: ﴿حَقَّهُۥ﴾ ما يتصدَّق به على المساكين يوم الحصاد، وكان ذلك واجبًا ثم نُسِخ بالعُشر.

وقيل: هو ما يَسقط من السُّنبل، والأمر على هذا للندب.

﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ عطفٌ على ﴿جَنَّٰتٍ﴾.

والحَمولة: الكبار، والفَرْش: الصغار؛ كالعجاجيل والفِصْلان.

وقيل: الحمولة: الإبل؛ لأنها يُحمَل عليها، والفرش: الغنم؛ لأنها تُفْرَش للذبح، ويُفرَش ما ينسج من صوفها.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ بدلٌ من ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾، وسمَّاها أزواجًا؛ لأن الذكر زوج للأنثى، والأنثى زوج للذكر.

﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ يريد: الذكرَ والأنثى، وكذلك فيما بعده.

﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ يعني: الذكرَ من الضأن والذكر من المَعْز، ويعني بالأُنثيين: الأنثى من الضأن، والأنثى من المعْز، وكذلك فيما بعده من الإبل والبقر.

والهمزة للإنكار.

﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ﴾ تعجيزٌ وتوبيخ.

---

(١) في د: «بعد».

﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ يعني: في تحريم[1] ما لم يحرِّم اللهُ، وذلك إشارةٌ إلى العرب في تحريمهم أشياء كالبَحيرة وغيرها.

* * *

(١) في د: «تحريمهم».

[﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾].

﴿قُل لَّآ أَجِدُ﴾ الآية تقتضي حصْرَ المحرَّمات فيما ذُكِر، وقد جاء في السنة تحريمُ أشياء لم تذكر هنا كلحوم الحُمُرِ؛ فذهب قوم إلى أن السنة نَسخت هذا الحصرَ.

وذهب آخرون إلى أن الآية وردت على سبب؛ فلا تقتضي الحصر.

وذهب آخرون إلى أن ما عدا ما ذُكِر إنما نُهِي عنه على وجه الكراهة، لا على وجه التحريم.

﴿أَوْ فِسْقًا﴾ معطوفٌ على المنصوبات قبله، وهو ما أُهِلَّ به لغير الله،

سماه فسقًا؛ لتوغُّله في الفسق، وقد تقدَّم الكلام على هذه المحرمات في «البقرة»[(١)].

﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ هو ما له إصبَعٌ من دابة أو طائر. قاله الزمخشري[(٢)].

وقال ابن عطية: يراد به: الإبل والإوَزُّ والنَّعام ونحوُه من الحيوان الذي هو غير منفرج الأصابع، و[(٣)] له ظفر[(٤)]. وقال الماوردي مثله[(٥)].

وحكى النقَّاش عن ثعلب: أن كل ما لا يَصيد فهو ذو ظُفر، وما يصيد فهو ذو مِخْلَب، وهذا غير مطَّرد؛ لأن الأسد ذو ظفر[(٦)].

﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ يعني: ما في الظهور والجُنوب من شحم.

﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ هي المباعِر[(٧)].

وقيل: المصارين والحشوة ونحوهما مما يتحوَّى في البطن.

وواحد حوايا حَوِيَّةٌ؛ على وزن فَعِيلة؛ فوزن حوايا على هذا فَعائِل؛ كصحيفة وصحائف.

---

(١) انظر: ١/ ٣٩٤.

(٢) انظر: الكشاف (٦/ ٢٧٨).

(٣) في أ، ب: «أو».

(٤) انظر: المحرر الوجيز (٣/ ٤٨٣).

(٥) انظر: تفسير الماوردي «النكت والعيون» (٣/ ١٨٣).

(٦) انظر: المحرر الوجيز (٣/ ٤٨٣).

(٧) المباعر: جمع مبْعَرٍ، وهو مكان اجتماع البَعْر في البطن من كل ذي أربعٍ. لسان العرب (٥/ ١٣٨).

وقيل: واحدها حاوِيَة؛ على وزن فاعِلة؛ فحوايا -على هذا- فواعِل؛ كضاربة وضوارب.

وهو معطوفٌ على ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾، فهو من المستثنى من التحريم.

وقيل: عطفٌ على الظهور؛ فالمعنى: إلَّا ما حملت الظهور، أو حملت الحوايا.

وقيل: عطفٌ على الشُّحوم؛ فهو من المحرَّم.

﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ﴾ يريد: في جميع الجسد.

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ أي: فيما أخبَرنا به من التحريم، وفي ذلك تعريضٌ بكذب مَن حرَّم ما لم يحرِّم الله.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ أي: إن كذبوك فيما أخبرتَ به من التحريم فقل لهم: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾؛ إذ لا يعاجلكم بالعقوبة على شدَّة جرمكم، وهذا كما تقول عند رؤية معصيةٍ: ما أحلم الله!؛ تريد: لإمهالِه عن مثل ذلك.

ثم أعقب وصفه بالرحمة الواسعة بقوله: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: لا تغترُّوا بسعة رحمته؛ فإنه لا يرَدُّ بأسُه عن مثلكم إما في الدنيا أو في الآخرة.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ الآيةَ؛ معناها: أنهم يقولون: إنَّ شِرْكَهم وتحريمَهم لما حرَّموا كان بمشيئة الله، ولو شاء الله أن

لا يفعلوا ذلك ما فعلوه، فاحتجُّوا على صحة ذلك بإرادة الله له، وتلك نزْغةٌ جبرية، ولا حجة لهم في ذلك؛ لأنهم مكلَّفون مأمورون ألَّا يشركوا بالله، ولا يحرِّموا ما حلل الله، والإرادة خلاف التكليف.

ويَحتمل عندي أن يكون قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قولًا يقولونه في الآخرة على وجه التمنِّي أن ذلك لم يكن؛ كقولك إذا ندمتَ على شيء: لو شاء الله ما كان هذا؛ أي: تتمنى أن ذلك لم يكن، ويؤيد هذا: أنه حَكى قولهم بأداة الاستقبال، وهي السين؛ فذلك دليلٌ على أنهم يقولونه في المستقبل وهي الآخرة.

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ توقيفٌ لهم وتعجيز.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ لما أبطل حجَّتهم أثبت حجة الله؛ ليَظهرَ الحقُّ ويَبطُلَ الباطلُ.

﴿هَلُمَّ﴾ قيل: هي بمعنى «هاتِ»؛ فهي متعدية.

وقيل: بمعنى «أَقبِلْ»؛ فهي غير متعدية.

وهي عند بعض العرب: فعل يتصل به ضمير الاثنين والجماعة والمؤنث.

وعند بعضهم: اسم فعل؛ فيخاطَب بها الواحد والاثنان والجماعة والمؤنث على حد سواء.

ومقصود الآية: تعجيزهم عن إقامة الشُّهداء.

﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أي: إن كذبوا في شهادتهم وزوَّروا فلا تشهد بمثل شهادتهم.

[﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾].

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أمر الله نبيَّه ﷺ أن يدعوَ جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرَّم عليهم.

وذكَر في هذه الآيات المحرَّمات التي أجمعت عليها جميع الشرائع ولم تُنسَخ قطُّ في ملة.

وقال ابن عباس: هي الكلمات العشر التي أنزل الله على موسى(١).

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ قيل: «أن» هنا: حرف عبارة وتفسير؛ فلا موضع لها من الإعراب، و«لا» ناهية جَزمت الفعل.

وقيل: «أن» مصدرية في موضع رفعٍ؛ تقديره: الأمر أن لا تشركوا؛ فـ«لا» على هذا نافية.

---

(١) لم أقف على إسناده إلى ابن عباس، وأورده ابن عطية في المحرر الوجيز (٣/ ٤٩٠) بقوله: «وقد قيل: إنها العشر..» إلخ، ولم ينسبه لأحد.

وقيل: «أن» في موضع نصبٍ بدلًا من قوله: ﴿مَا حَرَّمَ﴾، ولا يصحُّ ذلك إلَّا إن كانت «لا» زائدةً، وإن لم تكن زائدةً فسَد المعنى؛ لأن الذي حرم على ذلك يكون ترْكَ الإشراك.

والأحسن عندي: أن تكون «أن» مصدرية في موضع نصب على البدل و«لا» نافية، ولا يَلزم ما ذُكِر مِن فساد المعنى؛ لأن قوله: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ معناه: ما وصَّاكم به ربكم؛ بدليل قوله في آخر الآية: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ فضمَّن التحريم معنى الوصية، والوصية في المعنى أعمُّ من التحريم؛ لأن الوصية تكون بتحريم وبتحليل ووجوب وندب، ولا يُنكَر أن يريد بالتحريم الوصية؛ لأن العرب قد تذكر اللفظ الخاص وتريد به العموم، كما تذكر اللفظ العام وتريد به الخصوص.

فإذ تقرر هذا؛ فتقدير الكلام: قل تعالوا أتل ما وصَّاكم به ربكم، ثم أبدل منه على وجه التفسير له والبيان؛ فقال: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾؛ أي: وصَّاكم أن لا تشركوا به شيئًا، ووصاكم بالإحسان بالوالدين، ووصاكم أن لا تقتلوا أولادكم، فجَمعت الوصيةُ تركَ الإشراك وفعل الإحسان بالوالدين وما بعد ذلك.

ويؤيد هذا التأويل الذي تأوَّلنا: أن الآيات اشتملت على أوامرَ؛ كالإحسان بالوالدين، وقول العدل، والوفاء في الوزن، وعلى نواهي؛ كالإشراك، وقتل النفس، وأكل مال اليتيم، فلا بد أن يكون اللفظ المقدَّمُ في أولها لفظًا يجمع الأوامر والنواهي؛ لأنها أُجمِلت فيه، ثم فُسِّرت بعد ذلك، ويصلح لذلك لفظ الوصية؛ لأنه جامع للأمر والنهي، فلذلك

جعلنا التحريم بمعنى الوصية، ويدل على ذلك: ذكر لفظ الوصية بعد ذلك.

وإن لم يتأوَّل على ما ذكرناه: لزم في الآية إشكالٌ؛ وهو عطف الأوامر على النواهي، وعطف النواهي على الأوامر، فإن الأوامر طُلِب فعلها، والنواهي طُلِب تركها، وواو العطف تقتضي الجمع بين المعطوف والمعطوف عليه، ولا يصحُّ ذلك إلَّا على الوجه الذي تأولناه من عموم الوصية للفعل والترك.

وتَحتمل الآية[1] عندي تأويلًا آخر؛ وهو: أن يكون لفظ التحريم على ظاهره، ويعمُّ فعل المحرمات، وترك الواجبات؛ لأن ترك الواجب حرامٌ.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ الإملاق: الفاقة، و﴿مِّنْ﴾ هنا للتعليل؛ تقديرها: من أجل إملاق.

وإنما نَهى عن قتل الأولاد لأجل الفاقة؛ لأن العرب كانوا يفعلون ذلك، فخرج مخرج الغالب، فلا يُفهَم منه إباحةُ قتلهم لغير ذلك الوجه.

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ قيل: ﴿مَا ظَهَرَ﴾: الزنا، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾: اتخاذ الأخدان.

والصحيح: أن ذلك عمومٌ في جميع الفواحش.

﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فسَّره قولُ رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلَّا بإحدى ثلاث: زنا بعد إحصان، أو كفر بعد

---

(١) في د: «أيضًا».

إيمان، أو قتل نفس بغير نفس»[١].

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ النهيُ عن القُرب يعمُّ وجوه التصرُّف، وفيه سدُّ الذريعة؛ لأنه إذا نهى عن أن يقرب[٢] المال فالنهي عن أكله أولى وأحرى.

والتي هي أحسن: منفعة اليتيم وتثمير ماله.

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ هو البلوغ مع الرُّشد، وليس المقصود هنا السنَّ وحدَه، وإنما المقصود: معرفته بمصالحه.

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ لما أمر بالقسط في الكيل والوزن، وقد علم أن القسط الذي لا زيادة فيه ولانقصان مما يجري فيه الحرج ولا يتحقَّق الوصول إليه؛ أمر بما في الوُسْع من ذلك، وعفا عما سواه.

﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: ولو كان المقول له أو عليه في شهادةٍ أو غيرها من أهل قَرابةِ القائل؛ فلا ينبغي أن يزيدَ ولا يَنقص، بل يَعدل.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى﴾ الإشارة بـ ﴿هَٰذَا﴾:

إلى ما تقدَّم من الوصايا.

أو إلى جميع الشريعة.

و«أنَّ» بفتح الهمزة والتشديد:

عطفٌ على ما تقدَّم.

---

(١) أخرجه أحمد (٤٣٧)، وأبو داود (٤٥٠٢)، والترمذي (٢١٥٨)، والنسائي (٤٠٢٤).

(٢) في د: «عن قرب».

أو مفعول من أجله؛ أي: فاتبعوه؛ لأن هذا صراطي مستقيمًا.

وقرئ بالكسر؛ على الاستئناف.

وبالفتح والتخفيف؛ على العطف، وهي على هذا مخفَّفة من الثقيلة.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ الطرقَ المختلفة في الدين؛ من اليهودية والنصرانية وغيرها من الأديان الباطلة، ويدخل فيه أيضًا: البدع والأهواء المضِلَّة.

وفي الحديث: أن النبي ﷺ خطَّ خطًّا، ثم قال: «هذا سبيل الله»، ثم خطَّ خطوطًا عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «هذه كلُّها سبلٌ، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»[(١)].

﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: تُفَرِّقكم عن سبيل الله، والفعل مستقبل؛ حذفت منه تاء المضارعة، ولذلك شدَّده البزِّي.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا﴾ معطوفٌ على ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾.

فإن قيل: فإن إيتاء موسى الكتابَ متقدِّمٌ على هذه الوصية، فكيف عطَفه عليها بـ«ثم»؟.

فالجواب: أن هذه الوصية قديمةٌ لكل أمة على لسان نبيها، فصحَّ الترتيب.

وقيل: إنها هنا لترتيب الإخبار والقول، لا لترتيب الزمان.

﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ فيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: أن المعنى: تمامًا للنعمة على الذي أحسن من قوم موسى،

---

(١) أخرجه أحمد (٤١٤٢)، والنسائي في الكبرى (١٠/ ٩٥).

ففاعل ﴿أَحْسَنَ﴾ ضمير يعود على ﴿ٱلَّذِيٓ﴾، و﴿ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ﴾ يراد به: جنس المحسنين.

والآخر: أن المعنى: تمامًا؛ أي: تفضُّلًا، أو جزاءً على ما أحسن موسى عليه السلام من طاعة ربه وتبليغ رسالته، فالفاعل على هذا ضمير موسى عليه السلام، و﴿ٱلَّذِى﴾ صفة لعمل موسى.

والثالث: تمامًا؛ أي: إكمالًا على ما أحسن الله به إلى عباده، فالفاعل[1] على هذا ضمير الله تعالى.

* * *

(١) في أ، ب، هـ: «فالعامل».

[﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾].

﴿أَن تَقُولُوٓا۟﴾ في موضع مفعولٍ من أجله؛ تقديره: كراهةَ أن تقولوا.

﴿عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ﴾ أهلِ التوراة والإنجيل.

﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ أي: لم ندرس مثل دراستهم ولم نعرف ما درسوا من الكتب فلا حجَّة علينا، ﴿وَإِن﴾ هنا مخفَّفة من الثقيلة.

﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ﴾ إقامةُ حجة عليهم.

﴿وَصَدَفَ﴾ أعرضَ.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ الآيةَ؛ تقدَّمت نظيرتها في «البقرة»[(١)].

﴿بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ أشراطُ الساعة؛ كطلوع الشمس من مغربها، فحينئذ لا يقبل إيمان كافر، ولا توبة عاصٍ.

فقوله: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ يعني: أن إيمان الكافر لا ينفعه حينئذ.

وقوله: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ يعني: أن من كان مؤمنًا ولم يَكسِب حسنات قبل ظهور تلك الآيات، ثم تاب إذا ظهرت لم ينفعه؛ لأن باب التوبة يغلق حينئذٍ.

﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟﴾ وعيدٌ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ هم اليهود والنصارى.

وقيل: أهل الأهواء والبدع.

وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة»، قيل: يا رسول الله ومن تلك الواحدة؟ قال: «من كان على ما أنا وأصحابي عليه»[(٢)].

وقرئ ﴿ فَارَقُواْ ﴾؛ أي: تركوا.

﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ جمع شِيعَةٍ؛ أي: متفرِّقين، كلُّ فرقة تتشيَّع لمذهبها.

---

(١) انظر: ١/ ٤٢٧.

(٢) تقدم تخريجه ١/ ٥٦٧.

﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي: أنت بريءٌ منهم.

﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ فضلٌ عظيم، على العموم في الحسنات، وفي العاملين، وهو أقلُّ التَّضعيف للحسنات؛ فقد ينتهي إلى سبع مئة وأزيد.

﴿دِينًا قِيَمًا﴾ بدلٌ من موضع: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ لأن أصله: هداني صراطًا؛ بدليل: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾، والقيِّم: فَيْعِل؛ مِن القيام، وهو أبلغ من قائمٍ.

وقرئ ﴿قِيَمًا﴾ بكسر القاف وتخفيف الياء وفتحها، وهو على هذا: مصدر وُصِف به.

﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بدلٌ من ﴿دِينًا﴾، أو عطفُ بيان.

﴿وَنُسُكِي﴾ أي: عبادتي، وقيل: ذبحي للبهائم، وقيل: حَجِّي. والأول أعمُّ وأرجح.

﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ أي: أعمالي في حين حياتي وعند موتي.

﴿لِلَّهِ﴾ أي: خالصًا[1] لوجهه وطلب رضاه، ثم أكَّد ذلك بقوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾؛ أي: لا أريد بأعمالي غير الله؛ فيكون نفيًا للشرك الأصغر وهو الرياء.

ويَحتمل أن يريد: لا أعبد غير الله؛ فيكون نفيًا للشرك الأكبر.

﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ الإشارةُ إلى الإخلاص الذي تقتضيه الآية قبل ذلك.

﴿أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ لأنه ﷺ سابقُ أمته.

---

(١) في د: «خالصةً».

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ تقريرٌ وتوبيخ للكفار.

وسببها: أنهم دعَوهُ إلى عبادة آلهتهم.

﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ برهانٌ على التوحيد، ونفيُ الربوبية عن غير الله.

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ ردٌّ على الكفار؛ لأنهم قالوا له: اعبدْ آلهتنا ونحن نتكفَّل لك بكل تِبَاعةٍ تتوقَّعُها في دنياك وأُخراك[1]، فنزلت هذه الآية؛ أي: ليس كما قلتم، وإنما كَسْبُ كلِّ نفس عليها خاصةً.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا يَحمل أحدٌ ذنوبَ أحد، وأصل الوِزر: الثِّقَل، ثم استُعمل في الذنوب.

﴿خَلَائِفَ﴾ جمع خليفةٍ؛ أي: يَخلُف بعضكم بعضًا في السُّكنى في الأرض.

أو خلائف عن الله في أرضه، والخطاب على هذا: لجميع الناس.

وقيل: لأمة محمد ﷺ؛ لأنهم خلَفُوا الأممَ المتقدمة.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ﴾ عمومٌ في المال والجاه والقوة والعلوم وغير ذلك مما وقع فيه التفضيل بين العباد.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ ليختبرَ شُكرَكم على ما أعطاكم، وأعمالَكم فيما مكَّنكم فيه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ جمعٌ بين التَّخويف والتَّرجية.

---

(١) في د: «وآخرتك».

وسُرْعة عقابه تعالى:

إما في الدنيا لمن عجَّل أَخْذَه.

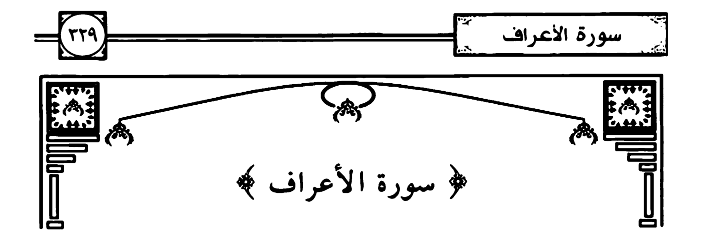
أو في الآخرة؛ لأن كلَّ آتٍ قريبٌ.

ونسأل الله أن يغفر لنا ويرحمنا بفضله ورحمته[١].

* * *

---

(١) في د زيادة: «تمت سورة الأنعام بعون الله وفضله، فله الحمد، وبتمامها كمل الكلام على الربع الأول من القرآن العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد الأمين المبلِّغ الهادي، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا».



﴿ سورة الأعراف ﴾

[﴿الٓمٓصٓ ① كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ② ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ③ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ④ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ⑤ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ⑥ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ⑦ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ⑧ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ⑨﴾].

﴿الٓمٓصٓ ①﴾ تكلَّمنا على حروف الهجاء في «البقرة»[1].

﴿حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي: ضيقٌ مِن تبليغه مع تكذيب قومك.

وقيل: الحرج هنا: الشكُّ؛ فتأويله كقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧].

﴿لِتُنذِرَ﴾ متعلِّق بـ ﴿أُنزِلَ﴾.

﴿وَذِكْرَىٰ﴾ منصوبٌ على المصدرية بفعل مقدَّر[2]؛ تقديره: لتنذر وتذكِّر

---

(١) انظر: ١/ ٢٦١.

(٢) في أ: «مضمر».

ذكرى؛ لأن الذِّكرى بمعنى التَّذكير.

أو مرفوعٌ؛ على أنه خبر ابتداءٍ مضمرٍ.

أو مخفوضٌ؛ عطفًا على موضع ﴿لِتُنذِرَ﴾؛ أي: للإنذار والذِّكرى.

﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ انتصب ﴿قَلِيلًا﴾ بـ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: تذكَّرون تذكُّرًا قليلًا.

و﴿مَا﴾ زائدةٌ؛ للتأكيد.

﴿أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ قيل: إنه من المقلوب؛ تقديره: جاءها بأسنا فأهلكناها.

وقيل: المعنى: أردنا إهلاكها فجاءها بأسُنا؛ لأن مجيءَ البأس قبل الإهلاك، فلا يصحُّ عطْفُه عليه بالفاء.

ويَحتمل أن يكون ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ استئنافًا؛ على وجه التفسير للإهلاك، فلا يحتاج إلى تكلُّفٍ.

والمراد: أهلكنا أهلها فجاءهم، ثم حذف المضاف؛ بدليل: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾.

﴿بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ ﴿بَيَاتًا﴾ مصدرٌ في موضع الحال؛ بمعنى: بائتين؛ أي: بالليل.

و﴿قَائِلُونَ﴾: من القائلة؛ أي: بالنهار.

وقد أصاب العذابُ بعض الكفار المتقدِّمين بالليل، وبعضَهم بالنهار.

و﴿أَوْ﴾ هنا: للتنويع.

﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: ما كان دعاؤهم واستغاثتهم إلَّا للاعتراف بأنهم ظالمون.

وقيل: المعنى: أن دعواهم هنا: ما كانوا يدَّعونه من دينهم، فاعترفوا لما جاءهم العذاب أنهم كانوا ظالمين في ذلك.

﴿أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أسند الفعل إلى الجار والمجرور.

ومعنى الآية: أن الله يسأل الأمم عما أَجابوا به رسلهم، ويسأل الرسل عما أُجيبوا به.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ على الرسل والأمم.

﴿وَٱلْوَزْنُ﴾ يعني: وزنَ الأعمال.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ يُسأل الرسلُ وأممُهم؛ وهو يوم القيامة.

﴿بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ أي: يكذِّبون بها ظلمًا.

[﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾].

﴿خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ قيل: المعنى: أردنا خَلْقَكم وتصويركم، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم.

وقيل: خلَقْنا أباكم[1]، ثم صوَّرناه.

وإنما احتيج إلى التأويل؛ ليصحَّ العطف.

(١) في د، وهامش أ زيادة: «آدم».

﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ «لا» زائدة؛ للتأكيد.

﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ استدلَّ به بعض الأصوليين على أن الأمر يقتضي الوجوب والفور؛ ولذلك وقع العقاب على ترك المبادرة للسجود.

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ تعليلٌ علَّلَ به إبليسُ امتناعَه من السجود، وهو يقتضي الاعتراض على الله تعالى في أمره بسجود الفاضل للمفضول على زعمه.

وبهذا الاعتراض كفَر إبليس؛ إذ ليس كفرُه كفرَ جحودٍ.

﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي: من السماء.

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ الباء للتعليل؛ وهي تتعلق[1] بفعل قسم محذوف تقديره: أُقسِمُ بالله -بسبب إغوائك لي- لأُغوِيَنَّ بني آدم.

و«ما»: مصدرية.

وقيل: استفهامية؛ ويُبطِله ثبوت الألف في «ما» مع حرف الجر.

﴿صِرَاطَكَ﴾ يريد: طريق الهدى والخير، وهو منصوبٌ على الظرفية.

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الآيةَ؛ أي: من الجهات الأربع، وذلك عبارةٌ عن تسليطه على بني آدم كيفما أمكنه.

وقال ابن عباس: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: الدنيا، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: الآخرة، ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾: الحسنات، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾: السيئات.

﴿مَذْءُومًا﴾ مِن ذَأَمَه -بالهمز-: إذا ذمَّه.

---

(١) في أ، ب، هـ: «وهو متعلق».

﴿مَذۡحُورٗاۖ﴾ أي: مطرودًا حيث وقع.

﴿فَوَسۡوَسَ﴾ إذا تكلَّم كلامًا خفيًّا يكرِّره؛ فمعنى ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا﴾: ألقى لهما هذا الكلام.

﴿لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا﴾ أي: ليُظهِر ما سُتر من عوراتهما.

واللام في قوله: ﴿لِيُبۡدِيَ﴾:

للتعليل؛ إن كان في انكشافهما غَرَضٌ لإبليس.

أو للصَّيرورة؛ إن وقع ذلك بغير قصدٍ منه إليه.

﴿ٱلشَّجَرَةِ﴾ ذكرت في «البقرة»(١).

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ﴾ أي: كراهةَ أن تكونا ملكين.

واستدلَّ به من قال: إن الملائكة أفضلُ من الأنبياء.

وقرئ: «مَلِكَيْنِ» بكسر اللام؛ ويقوِّي هذه القراءةَ قولُه: ﴿وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ أي: حلَف لهما إنه لمن الناصحين.

وذكر قَسَم إبليس بصيغة المفاعلة التي تكون بين الاثنين:

لأنه اجتهد فيه.

أو لأنه أَقسم لهما، وأقسَما له أن يَقبلا نصيحته.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ أي: أنزلهما إلى الأكل من الشجرة.

---

(١) انظر: ١/ ٣٠١.

﴿بِغُرُورٍ﴾ أي: غرَّهما بحَلِفِه لهما؛ لأنهما ظنَّا أنه لا يحلف كاذبًا.

﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ أي: زال عنهما اللباس، وظهرت عوراتُهما، وكانا لا يَريانِها من أنفُسِهما، ولا أَحدُهما[١] من الآخَر.

وقيل: كان لباسهما نورٌ يحول بينهما وبين النَّظر.

﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ أي: يَصِلان بعضَه ببعض ليستترا بها.

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ يَحتمل أن يكون هذا النداء: بواسطة ملَك، أو بغير واسطة.

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ اعترافٌ، وطلبٌ للمغفرة والرحمة.

وتلك[٢] الكلمات التي تاب الله عليه بها.

﴿اهْبِطُوا﴾ وما بعده: مذكور في «البقرة»[٣].

﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ أي: في الأرض.

* * *

(١) في أ، ب، ج، هـ: «لأحدهما».
(٢) في د زيادة: «هي».
(٣) انظر: ١/ ٣٠٢.

[﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٨ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ٢٩ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ٣٠ ۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾].

﴿لِبَاسٗا﴾ أي: الثيابَ التي تَستُر؛ ومعنى ﴿أَنزَلۡنَا﴾: خلقنا.

وقيل: المراد: أنزلنا ما يكون عنه اللباس؛ وهو[1] المطر.

واستدلَّ بعض الفقهاء بهذه الآية على وجوب ستر العورة.

﴿وَرِيشٗاۖ﴾ أي: لباسَ الزينة؛ وهو مستعار من ريش الطائر.

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ استعارَ للتقوى لباسًا؛ كقولهم: ألبسك الله قميص تقواه.

وقيل: لباس التقوى: ما يُتَّقَى به في الحرب من الدروع وشبهها.

وقرئ: بالرفع؛ على الابتداء، وخبره: الجملة؛ وهي: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الإشارةُ إلى ما أنزل من اللباس.

---

(١) في أ، ب، هـ: «أي».

وهذه الآية واردةٌ على وجه الاستطراد عَقِيب[١] ما ذكر من ظهور السَّوآت وخَصْف الورق عليهما؛ ليُبيِّن إنعامه بما[٢] خَلق من اللباس.

﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ أي: كان سببًا في نزْع لباسِهما عنهما.

﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ يعني: في غالب الأمر.

وقد استدلَّ به من قال: إن الجن لا يُرَوْن.

وقد جاءت في رؤيتهم أحاديث صحيحة، فتُحمَل الآية على الأكثر؛ جمعًا بينها وبين الأحاديث.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ قيل: هي ما كانت العرب تفعله من الطَّواف بالبيت عراةً؛ الرجالُ والنساء.

ويَحتمل العمومَ في الفواحش.

﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ اعتذروا بعذرين باطلين:

أحدهما: تقليد آبائهم.

والآخر: افتراؤهم على الله.

﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾ **قيل**: المراد إحضار النية، والإخلاص لله.

وقيل: فعل الصلاة والتوجُّه فيها.

﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: في كل مكان سجود.

---

(١) في د: «عقِب».

(٢) في أ، ب، ج، هـ: «على ما».

أو: في وقت كلِّ سجود.

والأول أظهر.

والمعنى: إباحة الصلاة في كلِّ موضع؛ كقوله[(١)] ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا»[(٢)].

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ احتجاجٌ على البعث الأخراوي بالبَدْأة الأولى.

﴿فَرِيقًا﴾ الأول: منصوبٌ بـ ﴿هَدَىٰ﴾.

والثاني: منصوبٌ بفعل مضمر؛ يفسِّره ما بعده.

﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ قيل: المراد به: الثياب الساترة، واحتجَّ به من أوجب ستر العورة في الصلاة.

وقيل: المراد به: الزينةُ زيادةً على السَّتر، كالتجمُّل للجمعة بأحسن الثياب وبالسواك والطيب.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ الأمر فيهما للإباحة؛ لأن بعض العرب كانوا يحرِّمون أشياء من المآكل.

﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أي: لا تكثروا من الأكل فوق الحاجة.

وقال الأطباء: إن الطبَّ كلَّه مجموعٌ في هذه الآية[(٣)].

وقيل: لا تسرفوا بأكل الحرام.

---

(١) في أ، ب، ج، هـ: «لقوله».

(٢) هو جزء من حديث: «نصرت بالرعب..» وقد تقدم تخريجه ١/ ٥٨٤.

(٣) انظر: الكشاف (٦/ ٣٧٢).

[﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾].

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ إنكارٌ لتحريمها، وهي ما شرعه الله لعباده من الملابس والمآكل.

وكان بعض العرب إذا حجُّوا يُحرِّمون[1] الثياب ويطوفون عراةً، ويحرِّمون الشحم واللبن؛ فنزل ذلك ردًّا عليهم.

﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: الزينة والطيبات في الدنيا: للذين آمنوا ولغيرهم، وفي الآخرة: خالصةٌ لهم دون غيرهم.

---

(١) في أ، ب، ج، هـ: «يجرِّدون».

وقرئ ﴿خَالِصَةٌ﴾:

بالنصب؛ على الحال.

والرفع؛ على أنه: خبر بعد خبر، أو خبر ابتداءٍ مضمرٍ.

﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ عامٌّ في كل ذنب.

﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: تفتروا عليه في التَّحريم وغيره.

﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ هي «إنْ» الشرطية دخلت عليها «ما» الزائدة؛ للتأكيد، ولزمتها النون الشديدة المؤكِّدة.

وجواب الشرط: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ الآيةَ.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ذُكِر في «الأنعام»[1].

﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: يصلُ إليهم ما كُتِب لهم من الأرزاق وغيرها.

﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي: غابوا عنا.

﴿ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ﴾ أي: ادخلوا النارَ في جملة أممٍ؛ أي: مع أمم.

﴿ٱدَّارَكُواْ﴾ أي: تلاحقوا واجتمعوا.

﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ المراد بـ ﴿أُولَىٰهُمْ﴾: الرؤساء والقادة، و﴿أُخْرَىٰهُمْ﴾: الأتباع والسَّفِلَة.

---

(١) انظر صفحة ٢٥٢.

والمعنى: أن أُخراهم طلبوا من الله أن يضاعف العذاب لأُولاهم؛ لأنهم أضلوهم.

وليس المعنى: أنهم قالوا لهم ذلك خطابًا لهم، إنما هو كقولك: قال فلان لفلان كذا؛ أي: قاله عنه، وإن لم يخاطبْه به.

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي: لم يكن لكم علينا فضلٌ في الإيمان والتقوى يوجب أن يكون عذابُنا أشدَّ من عذابكم، بل نحن وأنتم متساوون.

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ مِن قول أُولاهم لأُخْراهم، أو من قول الله تعالى لجميعِهم.

[﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾].

﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: لا يَصعَدُ عملُهم إلى السماء.

والثاني: لا يدخلون الجنة؛ فإن الجنة في السماء.

والثالث: لا تفتَّح أبواب السماء لأرواحهم - إذا ماتوا - كما تفتَّح لأرواح المؤمنين.

﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ أي: حتى يدخلَ الجمل في ثُقْبِ الإبرة.

والمعنى: لا يدخلون الجنة حتى يكونَ ما لا يكونُ أبدًا، فلا يدخلونها أبدًا.

﴿مِهَادٌ﴾ فراشٌ.

﴿غَوَاشٍ﴾ أغطيةٌ.

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ جملةُ اعتراضٍ بين المبتدإ والخبر؛ ليبيِّن أنه إنما طَلب من الأعمال الصالحة ما في الوُسع والطاقة.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي: مَن كان في صدره غِلٌّ لأخيه في الدنيا نُزِع منه في الجنة، وصاروا إخوانًا أحبابًا.

وإنما قال: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ بلفظ الماضي وهو مستقبل؛ لتحقُّق وقوعه في المستقبل، حتى عبَّر عنه بما يعبر عن الواقع.

وكذلك كلُّ ما جاء بعد هذا من الأفعال الماضية في اللفظ، وهي تقع في الآخرة؛ كقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ﴾، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ وغير ذلك.

﴿هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى الجنة، أو إلى ما أوجبها من الإيمان والتقوى.

﴿أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ﴾ و﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا﴾ ، و﴿أَن لَّعْنَةُ﴾ ، و﴿أَن سَلَامٌ﴾ يَحتمل أن تكون ﴿أَن﴾ في كل واحدة منها :

مخفَّفةً من الثقيلة؛ فيكون فيها ضمير.

أو حرفُ عبارة وتفسيرٍ لمعنى القول.

﴿مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ حُذِف مفعول ﴿وَعَدَ﴾ :

استغناءً عنه بمفعول ﴿وَعَدَنَا﴾ .

أو لإطلاق الوعْد؛ فيتناول الثواب والعقاب.

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي: أَعْلم مُعْلِمٌ؛ وهو ملَكٌ.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي: بين الجنة والنار.

أو: بين أصحابهما، وهو الأرجح؛ لقوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ [الحديد: ١٣].

﴿الْأَعْرَافِ﴾ قال ابن عباس: هو تلٌّ[١] بين الجنة والنار.

ومجاهد: حجابٌ بين الجنة والنار.

وقيل: سور الجنة.

﴿رِجَالٌ﴾ هم أصحاب الأعراف.

وورد في الحديث: «أنهم قوم من بني آدم استوت حسناتهم وسيئاتهم،

---

(١) في د: «جبل».

فلم يدخلوا الجنة ولا النار»[١].

وقيل: هم قوم خرجوا إلى الجهاد بغير إذن آبائهم، فاستُشهدوا، فمُنِعوا من الجنة؛ لعصيان آبائهم، ونَجوا من النار؛ للشهادة.

﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ أي: يعرفون أهل الجنة بعلامتهم؛ من بياض وجوههم، ويعرفون أهل النار بعلامتهم؛ من سواد وجوههم، أو غير ذلك من العلامات.

﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: سلَّم أصحابُ الأعراف على أهل الجنة.

﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أي: أن أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة، وهم يطمعون في دخولها من بعدُ.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ الضمير لأصحاب الأعراف؛ أي: إذا رأوا أصحاب النار دعوا الله أن لا يجعلهم منهم.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ يعني: من الكفار الذين في النار، قالوا لهم ذلك على وجه التَّوبيخ.

﴿جَمْعُكُمْ﴾ يَحتمل أن يريد:

جمعكم للمال.

أو كثرتكم.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٢٢١-٢٢٢).

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: استكبارُكم على الناس، أو استكباركم عن الرجوع إلى الحق؛ فـ «ما» ها هنا مصدرية.

و«ما» في قوله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾: استفهاميةٌ، أو نافية.

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ من كلام أصحاب الأعراف خطابًا لأهل النار.

والإشارة بـ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلى أهل الجنة؛ وذلك أن الكفار كانوا في الدنيا يُقسِمون أن الله لا يرحم المؤمنين ولا يَعبأُ بهم؛ فظهر خلاف ما قالوا.

وقيل: هي من كلام الملائكة؛ خطابًا لأهل النار.

والإشارة بـ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلى أصحاب الأعراف.

﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ خطابٌ لأهل الجنة: إن كان من كلام أصحاب الأعراف؛ تقديره: قد قيل لهم ادخلوا الجنة.

وخطابٌ لأهل الأعراف: إن كان من كلام الملائكة.

﴿أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ دليلٌ على أن الجنة فوق النار.

﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ مِن سائر الأطعمة أو الأشربة.

﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ أي: نتركُهم.

﴿كَمَا نَسُوا۟﴾ الكاف للتعليل.

﴿وَمَا كَانُوا۟﴾ عطفٌ على ﴿كَمَا نَسُوا۟﴾؛ أي: لنسيانهم وجحودهم.

﴿جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾ يعني: القرآنَ.

﴿فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ أي: عَلِمنا كيف نُفَصِّله[١].

﴿إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾ أي: هل ينتظرون إلا عاقبةَ أمره، وما يؤول إليه؛ مِن ظهور ما نَطق به من الوعد والوعيد؟.

﴿قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: قد تبيَّن وظهر الآن أن الرسلَ جاؤوا بالحق.

* * *

(١) في أ، ب، د: «تَفْصيلُه».

[﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾].

﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ حيث وقع:

حمَله قومٌ على ظاهره؛ منهم ابن أبي زيد[1] وغيره.

وتأوَّله قوم بمعنى: قصَد؛ كقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩].

ولو كان كذلك لقال: ثم استوى إلى العرش.

وتأوَّله الأشعرية أنّ معنى استوى: استولى بالملك والقدرة.

والحق: الإيمان به من غير تكييف؛ فإنَّ السلامة في التسليم، ولله درُّ مالك بن أنس الإمام في قوله للذي سأله عن ذلك: «الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والسؤال عن هذا بدعة»[2].

وقد روي مثل قول مالك عن أبي حنيفة، وجعفر الصادق، والحسن البصري.

---

(١) هو ابن أبي زيد القيرواني، في مقدمة الرسالة في الفقه المالكي (ص: ١٠).
(٢) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/ ٤٤١).

ولم يتكلَّم الصحابة ولا التابعون في معنى الاستواء، بل أمسكوا عنه؛ ولذلك قال مالك: «السؤال عنه بدعة»[١].

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: يُلحِق الليلَ بالنهار، أو يلحق النهار بالليل؛ يَحتمل الوجهين، هكذا قال الزمخشري[٢].

وأصل اللفظة: من الغِشاء؛ أي: يجعل أحدَهما غشاءً للآخر يغطِّيه، فتغطِّي ظلمةُ الليل نورَ النهار.

---

(١) قال الشيخ عبد الرحمن البراك: قوله: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ حيث وقع، إلخ، أقول: ذكر فيه مذاهب:
الأول: إجراؤه على ظاهره، لابن أبي زيد المالكي.
الثاني: مذهب أهل التأويل، ومنهم الأشاعرة، وبعضهم قال: استوى: قصد، وقالت الأشاعرة: استوى بالملك والقدرة.
الثالث: مذهب الصحابة والأئمة، وهو الإيمان به من غير تكييف، وقرر هذا القول بقوله: «والحق: الإيمان به من غير تكييف؛ فإنّ السلامة في التسليم».
وكلامه هنا متردد بين الإثبات من غير تكييف، وبين التفويض، ولذا استشهد بقول الإمام مالك وغيره: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول»، ولكنه قال: «ولم يتكلم الصحابة ولا التابعون في معنى الاستواء، بل أمسكوا عنه»، قال: «ولذا قال مالك: والسؤال عنه بدعة»، ومفهوم كلام المؤلف رحمه الله أن السؤال عن معنى الاستواء بدعة، وهذا خطأ فالذي سئل عنه مالك، وقال: «السؤال عنه بدعة» هو الكيفية؛ لأنه قال: «الاستواء معلوم» أي معناه، «والكيف مجهول، والسؤال عنه» أي السؤال عن الكيف.
وقد أخطأ ابن جزي رحمه الله أيضا في زعمه أن الصحابة والتابعين لم يتكلموا في معنى استوى. والصواب هو إثبات الاستواء لله على العرش بمعناه المعلوم، وهو علا وارتفع، مع نفي التمثيل، ونفي العلم بالكيفية. ومن يتدبر كلام ابن جزي يدرك أنه إلى التفويض أميل، أي تفويض معنى الاستواء، أو هو قوله الذي يقول به. والله أعلم.

(٢) انظر: الكشاف (٦/ ٤٠٤).

﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي: سريعًا، والجملة في موضع الحال من ﴿ٱلَّيْلَ﴾؛ أي: يطلب[١] النهارَ فيُدرِكه.

﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ قيل: الخلق: المخلوقات، والأمر: مصدر أمَر يأمُر.

وقيل: الخلق: مصدر خلَق، والأمر: واحد الأمور؛ كقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

والكلُّ صحيحٌ.

﴿تَبَارَكَ﴾ من البركة؛ وهو فعل غير متَصرِّف لم تَنطِق له العرب بمضارع.

﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ مصدرٌ في موضع الحال، وكذلك: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

﴿وَخُفْيَةً﴾ من الإخفاء.

وقرئ: «خِيفَةً» من الخوف.

﴿ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ المجاوزين للحدِّ.

وقيل هنا: هو رفع الصوت بالدعاء، والتشطُّط فيه.

﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ جمَع اللهُ الخوفَ والطمع؛ ليكون العبد خائفًا راجيًا؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧].

فإن مُوجِب الخوفِ: معرفةُ سَطَوات[٢] الله وشدَّةِ عقابه.

ومُوجِب الرجاء: معرفة رحمة الله وعظيم ثوابه؛ قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ

---

(١) في د زيادة: «الليلُ».

(٢) في د: «سطوة».

أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ - ٥٠].

ومَن عرَف فضْلَ الله رجَاه، ومَن عرف عذابه خافه؛ ولذلك جاء في الحديث: «لو وُزِن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلَا»[١].

إلَّا أنه يستحب أن يكون العبد طول عمره يَغْلِب عليه الخوف؛ ليقودَه إلى فعل الطاعات وترك السيئات، وأن يَغلِب عليه الرجاء عند حضور الموت؛ لقوله ﷺ: «لا يموتنَّ أحدُكم إلَّا وهو يحسن الظن بالله تعالى»[٢].

★ **واعلم أن الخوف على ثلاث درجات:**

الأولى: أن يكون ضعيفًا يخطُر على القلب، ولا يؤثِّر في الباطن ولا في الظاهر، فوجود هذا كالعدم.

والثانية: أن يكون قويًا فيوقظ العبد من الغفلة ويحمله على الاستقامة.

والثالثة: أن يشتدَّ حتى يبلغ إلى القنوط واليأس، وهذا لا يجوز، وخير الأمور أوسطها.

★ **والناس في الخوف على ثلاث مقامات:**

فخوف العامة: من الذنوب.

وخوف الخاصة: من الخاتمة.

---

(١) لا يصحُ حديثًا، قال السخاوي في المقاصد الحسنة (ص: ٥٥٥): «لا أصل له في المرفوع، وإنما يؤثر عن بعض السلف»، وأخرجه أحمد في الزهد (ص: ٢٣٩) عن مطرّف بن عبد الله بن الشّخير من قوله.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٧٧).

وخوف خاصة الخاصة: من السَّابقة؛ فإن الخاتمة مبنيَّةٌ عليها.

★ **والرجاء على ثلاث درجات:**

الأولى: رجاء رحمة الله مع التسبُّب فيها بفعل طاعته وترك معصيته؛ فهذا هو الرجاء المحمود.

والثانية: الرجاء مع التفريط والعصيان؛ فهذا غرورٌ.

والثالثة: أن يَقوى الرجاء حتى يبلغ الأمن؛ فهذا حرام.

★ **والناس في الرجاء على ثلاث مقامات:**

فمقام العامة: رجاء ثواب الله.

ومقام الخاصة: رجاء رضوان الله.

ومقام خاصة الخاصة: رجاء لقاء الله حبًّا فيه وشوقًا إليه.

﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ حذفت تاء التأنيث من ﴿قَرِيبٌ﴾ وهو خبر عن الرحمة:

على تأويل الرحمة بالرِّحِم، أو الترحُّم، أو العفو.

أو لأن تأنيث الرحمة غيرُ حقيقيٍّ.

أو لأنه صفة موصوف محذوف تقديره: شيءٌ قريب.

أو على تقدير النَّسب؛ أي: ذات قرب.

وقيل: ﴿قَرِيبٌ﴾ هنا ليس خبرًا عن الرحمة[1]، وإنما هو ظرفٌ لها.

---

(١) قوله: «عن الرحمة» لم ترد في أ، ب، ج، هـ.

﴿ٱلرِّيَـٰحَ نُشُرَۢا﴾ قرئ ﴿ٱلرِّيَـٰحَ﴾: بالجمع؛ لأنها رياح المطر.

وقد اطَّرد في القرآن جمعُها إذا كانت للرحمة، وإفرادها إذا كانت للعذاب ومنه ورد في الحديث: «**اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها رِيحًا**»[1].

وقرئ بالإفراد؛ والمراد: الجنس.

وقرئ: ﴿نَشْرًا﴾ -بفتح النون وإسكان الشين-؛ وهو على هذا مصدر في موضع الحال.

وقرئ بضمهما؛ وهو جمع ناشر، **وقيل**: جمع منشور.

وقرئ بضم النون وإسكان الشين؛ وهو تخفيف من الضم؛ كرُسُلٍ ورُسْل.

وقرئ بالباء في موضع النون؛ من البِشارة.

﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: قَبْلَ المطر.

﴿أَقَلَّتْ﴾ حمَلتْ.

﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ لأنها تحمل الماء فتَثْقُل به.

﴿سُقْنَـٰهُ﴾ الضمير للسحاب.

﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ **يعني**: لا نباتَ فيه من شدة القحط، وكذلك معناه حيث وقع.

﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ الضمير:

للسحاب.

---

(١) أخرجه الشافعي في مسنده (١/ ١٧٥)، والطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٢١٣).

أو البلد؛ على أن تكون الباء ظرفيةً.

﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ تمثيلٌ لإخراج الموتى من القبور بإخراج الزرع من الأرض.

وقد وقع ذلك في القرآن في مواضع؛ منها: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]، ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١].

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ هو الكريم من الأرض، الجيِّد التراب[١].

﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ بخلاف ذلك؛ كالسَّبخة ونحوها.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ عبارةٌ عن السهولة والطيب، والنَّكِد بخلاف ذلك.

ويَحتمل أن يكون المراد:

ما يقتضيه ظاهر اللفظ؛ فتكون متمِّمةً للمعنى الذي قَبْلها في المطر.

وأن يكون[٢] تمثيلًا للقلوب:

فقيل -على هذا-: الطيب: قلب المؤمن، والخبيث: قلب الكافر.

وقيل: هما الفَهِمُ[٣] والبليد.

* * *

(١) في ب، ج، هـ: «الترب».

(٢) في ج، د: «تكون».

(٣) في د: «الفهيم».

[﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦١ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٢ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٦٣ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ۝٦٤﴾].

﴿مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ قرأ الكسائي: بالخفض - حيث وقع -؛ على اللفظ.

وقرأ غيره: بالرفع؛ على الموضع.

﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: يومَ القيامة، أو يومَ هلاكهم.

﴿ٱلْمَلَأُ﴾ أشرافُ الناس.

﴿لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ إنما قال ﴿ضَلَٰلَةٌ﴾ ولم يقل «ضلالٌ» كقولهم؛ لأن الضَّلالة أخصُّ من الضلال، كما إذا قيل لك: أعندك تمر؟ تقول: ما عندي تمرة؛ فتعمُّ بالنفي.

﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ قرئ بالتشديد والتخفيف، والمعنى واحد.

وهو في موضع صفةٍ لـ ﴿رَسُولٌ﴾، أو استئنافٌ.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مِن صفاته ورحمته وعذابه.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف، والمعطوف عليه محذوف؛ كأنه قال: أكذَّبتم وعجبتم مِن أن جاءكم ذِكْرٌ.

﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ أي: على لسان رجل.

﴿فِي ٱلْفُلْكِ﴾ يتعلَّق:

بـ ﴿مَعَهُۥ﴾؛ والتقدير: استقرُّوا معه في الفلك.

ويَحتمل أن يتعلَّق بـ ﴿أنجَيْنَـٰهُ﴾.

﴿عَمِينَ﴾ جمع عَمٍ؛ وهو مِن عمَى القلب.

* * *

[﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾].

﴿أَخَاهُمْ﴾ أي: واحدًا من قبيلتهم، وهو معطوف على ﴿نُوحًا﴾.

و﴿هُودًا﴾ بدلٌ منه، أو عطف بيان.

وكذلك ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ وما بعده، وما هو مثله حيث وقع.

﴿ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قيَّد هنا بالكفر؛ لأن في الملأ مِن قوم هود مَن آمن؛ وهو مَرثَدُ بن سعد، بخلاف قوم نوح؛ فإنهم لم يكن فيهم مؤمن، فأطلق لفظ الملإ.

﴿أَمِينٌ﴾ يحتمل أن يريد:

أمانته على الوحي.

أو أنهم قد كانوا عرفوه بالأمانة والصِّدق.

﴿خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ أي: خلفتموهم في الأرض، أو جعلكم ملوكًا.

﴿وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ﴾ كانوا عِظَام الأجسام؛ كان أقصرُهم ستين ذراعًا، وأطولهم مئة ذراع.

﴿ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ نِعَمهُ حيث وقع.

﴿أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ﴾ استبعدوا توحيد الله مع اعترافهم بربوبيته؛ ولذلك قال لهم هود: ﴿قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم﴾ أي: حَقَّ عليكم ووجب عذاب من ربكم وغضب.

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ يعني: الأصنامَ؛ أي: تجادلونني في عبادة مسمَّياتِ أسماءَ؛ ففي الكلام حذفٌ.

وأراد بقوله: ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾:

جعلتم لها أسماءَ؛ فدلَّ ذلك على أنها محدثةٌ، فلا يصحُّ أن تكون آلهة.

أو سمَّيتموها آلهةً من غير دليل على أنها آلهةٌ؛ فقولكم باطل.

فالجدال:

على القول الأول: في عبادتها.

وعلى القول الثاني: في تسميتها آلهةً.

والمراد بالأسماء:

على القول الأول: المسمَّى.

وعلى القول الثاني: التَّسمية.

﴿دَابِرَ﴾ ذكر في «الأنعام»[١].

* * *

(١) انظر صفحة ٢٦٤.

[﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾].

﴿بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: آيةٌ ظاهرة؛ وهي الناقة، وأضيفت إلى الله تشريفًا لها، ولأنه خلقها من غير فحْلٍ.

وكانوا قد اقترحوا على صالح عليه السلام أن يخرجها لهم من صخرة، وعاهدوه أن يؤمنوا به إن فعل ذلك، فانشقَّت الصخرة وخرجت منها الناقة وهم ينظرون، ثم نُتِجَتْ ولدًا فآمن به قوم منهم وكفر آخرون.

﴿لَكُمْ ءَايَةً﴾ أي: معجزة تدلُّ[١] على صحة نبوة صالح.

والمجرور في موضع الحال من ﴿ءَايَةً﴾؛ لأنه لو تأخَّر لكان صفةً.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ أي: لا تَضُرُّوها[٢]، ولا تطردوها.

﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كانت أرضُهم بين الحجاز والشام، وقد دخلها رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال لهم ﷺ: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذَّبين إلَّا وأنتم باكون؛ مخافةَ أن يصيبكم مثلُ الذي أصابهم»[٣].

﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي: تبنون قصورًا في الأرض البسيطة.

﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ أي: تَنجرُون[٤] بيوتا في الجبال، (وكانوا يسكنون القصورَ في الصيف، والجبال في الشتاء.

وانتصب ﴿بُيُوتًا﴾ على الحال)[٥]؛ وهو كقولك: خِطتُ هذا الثوب قميصًا.

﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدلٌ من ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾.

﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ إنما لم يقولوا: ﴿بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ﴾ كما قال الآخرون؛ لئلَّا يكون اعترافًا برسالته.

---

(١) لم ترد في أ، ب، ج، هـ.

(٢) في ج، د: «لا تضربوها».

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٣)، ومسلم (٢٩٨٠).

(٤) في أ: «تتخذون».

(٥) سقط من أ، ب، هـ.

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ نَسب العقر إلى جميعهم؛ لأنهم رضوا به، وإن لم يفعله إلَّا واحدٌ منهم؛ وهو الأُحَيْمِرُ.

﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾ الصيحةُ حيث وقعتْ؛ وذلك أن الله أمر جبريل فصاح صيحةً بين السماء والأرض فماتوا منها.

﴿جَٰثِمِينَ﴾ حيث وقع: أي: قاعدين لا يتحرَّكون.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ الآيةَ؛ يَحتمل أن يكون تولِّيه عنهم وقولُه لهم:

حين عقروا الناقة، قبل نزول العذاب بهم؛ لأنه روي أنه خرج حينئذ من بين أظهرهم.

أو يكون ذلك بعد أن هَلكوا؛ وهو ظاهرُ الآية، وعلى هذا: خاطبهم بعد موتهم على وجه التفجُّع عليهم.

وقوله: ﴿لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ حكايةُ حالٍ ماضية.

﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ﴾ العامل في ﴿إِذۡ﴾: «أرسلنا» المضمرُ، أو يكون بدلاً من ﴿لُوطًا﴾.

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: لم يفعلْها أحدٌ من العالمين قبلكم.

و﴿مِنۡ﴾ الأولى: زائدةٌ.

والثانية: للتبعيض، أو للجنس.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾ الآيةَ؛ أي: أنهم عَدَلوا عن جوابه على كلامه إلى الأمر بإخراجه وإخراج أهله.

﴿أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي: يتنزَّهون عن الفاحشة.

﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: من الهالكين.

وقيل: من الذين غَبَروا في ديارهم فهَلكوا، أو مِن الباقين من أترابها؛ يقال: غبَر: بمعنى مضى، وبمعنى بقِي.

وإنما قال: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ بجمع المذكَّر؛ تغليبًا للرجال الغابرين.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ يعني: الحجارةَ؛ أُصيب بها من كان منهم خارجًا عن بلادهم، وقُلِبت البلاد بمن كان فيها.

* * *

[﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾].

﴿بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: آيةٌ ظاهرة، ولم تُعيَّن في القرآن آيةُ شعيب.

﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ كانوا يَنقُصون في الكيل والوزن، فبُعِث شعيب لينهاهم عن ذلك.

والكيل هنا: بمعنى المكيال الذي يكال به؛ مناسبةً للميزان؛ كما جاء في «هود»: ﴿ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤].

ويجوز أن يكون ﴿ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ مصدرين.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ قيل: هو نهيٌ عن السَّلْب وقطع الطريق؛ وكان ذلك مِن فِعْلِهم.

وقيل: كانوا يقعدون على الطريق؛ يردُّون الناس عن اتباع شعيب ويُوعِدونهم إن اتَّبعوه.

﴿وَتَصُدُّونَ﴾ أي: تمنعون الناس من[1] سبيل الله؛ وهو الإيمان.

والضمير في ﴿بِهِۦ﴾: للصِّراط، أو لله.

﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ ذُكِر في «آل عمران»[2].

﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ أي: ليكونَن أحدُ الأمرين: إما إخراجُكم، أو عَوْدُكم إلى ملة الكفر.

فإن قيل: إن العَوْد إلى الشيء يقتضي أنه قد كان فُعِل قبل ذلك؛ فيقتضي قولهم: ﴿لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ أن شعيبًا ومن كان معه كانوا أولًا على ملة قومهم، ثم خرجوا منها فطَلب قومُهم أن يعودوا إليها، وذلك محالٌ؛ فإن الأنبياء معصومون من الكفر قبل النبوة وبعدها!.

فالجواب من وجهين:

أحدهما: قاله ابن عطية؛ وهو أنَّ «عاد» قد تكون بمعنى: صار؛

(١) في ج، د: «عن».
(٢) انظر ١/ ٥٦٥.

فلا تقتضي تقدُّم ذلك الحال الذي صار إليه[١].

والثاني: قاله الزمخشري؛ وهو أن المراد بذلك: الذين آمنوا بشعيب دون شعيب، وإنما أدخلوه في الخطاب معهم بذلك؛ كما أدخلوه في الخطاب معهم في قولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ﴾؛ فغلَّبوا في الخطاب بالعَوْد الجماعةَ على الواحد[٢].

وبمثل ذلك يُجاب عن قوله: ﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾، ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾.

﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ الهمزة: للاستفهام والإنكار، والواو: للحال، تقديره: أنعود في ملَّتكم[٣] ونحن كارهون؟!.

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ أي: إن عدنا فيها فقد وقعنا في أمرٍ عظيم من الافتراء على الله، وذلك تبرُّؤٌ من العود فيها.

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ هذا استسلامٌ لقضاء الله على وجه التأدُّب مع الله وإسنادِ الأمور إليه؛ وذلك أنه لما تبرَّأ من ملتهم: أَخبر أن الله يحكم عليهم بما يشاء من عَوْدٍ وتَرْكِه؛ فإن القلوب بيده يقلِّبها كيف يشاء.

فإن قلت: إنَّ ذلك يصحُّ في حق قومه، وأما في حق نفسه فلا؛ فإنه معصوم من الكفر؟.

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٣/ ٦١٣).

(٢) انظر: الكشاف (٦/ ٤٧٣).

(٣) في أ، ب، هـ زيادة: «ويكون لنا أن نعود فيها».

فالجواب: أنه قال ذلك تواضعًا وتأدُّبًا مع الله تعالى، واستسلامًا لأمره؛ كقول نبينا ﷺ: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»[١] مع أنه قد علم أنه يثبِّته.

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا﴾ أي: احكمْ.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي: كأن لم يقيموا في ديارهم.

﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ أي: كيف أحزنُ عليهم وقد استحقُّوا ما أصابهم من العذاب بكفرهم.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٢١٠٧)، والترمذي (٢١٤٠).

[﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾].

﴿بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ قد تقدَّم[١].

﴿بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ أي: أبدلنا البأساء والضراء بالنَّعيم؛ اختبارًا لهم في الحالتين.

---

(١) انظر صفحة ٢٦٤.

﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ أي: كَثُروا ونَمَوْا في أنفسهم وأموالهم.

﴿وَقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ أي: قد جرى ذلك لآبائنا ولم يضُرَّهم؛ فهو بالاتفاق لا بقصد الاختبار.

﴿بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: بالمطر، والزرع.

﴿أَوْ أَمِنَ﴾ مَن قرأ بإسكان الواو: فهي «أو» العاطفة.

ومن قرأ بفتحها: فهي واو العطف دخلت عليها همزة التوبيخ؛ كما دخلت على الفاء في قوله: ﴿أَفَأَمِنَ﴾.

﴿مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ أي: استدراجه وأَخْذَه للعبد من حيث لا يشعر.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ أو لم يتبيَّنْ.

﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: يسكنونها.

﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ﴾ هو فاعلُ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾، ومقصود الآية الوعيد.

﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ عطفٌ على ﴿أَصَبْنَٰهُم﴾؛ لأنه في معنى المستقبل.

أو منقطعٌ؛ على معنى الوعيد.

وأجاز الزمخشري أن يكون عطفًا على ﴿يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ﴾، أو على ما دلَّ عليه معنى ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾؛ كأنه قال: يَغفُلون عن الهداية ونطبعُ على قلوبهم[1].

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ الضمير لـ ﴿أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾، والمعنى: وجدناهم ناقضين للعهود.

---

(١) انظر: الكشاف (٦/ ٤٩١).

﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ من قرأ ﴿عَلَيَّ﴾ بالتشديد على أنها ياء المتكلم: فالمعنى ظاهر؛ وهو أن موسى قال: حقيق عليه أن لا يقول على الله إلَّا الحق.

وموضع ﴿أَن لَّآ أَقُولَ﴾ -على هذا- رفعٌ؛ على أنه:

خبر ﴿حَقِيقٌ﴾، و﴿حَقِيقٌ﴾ مبتدأ.

أو بالعكس.

ومن قرأ ﴿عَلَىٰٓ﴾ بالتخفيف: فموضع ﴿أَن لَّآ أَقُولَ﴾ خفضٌ بحرف الجر، و﴿حَقِيقٌ﴾ صفة لرسول.

وفي المعنى -على هذا- وجهان:

أحدهما: أن «على» بمعنى الباء؛ فمعنى الكلام: رسولٌ حقيق بأن لا أقول على الله إلَّا الحق.

والثاني: أن معنى حقيق: حريصٌ؛ ولذلك تعدَّى بـ «على».

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بمعجزةٍ تدلُّ على صدقي؛ وهي العصا، أو جنسُ المعجزات.

﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: خَلِّهم يذهبوا معي إلى الأرض المقدَّسة موطن آبائهم.

وذلك أنه لما تُوفِّيَ يوسف عليه السلام غلَب فرعون على بني إسرائيل واستعبدهم حتى أنقذهم الله على يد موسى، وكان بين اليوم الذي دخل فيه يوسف مصرَ واليوم الذي دخله موسى: أربع مئة عام.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ﴾ وكان موسى عليه السلام شديد الأَدَمَةِ، فأظهر يدَه لفرعون ثم أدخلها في جيبه، ثم أخرجها وهي بيضاءُ شديدة البياض كاللبن أو أشدُّ بياضًا.

وقيل: إنها كانت مُنيرةً شفافة كالشمس، وكانت ترجع بعد ذلك إلى لون بدنه.

﴿لِلنَّظِرِينَ﴾ مبالغةٌ في وصف يده بالبياض؛ كأنَّ الناسَ يجتمعون للنظر إليها، والتعجُّب منها.

[﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾].

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾ حكى هذا الكلام هنا عن الملأ، وفي «الشعراء» عن فرعون:

فكأنه قد قاله هو وهُمْ.

أو قاله هو، ووافقوه عليه؛ كعادة جلساء الملوك في اتّباعهم لما يقول الملك.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ أي: يخرجكم منها بالقِتال[1] أو بالحيل.

وقيل: المراد إخراج بني إسرائيل، وكانوا خُدَّامًا لهم؛ فتَخرب الأرض

---

(١) في أ، ب، هـ: «بالقتل».

بخروج الخُدَّام والعُمَّار منها.

﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ من قول الملإ، أو من قول فرعون.

وهو من معنى:

المؤامرة؛ أي[1]: المشاورة.

أو من الأمر وهو ضدُّ النهي.

﴿أَرْجِهِ﴾ من قرأه بالهمز: فهو من أرجأتُ الرجل: إذا أخَّرتَه؛ فمعناه: أخِّرْهما حتى ننظُرَ في أمرهما.

وقيل: المراد بالإرجاء -هنا-: السِّجن.

ومن قرأ بغير همز: فتَحتمل:

أن تكون بمعنى المهموز؛ وسُهِّلت الهمزة.

أو يكون بمعنى الرجاء؛ أي: أَطْمِعْهُ.

وأما ضمُّ الهاء وكسرُها: فلغتان.

وأما إسكانها: فلعلَّه أَجرى فيها الوصل مُجرى الوقف.

﴿حَٰشِرِينَ﴾ يعني: الشُّرَط؛ أي: جامعين للسحرة.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ قبل هذا محذوفٌ يدلُّ عليه سياق الكلام؛ وهو أنه بعث إلى السَّحرة.

﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ من قرأه بهمزتين: فهو استفهام.

---

(١) في أ، ج، هـ: «أو».

ومن قرأه بهمزة واحدة: فيَحتمل أن يكون خبرًا، أو استفهامًا حذفت منه الهمزة.

والأجر هنا: الأُجرة؛ طلبوها من فرعون إن غلَبوا موسى، فأنْعَم لهم فرعون بها، وزادهم التَّقريبَ منه، والجاهَ عنده.

﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عطفٌ على معنى ﴿نَعَمْ﴾؛ كأنه قال: نعطيكم أجرًا ونقرِّبكم.

واختُلف في عدد السحَرة اختلافًا متباينًا من سبعين رجلًا إلى سبعين ألفًا؛ وكلُّ ذلك لا أصل له في صحة النقل.

﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ خيَّروا موسى بين أن يبدأ بالإلقاء أو يبدؤوا هم بإلقاء سِحْرهم، فأمرهم أن يلقوا.

وانظرْ كيف عبَّروا عن إلقاء موسى بالفعل، وعن إلقاء أنفسهم بالجملة الاسمية؛ إشارةً إلى أنهم أهْلُ الإلقاء المتمكِّنون فيه.

﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي: خوَّفوهم بما أظهروا لهم من أعمال السحر.

﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾ لما ألقاها صارت ثعبانًا عظيمًا على قَدْر الجبَل.

وقيل: إنه طال حتى جاوز النِّيل.

﴿تَلْقَفُ﴾ أي: تبتلعُ.

﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: ما صوَّروا من إفكهم وكَذِبهم.

وروي: أن الثعبان أكل مِلْءَ الوادي من حبالهم وعصيِّهم، ومدَّ موسى يده إليه فصار عصًا كما كان، فعَلِم السحرةُ أن ذلك ليس من السحر،

وليس في قدرة البشر، فآمنوا بالله وبموسى عليه السلام.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ الآيةَ؛ وعيدٌ من فرعون للسحرة.

وليس في القرآن أنه أنفذ ذلك، ولكنه روي أنه أنفذه عن ابن عباس وغيره.

وقد ذُكِر معنى ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ في «العقود»[1].

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ أي: لا نبالي بالموت؛ لانقلابنا إلى ربِّنا.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا﴾ أي: ما تَعِيب منَّا إلَّا إيمانَنا.

* * *

(١) انظر صفحة ١٧١.

[﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾].

﴿لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يُخربوا ملك فرعون وقومِه ويخالفوا دينه.

﴿وَيَذَرَكَ﴾ معطوفٌ على ﴿لِيُفْسِدُوا۟﴾، أو منصوبٌ بإضمار «أنْ» بعد الواو.

﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ قيل: إن فرعون كان قد جعل للناس أصنامًا يعبدونها، وجعل نفسه الإله الأكبر؛ فلذلك قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]؛ فـ ﴿ءَالِهَتَكَ﴾ - على هذا -: هي تلك الأصنام.

وقرأ علي بن أبي طالب وابن مسعود وابن عباس: «وإلَـٰهَتَكَ»؛ أي: عبادتَك والتذلُّلَ لك.

﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ تعليلٌ للصبر الذي أمرهم به.

يعني: أرض الدنيا هنا وفي قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وقيل: يعني: أرضَ فرعون.

فأشار لهم موسى أولًا بالنَّصر في قوله: ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ﴾، ثم صرَّح به في قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ الآيةَ.

﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ حضٌّ على الاستقامة والطاعة.

[﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَٰمُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ الْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا الَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَٰمُوسَى اجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾].

﴿بِالسِّنِينَ﴾ أي: بالجدب والقحوط[1].

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ الآيةَ؛ أي: إذ جاءهم الخِصْب والرَّخاء قالوا: هذا لنا وبسَعْدِنا، ونحن مستحقُّون له، وإذ جاءهم الجدب والشدة ﴿يَطَّيَّرُوا

(١) في د: «والقحط».

بِمُوسَىٰ﴾ أي: قالوا: هذا بشؤمه.

فإن قيل: لم قال: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ بـ «إذا» وتعريف الحسنة، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ بـ «إن» وتنكير السيئة؟.

فالجواب: أن الحسنة وقوعها كثيرٌ، والسيئة وقوعها نادرٌ؛ فعرَّف الكثيرَ الوقوعِ باللام التي للعهد، وذكَره بـ «إذا»؛ لأنها تقتضي التَّحقيق، وذكَر السيئة بـ «إن» لأنها تقتضي الشك، ونكَّرها للتَّقليل.

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: إنما حظُّهم ونصيبهم الذي قُدِّر لهم من الخير والشر عند الله.

وهو مأخوذ من زَجْرِ الطير، ثم سُمِّي به ما يصيب الإنسان.

ومقصود الآية: الردُّ عليهم فيما نَسبوا إلى موسى من الشُّؤم.

﴿مَهْمَا﴾ هي «ما» الشرطية ضمَّت إليها «ما» الزائدة؛ نحو: «أينما»، ثم قلبت الألف هاءً.

وقيل: هي اسمٌ بسيط غير مركَّب.

والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود على ﴿مَهْمَا﴾.

وإنما قالوا: ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾:

على تسميةِ موسى لها آيةً.

أو على وجه التهكُّم.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ روي: أنه كان مطرًا شديدًا دائمًا، مع فَيْضِ النيل

حتى هدَم بيوتهم، وكادوا يَهلِكون، وامتنعوا من الزراعة.

وقيل: هو الطّاعون.

﴿وَٱلْجَرَادَ﴾ هو المعروف؛ أكَل زرعهم وثمارهم حتى أكَل ثيابهم وأبوابهم وسُقُفَ بيوتهم.

﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾ قيل: هي صغار الجراد. وقيل: البراغيث. وقيل: السُّوس.

وقرئ «القَمْلَ» - بفتح القاف والتخفيف -؛ فهي - على هذا -: القمل المعروف، وكانت تتعلّق بلحومهم وشعورهم[١].

﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ هي المعروفة؛ كثرت عندهم حتى امتلأت بها فُرُشهم وأوانيهم، وإذا تكلّم أحدهم وثَبَ الضفدع إلى فمه[٢].

﴿وَٱلدَّمَ﴾ صارت مياهُهم دمًا؛ فكان يستقي من البئر القبطيُّ والإسرائيلي في إناء واحد، فيخرج ما يلي القبطيَّ دمًا، وما يلي الإسرائيليَّ ماءً.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ أي: العذابُ؛ وهي الأشياء المتقدمة، وكانوا مهما نزل بهم أمرٌ منها عاهدوا موسى على أن يؤمنوا به إن كشفه عنهم، فإذا[٣] كشَفه عنهم نقضوا العهد وتمادَوا على كفرهم.

﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: بذِمَامِك إليه ووسائلك.

---

(١) هذه اللفظة لم ترد في أ، ب، ج، هـ.

(٢) في ب: «وقع الضفدع في فمه».

(٣) في أ، ب، ج: «فلما».

والباء تَحتمل:

أن تكون للقسَم، وجوابُه ﴿لَنُؤْمِنَنَّ﴾.

أو تتعلَّق بـ ﴿ٱدْعُ لَنَا﴾؛ أي: توسَّلْ إليه بما عهد عندك.

﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ البحر حيث وقع.

﴿ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ هم بنو إسرائيل.

﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ الشامَ ومصرَ.

﴿بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ أي: بالخِصْب، وكثرة الأرزاق.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي نفَذتْ لهم واستقرَّت.

والكلمة هنا:

ما قُضِي لهم في الأزل.

وقيل: هي قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥].

﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ أي: يبنون.

وقيل: هي الكُرُوم وشبهُها.

فهو على الأوَّل: من العَرْش.

وعلى الثاني: من العَرِيش.

﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾ أي: اجعل لنا صنمًا نعبده كما يعبد هؤلاء أصنامَهم.

ولما تمَّ خبر موسى مع فرعون: ابتدأ خبرُه مع بني إسرائيل من هنا إلى قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾.

﴿مُتَبَّرٌ﴾ من التَّبار؛ وهو الهلاك.

﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وما بعده: مذكور في «البقرة»[1].

* * *

(١) انظر (١/ ٣١٢).

[﴿ ۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾].

﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ﴾ روي: أن الثلاثين: هي شهر ذي القَعدة، والعشرَ بعدها: هي العَشْرُ الأول من ذي الحِجة؛ وذلك تفصيلٌ للأربعين المذكورة في «البقرة».

﴿مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: ما وقَّت له من الوقت لمناجاته في الطُّور.

﴿ٱخۡلُفۡنِي﴾ أي: كن خليفتي على بني إسرائيل مدة مغيبي.

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ﴾ لما سمع موسى كلامَ الله طمع في رؤيته، فسألها،

كما قال الشاعر:

وأبرحُ ما يكون الشَّوقُ يومًا إذا دنت الدِّيارُ من الديارِ[(١)]

واستدلَّ الأشعرية بذلك على أن رؤية الله جائزةٌ عقلًا، وأنها لو كانت محالًا لم يسألها موسى؛ فإن الأنبياء ﷺ يعلمون ما يجوز على الله وما يستحيل عليه.

وتأوَّل الزمخشري طلب موسى للرؤية بوجهين:

أحدهما: أنه إنما سأل ذلك تَبْكيتًا لمن خرج معه من بني إسرائيل، فهم[(٢)] الذين طلبوا الرؤية، فقالوا: أرِنَا الله جَهْرَةً؛ فقال موسى ذلك ليسمعوا الجواب في المنع فيتأدَّبوا.

والآخر: أن معنى ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾: عرِّفني نفسَك تعريفًا واضحًا جليًّا[(٣)].

وكلا الوجهين بعيد، والثاني أبعد وأضعف؛ فإنه لو لم يكن المراد الرؤيةَ لم يقل له ﴿ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ الآيةَ.

﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ قال مجاهد وغيره: إن الله قال لموسى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾؛ لأنك لا تطيق ذلك، ولكن سأتجلى للجبل الذي هو أقوى منك وأشدُّ،

---

(١) البيت لإسحاق بن إبراهيم الموصلي، المعروف بإسحاق النديم؛ لمنادمته لعدد من الخلفاء العباسيين. انظر: الوافي بالوفَيات (٨/ ٢٥٥).

(٢) لم ترد في ب، ج.

(٣) انظر: الكشاف (٦/ ٥٥١).

فإن استقرَّ وأطاق الصبر لهيبتي أمكن أن تراني أنت، وإن لم يطق الجبل فأحرى أن لا تطيق أنت.

فعلى هذا؛ إنما جعل الله الجبل مثالًا لموسى.

وقال قوم: المعنى: سأتجلى لك على الجبل؛ وهذا ضعيف؛ يبطله قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾.

فإذا تقرَّر هذا؛ فقوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ نفيٌ للرؤية، وليس فيه دليلٌ على أنها محال؛ فإنه إنما جعَل علَّةَ النفي: عدمُ إطاقة موسى الرؤية لا استحالتُها.

ولو كانت الرؤية مستحيلةً؛ لكان في الجواب زجرٌ وإغلاظ، كما قال الله لنوح: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

فهذا المنع من رؤية الله إنما هو في الدنيا؛ لضعف البِنْيَة البشرية عن ذلك.

وأما في الآخرة: فقد صرَّح بوقوع الرؤية كتابُ الله وسنة رسوله ﷺ، فلا ينكرها إلَّا مبتدع.

وبين المعتزلة وأهل السنة في مسألة الرؤية نزاعٌ طويل.

وفي هذه القصة قَصَصٌ كثيرٌ تركته؛ لعدم صحته، ولما فيه من الأقوال الفاسدة.

﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ أي: مدكوكًا؛ فهو مصدر بمعنى مفعول، كقولك: ضرْبُ الأمير.

والدَّكُّ والدَّقُّ: أخوان؛ وهو التفتُّت.

وقرئ: ﴿دَكَّاءَ﴾ - بالمد والهمز -؛ أي: أرضًا دكاءَ:

قيل: ذهب أعلى الجبل وبقي أكثره.

وقيل: تفتَّت حتى صار غبارًا.

وقيل: ساخ في الأرض، وأفضى إلى البحر.

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ أي: مغشيًا عليه.

﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ معناه: تبت من سؤال الرؤية في الدنيا وأنا لا أطيقها.

﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أوَّلُ قومِه، أو أهلِ[1] زمانه، أو على وجه المبالغة في السَّبْق إلى الإيمان.

﴿اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ عمومٌ يراد به الخصوص؛ فإنَّ جميع الرسل قد شاركوه في الرسالة.

واختُلف: هل كلَّم الله غيرَه من الرسل أم لا؟.

والصحيح: أنه كلم نبينا محمدًا ﷺ ليلة الإسراء.

﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ تأديبٌ؛ أي: اقنَعْ بما أعطيتك من رسالتي وكلامي، ولا تطلب غير ذلك.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ﴾ أي: في ألواح التوراة.

وكانت: سبعة، وقيل: عشرة، وقيل: اثنان.

وقيل: كانت من زُمُرُّد، وقيل: من ياقوت، وقيل: من خشب.

---

(١) في أ، ب، هـ: «أول».

﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ عمومٌ يراد به الخصوص فيما يحتاجون إليه في دينهم.

وكذلك: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾.

وموضع ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾: نصبٌ؛ على أنه مفعول ﴿كَتَبْنَا﴾، و﴿مَّوْعِظَةً﴾: بدلٌ منه.

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجِدٍّ وحزم[1]. والضمير للتوراة.

﴿يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾ أي: فيها ما هو حسَنٌ وأحسنُ منه؛ كالقِصاص مع العفو، وكذلك سائر المباحات من المندوبات.

﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: دار فرعون وقومِه؛ وهي مصر.

والمعنى: أريكم كيف أُقْفِرتْ منهم لما هلَكوا.

وقيل: منازل عاد وثمود ومَن هلك مِن الأمم المتقدِّمة؛ ليعتبروا بها.

وقيل: جهنم.

وقرأ ابن عباس: «سأورثكم» - بالثاء المثلثة -؛ من الوِراثة.

وهي -على هذا- مصرُ؛ لقوله ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩].

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الْأَرْضِ﴾ الآياتُ: يَحتمل - هنا - أن يراد بها:

آيات القرآن وغيرِه من الكتب.

أو العلامات والبراهين.

---

(١) في أ: «وعزم».

والصَّرْف يراد به: صدُّهم عن فَهْمِها وعن الإيمان بها؛ عقوبةً لهم على تكبُّرهم.

وقيل: الصَّرْف: مَنْعُهم من إبطالها.

﴿وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ﴾ يجوز أن يكون:

من إضافة المصدر إلى المفعول به؛ أي: ولقائِهم الآخرةَ.

أو من إضافة المصدر إلى الظرف.

* * *

[﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾].

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ﴾ هم بنو إسرائيل.

﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد غَيْبته في الطور.

﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ -بضم الحاء والتشديد-: جمع حَلْيٍ؛ نحو ثَدْيٍ وثُدِيٍّ.

وقرئ بكسر الحاء؛ للإتْباع.

وقرئ بفتح الحاء وإسكان اللام.

والحَلْيُ: هو ما يُتزيَّن به من الذهب والفضة.

﴿جَسَدًا﴾ أي: جسمًا دون روح. وانتصابُه على البدل.

﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ الخوار: هو صوت البقر.

وكان السَّامريُّ قد قبَض قبضة من تراب أثَر فرس جبريل يوم قطَع البحرَ، فقذَفه في العجل فصار له خوارٌ.

وقيل: كان إبليس يدخل في جوف العجل فيصيح فيه، فيُسمع له خوار.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ ردٌّ عليهم، وإبطالٌ لمذهبهم الفاسد في عبادته.

﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ أي: اتَّخذوه إلهًا؛ فحذف المفعول الثاني للعلم به.

وكذلك حذف من قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ﴾.

﴿سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: نَدِموا؛ يقال: سُقِط في يد فلان: إذا عجَز عما يريد، أو وقع فيما يكره.

﴿أَسِفٗا﴾ شديدَ الحزن على ما فعلوا.

وقيل: شديد الغضب؛ كقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ [الزخرف: ٥٥].

﴿بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي﴾ أي: قُمتم مقامي.

وفاعل «بئس» مضمرٌ؛ يفسره «ما»، واسم المذموم محذوفٌ.

والمخاطَب بذلك:

إما القوم الذين عبدوا العجل مع السَّامري؛ حيث عبدوا غير الله في غَيْبة موسى عنهم.

أو رؤساءُ بني إسرائيل كهارون عليه السلام؛ حيث لم يكفُّوا الذين عبدوا العجل.

﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾ معناه: أعجلتم عن أمر ربكم، وهو انتظارُ موسى حتى يرجع من الطور؛ فإنهم لما رأوا أنَّ الأمر قد تمَّ ظنوا أن موسى عليه السلام قد مات فعبدوا العجل.

﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ طرحها؛ لِما لحقه من الدَّهَش والضَّجَر؛ غضبًا لله من عبادة العجل.

﴿وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ﴾ أي: بشَعَر رأسه يجرُّه؛ لأنه ظنَّ أنه فرَّط في كفِّ الذين عبدوا العجل.

﴿ٱبۡنَ أُمَّ﴾ كان هارون شقيقَ موسى، وإنما دعاه بأمِّه؛ لأنه أدْعَى إلى العطف والحنُوِّ.

وقرئ: ﴿ٱبۡنَ أُمَّ﴾:

بالكسر؛ على الإضافة إلى ياء المتكلم، وحذفت الياء.

وبالفتح؛ تشبيهًا بخمسةَ عشرَ؛ جُعل الاسمان اسمًا واحدًا فبُني.

﴿وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا تظنَّ أني منهم.

أو: لا تجدْ عليَّ في نفسك ما تجدُ عليهم؛ يعني: أصحابَ العجل.

* * *

[﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾].

﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ﴾ أي: غضبٌ في الآخرة، وذِلةٌ في الدنيا.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ أي: سكَن؛ وكذلك قرأ بعضُهم.

وقال الزمخشري: قوله: ﴿سَكَتَ﴾ مَثَلٌ؛ كأنَّ الغضب كان يقول له: أَلْقِ الألواح وجُرَّ برأس أخيك، ثم سكَت عن ذلك[١].

﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾ أي: فيما ينسخ منها، والنُّسخة: فُعْلةٌ بمعنى مفعول.

﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أي: يخافون.

---

(١) انظر: الكشاف (٦/ ٥٩٥).

ودخلت اللام؛ لتقدُّم المفعول؛ كقوله: ﴿لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

وقال المبرِّد: تتعلَّق بمصدر تقديره: رهْبتُهم لربهم.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ أي: من قومه سبعين رجلًا، حملهم معه إلى الطور فسَمِعوا[1] كلام الله لموسى، فقالوا: أرنا الله جهرة، فأخذتهم الرجفة؛ عقابًا لهم على قولهم.

وقيل: إنما أخذتهم الرجفة لعبادتهم العجل، أو لسكوتهم عن[2] عبادته.

والأول أرجح؛ لقوله: ﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣].

ويَحتمل أن تكون رجفةَ:

موتٍ.

أو إغماءٍ.

والأول أظهر؛ لقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦].

﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾ يَحتمل أن تكون ﴿لَوْ﴾ هنا للتمني؛ أي: تمنَّى أن يكون هو وهم قد ماتوا قبل ذلك؛ لأنه خاف من تشغيب بني إسرائيل عليه إن رجع إليهم دون هؤلاء السبعين.

ويَحتمل أن يكون قال ذلك على وجه التضرُّع والاستسلام لأمر الله؛ كأنه

---

(١) في ب، ج، هـ: «فيسمعوا».

(٢) في أ، ب، ج، هـ: «على».

قال: لو شئت أن تهلكنا قبل ذلك لفعلت؛ فإنَّا عبيدُك وتحت قهرك، وأنت تفعل ما تشاء.

ويَحتمل أن يكون قالها على وجه التضرُّع والرغبة؛ كأنه قال: لو شئت أن تهلكنا قبل اليوم لفعلت، لكنَّك عافَيْتَنا وأبقيتنا فافعلْ معنا الآن كما عوَّدتنا[١]، وأحْيِ هؤلاء القومَ الذين أخذتْهم الرجفةُ.

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ أي: أتهلكُني وتهلكُ بني إسرائيل بما فعل السفهاء الذين طلبوا الرؤية، والذين عبدوا العجل.

فمعنى هذا: إدلاءٌ بحجته، وتبرُّؤٌ مِن فعل السفهاء، ورغبةٌ إلى الله أن لا يعمَّ الجميع بالعقوبة.

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: الأمور كلها بيدك تضلُّ من تشاء وتهدي من تشاء.

ومعنى هذا: اعتذارٌ عن فعل السفهاء بأنه[٢] كان بقضاء الله ومشيئته.

﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تُبْنَا.

وهذا الكلام الذي قاله موسى عليه السلام إنما هو كلُّه استعطافٌ ورغبة إلى الله وتضرُّع إليه، ولا يقتضي شيئًا مما توهم الجهَّال فيه من الجفاء في قوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾؛ لأنَّا قد بينَّا أنه إنما قال ذلك استعطافًا لله، وبراءةً من فعل السفهاء.

---

(١) في أ، ج، د، هـ: «وعدتنا».

(٢) في د: «فإنه».

﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُ﴾ قيل: الإشارة بذلك إلى الذين أخذتهم الرجفة.

والصحيح: أنه عمومٌ يندرجون فيه مع غيرهم.

وقرئ «من أساءَ» -بالسين وفتح الهمزة-؛ من الإساءة، وأنكرها بعض المقرئين وقال: إنها تصحيفٌ.

﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ يَحتمل أن يريد رحمته في الدنيا؛ فيكون خصوصًا في الرحمة، وعمومًا في كل شيء؛ لأنَّ المؤمن والكافر والمطيع والعاصي تنالهم رحمة الله ونعمته في الدنيا.

ويَحتمل أن يريد رحمة الآخرة؛ فيكون خصوصًا في كل شيء؛ لأنَّ الرحمة في الآخرة مختصَّة بالمؤمنين.

ويَحتمل أن يريد جنس الرحمة على الإطلاق؛ فيكون عمومًا في الرحمة، وفي كل شيء.

﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ إن كانت الرحمة المذكورة رحمةَ الآخرة: فهي -بلا شكٍّ- مختصَّةٌ بهؤلاء الذين كتبها الله لهم، وهم أمَّة محمد ﷺ.

وإن كانت رحمةَ الدنيا: فهي -أيضًا- مختصة بهم؛ لأن الله نصرهم على جميع الأمم، وأعلى دينَهم على جميع الأديان، ومكَّن لهم في الأرض ما لم يمكِّنْ لغيرهم.

وإن كانت على الإطلاق: فقوله: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا﴾ تخصيصٌ للإطلاق.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: يؤمنون بجميع الكتب والأنبياء،

وليس ذلك لغير هذه الأمَّة.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ﴾ هذا الوصف خصَّص أمّة محمد ﷺ.

قال بعضهم: لما قال الله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ طمِع فيها كلُّ أحد حتى إبليس، فلما قال: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ يئس إبليس، وبقيت اليهود والنصارى، فلما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ﴾ الآيةَ: يئس اليهود والنصارى(١).

﴿ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ أي: الذي لا يقرأ ولا يكتب، وذلك مِن أعظم دلائل نبوة محمد(٢) ﷺ؛ لأنه أتى بالعلوم الجمَّة من غير قراءة ولا كتابة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨].

قال بعضهم: الأُمِّيُّ منسوبٌ إلى الأمِّ، وقيل: إلى الأمَّة(٣).

﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ ضمير الفاعل في ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾ لبني إسرائيل، وكذلك الضمير في ﴿عِندَهُمْ﴾.

ومعنى ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾: يجدون نعتَه وصفته.

★ ولنذكر هنا ما ورد في التوراة والإنجيل وأخبار المتقدمين من ذكر نبينا ﷺ:

فمن ذلك: ما ورد في البخاري وغيره أنَّ في التوراة من صفة النبي ﷺ:

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ٤٨٣-٤٨٤).

(٢) في ج، د: «نبوته».

(٣) في أ، ب، هـ: «للأمة».

«يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وحِرْزًا للأمِّيين، أنت عبدي ورسولي، أسميتك المتوكل، ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا صخَّاب[١] في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح[٢]، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء؛ بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيَفتح به عيونًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا»[٣].

ومن ذلك: ما في التوراة مما أجمع عليه أهل الكتاب، وهو باق بأيديهم إلى الآن: «إنَّ الملَك نزل على إبراهيم فقال له: في هذا العام يولد لك غلام اسمه إسحاق، فقال إبراهيم: يا ربِّ ليت إسماعيل يعيش يخدمك، فقال الله لإبراهيم: ذلك لك، قد استجيب لك في إسماعيل، وأنا أباركه وأنميه وأكبره وأعظمه بماذْ ماذْ».

وتفسير هذه الحروف: محمد.

ومن ذلك: في التوراة: «إنَّ الربَّ تعالى جاء في طور سيناء، وطلع من ساعِر، وظهر من جبال فَاران».

ويعني بطور سيناء: موضع مناجاة موسى عليه السلام، وساعر: موضع عيسى عليه السلام، وفاران: هي مكة موضع مولد نبينا محمد ﷺ ومبعثه.

ومعنى ما ذُكِر من مجيء الله وطلوعه وظهوره: هو ظهور دينه على يد

---

(١) الذي في الرواية: «سخَّاب» بالسين، وهما بمعنى واحد، قال في النهاية (٥/ ٢٢٨٩): «الصَّخَب والسَّخَب: الضجَّة واضطراب الأصوات للخصام».

(٢) في أ، ب، ج، هـ: «ولا تجزي.. تعفو وتصفح»، والمثبت موافق لما في الرواية.

(٣) أخرجه البخاري (٢١٢٥)، (٤٨٣٨).

الأنبياء الثلاثة المنسوبين لتلك المواضع.

وتفسير ذلك: ما في كتاب أشعيا خطابًا لمكة: «قومي فأزْهري مصباحك، فقد دنا وقتك، وكرامةُ الله طالعةٌ عليك، فقد تجلَّل الأرضَ الظلامُ، وغطَّى على الأمم المصاب، والربُّ يشرق عليك إشراقًا، ويُظهِر كرامته عليك، تسير الأمم إلى نورك، والملوك إلى ضوء طلوعك، ارفعي بصرك إلى ما حولك، وتأمَّلي فإنهم مستجمعون عندك، وتحجُ إليك عساكر الأمم».

وفي بعض كتبهم: «لقد تقطَّعت السماء من بهاء محمد المحمود، وامتلأت الأرض من حمده، لأنه ظهر بخلاص أمته».

ومن ذلك: في التوراة: «أن هاجر أم إسماعيل لما غضبت عليها سارة تراءى لها ملَك فقال لها: يا هاجر أين تريدين؟ ومن أين أقبلت؟ فقالت: أهربُ من سيدتي سارة، فقال لها: ارجعي إلى سارة وستحبلين وتلدين ولدًا اسمه إسماعيل وهو يكون عين الناس، وتكون يده فوق الجميع، ويد الجميع مبسوطةً إليه بالخضوع».

ووجه دلالة هذا الكلام على نبوة محمد ﷺ: أن هذا الذي وعدَها به الملَكُ من أن يد ولدها فوق الجميع وأن يد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع إنما ظهرت بمبعث النبي محمد ﷺ وظهور دينه وعلوِّ كلمته، ولم يكن ذلك لإسماعيل ولا لغيره قبل محمد ﷺ.

ومن ذلك: في التوراة - أيضًا -: «أن الرب يقيم لهم نبيًا من إخوتهم،

وأيُّ رجل لم يسمع الكلام الذي يؤديه ذلك النبي عن الله فينتقم[1] الله منه».

ودلالة هذا الكلام ظاهرةٌ بأن أولاد إسماعيل هم إخوة أولاد إسحاق، وقد انتقم الله من اليهود الذين لم يسمعوا كلام محمد ﷺ كبني قريظة وبني قينقاع وغيرهم.

ومن ذلك: في التوراة: «إن الله أوحى إلى إبراهيم عليه السلام: قد أجبتُ دعاءك في إسماعيل، وباركت عليك، وسيلد اثني عشر عظيمًا، وأجعله لأمة عظيمة».

ومن ذلك: في الإنجيل: «أن المسيح قال للحواريين: أنا ذاهب عنكم، وسيأتيكم البارَقْلِيط الذي لا يتكلَّم من قِبَلِ نفسه، إنما يقول كما يُقال له».

وبهذا وصف الله سبحانه نبينا محمد ﷺ في قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣ - ٤].

وتفسير البارقليط: أنه مشتق من الحمد، واسم نبينا ﷺ محمدٌ وأحمدُ.

وقيل: معنى البارقليط: الشافع المشفع.

ومن ذلك: في التوراة: «أن مولده بمكة، ومسكنه بطيبة، وأمته الحمادون».

وبيان ذلك: أن أمته يقرأون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ في صلاتهم مرارًا كثيرة في كل يوم وليلة.

وعن شهر بن حوشب مثل ذلك في إسلام كعب الأحبار، وهو من اليمن

---

(١) في أ، ب، هـ: «ينتقم».

من حِمْيرَ: أن كعبًا أخبره بأمره وكيف كان ذلك، وقال كان أبوه من مؤمني أهل التوراة برسول الله ﷺ، وكان من عظمائهم وخيارهم، قال كعب: وكان من أعلم الناس بما أنزل الله على موسى من التوراة، وبكُتُب الأنبياء، ولم يكن يدَّخر عني شيئًا مما كان يعلم، فلما حضرته الوفاة دعاني، فقال: يا بني قد علمتَ أني لم أكن أدَّخر عنك شيئًا مما كنت أعلمُ، إلَّا أني حبست عنك ورقتين فيهما ذكر نبي يبعث، وقد أظلَّ زمانُه، فكرهت أن أخبرك بذلك، فلا آمن عليك بعد وفاتي أن يخرج بعض هؤلاء الكذَّابين فتتبعه، وقد قطعتهما من كتابك وجعلتهما في هذه الكُوَّة التي ترى وطيَّنت عليهما، فلا تتعرَّض لهما ولا تنظرهما زمانك هذا، وأَقِرَّهما في موضعهما حتى يخرج ذلك النبي، فإذا خرج فاتَّبعه وانظر فيهما؛ فإن الله يزيدك بذلك خيرًا.

فلما مات والدي لم يكن شيءٌ أحبَّ إلي من أن ينقضي المأتم حتى أنظر ما في الورقتين، فلما انقضى المأتم فتحت الكوَّة ثم استخرجت الورقتين فإذا فيهما: «محمد رسول الله ﷺ خاتم النبيين، لا نبي بعده، مولده بمكة، ومُهَاجَره بطيبة، ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا صخَّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يجزي بالسيئة الحسنة، ويعفو ويغفر ويصفح، أمته الحمَّادون الذي يَحمَدون الله على كل شرف، وعلى كل حال، وتُذلَّل[1] ألسنتهم بالتكبير، وينصر الله نبيَّهم على كل من ناوأه، يغسلون فروجهم بالماء، ويأْتَزِرون على أوساطهم، وأناجيلُهم في صدورهم، ويأكلون قُربانهم في بطونهم ويؤجرون عليها، وتراحمهم بينهم تراحم بني الأم

---

(١) في أ: «وتتذلل».

والأب، وهم أول من يدخل الجنة يوم القيامة من الأمم، وهم السابقون المقربون، والشَّافعون المشفع لهم».

فلما قرأتُ هذا قلت في نفسي: والله ما علَّمني شيئًا خيرًا لي من هذا، فمكثت ما شاء الله حتى بُعث النبي ﷺ وبيني وبينه بلاد بعيدة منقطعة لا أَقدِر على إتيانه، وبلغني أنه خرج في مكة فهو يظهر مرة ويستخفي مرة، فقلت: هو هذا، وتخوَّفت ما كان والدي حذَّرني وخوفني من ذكْر الكذابين، وجعلت أحبُّ أن أتبيَّن وأتثبت، فلم أزل بذلك حتى بلغني أنه أتى المدينة، فقلت في نفسي: إنِّي لأرجو أن يكون إياه، وجعلت ألْتمس السبيلَ إليه، فلم يُقدَّر لي حتى بلغني أنه توفي رسول الله ﷺ، فقلت في نفسي: لعلَّه لم يكن الذي كنت أظن.

ثم بلغني أن خليفةً قام مقامه، ثم لم ألبث إلَّا قليلًا حتى جاءتنا جنودُه فقلت في نفسي: لا أدخل في هذا الدين حتى أعلمَ أهم الذين كنت أرجو وأنتظرُ، وأنظرَ كيف سيرتهم وأعمالهم، وإلى ما تكون عاقبتهم.

فلم أزل أدفع ذلك وأؤخِّره لأتبين وأتثبت حتى قدِم علينا عمر بن الخطاب، فلما رأيت صلاة المسلمين وصيامهم وبِرَّهم ووفاءهم بالعهد، وما صنع الله لهم على الأعداء علمت أنهم هم الذي كنت أنتظر، فحدَّثت نفسي بالدخول في دين الإسلام، فوالله إني ذات ليلةٍ فوق سطح لي إذا برجل من المسلمين يتلو كتاب الله حتى أتى على هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾ [النساء: ٤٧]،

فلما سمعت هذه الآية خشيت والله ألا أصبح حتى يحوَّل وجهي في قفاي، فما كان شيء أحبَّ إليَّ من الصباح، فغدوتُ على عمر فأسلمت حين أصبحت.

وقال كعبٌ لعمر عند انصرافه إلى الشام: يا أمير المؤمنين إنه مكتوب في كتاب الله: إن هذه البلاد، التي كان فيها بنو إسرائيل، وكانوا أهلها؛ مفتوحةٌ على يد رجل من الصالحين، رحيم بالمؤمنين، شديد على الكافرين، سرُّه مثل علانيته، وعلانيته مثل سرِّه، وقوله لا يخالف فعله، والقريب والبعيد عنده في الحق سواء، وأتباعه رهبان بالليل أُسْدٌ بالنهار، متراحمون متواصلون متباذلون.

فقال له عمر: ثكلتك أمك، أحقٌّ ما تقول؟ قال: إي والذي أنزل التوراة على موسى والذي يسمع ما نقول إنه لحق.

فقال عمر: الحمد لله الذي أعزَّنا وشرفنا وأكرمنا ورحمنا بمحمد ﷺ، وبرحمته التي وسعت كل شيء[١].

ومن ذلك: كتاب فروة بن عمرٍو الجذامي إلى رسول الله ﷺ، وكان من ملوك العرب بالشام، فكتب إليه: «بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد رسول الله من فروة بن عمرٍو: إني مقرٌّ بالإسلام مصدِّقٌ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، وأنه الذي بشَّر به عيسى ابن مريم عليه السلام»، فأخذه هرقل لما بلغه إسلامه وسجَنه فقال: والله لا أفارق دين محمد أبدًا

(١) أخرجه الواقدي في فتوح الشام (ص: ٢٣٣-٢٣٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٠/ ١٦١).

فإنك تعرف أنه النبي الذي بشَّر به عيسى بن مريم، ولكنك حرصتَ على ملكك وأحببت بقاءه، فقال قيصر: صدَق والإنجيل[(١)].

ويشهد لهذا ما خرَّجه البخاري ومسلم من كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل، وسؤال هرقل عن أحواله وأخلاقه ﷺ، فلما أخبر بها علم أنه رسول الله، وقال: إنه يملك موضع قدميَّ، ولو خلَصت إليه لغسلت قدميه[(٢)].

ومن حديث زيد بن أسلم عن أبيه - وهو عندنا بالإسناد - أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج زمان الجاهلية مع ناس من قريش في التجارة إلى الشام، قال: فإني لفي سوق من أسواقها إذا أنا بِبِطْريقٍ قد قبض على عنقي، فذهبت أُنازعُه فقيل لي: لا تفعل فإنه لا نَصَفَ لك منه، فأدخلني كنيسةً فإذا تراب عظيم ملقًى، فجاءني بزنبيل ومِجْرفة فقال لي: انقل ما هاهنا، فجعلت أنظرُ كيف أصنع، فلما كان من الهاجرة وافاني وعليه ثوبٌ أرى سائر جسده منه، فقال: أثنك على ما أرى ما نقلت شيئًا!، ثم جمع يديه فضرب بهما دماغي، فقلت: واثكل أمِّك يا عمر، أبلغتَ ما أرى؟، ثم وثبت إلى المجرفة فضربت بها هامتَه فنشرتُ دماغه ثم واريته في التراب وخرجت على وجهي لا أدري أين أسير، فسرت بقية يومي وليلتي من الغد إلى الهاجرة فانتهيت إلى ديرٍ فاستظللت بفنائه، فخرج إليَّ رجل منه فقال لي: يا عبد الله ما يُقعِدك هنا؟ فقلت: أَضللتُ أصحابي، فقال لي: ما أنت على طريقٍ وإنك لتنظر بعيني

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٨/ ٢٧٢)، وابن الجوزي في المنتظم (٤/ ٩) بمعناه، وذكره الكلاعي في «الاكتفاء» (٢/ ٢٦) بلفظه، وعزاه إلى الواقدي وأنه ذكره بإسناده، وقد ذكر الكلاعي في مقدمة كتابه أنه ينقل من كتاب المبعث للواقدي.

(٢) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

خائف!، فادخُلْ فأَصب من الطعام واسترحْ، فدخلت فأتاني بطعام وشراب وأطعمني، ثم صعَّد فيَّ النظر وصوَّبه، فقال: قد علم والله أهل الكتاب أو الكتب أنه ما على الأرض أعلم بالكتاب أو بالكتب مني، وإني لأرى صفتكَ الصفة التي تخرجنا من هذا الدير وتغلبنا عليه، فقلتُ: يا هذا لقد ذهبتَ بي في غير مذهب!، فقال لي: ما اسمك؟ فقلت: عمر بن الخطاب، فقال: أنت والله صاحبُنا، فاكتب لي على ديري هذا وما فيه، فقلت: يا هذا إنك قد صنعت إليَّ صنيعةً فلا تكدِّرْها، فقال: إنما هو كتاب في رَقٍّ، فإن كنت صاحبنا فذلك، وإلا لم يضرَّك شيءٌ، فكتب[1] له على ديره وما فيه، فأتاني بثياب ودراهم فدفعها إليَّ ثم أَوْكَفَ أتانًا فقال لي: أتراها؟ فقلت: نعم، قال: سِرْ عليها، فإنك لا تمرُّ بقوم إلَّا سَقَوْها وعلفوها وأضافوك، فإذا بلغت مَأْمَنك فاضربْ وجهها مدبرةً فإنهم يفعلون بها كذلك حتى ترجع إليَّ، قال: فركبتها فكان كما قال، حتى لحقتُ بأصحابي وهم متوجِّهون إلى الحجاز، فضربتُها مدبرةً وانطلقتُ معهم.

فلما وافى عمرُ الشامَ في زمان خلافته جاءه ذلك الراهب بالكتاب وهو صاحب دير العرس، فلما رآه عرفه، فقال: قد جاء ما لا مذهب لعمر عنه، ثم أقبل على أصحابه فحدَّثهم بحديثه، فلما فرَغ منه أقبل على الراهب فقال: هل عندكم من نفعٍ للمسلمين؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: إن أضفتم المسلمين ومرَّضتموهم وأرشدتموهم فعلْنا ذلك، قال: نعم يا أمير المؤمنين فوفَّى له عمر رضي الله عنه ورحمه[2].

---

(١) في د: «فكتبتُ».

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٤/ ٦)، (٦٤/ ٢٨٩).

وعن سيف[١] يرفعه إلى سالم بن عبد الله قال: لما دخل عمر الشام تلقاه رجل من يهود دمشق فقال: السلام عليك يا فاروق أنت صاحب إيلياء؛ والله لا ترجع حتى يفتح الله إيلياء[٢].

ومن ذلك أن عمرو بن العاص قدم المدينة بعد وفاة رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ قد أرسله إلى عُمان واليًا عليها، فجاءه يومًا يهودي من يهود عمان فقال له: أنشُدكَ بالله، مَن أرسلك إلينا؟ فقال له: رسول الله ﷺ، فقال اليهودي: والله إنك لتعلم أنه رسول الله؟، قال عمرو: نعم، فقال اليهودي: لئن كان حقًّا ما تقول لقد مات اليوم.

فلما سمع عمرو ذلك جمع أصحابه وكتب ذلك اليوم الذي قال له اليهوديُّ أن النبي ﷺ مات فيه، ثم خرج فأُخبِر بموت النبي ﷺ وهو في الطريق، ووجده قد مات في ذلك اليوم صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم وبارك وشرَّف وكرَّم[٣].

ومن ذلك: أن وفد غسَّان قدموا على رسول الله ﷺ فلقيهم أبو بكر الصديق فقال لهم: من أنتم؟ قالوا: رهطٌ من غسان قدمنا على محمد لنسمع

---

(١) هو سيف بن عمر التميمي الضبي، صاحب كتاب «الردة والفتوح» وغيره. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٤/ ٦٤١)

(٢) لعله ذكر هذا في كتابه الردّة والفتوح، والمطبوع منه ناقص، يبدأ من قصة استشهاد عمر ﷺ وحديث الشورى، وقد أورده ابن كثير في البداية والنهاية (٧/ ١٦١) عن سيف بن عمر عن شيوخه عن سالم، وأخرجه الطبر ي في تاريخه عن سالم بن عبد الله (٣/ ٦٠٨).

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٥/ ٥٨).

كلامه، فقال لهم: انزلوا حيث تنزل الوفود، ثم ائتوا رسول الله ﷺ، فكلِّموه، فقالوا: وهل نقدر على كلامه كما أردنا؟ فتبسَّم أبو بكر وقال: إنه ليطوف بالأسواق، ويمشي وحده، ولا شرطةَ معه، ويرعب[١] من يراه منه، فقالوا لأبي بكر: من أنت أيها الرجل؟ فقال: أنا أبو بكر ابن أبي قحافة، فقالوا: أنت تقوم بهذا الأمر بعده، فقال أبو بكر: الأمر إلى الله، فقال لهم: كيف تخدعون عن الإسلام وقد أخبركم أهل الكتاب بصفته، وأنه آخر الأنبياء؟ ثم لقوا رسول الله ﷺ فأسلموا[٢].

﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ يَحتمل أن يكون هذا:

من وصف النبي ﷺ في التوراة؛ فتكون الجملة في موضع الحال من ضمير المفعول في ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾.

أو تفسير لما كُتِب من ذِكْره.

أو يكون استئنافَ وصفٍ من الله تعالى غير مذكور في التوراة والإنجيل.

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ مذهب مالك: أن الطيبات هي الحلال، وأن الخبائث هي الحرام.

ومذهب الشافعي: أن الطيبات هي المستلَذَّات، إلَّا ما حرمه الشرع منها؛ كالخمر والخنزير، وأن الخبائث هي المستقذرات؛ كالخنافس والعقارب وغيرها.

---

(١) في أ، د: «ويرغب».

(٢) ذكره الكلاعي في الاكتفاء (١/ ٦١٧) عن الواقدي.

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ هي مثل ما[١] كُلِّفوا في شرعهم من المشقَّات؛ كقتل الأنفس في التوبة[٢]؛ وقطع موضع النجاسة من الثوب.

وكذلك ﴿ الْأَغْلَالَ ﴾ عبارةٌ عما مَنعت منه شريعتهم؛ كتحريم الشُّحوم، وتحريم العمل يوم السبت، وشبه ذلك.

﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي: منعوه بالنَّصر؛ حتى لا يقوى عليه عدوٌّ.

﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ هو القرآن، أو الشرع كله.

ومعنى ﴿مَعَهُ﴾: مع بعثه ورسالته.

* * *

(١) في ج، د: «هو مثل لما».

(٢) في أ، ب، هـ: «التوراة».

[﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾].

﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ تفسيره: قوله ﷺ: «وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة»(١).

فإعراب ﴿جَمِيعًا﴾: حالٌ من الضمير في ﴿إِلَيْكُمْ﴾.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ نعتٌ لله.

أو منصوبٌ على المدح بإضمار فعل.

أو مرفوعٌ على أنه خبر ابتداء مضمر.

﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ هي الكتب التي أنزلها الله عليه وعلى غيره من الأنبياء.

---

(١) هو جزء من حديث: «نصرت بالرعب..» وقد تقدم تخريجه في ١/ ٥٨٤.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ﴾ هم الذين ثبتوا حين تزلزل غيرهم في عصر موسى.

(أو الذين آمنوا بمحمد ﷺ في عصره)[١].

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ أي: فرَّقناهم[٢].

﴿أَسْبَاطًا﴾ السِّبْط في بني إسرائيل: كالقبيلة في العرب.

وانتصابه:

على البدل من ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾، لا على التمييز؛ فإن تمييز ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾ لا يكون إلَّا بمفرد.

وقال الزمخشري: على التمييز؛ لأن كل قبيلة أسباطٌ لا سبط[٣].

﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ أي: انفجرت؛ إلَّا أن الانبجاسَ أخفُّ من الانفجار.

وقال الغَزنوي: الانبجاس: أول الانفجار[٤].

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ وما بعده إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾: مذكورٌ في «البقرة»[٥].

تنبيه: وقع اختلافٌ في اللفظ بين هذا الموضع من هذه السورة وبين[٦]

---

(١) سقط من أ، ب، ج، هـ.

(٢) في أ، ب: «مزَّقناهم».

(٣) انظر: الكشاف (٦/ ٦٢٠).

(٤) انظر: عين المعاني «مخطوط» (ل: ٢٦٩)، للغزنوي السجاوندي، تقدمت ترجمته في ١/ ٩٢.

(٥) انظر: ١/ ٣١٧.

(٦) في أ، ب، هـ: «وفي».

سورة «البقرة»؛ كقوله: ﴿فَانفَجَرَتْ﴾ و﴿فَانۢبَجَسَتْ﴾، وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا﴾، ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا﴾، وقوله: ﴿وَكُلُوا﴾ و﴿فَكُلُوا﴾ بالفاء:

فقال الزمخشري: لا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هنالك تناقض[١].

وعلَّلها شيخُنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير في كتاب: «مِلاك التأويل»[٢] وصاحبُ الدُّرة[٣] بتعليلات؛ منها قوية وضعيفة فيها طول فتركناها؛ لطولها.

* * *

(١) انظر: الكشاف (٦/ ٦٢٦).

(٢) انظر: ملاك التأويل (١/ ٢٠٣) وما بعدها.

(٣) يعني به: أبا عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني، المعروف بالخطيب الإسكافي، انظر كتابه «درة التنزيل وغرة التأويل» (١/ ٢٣٣) وما بعدها.

[﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾].

﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ أي: اسأل اليهود على جهة التقرير والتوبيخ.

﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ قيل: هي أَيْلَة، وقيل: هي طَبَريَّة، وقيل: مَدْين.

﴿حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ قريبةً منه، أو على شاطئه.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي: يتجاوزون حدَّ الله فيه؛ وهو اصطيادهم يوم السبت وقد نُهُوا عنه.

وموضع ﴿إِذْ﴾:

بدلٌ من ﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾؛ والمراد: أهلها، وهو بدل اشتمال.

أو منصوبٌ بـ ﴿كَانَتْ﴾، أو بـ ﴿حَاضِرَةَ﴾.

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ كانت الحيتان تخرج من البحر يوم السبت حتى تصل إلى بيوتهم؛ ابتلاءً لهم؛ إذ كان صيدُها محرَّمًا عليهم في السبت، وتَغِيبُ عنهم في سائر الأيام.

و﴿سَبْتِهِمْ﴾ مصدرٌ من قولك: سبَت اليهودي يَسْبِتُ: إذا عظَّم يوم السبت.

ومعنى ﴿شُرَّعًا﴾: ظاهرةً قريبةً منهم؛ يقال: شرَع منا فلان: إذ دنا.

و﴿إِذْ﴾ في قوله: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ﴾:

منصوبٌ بـ ﴿يَعْدُونَ﴾.

أو بدلٌ من ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾ الآيةَ؛ افترقت بنو إسرائيل ثلاثَ فرق:

فرقة عصتْ بالصيد يوم السبت.

وفرقة نهت عن ذلك واعتزلت.

وفرقة سكتت واعتزلت، فلم تنْهَ ولم تعْصِ.

وإنَّ هذه الفرقة لما رأت مجاهرة الناهية وطغيانَ العاصية قالوا للفرقة الناهية: لم تعظون قومًا يريد الله أن يهلكهم أو يعذبهم، فقالت الناهية:

نهاهم معذرةً إلى الله ولعلهم يتقون.

فهلَكت الفرقة العاصية، ونجت الناهية، واختُلف في الثالثة: هل هلكت؛ لسكوتها؟ أو نجت؛ لاعتزالها وتركها العصيانَ؟.

﴿بِعَذَابٍ بِيسٍ﴾ أي: شديد.

وقرئ بالهمز، وتركِه، وقرئ على وزن «فَعِيل»، وعلى وزن «فَيْعَل»؛ وكلُّها من معنى البؤس.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: لما تكبَّروا عن ما نهوا عنه.

﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ ذُكِر في «البقرة»[1].

والمعنى: أنهم عُذِّبوا أولًا بعذاب شديد، فعَتَوْا بذلك، فمُسِخوا قردة.

وقيل: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا﴾ تكرارٌ لقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾، والعذاب البِيسُ: هو المسخ.

﴿تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ عزَم؛ وهو من الإيذان بمعنى الإعلام.

﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ الآيةَ؛ أي: يسلِّط عليهم، ومن ذلك: أخذُ الجزية، وهوَانُهم في جميع البلاد.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: فرَّقناهم في البلاد، ففي كل بلدةٍ فرقةٌ منهم، فليس لهم إقليم يملكونه.

---

(١) انظر (١/ ٣٢٣).

﴿مِنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ هم من أسلم؛ كعبد الله بن سلَام، أو[1] من كان صالحًا من المتقدمين منهم.

﴿بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: بالنِّعم والنِّقم.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ أي: حدَث بعدهم قومُ سوءٍ.

والخَلف بسكون اللام: ذمٌّ، وبفتحها: مدحٌ.

والمراد: مَن حدث من اليهود بعد المذكورين.

وقيل: المراد: النصارى.

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أي: عرَض الدنيا.

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ذلك اغترارٌ منهم وكذب.

﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ الواو للحال؛ أي: يرجون المغفرة وهم يعودون إلى مثل فعلهم.

﴿مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ إشارةٌ إلى كَذِبهم في قولهم: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

وإعراب ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟﴾:

عطفُ بيانٍ على ﴿مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

أو تفسيرٌ له.

أو تكون «أن» حرف عبارةٍ وتفسير.

---

(١) في أ، ب، هـ: «و».

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ قرئ بالتشديد والتخفيف؛ وهما بمعنًى واحدٍ.

وإعراب ﴿الَّذِينَ﴾:

عطفٌ على ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

أو مبتدأٌ وخبره: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾؛ وقام ذِكْرُ المصلحين مقامَ الضمير؛ لأن المصلحين هم الذين يمسكون بالكتاب.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي: اقتلَعْنا الجبل ورفعناه فوق بني إسرائيل وقلنا لهم: خذوا التوراة حين أبَوا مِن أَخْذِها.

وقد تقدَّم في «البقرة» تفسير الظُّلة[1]، و﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾[2].

---

(١) انظر: (١/ ٤٢٧).

(٢) انظر: (١/ ٣٢٣).

[﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾].

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الآيةَ؛ في معناها قولان:

أحدهما: أن الله لما خلق آدم أخرج ذُرِّيته من صلبه وهم مثل الذرِّ، وأخذ عليهم العهد بأنه ربُّهم، فأقرُّوا بذلك والتزموه.

روي هذا المعنى عن النبي ﷺ من طرق كثيرة، وقال به جماعة من الصحابة وغيرهم.

والثاني: أن ذلك من باب التمثيل، وأن أخذ الذرية عبارةٌ عن إيجادهم

في الدنيا، وأما إشهادهم فمعناه: أن الله نصَب لبني آدم الأدلةَ على ربوبيته، وشهدت بها عقولهم، فكأنه أشهدهم على أنفسهم، وقال لهم: ألست بربكم وكأنهم قالوا[1] بلسان الحال: بلى أنت ربُنا.

والأول هو **الصحيح**؛ لتواتر الأخبار به، إلَّا أن ألفاظ الآية لا تطابقه بظاهرها، فلذلك عَدَل عنه مَن قال بالقول الآخر، وإنما تُطابِقُه بتأويل؛ وذلك أن أخْذ الذرية إنما كان من صلب آدم، ولفظ الآية يقتضي أن أخذ الذرية من بني آدم!.

والجمع بينهما: أنه ذَكر بني آدم في الآية والمراد آدم؛ كقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١] الآيةَ، على تأويل: لقد خلقنا أباكم آدم ثم صوَّرناه.

وقال الزمخشري: إن المراد ببني آدم: أسلافُ اليهود، والمراد بذرِّيتهم: من كان في عصر النبي ﷺ منهم[2].

والصحيح المشهور: أن المراد جميع بني آدم حسَبما ذَكرنا.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ قولهم ﴿بَلَىٰ﴾: إقرارٌ منهم بأن الله ربهم؛ فإن تقديره: أنت ربنا؛ فإن «بلى» بعد التقرير تقتضي الإثبات، بخلاف «نعم»؛ فإنها إذا وردت بعد الاستفهام تقتضي الإيجاب، وإذا وردت بعد التقرير تقتضي النفي، ولذلك قال ابن عباس في هذه الآية: لو قالوا: «نعم» لكفروا.

---

(١) في أ، ج، هـ: «وقالوا».
(٢) انظر: الكشاف (٦/ ٦٤٩).

وأما قولهم: ﴿شَهِدْنَا﴾ فمعناه: شهدنا بربوبيتك؛ فهو تحقيقٌ لربوبية الله، وأداءٌ لشهادتهم بذلك عند الله.

وقيل: إن ﴿شَهِدْنَا﴾ من قول الله والملائكة؛ أي: شهدنا على بني آدم باعترافهم.

﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ في موضع مفعول من أجله؛ أي: فعَلْنا ذلك كراهةَ أن تقولوا، فهو من قول الله، لا من قولهم.

وقرئ:

بالتاء؛ على الخطاب لبني آدم.

وبالياء؛ على الإخبار عنهم.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ قال ابن مسعود: هو رجل من بني إسرائيل، بعثه موسى عليه السلام إلى ملك مَدْين داعيًا إلى الله، فرشاه الملِك، وأعطاه المُلْك على أن يترك دين موسى ويتابع الملِك على دينه ففعل، وأضلَّ الناس بذلك.

وقال ابن عباس: هو رجل من الكنعانيين اسمه بَلْعَام، كان عنده اسم الله الأعظم، فلما أراد موسى قتال الكنعانيين - وهم الجبارون - سألوا من بلعام أن يدعو باسم الله الأعظم على موسى وعسكره فأبى، فألحُّوا عليه حتى دعا عليه (أن لا يدخل المدينة، ودعا موسى عليه)[1].

---

(١) سقط من أ، ب، هـ.

فالآيات التي أُعطِيَها:

على هذا القول: هي اسم الله الأعظم.

وعلى قول ابن مسعود: هي ما علَّمه موسى من الشريعة.

وقيل: كان عنده من صحف إبراهيم.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: هو أمية بن أبي الصلت، وكان قد أوتي علمًا وحكمةً، وأراد أن يسلم قبل غزوة بدر، ثم رجع عن ذلك فمات كافرًا، وفيه قال النبي ﷺ: «**كاد أميةُ بن أبي الصلت أن يسلم**»[1].

فالآيات على هذا: ما كان عنده من العلم.

والانسلاخ: عبارةٌ عن البُعْد والانفصال منها، كالانسلاخ من الثياب والجلد.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ أي: لرفعنا منزلتَه بالآيات التي كانت عنده.

﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ عبارةٌ عن فعله لِما سقطَتْ به منزلتُه عند الله.

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ أي: صِفَتُه كصفة الكلب؛ وذلك غايةٌ في الخسَّة والرداءة[2].

﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ اللَّهَثُ: هو تنفُّسٌ بسرعة، وتحريك أعضاء الفم وخروج اللسان، وأكثر ما يعتري ذلك الحيوانات

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦).

(٢) في د: «والرذالة».

مع الحرِّ والتعب، وهي حالةٌ دائمة للكلب.

ومعنى ﴿إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ﴾: إن تفعل معه ما يشقُّ عليه من طرد أو غيره، ﴿أَوۡ تَتۡرُكۡهُ﴾ دون أن تحملَ عليه: فهو يلهث على كل حال.

ووجه تشبيه ذلك الرجل به:

أنه إن وعَظْته فهو ضالٌّ، وإن لم تعِظْهُ فهو ضالٌّ، فضلالته على كل حال؛ كما أن لهَث الكلب على كل حال.

وقيل: إن ذلك الرجل خَرج لسانُه على صدره، فصار مثل الكلب في صورته ولهثه حقيقةً.

﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ﴾ أي: صفة المكذبين كصفة الكلب في لهثه، أو كصفة الرجل المشبَّه به؛ لأنهم إن أُنذِروا لم يهتدوا، وإن تُرِكوا لم يهتدوا.

أو شبَّههم بالرجل في أنهم رأوا الآيات والمعجزات فلم تنفعْهم، كما أن الرجل لم ينفعْه ما كان عنده من الآيات.

﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ أي: مثلُ القوم.

﴿وَأَنفُسَهُمۡ﴾ قدَّم هذا المفعول؛ للاختصاص والحصر.

﴿كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾ هم الذين عَلِم اللهُ أنهم يدخلون النار بكفرهم، فأخبر أنه خلقهم لذلك، كما جاء في قوله: «هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي»[1].

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٦٦٠).

﴿لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ ليس المعنى نفي الفهم والسمع والبصر جملةً؛ وإنما المعنى: نفيُها عما ينفع في الدين.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعةً وتسعين اسمًا، من أحصاها دخل الجنة»[(١)].

وسبب نزول الآية: أن أبا جهل سمع بعض الصحابة يقرأ، فيذكر الله مرةً، والرحمن أخرى، فقال: يزعم محمد أنَّ الإلهَ واحد وها هو يعبد آلهة كثيرة؛ فنزلت الآية مبينةً أن تلك الأسماء الكثيرة هي لمسمًى واحدٍ.

و﴿الْحُسْنَىٰ﴾ مصدر وُصِف به، أو تأنيث «أحسن».

وحُسْنُ أسماء الله: هي أنها صفات مدحٍ وتعظيم وتمجيد[(٢)].

﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أي: سمُّوه بأسمائه، وهذا إباحةٌ لإطلاق الأسماء على الله[(٣)] تعالى:

فأمَّا ما ورد منها في القرآن أو في الحديث: فيجوز إطلاقه على الله إجماعًا.

وأمَّا ما لم يرد، وفيه مدحَ لا تتعلَّق به شبهة:

فأجاز أبو بكر ابن الطيب إطلاقَه على الله.

ومنع ذلك أبو الحسن الأشعري وغيره، ورأوا أن أسماء الله موقوفةٌ على

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

(٢) في ب، هـ: «وتحميد».

(٣) في أ، هـ: «الإله».

ما ورد في القرآن والحديث.

وقد ورد في «كتاب الترمذي» عِدَّتها؛ أعني: تعيين التسعة والتسعين[1]، واختلف المحدثون هل تلك الأسماء المعدودة فيه مرفوعة إلى النبي ﷺ أو موقوفة على أبي هريرة؟.

وإنما الذي ورد في الصحيح كونُها تسعةً وتسعين من غير تعيين.

﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ قيل: معنى «ذروا»: اتركوهم لا تحاجُوهم ولا تتعرَّضوا لهم؛ فالآية -على هذا- منسوخةٌ بالقتال.

وقيل: معنى «ذروا»: الوعيد والتهديد؛ كقوله: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المزمل: ١١]، وهو الأظهر؛ لما بعده.

وإلحادهم في أسماء الله:

هو ما قال أبو جهل، فنزلت الآية بسببه.

وقيل: تسميته بما لا يليق به.

وقيل: تسمية الأصنام باسمه، كاشتقاقهم اللَّات من الله، والعُزَّى من العزيز.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ﴾ الآيةَ؛ روي أن النبي ﷺ قال: «هذه الآية لكم، وقد تقدَّم مثلُها لقوم موسى»[2].

---

(١) سنن الترمذي (٣٥٠٧).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٦٠٠).

[﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾].

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ الاستدراج: استفعالٌ من الدَّرجة؛ أي: نسوقهم إلى الهلاك شيئًا بعد شيء وهم لا يشعرون.

والإملاء: هو الإمهال مع إرادة العقوبة.

﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ سمَّى فعله بهم كيدًا؛ لأنه شبيهٌ بالكيد في أن ظاهره إحسانٌ وباطنه خذلان[1].

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ يعني بصاحبهم: النبيَّ ﷺ، فنفى عنه ما نَسب له المشركون من الجنون.

---

(١) قال الشيخ عبد الرحمن البراك: قوله «سمَّى فعله بهم كيدًا» إلخ، يتضمن أن ما يفعله الرب ﷻ بالكافرين من الاستدراج ليس بكيد حقيقةً، بل مجرد تسلية، فهو كيد لفظا لا معنى، وهذا خطأ؛ لأنه صرف للفظ عن ظاهره بلا موجب، كيف وقد أكده الله بالمصدر المؤكَّد بقوله: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾؟! فهو تعالى يكيد الكافرين ويمكر بهم، جزاءً على كيدهم ومكرهم، جزاءً وفاقا.

ويَحتمل أن يكون قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾: معمولًا لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ فيُوصَل به، والمعنى: أو لم يتفكروا فيعلموا أنه ما بصاحبهم من جنة.

ويَحتمل أن يكون الكلام قد تمَّ في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾، ثم ابتدأ إخبارًا مستأنفًا بقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾.

والأول أحسن.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا﴾ يعني: نظرَ استدلال.

﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ عطفٌ على الملكوت.

ويعني بقوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾: جميعَ المخلوقات؛ إذ جميعُها دليلٌ على وَحدانية خالقها.

﴿وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ «أن» الأولى: مخففة من الثقيلة، وهي عطف على الملكوت.

و«أن» الثانية: مصدرية؛ في موضع رفعٍ بـ ﴿عَسَىٰ﴾.

و﴿أَجَلُهُمْ﴾ يعني: موتَهم.

والمعنى: لعلهم يموتون عن قريب، فينبغي لهم أن يسارعوا إلى النظر فيما يخلِّصهم عند الله قبل حلول الأجل.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾ الضمير للقرآن.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ السائلون: اليهود، أو قريش.

وسُمِّيت القيامة ساعةً؛ لسرعة حسابها؛ كقوله: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ

إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧].

﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ معنى ﴿أَيَّانَ﴾: متى.

و﴿مُرْسَىٰهَا﴾: وقوعها وحدوثها، وهي من الإرساء؛ بمعنى الثبوت.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ أي: استأثرَ اللهُ بعلم وقت وقوعها، ولم يطَّلع عليه أحدٌ.

﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ معنى ﴿يُجَلِّيهَا﴾: يُظْهِرها؛ فهو من الجلاء ضدّ الخفاء.

واللام في ﴿لِوَقْتِهَآ﴾ ظرفيةٌ؛ أي: عندَ وقتها.

والمعنى: لا يُظْهِر الساعةَ عند مجيءِ وقتِها إلَّا اللهُ.

﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في معناه ثلاثة أقوال:

الأول: ثقلت على أهل السموات والأرض؛ لهيبتها عندهم، وخوفِهم منها.

والثاني: ثقلت على[1] السموات والأرض أنفسِها؛ لتفطر السماء فيها، وتبديل الأرض.

والثالث: معنى ﴿ثَقُلَتْ﴾: ثقل علمها؛ أي: خفي.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ الحفيُّ بالشيء: هو المُهْتَبِلُ به المعتنِي به.

---

(١) في أ، ب، ج، هـ زيادة: «أهل»، والصواب عدم ذكرها كما في المحرر الوجيز (٤/ ١٠٥) وكما يقتضيه السياق.

والمعنى: يسألونك عنها كأنك حفيٌّ بعِلْمها.

وقيل المعنى: يسألونك عنها كأنك حفيٌّ بهم؛ لقرابتك منهم.

ف ﴿عَنْهَا﴾ -على هذين القولين- يتعلَّق بـ ﴿يَسْئَلُونَكَ﴾.

وقيل المعنى: يسألونك كأنك حفيٌّ بالسؤال عنها.

﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ براءةٌ من علم الغيب، واستدلالٌ على عدم علمه.

﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ عطفٌ على: ﴿لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾؛ أي: لو علمت الغيب لاستكثرت من الخير، واحترست من السوء[1]، ولكن لا أعلمه؛ فيصيبُني ما قُدِّر لي من الخير والشر.

وقيل: إن قوله: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ استئنافُ إخبارٍ؛ والسوء -على هذا-: هو الجنون.

واتِّصالُه بما قبله أحسن.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يجوز أن يتعلَّق بـ ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ معًا؛ أي: أبشر المؤمنين وأنذرهم.

وخصَّ بهم البِشارة والنِّذارة؛ لأنهم الذين ينتفعون بهما.

ويجوز أن يتعلَّق بالبشارة وحدها، ويكون المتعلَّق بـ ﴿نَذِيرٌ﴾ محذوف؛ أي: نذير للكافرين.

والأول أحسن.

---

(١) في د: «الشر».

[﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٢ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ١٩٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨ ﴾].

﴿مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ يعني: آدمَ.

﴿زَوۡجَهَا﴾ يعني: حوَّاء.

﴿لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾ يميل إليها ويستأنس بها.

﴿تَغَشَّىٰهَا﴾ كنايةٌ عن الجماع.

﴿حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا﴾ أي: خفَّ عليها، ولم تَلْقَ منه ما يلقى بعض الحُبالى من حملهنَّ مِن الأذى والكرب.

وقيل: الحمل الخفيف: المنيُّ في فرجها.

﴿فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ﴾ قيل معناه: استمرَّت به إلى حين ميلاده.

وقيل: قامت وقعدت.

﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي: ثقُلَ حملُها وصارت به ثقيلةً.

﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ أي: ولدًا صالحًا سالمًا في بدنه.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شِرْكًا فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَآ﴾ أي: لما آتاهما ولدًا صالحًا كما طلبا: جعل أولادُهما له شركاءَ.

فالكلام على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذلك: ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَآ﴾؛ أي: فيما آتى أولادَهما وذريَّتَهما.

وقيل: إن حواء لما حملت جاءها إبليس فقال لها: إن أطعتِني وسمَّيت ما في بطنك عبد الحارث فسأخلِّصه لك - وكان اسم إبليس الحارث -، وإن عصيتِني في ذلك قتلته. فأخبرتْ بذلك آدم، فقال لها: إنه عدوُّنا الذي أخرجَنا من الجنة، فلما وَلدت مات الولد، ثم حملت مرة أخرى فقال لها إبليس مثل ذلك، فعصته فمات الولد، ثم حملت مرة ثالثة فسمَّياه عبد الحارث؛ طمعًا في حياته.

فقوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شِرْكًا فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَآ﴾ أي: في التسمية لا غير، لا في عبادة غير الله.

والقول الأول أصحُّ؛ لثلاثة أوجه:

أحدها: أنه يقتضي براءةَ آدم وزوجه من قليل الشرك وكثيره، وذلك هو حال الأنبياء عليهم السلام.

والثاني: أنه يدلُّ على أن الذين أشركوا هم أولاد آدم وذريته: قولُه[1] تعالى: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بضمير الجمع.

والثالث: أن ما ذكروا من قصة آدم وتسمية الولد عبد الحارث يفتقر إلى نقل بسند صحيح، وهو غير موجود في تلك القصة.

وقيل: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: هو قصي بن كلاب وزوجته، و﴿جَعَلَا لَهُۥ شِرْكَآءَ﴾ أي: سمَّيا أولادَهما عبد العزى وعبد الدار وعبد مناف.

وهذا القول بعيدٌ؛ لوجهين:

أحدهما: أن الخطاب - على هذا - خاصٌّ بذرية قصيٍّ من قريش، والظاهر أن الخطاب عام لبني آدم.

والآخر: قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، فإن هذا يصح في حواء؛ لأنها خلقت من ضِلَعِ آدم، ولا يصحُّ في زوجة قصي.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ هذه الآية ردٌّ على المشركين من بني آدم.

والمراد بقوله: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾: الأصنامُ وغيرها مما عُبِد من دون الله.

والمعنى: أنها مخلوقة غير خالقة، والله تعالى خالق غير مخلوق؛ فهو الإله وحده.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ المعنى: أن الأصنام لا ينصرون مَن عبَدهم، ولا ينصرون أنفسَهم؛ فهم في غاية العجز والذِّلة،

(١) في د: «بدليل قوله».

فكيف يكونون آلهة؟!.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ المعنى: أن الأصنام لا تجيب إذا دعيت إلى أن تَهتدي، أو إلى أن تَهدِي[1]؛ لأنها جمادات.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ تأكيدٌ وبيان لما قبلها.

فإن قيل: لم قال: ﴿أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾؛ فوَضع الجملة الاسمية موضع الجملة الفعلية؟ وهلّا قال: أو صمتُّم؟.

فالجواب: أنَّ صمْتَهم عن دعاء الأصنام كانت حالةً مستمرة، فعبَّر عنها بجملة اسمية؛ لتقتضيَ الاستمرارَ على ذلك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ ردٌّ على المشركين؛ فإن آلهتهم عبادٌ، فكيف يُعبَد العبدُ مع ربِّه؟!.

﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا﴾ أمرٌ على جهة التعجيز.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ وما بعده؛ معناه: أن الأصنام جماداتٌ عادمة للحسِّ والجوارح والحياة، وما كان كذلك لا يكون إلهًا؛ فإنَّ مِن وصف الإله: الإدراك والحياة والقدرة.

وإنما جاء هذا البرهان بلفظ الاستفهام؛ لأن المشركين مقرُّون أن أصنامهم لا تمشي ولا تبطِش ولا تُبصِر ولا تسمع؛ فلزمتهم الحجة.

والهمزة في قوله: ﴿أَلَهُمْ﴾ للاستفهام مع التوبيخ.

(١) في ب: «إذا دعيت أن تهدي أو إلى أن تهدَى».

و﴿أَمْ﴾ في المواضع الثلاثة: تضمَّنت معنى الهمزة ومعنى «بل»، وليست عاطفةً.

﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ المعنى: استنجدوا[1] أصنامكم لمضرَّتي والكيدِ عليّ، ولا تؤخِّروني؛ فإنكم وأصنامَكم لا تقدرون على مضرَّتي.

ومقصود الآية: الردُّ عليهم ببيان عجْزِ أصنامهم، وعدم قدرتها على المضرَّة.

وفيها -أيضًا- إشارةٌ إلى أن التوكل: على الله، والاعتصام به وحده، وأن غيره لا يقدر على شيء، ثم أفصح بذلك في قوله:

﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ﴾ الآيةَ؛ أي: هو ناصري وحافظي منكم، فلا تضرونني، ولو حرَصتم أنتم وآلهتُكم على مضرَّتي.

ثم وصف اللَّه بأنه: ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾، وبأنه: ﴿يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾، وفي هذين الوصفين استدلالٌ على صدق النبي ﷺ؛ بإنزال الكتاب عليه، وبأن الله تولَّى حِفْظَه، ومن تولى اللهُ حفظَه فهو من الصالحين، والصالح لا بد أن يكون صادقًا في قوله؛ لا سيما فيما يقوله على الله.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ الآيةَ؛ ردٌّ على المشركين، وقد تقدَّم معناه.

---

(١) في د، هـ: «استجدوا».

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟﴾ يحتمل:

أن يريد الأصنام؛ فيكون تحقيرًا لها، وردًا على من عبدها؛ فإنها جمادٌ مواتٌ لا تسمع شيئًا، فيكون المعنى كالذي تقدَّم.

أو يريد الكفار، ووصَفهم بأنهم لا يسمعون يعني: سمعًا ينتفعون به؛ لإفراط نفورهم، أو لأن الله طبَع على قلوبهم.

﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ إن كان هذا من وصف الأصنام: فقوله: ﴿يَنظُرُونَ﴾ مجازٌ، وقوله: ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ حقيقة؛ لأن لهم صورة الأعين وهم لا يرون بها شيئًا.

وإن كان من وصف الكفار: فـ﴿يَنظُرُونَ﴾ حقيقة، و﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ مجازٌ على وجه المبالغة؛ كما وصفهم بأنهم لا يسمعون.

* * *

[﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ۝٢٠٢ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٢٠٣ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢٠٦﴾].

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن المعنى: خذ من الناس في أخلاقهم وأقوالهم ومعاشرتهم ما تيسَّر لا ما يشقُّ عليهم؛ لئلا ينفروا.

فالعفو -على هذا- بمعنى: السَّهل والسَّمح عنهم[١]، وهو ضد الجَهْد[٢] والتكلُّف[٣]، كقول الشاعر:

خذي العَفْوَ مني تستديمي مودَّتي[٤]

والآخر: أن المعنى: خذ في الصَّدقات ما سَهُلَ على الناس في أموالهم،

---

(١) في أ، ب، هـ: «عندهم».

(٢) في ب، ج، هـ: «الجهل».

(٣) في أ، ب، ج، هـ: «والتكليف».

(٤) هذا صدر بيت لأسماء بن خارجة الفزاري، أحد الأجواد المعدودين، وهو في طبقة التابعين، وعجزه: «ولا تَنطِقي في سَوْرتي حين أغضبُ». انظر: فوات الوفيات (١/ ١٦٩).

أو ما فضَل لهم، وذلك قبل فرض الزكاة.

فالعفو -على هذا- بمعنى: السَّهل، أو بمعنى الكثرة.

﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي: بالمعروف؛ وهو أفعال الخير.

وقيل: العرف: الجاري بين الناس من العوائد.

واحتجَّ المالكية بذلك على الحكم بالعوائد.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: لا تكافئ السفهاء بمثل قولهم أو فعلهم، واحلُمْ عنهم.

ولما نزلت هذه الآية سأل رسول الله ﷺ جبريل عنها، فقال: لا أدري حتى أسأل، ثم رجع فقال: «يا محمد إن ربك يأمرك أن تصل من قطعكْ، وتعطيَ من حرمك، وتعفوَ عمن ظلمك»[١].

وعن جعفر الصادق: أمر الله نبيه ﷺ فيها بمكارم الأخلاق[٢].

وهي -على هذا- ثابتة الحكم؛ وهو الصحيح.

وقيل: كانت مداراةً للكفار، ثم نُسِخت بالقتال.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ نزْغُ الشيطان: وسوستُه بالتَّشكيك في الحق، والأمرِ بالمعاصي، أو تحريكُ الغضب.

فأمَر الله بالاستعاذة منه عند ذلك، كما ورد في الحديث: «أن رجلًا اشتد غضبه، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم كلمةً لو قالها لذهب عنه ما به:

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٦٤٣).

(٢) ذكره الثعلبي في تفسيره (٤/ ٣١٨) عن جعفر الصادق بدون إسناد.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»[١].

﴿طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ معناه: لِمَّة منه، كما جاء: «إن للشيطان لمة، وللملَك لمة»[٢].

ومن قرأ ﴿طَآئِفٌ﴾ - بالألف -: فهو اسم فاعل.

ومن قرأ ﴿ طَيْفٌ ﴾ - بياء ساكنة -: فهو مصدر، أو تخفيف من طيِّف المشدَّد؛ كميِّت ومَيْت.

﴿تَذَكَّرُواْ﴾ حُذِف مفعوله ليعمَّ كلَّ ما يُتَذكَّرُ من خوف عقاب الله، أو رجاء ثوابه، أو مراقبته، أو الحياء منه، أو عداوة الشيطان والاستعاذة منه، أو النظر والاعتبار وغير ذلك.

﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ هو من بصيرة القلب.

﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ﴾ الضمير في ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ﴾ لـ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، وأريد بقوله: ﴿طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ الجنس؛ فلذلك أعيد عليه ضمير الجماعة، و﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ﴾ هم الكفار.

ومعنى ﴿يَمُدُّونَهُمۡ﴾: يكونون مددًا لهم؛ أي: يعضُدونهم.

وضمير المفعول في ﴿يَمُدُّونَهُمۡ﴾ للكفار، وضمير الفاعل لـ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾.

ويَحتمل أن يريد بالإخوان: الشياطين، ويكون الضمير في ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ﴾ للكفار.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٥)، ومسلم (٢٦١٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٨٨)، والنسائي في الكبري (١٠/ ٣٧).

والمعنى على الوجهين: أن الكفار يمدهم الشيطان.

وقرئ ﴿يُمِدُّونَهُمْ﴾: بضم الياء، وفتحها؛ والمعنى واحد.

و﴿فِي ٱلْغَيِّ﴾: يتعلَّق بـ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾.

وقيل: يتعلَّق بـ﴿إِخْوَانُهُمْ﴾؛ كما تقول: إخوة في الله، أو في الشيطان.

﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أي: لا يُقْصِر الشياطين عن إمداد إخوانهم من الكفار.

أو: لا يُقصِر الكفار عن غيِّهم.

وفي الآية من أدوات البيان: لزوم ما لا يلزم؛ لالتزام الصاد قبل الراء في ﴿مُّبْصِرُونَ﴾ و﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ الضمير في ﴿لَمْ تَأْتِهِم﴾ للكفار.

و﴿لَوْلَا﴾ هنا عرْضٌ.

وفي معنى ﴿ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ قولان:

أحدهما: اخترعتها من قِبَلِ نفسك.

فالآية -على هذا-: من القرآن، وكان النبي ﷺ يتأخَّر عنه الوحي أحيانًا، فيقول الكفار: هلَّا جئتَ بقرآن من قولك!.

والآخر: أن معناها: طلبتَها من الله، وتخيَّرتها عليه.

فالآية - على هذا -: معجزةٌ؛ أي: يقولون: اطلب المعجزة من الله.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾ معناه:

لا أخترعُ القرآن؛ على القول الأول.

ولا أطلبُ آيةً من الله؛ على القول الثاني.

﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ﴾ أي: علاماتُ هدى، والإشارة إلى القرآن.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ **فيها ثلاثة أقوال:**

أحدها: أن الإنصات المأمور به: هو لقراءة الإمام في الصلاة.

والثاني: أنه الإنصات للخطبة.

والثالث: أنه الإنصات لقراءة القرآن على الإطلاق، وهو الرَّاجح؛ لوجهين:

أحدهما: أن اللفظ عام، ولا دليل على تخصيصه.

والثاني: أن الآية مكية، والخطبة إنما شرعت بالمدينة.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ قال بعضهم: الرَّحمة أقرب شيءٍ إلى مستمع القرآن؛ لهذه الآية.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ يَحتمل أن يريد:

الذِّكرَ بالقلب دون اللسان.

أو الذِّكر باللسان سرًّا.

فعلى الأول: يكون قوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ عطفًا مغايرًا؛ أي: حالةً أخرى.

وعلى الثاني: يكون بيانًا وتفسيرًا للأول.

﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ﴾ أي: في الصباح والعشيِّ.

و«الآصال»: جمع أُصُل؛ والأُصُل جمع أَصِيلٍ.

قيل: المراد: صلاة الصبح والعصر.

وقيل: صلاة المسلمين.

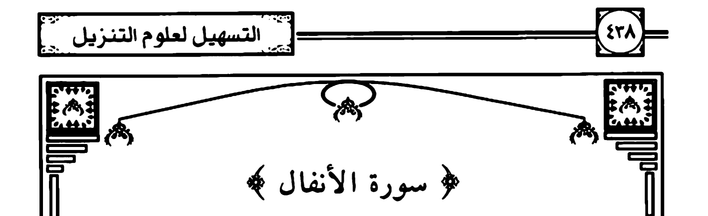
وقيل: فرض الخمس.

والأظهر الإطلاق.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ هم الملائكة عليهم السلام.

وفي ذِكْرهم تحريضٌ للمؤمنين وتعريضٌ بالكفار.

﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ قدَّم المجرور لمعنى الحصر؛ أي: لا يسجدون إلَّا له وحده.



﴿ سورة الأنفال ﴾

نزلت هذه السورة في غزوة بدر وغنائمها.

[﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ ﴾].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والسَّائلون: هم الصحابة.

و﴿ٱلْأَنفَالِ﴾: هي الغنائم.

وذلك أن الصحابة كانوا يوم بدر ثلاث فرقٍ:

فرقة مع النبي في العريش تحرسه وتؤنسه.

وفرقة اتبعوا المشركين فقتلوهم وأسروهم.

وفرقة أحاطوا بأسلاب العدو وعسكرهم لما انهزموا.

فلما انجلت الحرب واجتمع الناس رأت كلُّ فرقة أنها أحق بالغنيمة من غيرها، واختلفوا فيما بينهم، فنزلت الآية.

ومعناها: يسألونك عن حكم الغنيمة ومَن يستحقُّها.

وقيل: الأنفال هنا: ما ينفِّله الإمام لبعض الجيش من الغنيمة زيادةً على حظِّه.

وقد اختلف الفقهاء هل يكون ذلك التَّنفيل[١] من الخمس - وهو قول مالك -؟ أو من الأربعة الأخماس؟ أو من رأس الغنيمة قبل إخراج الخمس؟.

﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ أي: الحكم فيها لله وللرسول، لا لكم.

﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ أي: اتَّفقوا وائتلفوا، ولا تنازعوا.

و﴿ذَاتَ﴾ هنا بمعنى: الأحوال؛ قاله الزمخشري[٢].

وقال ابن عطية: يراد بها في هذا الموضع: نفسُ الشيء وحقيقته[٣].

وقال الزُّبيدي[٤]: إن إطلاق الذات على نفس الشيء وحقيقته ليس من كلام العرب[٥].

---

(١) في أ، ب، هـ: «المتنفَّل».
(٢) انظر: الكشاف (٧/ ١٠).
(٣) انظر: المحرر الوجيز (٤/ ١٣٣).
(٤) هو أبو بكر محمد بن الحسن الزُّبيدي الأندلسي الإشبيلي النحوي، صاحب «مختصر العين» و«طبقات النحويين»، و«لحن العوام» وغيرها من المصنفات، توفي سنة (٣٧٩هـ) انظر: معجم الأدباء، لياقوت الحموي (١/ ٢٥١٨)، وبغية الوعاة، للسيوطي (١/ ٨٤).
(٥) انظر: لحن العوام (ص: ١٢).

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ يريد: في الحكم في الغنائم.

قال عبادة بن الصامت: نزلت فينا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا وساءت أخلاقنا، فنزع الله الأنفال من أيدينا، وجعلها لرسوله ﷺ فقسَمها على السَّواء، فكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وإصلاح ذات البين[١].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الآيةَ؛ أي: الكاملون الإيمان، فـ﴿إِنَّمَا﴾ هنا للتأكيد والمبالغة، لا للحصر[٢].

﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت، وقرأ أبي بن كعب: «فَزِعَتْ».

﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ أي: قَوِي تصديقهم ويقينهم، خلافًا لمن قال: إن الإيمان لا يزيد، وإن زيادته إنما هي بالعمل.

﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ يعني: في الجنة.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ فيه ثلاث تأويلات[٣]:

أحدها: أن تكون الكاف في موضع رفع؛ على أنه خبر مبتدإ محذوف تقديره: هذه الحالُ كحال إخراجِك؛ يعني: أن حالهم في كراهة تنفيل الغنائم كحالهم في كراهة[٤] خروجك للحرب.

والثاني: أن يكون موضعُ الكاف نصْبًا؛ على أنه صفة لمصدر الفعل

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ١٤).

(٢) في أ، ب، هـ: «والحصر»، والمثبت الصواب كما في المحرر الوجيز (٤/ ١٣٥).

(٣) في ج، د: «ثلاثة أوجه».

(٤) في أ، ب، هـ: «حالة».

المقدَّر في قوله: ﴿ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي: استقرَّت الأنفال لله والرسول استقرارًا مثلَ استقرار خروجك.

والثالث: أن تتعلَّق الكاف بقوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾.

﴿مِنۢ بَيْتِكَ﴾ يعني: مَسْكَنُهُ بالمدينة إذ أخرجه الله منه لغزوة[1] بدر.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ أي: كرهوا قتال العدو، وذلك أن عِيرَ قريش أقبلت من الشام فيها أموالٌ عظيمة، ومعها أربعون راكبًا، فأخبر بذلك جبريلُ النبيَّ ﷺ، فخرج بالمسلمين، فسمع بذلك أهل مكة، فاجتمعوا وخرجوا في عدد كثير؛ ليمنعوا عِيرهم، فنزل جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إن الله قد وعدكم إحدى الطائفتين: إما العير وإما قريش، فاستشار النبي ﷺ أصحابه فقالوا: العير أحبُّ إلينا من لقاء العدو، فقال: إن العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل، فقال له سعد بن عبادة: امض لما شئت فإنك متبعوك، وقال سعد بن معاذ: والذي بعثك بالحق لو خضت هذا البحر لخضناه معك؛ فسِرْ بنا على بركة الله[2].

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ كان جدالهم في لقاء قريش؛ لإيثارهم لقاءَ العِير؛ إذ كانت أكثرَ أموالًا وأقلَّ رجالًا.

وتبيُّنُ الحق: هو إعلام رسول الله ﷺ بأنهم يُنصَرون.

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ تشبيهٌ لحالهم في إفراط جزَعِهم من لقاء قريش.

---

(١) في أ، ب، هـ: «بغزوة».

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣١-٣٥).

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ يعني: قريشًا أو عِيرَهم.

والعامل في «إذ» محذوف تقديره: اذكروا.

﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ بدلٌ من ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾.

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ الشَّوكة: عبارة عن السلاح سمِّيت بذلك لحِدَّتها.

والمعنى: تحبون أن تلْقَوا الطائفة التي لا سلاح لها؛ وهي العِير.

﴿أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ يعني: يُظهِر الإسلام؛ بقتل الكفار وهَلاكهم يوم بدر.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ متعلِّق بمحذوف تقديره: ليحق الحق ويبطل الباطل فعَل ذلك، وليس تكرارًا للأول؛ لأن الأول مفعولُ ﴿يُرِيدُ﴾، وهذا تعليلٌ لفعل الله تعالى.

ويَحتمل أن يريد بـ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الأول: الوعدَ بالنصرة، وبـ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الثاني: الإسلام؛ فيكون المعنى: أنه نصَرهم؛ ليظهر الإسلام، ويؤيِّد هذا قولُه: ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: يبطل الكفر.

[﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾].

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ ﴿إِذْ﴾ بدلٌ من ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ﴾.

وقيل: تتعلّق بقوله: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾، أو بفعل مضمر.

واستغاثتُهم: دعاؤهم بالغوث والنصر.

﴿مُمِدُّكُم﴾ أي: مُكثّركم.

﴿مُرْدِفِينَ﴾ من قولك: رَدِفه: إذا تَبِعه، وأردفتُه إياه: إذا أتبعتَه إياه.

والمعنى: يتبع بعضُهم بعضًا.

فمن قرأه بفتح الدال: فهو اسم مفعول.

ومن قرأه بالكسر: فهو اسم فاعل.

وصحّ معنى القراءتين؛ لأن الملائكة المنزلين تَبعَ بعضُهم بعضًا، فمنهم تابعون ومتبوعون.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ الضمير عائد:

على الوعد.

أو على الإمداد بالملائكة.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ ﴿إِذْ﴾ بدلٌ من ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ﴾.

أو منصوبٌ: بـ ﴿ٱلنَّصْرُ﴾، أو بما في ﴿عِندِ ٱللَّهِ﴾ من معنى النصر، أو بإضمار فعل تقديره: اذكر.

ومن قرأ ﴿يُغْشِيكُمُ﴾ -بضم الياء والتخفيف-: فهو من أَغْشَى.

ومن قرأ بالضم والتشديد: فهو من غشَّى المشدَّد.

وكلاهما يتعدَّى إلى مفعولين؛ فنَصْبُ ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ على أنه المفعول الثاني.

والمعنى: يغطِّيكم به؛ فهو استعارةٌ من الغِشاء.

ومن قرأ بفتح الياء والشين: فهو من غَشِيِ المتعدي إلى واحد؛ أي: يَنزِل عليكم النعاسُ.

﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ أي: أمنًا.

والضمير المجرور يعود على الله تعالى، وانتصاب ﴿أَمَنَةً﴾ على أنه مفعول من أجله.

قال ابن مسعود: النعاس عند حضور القتال علامة أمْنٍ من العدو[١].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٥٩-٦٠).

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ تعديدٌ لنعمة أخرى؛ وذلك أنهم عَدِموا الماءَ في غزوة بدر قبل وصولهم إلى بدر -وقيل: بعد وصولهم-، فأنزل الله لهم المطر حتى سالت الأودية.

﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ كان منهم من أصابته جنابة فتطهَّر بماء المطر، وتوضأ به سائرُهم، وكانوا قبله ليس عندهم ماء للطُّهور[1] ولا للوُضوء.

﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ كان الشيطان قد ألقى في نفوس بعضهم وسوسةً بسبب عدمهم الماء، فقالوا: نحن أولياء الله وفينا رسوله فكيف نبقى بلا ماء؟، فأنزل الله المطر، وأزال عنهم وسوسة الشيطان.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أي: يثبِّتَها بزوال ما وسوس لها الشيطان، وبتنشيطها وإزالة الكسل عنها.

﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ عائدٌ على الماء؛ وذلك أنهم كانوا في رَمْلَةٍ دَهْسةٍ[2] لا يثبت بها قدم، فلما نزل المطر تلبَّدت وتَدَمَّث الطريق، وسهل للمشي والوقوف.

وروي: أن ذلك المطر بعينه صعَّب الطريق على المشركين؛ فتبيَّن أن ذلك من لطف الله.

﴿إِذْ يُوحِى﴾ يَحتمل أن يكون ذلك:

بدلًا من «إذ» المتقدمة، كما أنها بدل من التي قبلها.

---

(١) في أ، ب: «للطهر».

(٢) الدَّهْسة: الأرض السهلة اللينة التي يثقل فيها المشي، وتغيب فيها القوائم. لسان العرب (٧/ ٣٩٢).

أو يكون العامل فيه ﴿يُثَبِّتُ﴾.

﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (يَحتمل أن يكون هذا)[١] التَّثبيت:

بقتال الملائكة مع المؤمنين.

أو بأقوال مُؤَنِّسةٍ مقوِّية للقلب قالوها إذ تصوَّروا في صور بني آدم.

أو بإلقاءٍ في نفوس المؤمنين.

﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ يَحتمل أن يكون:

من خطاب الله للملائكة في شأن غزوة بدر؛ تكميلًا لتثبيت المؤمنين.

أو استئنافَ إخبارٍ عما يفعله الله في المستقبل.

﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ يَحتمل - أيضًا - أن يكون: خطابًا للملائكة، أو للمؤمنين.

ومعنى ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾: أعاليَ الأعناق؛ حيث المفصِل بين الرأس والعُنق؛ لأنه مَذْبَحٌ، والضرب فيها يطيِّر الرأس.

وقيل: المراد الرؤوس؛ لأنها فوق الأعناق.

وقيل: المراد الأعناق، و﴿فَوْقَ﴾ زائدةٌ.

﴿كُلَّ بَنَانٍ﴾ قيل: هي المفاصل.

وقيل: الأصابع؛ وهو أشهر في اللغة.

---

(١) سقط من ب، ج، هـ.

وفائدة ذلك: أن المُقاتِل إذا ضُرِبت أصابعه تعطَّل من القتال فأمكن أسْرُه وقتله.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الإشارةُ إلى ما أصاب الكفار يوم بدر، والباء للتعليل.

و﴿شَآقُّوا۟﴾: من الشِّقاق؛ وهو العداوة والمقاطعة.

﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ الخطاب -هنا- للكفار.

و﴿ذَٰلِكُمْ﴾ مرفوع تقديره: ذلكم العقاب أو العذاب.

ويَحتمل أن يكون منصوبًا بقوله: ﴿فَذُوقُوهُ﴾، كقولك: زيدًا فاضربه.

﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ عطفٌ على ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ على تقدير رفعه، أو نصبه.

أو: مفعول معه، والواو بمعنى «مع».

[﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾].

﴿زَحۡفٗا﴾ حالٌ من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أو من الفاعل في ﴿لَقِيتُمُ﴾.

ومعناه: متقابلي الصفوف والأشخاص.

وأصل الزحف: الاندفاع.

﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ نهيٌ عن الفرار، مقيدٌ بأن لا يكون[1] الكفارُ أكثرَ من مِثْلَي المسلمين حسَبما يُذكَر في موضعه.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: يومَ اللقاء، في أي عصرٍ كان.

﴿إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ﴾ هو الكرُّ بعد الفر؛ ليُرِيَ عدوه أنه منهزم، ثم يَعطِف عليه، وذلك من الخِداع في الحرب.

﴿أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ﴾ أي: منحازًا إلى جماعة من المسلمين.

فإن كانت الجماعة حاضرةً في الحرب: فالتحيُّز إليها جائز باتفاقٍ.

واختُلف في التحيز إلى المدينة والإمام والجماعة إذا لم يكن شيءٌ من

---

(١) في أ، ب، د: «بأن يكون».

ذلك حاضرًا، ويروى عن عمر بن الخطاب أنه قال: «أنا فئةٌ لكل مسلم»[١]، وهذا إباحة لذلك.

والفرار من الذنوب الكبائر.

وانتصب قوله: ﴿مُتَحَرِّفًا﴾:

على الاستثناء من قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ﴾.

وقال الزمخشري: انتصب على الحال، و«إلّا» لغوٌ[٢].

ووزن «متحيِّز»: مُتَفَيْعِل، ولو كان على متفعِّل لقال: «متحوِّز»، لأنه من حاز يحوز.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ أي: لم يكن قتْلهم في قدرتكم؛ لأنهم أكثر منكم وأقوى، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ بتأييدكم عليهم وبالملائكة.

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ كان رسول الله ﷺ قد أخذ يوم بدر قبضةً من تراب أو حصى ورمى بها وجوه الكفار فانهزموا.

فمعنى الآية: أن ذلك من الله في الحقيقة.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٨٠-٨١).

(٢) انظر: الكشاف (٧/ ٥١)، وقال أبو حيان في «البحر المحيط» (٥/ ٢٩٣): «ولا يريد الزمخشري بقوله «و(إلا) لغو» أنها زائدة، إنما يريد أن العامل الذي هو (يولهم) وصَل إلى العمل فيما بعدها، كما قالوا في «لا» من قولهم: «جئتُ بلا زاد» إنها لغو، وفي الحقيقة هو استثناء من حالة محذوفة والتقدير: ومن يولهم ملتبسًا بأية حالة إلا في حال كذا».

﴿بَلَآءً حَسَنًاۚ﴾ يعني: الأجر والنصر والغنيمة.

﴿مُوهِنُ﴾ من الوَهْن؛ وهو الضَّعف.

وقرئ بالتشديد والتخفيف؛ والمعنى واحدٌ.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾ الآيةَ؛ خطاب لكفار قريش، وذلك أنهم كانوا قد دعوا الله أن ينصر أحبَّ الطائفتين إليه - وروي أن الذي دعا بذلك أبو جهل -، فنصر الله المؤمنين، وفتَح لهم.

ومعنى ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾: تطلبوا الفتح.

ويَحتمل الفتح الذي طلبوه أن يكون:

بمعنى النصر.

أو بمعنى الحُكْم.

وقيل: إن الخطاب للمؤمنين.

﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُۖ﴾ إن كان الخطاب للكفار: فالفتح هنا بمعنى الحكم؛ أي: قد جاءكم الحكم الذي حكَم الله عليكم بالهزيمة والقتل والأسر.

وإن كان الخطاب للمؤمنين: فالفتح هنا يَحتمل أن يكون:

بمعنى الحكم؛ لأن الله حكم لهم.

أو بمعنى النصر.

﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ أي: ترجعوا عن الكفر، وهذا يدلُّ على أن الخطاب للكفار.

﴿وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ﴾ أي: إن تعودوا للاستفتاح أو للقتال نعدْ لقتالكم والنصر عليكم.

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١ ۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٨﴾].

﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾ الضمير:

للرسول ﷺ.

أو للأمر بالطاعة.

﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾ أي: تسمعون القرآن والمواعظ.

﴿كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ هم الكفار؛ أي: سمعوا بآذانهم دون قلوبهم، فسماعهم كلا سماعٍ.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ أي: كل مَن يَدِبُّ، والمقصود: أن الكفار شرُّ الخلق.

قال ابن قتيبة: نزلت هذه الآية في بني عبد الدار؛ فإنهم جدُّوا في القتال مع المشركين.

﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: للطاعة، وقيل: للجهاد؛ لأنه يُحيي[١]؛ بالنصر.

﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ قيل: يُمِيته.

وقيل: يصرِّف قلبه كيف يشاء؛ فينقلب من الإيمان إلى الكفر، ومن الكفر إلى الإيمان، وشبه ذلك.

﴿فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ أي: لا تصيب الظالمين وحدهم، بل تصيب معهم من لم يغير المنكر ولم ينْهَ عن الظلم؛ وإن كان لم يَظلِم.

وحكى الطبري أنها نزلت في علي بن أبي طالب، وعمار بن ياسر، وطلحة والزبير، وأن الفتنة: ما جرى لهم يوم الجمل[٢].

ودخلت النون في ﴿تُصِيبَنَّ﴾؛ لأنه بمعنى النهي.

﴿إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ الآيةَ؛ أي: حين كانوا بمكة، و﴿فَآوَاكُمْ﴾ بالمدينة، و﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾ في بدر وغيرها.

﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ﴾ نزلت في قصة أبي لُبَابة، حين أشار إلى بني قريظة أن ليس عند رسول الله ﷺ إلَّا الذَّبح.

وقيل: المعنى: لا تخونوا بغُلول الغنائم.

ولفظها عامٌّ.

﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ عطفٌ على ﴿لَا تَخُونُوا﴾، أو منصوب.

---

(١) في د: «يجيء».

(٢) انظر: تفسير الطبري (١١/ ١١٣).

[﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ۙ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧)﴾].

﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي: تَفرِقةً بين الحق والباطل؛ وذلك دليلٌ على أن التقوى تنوِّر القلب، وتشرح الصدر، وتزيد في العلم والمعرفة.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عطفٌ على ﴿إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾، أو استئنافٌ.

وهي إشارةٌ إلى اجتماع قريش بدار الندوة بمحضر إبليس في صورة شيخ نجدي.. الحديثَ بطوله[1].

﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي: يَسجُنوك.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ١٣٤).

﴿قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا﴾ قيل: نزلت في النضر بن الحارث؛ كان قد تعلم من أخبار فارس والروم، فإذا سمع القرآن وفيه أخبار الأنبياء قال: لو شئت لقلت مثل هذا.

وقيل: هي في سائر قريش.

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: أخبارهم المسطورة.

﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ﴾ الآيةَ؛ قائلها[١]: النضر بن الحارث، أو سائر قريش؛ لمَّا كذَّبوا النبي ﷺ دعوا على أنفسهم إن كان أمرُه هو الحق.

والصَّحيح أن الذي دعا بذلك أبو جهل. رواه البخاري ومسلم في كتابيهما[٢].

وانتصب ﴿ٱلْحَقَّ﴾؛ لأنه خبر كان.

وقال الزمخشري: معنى كلامهم جحودٌ؛ أي: إن كان هذا هو الحق فعاقبنا على إنكاره، ولكنه ليس بحق فلا نستوجب عقابًا، وليس مرادهم الدعاء على أنفسهم، إنما مرادهم نفيُ العقوبة عن أنفسهم[٣].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ إكرامٌ للنبي ﷺ.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: لو آمنوا واستغفروا فإن الاستغفار أمانٌ من العذاب.

---

(١) في د: «قالها».
(٢) أخرجه البخاري (٤٦٤٨)، ومسلم (٢٧٩٦).
(٣) انظر: الكشاف (٧/ ٨٧).

قال بعض السلف: كان لنا أمانان من العذاب؛ وهما: وجود النبي ﷺ، والاستغفار، فلما مات النبي ﷺ ذهب الأمان الواحد، وبقي الآخر[(١)].

وقيل: الضمير في ﴿مُعَذِّبَهُمْ﴾ للكفار، وفي ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ للمؤمنين الذين كانوا بين أظهرهم.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ المعنى: أيُّ شيءٍ يَمنع من عذابهم وهم يصدون المؤمنين من المسجد الحرام!.

والجملة في موضع الحال، وذلك هو[(٢)] الموجِب لعذابهم.

﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ الضمير: للمسجد الحرام، أو لله تعالى.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ المكاء: التَّصفير بالفم، والتصدية: التَّصفيق باليد، وكانوا يفعلونهما إذ صلى المسلمون؛ ليَخلِطوا عليهم صلاتَهم.

﴿يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ الآيةَ؛ نزلت في إنفاق قريش في غزوة أحد.

وقيل: إنها نزلت في أبي سفيان بن حرب؛ فإنه استأجر ألفين من الأحابيش[(٣)] فقاتل بهم النبي ﷺ يوم أحد.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسير (١/ ١٥١-١٥٣) من قول ابن عباس وأبي موسى الأشعري وأبي العلاء ﷺ.

(٢) في أ، ب: «من».

(٣) في أ: «الأحباش»، وفي ب، ج، هـ: «الأحابش»، وفي سيرة ابن هشام (١/ ٣٧٣): «قال ابن إسحاق: والأحابيش: بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، والهُوْن ابن خزيمة ابن مدركة، وبنو المصطلق من خزاعة. قال ابن هشام: تحالفوا جميعا، فسموا الأحابيش؛ لأنهم تحالفوا بوادٍ يقال له الأحْبَش بأسفل مكة».

﴿تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي: يتأسَّفون على إنفاقها من غير فائدة، أو يتأسفون في الآخرة.

﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ إخبارٌ بالغيب.

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ معنى ﴿يَمِيزَ﴾: يفرِّق بين الخبيث والطيب.

والخبيث هنا: الكفار، والطيب: المؤمنون.

وقيل: الخبيث: ما أنفقه الكفار، والطيب: ما أنفقه المؤمنون.

واللام في ﴿لِيَمِيزَ﴾ -على هذا- تتعلَّق بـ ﴿يُغْلَبُونَ﴾.

وعلى الأول: بـ ﴿يُحْشَرُونَ﴾.

﴿فَيَرْكُمَهُۥ﴾ أي: يضمُّه ويجعلَ بعضه فوق بعض.

* * *

[﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾].

﴿إِن يَنتَهُوا۟﴾ يعني: عن الكفر؛ لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله، ولا تصحُّ المغفرة إلّا به.

﴿وَإِن يَعُودُوا۟﴾ يعني: إلى القتال.

﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تهديدٌ بما جرى لهم يوم بدر، وبما جرى للأمم السالفة.

﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ الفتنة هنا: الكفر؛ فالمعنى: قاتلوهم حتى لا يبقى كفرٌ، فهو كقوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٢٤)، ومسلم (٢٠).

﴿وَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ لفظه عامٌّ يراد به الخصوص؛ لأن الأموال التي تؤخذ من الكفار:

منها ما يخمَّس؛ وهو ما أُخِذ على وجه الغلَبة بعد القتال.

ومنها ما لا يخمس، بل يكون جميعه لمن أخَذه؛ وهو ما أخَذه من كان ببلاد الحرب من غير إيجافٍ، وما طرحه العدو خوف الغرق.

ومنها ما يكون جميعه للإمام يأخذ منه حاجته، ويصرِف سائرَه في مصالح المسلمين؛ وهو الفيءُ الذي لم يُوجَف عليه بخيل ولا ركاب.

﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ الآيةَ؛ اختُلف في قَسْم الخُمس على هذه الأصناف:

فقال قوم: يصرف على ستة أسهم: سهم الله[(١)] في عمارة الكعبة، وسهم النبي[(٢)] ﷺ في مصالح المسلمين - وقيل: للوالي[(٣)] بعده -، وسهمٌ لذوي القربى الذين لا تحلُّ لهم الصدقة، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل.

وقال الشافعي: على خمسة أسهم، ولا يَجعل لله سهمًا مختصًا، وإنما بدأ -عنده- بالله؛ لأن الكلَّ مُلكه.

وقال أبو حنيفة: على ثلاثة أسهم: لليتامى، والمساكين، وابن السبيل.

وقال مالك: الخمس إلى اجتهاد الإمام، يأخذ منه كفايته، ويصرف الباقيَ في المصالح.

---

(١) في أ، ب: «لله».

(٢) في أ، ب: «للنبي».

(٣) في أ، ب، ج، هـ: «للموالي».

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ راجعٌ إلى ما تقدم، والمعنى: إن كنتم مؤمنين فاعلموا ما ذَكر الله لكم من قسمة الخمس، واعملوا بحسَب ذلك ولا تخالفوه.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يعني: النبي ﷺ. والذي أنزل عليه: القرآن أو النصر.

﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ أي: التَّفرقة بين الحق والباطل، وهو يوم بدر.

﴿ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ يعني: المسلمين والكفار.

﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ العامل في ﴿إِذْ﴾: ﴿ٱلْتَقَى﴾.

والعُدْوة: شَفِير الوادي، وقرئ بالضم والكسر؛ وهما لغتان.

و﴿ٱلدُّنْيَا﴾: القريبة من المدينة، و﴿ٱلْقُصْوَىٰ﴾: البعيدة.

﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ يعني: العير التي كان فيها أبو سفيان، وكان قد نكَب عن الطريق؛ خوفًا من النبي ﷺ، وكان جمْعُ قريشٍ المشركين قد حال بين المسلمين وبين العِير.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَـٰدِ﴾ أي: لو تواعدتم مع قريش ثم علمتم كثرتَهم وقلَّتكم لاختلفتم ولم تجتمعوا معهم.

أو: لو تواعدتم لم يتفق اجتماعكم مثل ما اتفق بتيسير الله ولطفه.

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ أي: يموت من مات ببدر عن إعذار وإقامة حجة عليه، ويعيش من عاش بعد البيان له.

وقيل: ﴿لِّيَهْلِكَ﴾: يكفر، ﴿وَيَحْيَىٰ﴾: يؤمن.

وقرئ ﴿مَنْ حَيِيَ﴾ بالإظهار والإدغام؛ وهما لغتان.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الآيةَ؛ كان رسول الله ﷺ قد رأى الكفار في نومه قليلًا، فأخبر بذلك أصحابه فقويت أنفسهم.

﴿لَّفَشِلْتُمْ﴾ أي: جبنتم عن اللقاء.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ الآيةَ؛ معناها: أن الله أظهر كل طائفة قليلةً في عين الأخرى؛ ليقع التجاسر على القتال.

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ۝٤٧ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٤٨﴾].

﴿رِيحُكُمۡۖ﴾ أي: قوتكم ونشاطكم؛ وذلك استعارةٌ.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ يعني: قريشًا الكفار حين خرجوا لبدرٍ.

﴿بَطَرٗا﴾ أي: اعتداءً[1] وتكبرًا.

﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ الآيةَ؛ لما خرجت قريش إلى بدر تصوَّر لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك، فقال لهم: إني جار لكم من قومي -وكانوا قد خافوا من قومه-، ووعدهم النصر[2].

﴿نَكَصَ﴾ أي: رجع إلى وراءَ.

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ رأى[3] الملائكةَ تقاتل.

---

(١) في هامش أ: «عتوًّا».
(٢) في أ، ب: «بالنصر».
(٣) في أ، ب، ج: «أي».

[﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾].

﴿يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ الذين كانوا بالمدينة.

وقيل: الذين كانوا مع الكفار، وهم نفرٌ من قريش؛ منهم: قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن ربيعة بن الأسود، وعلي بن أمية بن خلف، والعاصي بن منبِّه بن الحجاج؛ وكانوا قد أسلموا ولم يهاجروا وخرجوا يوم بدر مع الكفار فقالوا هذه المقالة.

﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ أي: اغترَّ المسلمون بدينهم، فأدخلوا أنفسهم فما لا طاقة لهم به.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ ذلك فيمن قُتِل يوم بدر.

﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾ أي: أَسْتاهَهم، وقيل: ظهورَهم.

﴿وَذُوقُواْ﴾ هذا من قول الملائكة لهم؛ تقديره: ويقولون لهم: ذوقوا.

والقول المحذوف ومعموله معطوف على ﴿يَضْرِبُونَ﴾.

ويَحتمل أن يكون ما بعده:

من قول الملائكة.

أو يكون مستأنفًا.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ تقديره عند سيبويه: الأمر ذلك، والباء سببية.

والمعنى: أن الله لا يغيِّرُ نعمةً على عبيده حتى يغيروا هم بالكفر والمعاصي.

﴿كَدَأْبِ﴾ ذُكِر في «آل عمران»(١).

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ يريد: بني قريظة.

﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي: افعل بهم من النِّقمة ما يَزجُر غيرَهم.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ أي: نقضًا للعهد.

﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: ردَّ العهد الذي بينك وبينهم.

والمفعول محذوف؛ تقديره: فانبذ إليهم عهدَهم.

﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: على مَعْدلة.

وقيل: معناه: أن تستوي معهم في العلم بنقض العهد.

---

(١) انظر ١/٥١٧.

[﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾].

﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾ أي: لا تظنَّ أنهم فاتُوا ونجَوا بأنفسهم.

﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ أي: لا يفوتون في الدنيا، ولا في الآخرة.

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم﴾ الضمير:

للذين يُنبَذ إليهم العهد.

أو للذين لا يُعجِزون.

وحكمه عامٌّ في جميع الكفار.

﴿مِّن قُوَّةٍ﴾ قال رسول الله ﷺ: «ألَا إن القوة الرمي»[(١)].

﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ الزمخشري: الرباط: اسم للخيل التي تربط في سبيل الله[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم (١٩١٧).

(٢) انظر: الكشاف (٧/ ١٤١).

ابن عطية: رباط الخيل: جمع رَبْط، أو مصدر[١].

﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ يعني: الكفارَ.

﴿وَءَاخَرِينَ﴾ يعني: المنافقين، وقيل: بني قريظة، وقيل: الجن؛ لأنها تنفر من صهيل الخيل، وقيل: فارس.

والأول أرجح؛ لقوله: ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ﴾ [التوبة: ١٠١].

قال السهيلي: لا ينبغي أن يقال فيهم شيءٌ؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾، فكيف يعلمهم أحد![٢].

وهذا لا يلزم؛ لأن معنى قوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾: لا تعرفونهم؛ أي: لا تعرفون آحادهم وأعيانهم، وقد يُعرَف صنفهم من الناس، ألَا ترى أنه قال مثل ذلك في المنافقين.

﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ السَّلم هنا: المهادنة.

والآية منسوخة بآية[٣] القتال في «براءة»؛ لأن مهادنة كفار العرب لا تجوز.

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ﴾ قيل: المراد: بين قلوب الأوس والخزرج؛ إذ كانت بينهما عداوة فذهبت بالإسلام.

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٤/ ٢٢٧).

(٢) انظر: التعريف والإعلام، للسهيلي (ص: ١٢٠).

(٣) في ب، ج، هـ: «بآيات».

واللفظ عام.

﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عطفٌ على اسم الله.

وقال الزمخشري: مفعول معه، والواو بمعنى «مع»؛ أي: حسبك وحسب من اتبعك اللهُ[١].

* * *

(١) انظر: الكشاف (٧/ ١٤٦).

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾].

﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ﴾ الآيةَ؛ إخبارٌ يتضمَّن:

وعدًا، بشرط الصبر.

ووجوبَ ثبوت الواحد للعشرة، ثم نُسِخ بوجوب ثبوت[1] الواحد للاثنين.

﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ أي: يقاتلون على غير دين ولا بصيرة؛ فلا يثبتون.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾ لما أَخذ الأسرى يوم بدر أشار أبو بكر بحياتهم، وأشار عمر بقتلهم، فنزلت الآية؛ عتابًا على استبقائهم.

﴿حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: يبالغَ في القتل.

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ عتابٌ لمن رغب في فداء الأسارى.

﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ الكتاب:

ما قضاه الله في الأزل من العفو عنهم.

---

(١) في أ، ب: «بثبوت».

وقيل: ما قضاه من تحليل الغنائم لهم.

﴿فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ﴾ يراد به: الأُسارى، أو فداؤهم.

ولما نزلت الآية قال رسول الله ﷺ: «لو نزل عذاب ما نجا منه غيرك يا عمر»[(١)].

﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ﴾ إباحةٌ للغنائم، ولفداء الأسارى.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٢٨٣).

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٧١ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝٧٢ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ۝٧٣ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٧٤ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ۝٧٥﴾].

﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ أي: إن علم في قلوبكم إيمانًا جبر عليكم ما أُخذ منكم من الفدية.

قال العباس: فيَّ نزلت؛ وكان افتدى يوم بدر، ثم أعطاه رسول الله ﷺ من المال ما لم يقدر أن يحمله، فقال: قد أعطاني الله خيرًا مما أُخِذ مني، وأنا أرجو أن يغفر لي[1].

﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ الآيةَ؛ تهديدٌ لهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلى آخر السورة؛ مَقصِدها: بيان منازل المهاجرين، والأنصار، والذين آمنوا ولم يهاجروا بعد الحديبية.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٢٨٥).

فبدأ أولًا بالمهاجرين، ثم ذكر الأنصار - وهم الذين آووا ونصروا -، وأثبت الولاية بينهم، وهي ولاية التعاون والتناصر.

وقيل: هي ولاية الميراث، ثم نُسِخت بقوله: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾.

﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ﴾ لما نفَى الولاية بين المؤمنين الذين هاجروا وبين المؤمنين الذين لم يهاجروا: أمر بنصرهم إن استنصروا بالمؤمنين، إلَّا إذا استنصروا على قوم بينهم وبين المؤمنين عهد، فلا ينصرونهم عليهم.

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿إِلَّا﴾ هنا مركَّبة من «إنْ» الشرطية و«لا» النافية.

والضمير في ﴿تَفْعَلُوهُ﴾:

لولاية المؤمنين ومعاونتهم.

أو لحفظ الميثاق الذي في قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾.

أو للنصر الذي في قوله: ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾.

والمعنى: إن لم تفعلوا ذلك تكن فتنة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟﴾ الآيةَ؛ ثناءٌ على المهاجرين والأنصار، ووعد لهم.

والرزق الكريم: في الجنة.

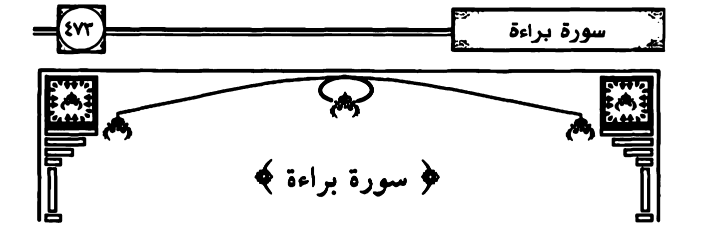
﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ﴾ يعني: الذين هاجروا بعد الحديبية وبيعة الرضوان.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ **قيل**: هي ناسخة للتوارث بين المهاجرين والأنصار.

وقال مالك: ليست في الميراث.

وقال أبو حنيفة: هي في الميراث؛ وأوجب بها ميراث الخال والعمة وغيرهما من ذوي الأرحام.

﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في القرآن، **وقيل**: في اللوح المحفوظ.



﴿ سورة براءة ﴾

وتسمَّى: سورة التوبة، وتسمى - أيضًا - الفاضحة؛ لأنها كشَفت أسرار المنافقين.

واتفقت المصاحف والقرَّاء على إسقاط البسملة من أولها.

واختُلف في سبب ذلك:

فقال عثمان بن عفان ﷺ: أشبهت معانيها معانيَ «الأنفال»، وكانت تدعى[1] القرينتين في زمان رسول الله ﷺ؛ فلذلك قَرنتُ بينهما ووضعتُها[2] في السبع الطّوال[3].

وكان الصحابة قد اختلفوا: هل هما سورتان أو سورة واحدة؟ فتُرِكتَ البسملةُ بينهما لذلك.

وقال علي بن أبي طالب ﷺ: البسملة أمان، و«براءة» نزلت بالسيف، فلذلك لم تبدأ بالأمان[4].

---

(١) في هامش أ: «تدعيان».

(٢) في أ، د: «ووضعتهما» والمثبت موافق لما في الرواية.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٩)، وأبو داود (٧٨٦)، والترمذي (٣٠٨٦)، والنسائي في الكبرى (٧/ ٢٥٣).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٦٠).

[﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾].

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ المراد بالبراءة: التبرُّؤ من المشركين.

وارتفاع ﴿بَرَآءَةٌ﴾ على أنه: خبر ابتداء، أو مبتدأ.

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تقدير الكلام: براءة واصلةٌ من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين، فـ«مِن» و«إلى» متعلِّقان بمحذوف لا بـ ﴿بَرَآءَةٌ﴾.

وإنما أسند العهد إلى المسلمين في قوله: ﴿عَٰهَدتُّم﴾؛ لأن فِعْل الرسول ﷺ لازمٌ للمسلمين، فكأنهم هم الذين عاهدوا المشركين.

وكان النبي ﷺ قد عاهد المشركين إلى آجالٍ محدودة:

فمنهم من وفَّى، فأمر الله أن يُتَمَّ عهدُه إلى مدته.

ومنهم من نقض، أو قارب النقض، فجُعل له أجلٌ أربعة أشهر، وبعدها لا يكون له عهد.

﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: سيروا آمنين أربعةَ أشهر، وهي الأجل الذي جعل لهم.

واختُلف في وقتها:

فقيل: هي شوال وذو قَعدة وذو حِجة والمحرَّم؛ لأن السورة نزلت حينئذ، وذلك عام تسعة.

وقيل: هي من عيد الأضحى إلى تمام العَشر الأوَّل من ربيع الآخر؛ لأنهم إنما علموا بذلك حينئذ، وذلك أن رسول الله ﷺ بعث تلك السنة أبا بكر الصديق فحجَّ بالناس، ثم بعث بعده علي بن أبي طالب فقرأ على الناس سورة براءة: يوم عرفة، وقيل: يوم النحر.

﴿غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ﴾ أي: لا تَفوتونه.

﴿وَأَذَٰنٌ﴾ أي: إعلام بتبرُّؤ الله تعالى ورسولِه من المشركين.

﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ جعَل البراءة مختصَّةً بالمعاهدين من المشركين)[1]، وجعل الإعلام بالبراءة عامًّا لجميع الناس؛ من عاهد، ومن لم يُعاهِد، وللمشركين وغيرهم.

﴿ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ هو يوم عرفة، أو يوم النحر.

---

(١) سقط من أ، ب، ج، هـ.

وقيل: أيام الموسم كلها؛ وعبر عنها بيوم؛ كقولك: يوم صفين والجمل وكانت أيامًا كثيرة.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ﴾ تقديره: أذان بأن الله بريء، وحذفت الباء تخفيفًا.

وقرئ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ بالكسر؛ لأن الأذان في معنى القول.

﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ ارتفع:

بالعطف على الضمير في ﴿بَرِيٓءٌ﴾.

أو بالعطف على موضع اسم ﴿أَنَّ﴾.

أو بالابتداء، وخبره محذوف.

وقرئ بالنصب؛ عطفًا على اسم ﴿أَن﴾.

وأما الخفض:

فلا يجوز فيه العطف على ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ لأنه معنى فاسد.

ويجوز على الجوار، أو على القسَم، وهو - مع ذلك - بعيدٌ، والقراءة به شاذة.

﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ يعني: التوبة من الكفر.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم﴾ يريد: الذين لم ينقضوا.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ يعني: الأشهر الأربعة التي جعلت لهم:

فمن قال: إنها شوال وذو قَعدة وذو حِجة والمحرم: فهي الحُرُم المعروفة زاد فيها شوال، ونقص رجب، وسمِّيت حُرمًا؛ تغليبًا للأكثر.

ومن قال: إنها إلى ربيع الثاني: فسمِّيت حرمًا؛ لحرمتها ومنع القتال فيها حينئذ.

﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ ناسخةٌ لكل موادَعة في القرآن.

وقيل: إنها نَسخت أيضًا: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد: ٤].

وقيل: بل نَسختْها هي؛ فيجوز المنُّ والفداء.

﴿وَخُذُوهُمْ﴾ معناه: الأَسر، والأَخِيذ: هو الأسير.

﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ كلَّ طريق، ونصْبُه على الظرفية.

﴿فَإِن تَابُوا﴾ يريد: مِن الكفر، ثم قرن بالإيمان الصلاةَ والزكاة؛ فذلك دليل على قتال تارك الصلاة والزكاة، كما فعل أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

والآية في معنى قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة»[1].

﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ تأمينٌ لهم.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ هو من الجوار؛ أي: استأمنك فأمِّنه حتى يسمع القرآن؛ ليَرى هل يُسلِم أم لا.

﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ أي: إن لم يُسلِم فرُدَّه إلى موضعه.

وهذا الحُكْم ثابت عند قوم، وقال قوم: نُسِخ بالقتال.

---

(١) تقدم تخريجه في صفحة ٤٥٨.

[﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾].

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ لفظه[1] استفهام، ومعناه: استنكار واستبعاد.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قيل: المراد قريش، وقيل: قبائل بني بكر.

﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ «ما» ظرفية.

---

(١) في أ، ب، ج، هـ: «لفظ».

﴿كَيْفَ﴾ تأكيدٌ للأولى، وحذف الفعل بعدها؛ للعلم به، تقديره: كيف يكون لهم عهد؟.

﴿لَا يَرْقُبُوا﴾ أي: لا يُرَاعوا.

﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ الإلُّ: القرابة؛ وقيل: الحِلْف. والذمة: العهد.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ استثنَى[1] من قضَى له منهم بالإيمان.

﴿أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ أي: رؤساءَ أهلِه؛ قيل: إنهم أبو جهل، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، وسهيل بن عمرو. حكى ذلك الطبري[2]، وهو ضعيف؛ لأن أكثر هؤلاء كان قد مات قبل نزول هذه السورة.

والأحسن أنها على العموم.

﴿لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ أي: لا أيمان لهم يوفُون بها.

وقرئ: ﴿لا إِيمَانَ﴾ بكسر الهمزة.

﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ يتعلَّق بـ ﴿فَقَاتِلُوا﴾.

﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ قيل: يعني: إخراجه من المدينة حين قاتلوه بالخندق وأحد.

وقيل: يعني إخراجه من مكة إذ تشاوروا فيه بدار الندوة، ثم خرج هو بنفسه.

---

(١) في ب، ج، د: «استثناء».

(٢) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٣٦٣).

﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يعني: إذايَتَهم للنبي ﷺ والمسلمين بمكة.

﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ يريد[1]: بالقتل والأسر، وفي ذلك وعد للمسلمين بالظَّفر.

﴿قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ قيل: إنهم خزاعة. والإطلاق أحسن.

﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ﴾ استئنافُ إخبارٍ بأن الله يتوب على بعض هؤلاء الكفار فيُسلِم.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ الآيةَ؛ معناها: أن الله لا يتركُهم دون تمحيصٍ يظهر فيه الطيب من الخبيث.

و﴿أَمْ﴾ هنا بمعنى: بل والهمزة.

و﴿يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ أي: يعلم ذلك موجودًا؛ لتقوم به الحجة.

﴿وَلِيجَةً﴾ أي: بطانةً.

---

(١) في أ، ب، ج، هـ: «الله».

[﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَـٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾].

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أي: ليس لهم ذلك بالحق والواجب، وإن كانوا قد عمروها تغلُّبًا[1] وظلمًا.

ومن قرأ ﴿مَسَـٰجِدَ﴾ بالجمع: أراد جميع المساجد.

ومن قرأ بالتوحيد: أراد المسجد الحرام.

﴿شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ أي: أن أحوالهم وأقوالهم تقتضي الإقرار بالكفر.

---

(١) في أ، ب، هـ: «تغليبًا».

وقيل: الإشارةُ إلى قولهم في التلبية: «لا شريك لك، إلَّا شريكاً هو لك».

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ الآيةَ؛ سببها: أن قومًا من قريش افتخروا بسقاية الحاج، وبعمارة المسجد الحرام؛ فبيَّن الله أن الجهاد أفضل من ذلك.

ونزلت الآية في علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وطلحة ابن شيبة، افتخروا؛ فقال طلحة: أنا صاحب البيت وعندي مفاتحه، وقال العباس: أنا صاحب السقاية، وقال علي: لقد أسلمت قبل الناس، وجاهدت مع رسول الله ﷺ.

﴿لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ﴾ الآيةَ؛ قيل: نزلت فيمن تثبَّط عن الهجرة، ولفظها عامٌّ، وكذلك حكمها.

﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ وعيدٌ لمن آثر أهله أو ماله أو مسكنه على الهجرة والجهاد.

﴿بِأَمْرِهِ﴾ قيل: يعني: فتح مكة، وقيل: هو إشارةٌ إلى عذاب أو عقوبة.

[﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾].

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ عطفٌ على ﴿مَوَاطِنَ﴾.

أو منصوبٌ بفعل مضمر، وهذا أحسن؛ لوجهين:

أحدهما: أن قوله: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ مختصٌّ بحنين، ولا يصح في غيره من المواطن؛ فيضعُف عطف (يوم حنين على المواطن؛ للاختلاف الذي بينهما في ذلك.

والآخر: أن ﴿مَوَاطِنَ﴾ ظرف مكان، و﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ ظرف زمان؛ فيضعف عطف)[1] أحدهما على الآخر، إلَّا أن يريد بالمواطن الأوقات.

وحُنين: اسم علمٍ لموضعٍ عُرِف برجل اسمه حنين، وانصرف لأنه مذكَّر.

﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ كانوا يومئذ اثني عشر ألفًا، فقال بعضهم: لن

---

(١) سقط من أ، ب، ج، هـ.

نُغلَب اليوم من قلَّة، فأراد الله إظهار عجزهم، ففرَّ الناس عن رسول الله ﷺ حتى بقي على بغْلته في نفر قليل، ثم استنصر بالله، وأخذ قبضة من تراب فرمى بها وجوه الكفار وقال: «شاهت الوجوه»[١]، ونادى بأصحابه[٢] فرجعوا إليه، وهزم الله الكفار.

وقصة حنين مذكورة في السِّيَر.

﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: ضاقت على كثرة اتساعها، و«ما» هنا: مصدرية.

﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يعني: الملائكةَ.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ﴾ إشارةٌ إلى إسلام هوازن الذين قاتلوا المسلمين بحنين.

﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ قيل: إن نجاستهم بكفرهم، وقيل: بالجنابة.

﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ نصٌّ على منع المشركين - وهم عبَدة الأوثان- من المسجد الحرام، فأجمع العلماء على ذلك.

وقاس مالك على المشركين: سائرَ الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، وقاس على المسجد الحرام: سائرَ المساجد، فمنع جميعَ الكفار من جميع المساجد.

وجعلها الشافعي عامة في الكفار، خاصةً بالمسجد الحرام، (فمَنع جميعَ الكفار من دخول المسجد الحرام خاصة)[٣]، وأباح لهم دخول غيره.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٧).

(٢) في أ، ب، هـ: «أصحابه».

(٣) سقط من ب، ج، هـ.

وقصَرها أبو حنيفة على موضع النصّ؛ فمنع المشركين خاصة من دخول المسجد الحرام خاصة، وأباح لهم دخول سائر المساجد، وأباح دخول أهل الكتاب في المسجد الحرام وغيره.

﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ يريد: عامَ تسعة من الهجرة؛ حين حج أبو بكر بالناس، وقرأ عليهم عليٌّ سورة «براءة».

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي: فقرًا.

كان المشركون يجلبون الأطعمة إلى مكة، فخاف الناس قلة القوت بها إذ مُنِعَ المشركون منها، فوعدهم الله بأن يغنيهم من فضله، فأسلمت العرب كلها، وتمادى جلب الأطعمة إلى مكة ثم فتح الله للمسلمين(١) سائرَ الأمصار.

﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أمرٌ بقتال أهل الكتاب.

ونفَى عنهم الإيمان بالله؛ لقول اليهود: عزير ابن الله، وقول النصارى: المسيح ابن الله، ونفى عنهم الإيمان باليوم الآخر؛ لأن اعتقادهم فيه فاسد، فإنهم لا يقولون بالمعاد الجِسْماني(٢).

﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ لأنهم يستحلون الميتة والدم ولحم الخنزير وغير ذلك.

﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لا يدخلون في الإسلام.

---

(١) في أ، ب، هـ: «ثم فتح المسلمون».
(٢) في أ، ج، هـ: «الحسابي».

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ بيان للذين أُمِر بقتالهم، وحين نزلت هذه الآية خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك؛ لقتال النصارى.

﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ اتفق العلماء على قَبول الجزية من اليهود والنصارى ويُلحَق بهم المجوس؛ لقوله ﷺ: «سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب»(١).

واختلفوا في قَبولها من عبَدة الأوثان والصابئين.

ولا تؤخذ من النساء والصِّبيان والمجانين.

وقَدْرها عند مالك: أربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعون درهمًا على أهل الوَرِق، ويؤخذ ذلك من كل رأس.

﴿عَن يَدٍ﴾ فيه تأويلان:

أحدهما: دفْع الذميِّ لها بيده، لا يبعثها مع أحد ولا يَمْطُل بها؛ كقولك: يدًا بيد.

الثاني: عن استسلام وانقياد؛ كقولك: ألقى فلان بيده.

﴿وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ أي: أذلَّاء.

* * *

(١) أخرجه مالك في الموطإ (٧٤٢).

[﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾].

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: إن هذه المقالة قالها أربعة من اليهود؛ وهم: سلَّام بن مِشْكَم، ونعمان بن أوفى، وشأس بن قيس، ومالك بن الصَّيف.

وقيل: لم يقلها إلا فِنْحَاص، ونَسب ذلك إلى جميعهم؛ لأنهم متبعون لمن قالها.

والظاهر أن جماعتهم قالوها؛ إذ لم ينكروها حين نُسِبت إليهم.

وكان سبب قولهم ذلك: أنهم فقدوا التوراة، فحفظها عُزير وحده، فعلّمها لهم، فقالوا: ما علّم الله عزيرَ التوراة إلا أنه ابنه.

و﴿عُزَيْرٌ﴾ مبتدأ، و﴿ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ خبره.

ومُنع ﴿عُزَيْرٌ﴾ التنوين؛ لأنه أعجمي لا ينصرف.

وقيل: بل هو منصرف، وحذْف التنوين لالتقاء الساكنين، وهذا ضعيف.

وأما من نوَّنه فجعله عربيًّا.

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ﴾ قال أبو المعالي: «أطبقت النصارى على أن المسيح إله وابن إله»[1]، وذلك كفرٌ شنيع.

﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ يتضمَّن معنيين:

أحدهما: إلزامهم هذه المقالة، والتأكيد في ذلك.

والثاني: أنهم لا حجة لهم عليه، وإنما هو مجرَّد[2] دعوى؛ كقولك لمن تكذِّبه: هذا قولك بلسانك.

﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُۚ﴾ معنى ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾: يشابهون.

فإن كان الضمير لليهود والنصارى؛ فالإشارة بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُۚ﴾:

---

(١) الإرشاد، لأبي المعالي الجويني (ص: ٥١).

(٢) في ج، د: «عن».

للمشركين من العرب؛ إذ قالوا: الملائكة بنات الله، وهم أول كافر.

أو للصابئين.

أو لأمم متقدمة.

وإن كان الضمير للمعاصرين للنبي ﷺ من اليهود والنصارى؛ فـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ هم أسلافهم المتقدمون.

﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ دعاءٌ عليهم، وقيل: معناه: لعنهم الله.

﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ تعجُّبٌ كيف يُصرَفون عن الحق والصواب!.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ أي: أطاعوهم كما يطاع الربُّ، وإن كانوا لم يعبدوهم.

﴿وَٱلْمَسِيحَ﴾ معطوفٌ على الأحبار والرهبان.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي: أمرهم بذلك عيسى ومحمد ﷺ.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ أي: يريدون أن يطفئوا نبوة محمد ﷺ وما جاء به من عبادة الله وتوحيده.

﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ إشارةٌ إلى أقوالهم، كقولهم: ساحر وشاعر[1]، وفيه أيضًا إشارةٌ إلى ضعف حيلتهم فيما أرادوا.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ الضمير: للرسول ﷺ، أو للدين.

---

(١) في ب، هـ: «سحر وشعر».

وإظهاره: جعْلُه أعلى الأديان وأقواها حتى[(١)] عمَّ المشارق والمغارب.

وقيل: ذلك عند نزول عيسى بن مريم حين[(٢)] لا يبقى دين إلَّا دين الإسلام.

﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ هي[(٣)]: الرُّشا على الأحكام وغير ذلك.

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ ورد في الحديث أن: «كل ما أُدِّيتْ زكاته فليس بكنز، وما لم تؤدَّ زكاته فهو كنز»[(٤)].

وقال أبو ذرٍّ وجماعة من الزهاد: كلُّ ما فضَل عن حاجة الإنسان فهو كنز.

﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ الضمير للأموال والكنوز التي يتضمَّنها المعنى.

وقيل: هو للفضة، واكتفى بذلك عن الذهب؛ إذ الحكم فيهما واحد.

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ﴾ العامل في الظرف: ﴿أَلِيمٍ﴾، أو محذوفٌ.

﴿عَلَيْهَا﴾ الضمير يعود على ما يعود عليه ضمير ﴿يُنفِقُونَهَا﴾.

﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ هي الأشهر المعروفة؛ أولها: المحرم، وآخرها: ذو الحجة.

وكان الذي جعل المحرم أول شهر من العام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ، وقيل: في القرآن.

والأول أرجح؛ لقوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

---

(١) في أ، ب، هـ: «حتى».

(٢) في ج، د: «حتى».

(٣) في أ، ب: «هنا».

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبير (٨/ ١٣).

﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌۚ﴾ هي: رجب وذو قَعدة وذو حِجة والمحرم.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ يعني: أن تحريم الأشهر الحرم هو الدين المستقيم دين إبراهيم وإسماعيل[١]، وكانت العرب قد تمسَّكت به حتى غيَّره بعضهم.

﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ الضمير في قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ للأشهر الحُرُم تعظيمًا لأمرها، وتغليظًا للذنوب فيها، وإن كان الظلم ممنوعًا في غيرها.

وقيل: الضمير للاثني عشَر شهرًا، وهي الزمان كلُّه.

والأول أظهر.

﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةً﴾ أي: قاتلوهم في الأشهر الحرم؛ فهذا نسْخ لتحريم القتال فيها.

و﴿كَآفَّةً﴾ حال من الفاعل، أو المفعول.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ﴾ هو تأخير حرمة الشهر إلى الشهر الآخر، وذلك أن العرب كانوا أصحاب حروب وإغارات، وكانت محرَّمةً عليهم في الأشهر الحرم، فيشقُّ عليهم تركها، فيجعلونها في شهر حرام ويحرِّمون شهرًا آخر بدلًا منه، وربما أحلوا المحرَّم وحرموا صفرًا حتى يُكمِلوا في العام أربعة أشهر محرمة.

﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا﴾ أي: تارة يحلِّون وتارة يحرِّمون، ولم يُرِد العام حقيقةً.

---

(١) لم يرد «وإسماعيل» في أ، ب، هـ.

﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: ليوافقوا عدد الأشهر الحرم؛ وهو أربعة.

﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾ يعني: إحلالهم القتالَ في الأشهر الحرم.

* * *

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾].

﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ﴾ عتابٌ[١] لمن تخلَّف عن غزوة تبوك.

﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ عبارةٌ عن تخلفهم، وأصل ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾: تثاقلتم.

﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ﴾ شرط وجزاء.

وهذا العذاب: في الدنيا أو في الآخرة.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ شرط وجواب، والضمير لرسول الله ﷺ.

فإن قيل: كيف ارتباط هذا الشرط مع جوابه[٢]؟

---

(١) في هـ: «خطاب».

(٢) في أ، ب، هـ: «و».

فالجواب: أن المعنى: إن لم تنصروه أنتم فسينصره الله الذي نصره حين كان ثاني اثنين، فدلَّ بقوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ على نصْرِه في المستقبل.

﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: خروجَه من مكة مهاجرًا إلى المدينة، وأسند إخراجه إلى الكفار؛ لأنهم فعلوا معه من الأذى ما اقتضى خروجه.

﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ هو وأبو بكر الصديق.

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ يعني: أبا بكر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ يعني: بالنصر واللُّطف.

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ الضمير: للرسول ﷺ.

وقيل: لأبي بكر؛ لأن النبي ﷺ لم تزل معه السكينة، ويَضعف ذلك: بأن الضمائر بعدها للرسول عليه السلام.

﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يعني: الملائكةَ يوم بدر وغيره.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ يريد: بإذلالها ودَحْضها.

﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ قيل: هي: لا إله إلا الله، وقيل: الدين كله.

﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أمرٌ بالنَّفير إلى الغزو.

والخفَّة: استعارةٌ لمن يمكنه السفر بسهولة، والثِّقَل: مَن يمكنه بصعوبة.

وقال بعض العلماء: الخفيف: الغني، والثقيل: الفقير.

وقيل: الخفيف: الشاب، والثقيل: الشيخ.

وقيل: الخفيف: النشيط، والثقيل: الكسلان.

وهذه الأقوال أمثلة في الثقل والخفة.

وقيل: إن هذه الآية منسوخةٌ بقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ [التوبة: ٩١] الآية.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ الآيةَ؛ نزلت هي وكثيرٌ مما بعدها في هذه السورة في المنافقين الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك؛ وذلك أنها كانت إلى أرض بعيدة، وكانت في شدَّة الحر وطيب الثمار والظلال، فثقلت عليهم، فأخبر الله في هذه الآية أن السفر لو كان لعَرَضٍ من الدنيا، أو إلى مسافة قريبة لفعلوه.

﴿بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ أي: الطريقُ والمسافة.

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ إخبارٌ بغيب؛ وهو أنهم يعتذرون بأعذار كاذبة ويحلفون.

﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: يُوقِعونها في الهلاك: بحَلِفهم الكاذب، أو بتخلُّفهم عن الغزو.

[﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾].

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ الآيةَ؛ كان بعض المنافقين قد استأذن النبي ﷺ في التخلُّف عن غزوة تبوك فأذن لهم، فعاتبه الله تعالى على إذنه لهم.

وقدَّم العفو على العتاب؛ إكرامًا له ﷺ.

وقيل: إن قوله ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ ليس لذنب ولا عتاب، ولكنه استفتاح كلام؛ كما تقول: أصلحك الله.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ كانوا قد قالوا: نستأذنه في القعود، فإن أَذِن لنا قعدنا، (وإن لم يأذن لنا قعدنا)[١].

وإنما كان يظهر الصدق من الكذب لو لم يأذن لهم؛ فحينئذ كان يقعد العاصي والمنافق، ويسافر المطيع.

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآيةَ؛ أي: لا يستأذنك في التخلُّف عن الغزو لغير عذرٍ مَن يؤمن بالله واليوم الآخر.

﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: شكَّت.

ونزلت الآية في عبد الله بن أبي بن سلول والجدِّ بن قيس.

﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ﴾ الآيةَ؛ أي: لو كانت لهم نيةٌ في الغزو لاستعدوا له قبل أوانه.

﴿ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ أي: خروجَهم.

﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي: كسَر عزمَهم، وجعل في قلوبهم الكسل.

﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ﴾ يَحتمل أن يكون القائل لهم ﴿ٱقْعُدُواْ﴾:

هو الله تعالى؛ وذلك عبارةٌ عن قضائه عليهم بالقعود.

ويَحتمل أن يكون ذلك من قول بعضهم لبعض.

﴿مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ أي: مع النساء والصبيان وأهل الأعذار، وفي ذلك ذمٌّ لهم لاختلاطهم في القعود مع هؤلاء.

---

(١) سقط من ب، ج، هـ.

﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: شرًّا وفسادًا.

﴿وَلَأَوْضَعُواْ﴾ أي: أسرعوا السير، والإيضاع: سرعة السير، والمعنى: أنهم يسرعون بالفساد والنميمة.

﴿خِلَالَكُمْ﴾ أي: بينكم.

﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي: يحاولون أن يَفتِنوكم.

﴿سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ قيل: يسمعون كلامهم.

وقيل: يسمعون أخباركم وينقلونها إليهم.

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ أي: طلبوا الفساد، (وروي أنها نزلت في عبد الله بن أبيّ وأصحابه من المنافقين)[١].

﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ الْأُمُورَ﴾ أي: دبَّروها من كل وجه، فأبطل الله سعيَهم.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ لما دعا النبي ﷺ إلى غزوة تبوك قال الجدُّ بن قيس -وكان من المنافقين-: ائذن لي في القعود ولا تفتنِّي برؤية بنات الأصفر[٢]؛ فإني لا أصبر عن النساء.

﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ أي: وقعوا في الفتنة التي فرُّوا منها.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ الحسنة هنا: النصر والغنيمة وشبه ذلك.

﴿يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا﴾ أي: قد حَذِرْنا وتأهَّبْنا من قبل.

---

(١) سقط من أ، ب، ج، هـ.

(٢) في أ، ب، هـ: «بني الأصفر».

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ أي: ما قدَّر وقضى، وهذا ردٌّ على المنافقين.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ أي: هل تنتظرون بنا إلَّا أحد أمرين: إما الظفَر والنصر، وإما الموت في سبيل الله، وكل واحدة من الخَصلتين حسنى.

﴿بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ المصائبُ وما ينزل من السماء، أو عذابُ الآخرة.

﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ يعني: القتلَ.

﴿فَتَرَبَّصُوٓا﴾ تهديدٌ.

* * *

[﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾].

﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ تضمَّن الأمر هنا معنى الشرط، فاحتاج إلى جواب.

والمعنى: لن يتقبلَ منكم سواءٌ أنفقتم طوعًا أو كرهًا، والطَّوع والكَره عموم في الإنفاق؛ أي: لن يتقبل على كل حال.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟﴾ تعليلٌ لعدم قَبول نفقاتهم بكفرهم.

ويَحتمل أن يكون ﴿أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟﴾:

فاعلُ ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ﴾.

أو في موضع المفعول من أجله، والفاعل الله.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾ قيل: عذابهم في الدنيا بالمصائب.

وقيل: ما أُلزِموا من أداء الزكاة.

﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ إخبارٌ بأنهم يموتون على الكفر.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ أي: من المؤمنين.

﴿يَفْرَقُونَ﴾ يخافون.

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ أي: ما يلجؤون إليه من المواضع.

﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ هي الغِيران في الجبال.

﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ وزنه مُفْتَعَل؛ مِن الدخول، ومعناه: نفقٌ أو سَرْبٌ في الأرض.

﴿يَجْمَحُونَ﴾ أي: يُسرِعون.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: يَعيبك على قِسْمتها.

والآية في المنافقين؛ كالتي قبلها وبعدها.

وقيل: هي في ذي الخويصرة الذي قال: اعدل يا محمد فإنك لم تعدل.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟﴾ الآيةَ؛ ترغيبٌ لهم فيما هو خير لهم.

وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ؛ تقديره: لكان ذلك خيرًا لهم.

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الآيةَ؛ ﴿إِنَّمَا﴾ هنا: تقتضي حصر الصدقات -وهي الزكاة[1]- في هذه الأصناف الثمانية، فلا يجوز أن يعطَى منها غيرهم.

---

(١) في ب، هـ: «الزكوات».

ومذهب مالك: أن تفريقها في هؤلاء الأصناف إلى اجتهاد الإمام؛ فله أن يجعلها في بعضهم دون بعض.

ومذهب الشافعي: أنه يجب أن تقسم على جميع هذه الأصناف بالسَّواء.

واختلف العلماء هل الفقير أشدُّ حاجةً من المسكين أو بالعكس؟

فقيل: هما سواء.

وقيل: الفقير الذي يسأل ويُعلَم حاله، والمسكين ليس كذلك.

﴿وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ أي: الذين يقبضونها ويفرِّقونها.

﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ كفارٌ يعطَون ترغيبًا في الإسلام.

وقيل: هم مسلمون يعطون ليتمكَّن إيمانهم.

واختلف هل بقي حكمهم، أو سقط للاستغناء عنهم؟.

﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ يعني: العبيد؛ يُشترَون ويُعتَقون.

﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ يعني: مَن عليه دين، ويشترط أن يكون استدان في غير فساد ولا سرَف[١].

﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني: الجهاد، فيعطَى منها المجاهدون ويشترَى منها آلات الحرب.

واختُلف هل تصرف في بناء الأسوار وإنشاء الأساطيل؟.

﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو الغريب المحتاج.

---

(١) في أ، ب: «ولا إسراف».

﴿فَرِيضَةً﴾ أي: حقًّا محدودًا، ونصْبُه على المصدر.

فإن قيل: لم ذَكر مصرف الزكاة في تضاعيف ذِكْر المنافقين؟.

فالجواب: أنه حصَر مصرف الزكاة في تلك الأصناف؛ ليقطعَ طمع المنافقين فيها، فاتَّصلت هذه الآية في المعنى بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ الآية.

* * *

[﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾].

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ يعني: من المنافقين، وإذايتهم له ﷺ: بالأقوال والأفعال.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ أي: يسمع كلَّ ما يقال له ويصدِّقه.

ويقال: إنَّ قائل هذه المقالة هو نَبتَل بن الحارث، وكان من مرَدة المنافقين، وقيل: عتَّاب بن قُشير.

﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي: هو يسمع الخير والحق.

﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يصدِّقهم؛ يقال: آمنت لك؛ إذا صدَّقتك؛ ولذلك تعدَّى هذا الفعل باللام، وتعدَّى ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ بالباء.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بالرفع؛ عطفٌ على ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾.

وبالخفض؛ عطفٌ على ﴿خَيْرٍ﴾.

﴿يَحْلِفُونَ﴾ يعني: المنافقين.

﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ تقديره: والله أحق أن يرضوه، ورسوله كذلك؛ فهما جملتان حُذف الضمير من الثانية؛ لدلالة الأُولى عليها.

وقيل: إنما وحَّد الضمير لأن رضا الله ورسوله واحدٌ.

﴿مَن يُحَادِدِ اللَّهَ﴾ من يعادي ويخالف.

﴿فَأَنَّ لَهُۥ﴾ «أنَّ» هنا مكررة؛ تأكيدًا للأولى.

وقيل: بدل منها.

وقيل: التقدير: فواجب أنَّ له؛ فهي في موضع خبر مبتدإٍ محذوف.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: تُنزَّل في شأنهم سورة على النبي ﷺ، والضمائر في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ و﴿تُنَبِّئُهُم﴾ و﴿قُلُوبِهِمْ﴾ تعود على المنافقين.

وقال الزمخشري: إن الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ و﴿تُنَبِّئُهُم﴾ للمؤمنين، وفي ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ للمنافقين[1].

والأول أظهر.

﴿قُلِ اسْتَهْزِءُوٓا﴾ تهديدٌ.

﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ صنَع ذلك بهم في هذه السورة؛ لأنها فضحتهم.

﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ نزلت في وديعة بن ثابت؛ بلغ النبيَّ ﷺ أنه

---

(١) انظر: الكشاف (٧/ ٢٩٢).

قال: هذا يريد أن يفتتح قصور الشام! هيهات هيهات!، فسأله عن ذلك فقال: إنما كنا نخوض ونلعب.

﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ كان منهم رجل اسمه مُخَشِّن[1]، تاب ومات شهيدًا.

* * *

(١) قال ابن هشام في السيرة (٢/ ٥٢٤): «يقال له: مُخَشِّنُ بْنُ حُمَيِّر، ويقال: مخشيٌّ».

[﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾].

﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ نفيٌ لأن يكونوا من المؤمنين.

﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ﴾ كنايةٌ عن البخل.

﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: غفلوا عن ذكره.

﴿فَنَسِيَهُمْۗ﴾ تركهم من رحمته وفضله.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الأصل في الشرِّ أن يقال: «أوعد»، وإنما يقال فيه «وعد» إذا صُرِّح بالشر.

﴿وَٱلْكُفَّارَ﴾ يعني: المجاهرين بالكفر.

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ خطابٌ للمنافقين، والكاف:

في موضع نصبٍ؛ والتقدير: فعلتم مثلَ فعل الذين من قبلكم.

أو في موضع خبر مبتدإ؛ تقديره: أنتم كالذين من قبلكم.

﴿وَخُضْتُمْ﴾ أي: خلَطتم، وهو مستعارٌ من الخوض في الماء، ولا يقال إلَّا في الباطل من الكلام.

﴿كَالَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ تقديره: كالخوض الذي خاضوا.

وقيل: كالذين خاضوا؛ فـ«الذي» هنا -على هذا- بمعنى الجمْع.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ الآيةَ؛ تهديدٌ لهم بما أصاب الأمم المتقدمة.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ يعني: مدائنَ قوم لوط.

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات.

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في مقابلة قوله - في المنافقين -: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾، ولكنه خصَّ المؤمنين بالوصف بالولاية.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ **قيل**: عدن: هي مدينة الجنة وأعظمها.

وقال الزمخشري: هو اسم علم[1].

﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: رضوانٌ من الله أكبر مِن كلِّ ما ذُكِر.

وذلك معنى ما ذكر في الحديث: «**إن الله تعالى يقول لأهل الجنة**:

---

(١) انظر: الكشاف (٧/ ٣٠٤).

أتريدون شيئًا أزيدكم، فيقولون: يا ربنا أي شيء تزيدنا؟ فيقول: رضواني فلا أسخط عليكم أبدًا»[١].

* * *

(١) أخرجه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾].

﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ جهاد الكفار بالسيف، وجهاد المنافقين باللسان ما لم يَظهر ما يدل على كفرهم، فإن ظهر منهم ذلك فحكمهم حكم الزنديق، وقد اختُلف هل يقتل أم لا؟.

﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ الغِلظة ضدُّ الرحمة والرأفة، وقد تكون بالقول والفعل وغير ذلك.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ نزلت في الجُلَاسِ بن سُويد؛ فإنه قال: إن كان ما يقول محمد حقًّا فنحن شرٌّ من الحُمُر، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ، فقرره عليه، فحلف أنه ما قاله.

﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ يعني: ما تقدَّم من قول الجُلَاس؛ لأن ذلك يقتضي التكذيب.

﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ لم يقل: «بعد إيمانهم»؛ لأنهم كانوا يقولون بألسنتهم: آمنا، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم.

﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ همَّ الجُلَاس بقتل مَن بلَّغ تلك الكلمة عنه.

وقيل: همَّ بقتل النبي ﷺ.

وقيل: الآية نزلت في عبد الله بن أبيِّ بن سلول، وكلمةُ الكفر التي قالها قوله: سمِّنْ كلبَك يأكلْك، وهمُّه بما لم ينل: قوله: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].

﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: ما عابوا إلَّا الغنى الذي كان حقُّه أن يَشكروا عليه، وذلك في الجُلَاس، أو في عبد الله بن أبيٍّ.

﴿فَإِن يَتُوبُوا۟﴾ فتح الله لهم باب التوبة، فتاب الجُلَاس وحسن حاله.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ الآيةَ؛ نزلت في ثعلبة بن حاطب، وذلك أنه قال: يا رسول الله ادع الله أن يكثر مالي، فقال له رسول الله ﷺ: «**قليلٌ تؤدي شكره خيرٌ من كثير لا تطيقه**»، فأعاد عليه حتى دعا له، فكثر ماله، فتشاغل به حتى ترك الصلوات، ثم امتنع من أداء الزكاة، فنزلت فيه الآية، فجاء بزكاته إلى النبي ﷺ، فأعرض عنه ولم يأخذها منه، وقال: «**إن الله أمرني أن لا آخذ زكاتك**»، ثم لم يأخذها منه أبو بكر ولا عمر ولا عثمان[1].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٥٧٨-٥٨٠).

﴿بَخِلُواْ بِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى منعه الزكاة.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا﴾ ذلك عقوبةٌ على العصيان بما هو أشدُّ منه.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ حكم بوفاته على النفاق.

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ نزلت في المنافقين؛ حين تصدق عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف فقالوا: ما هذا إلّا رياء.

وأصل ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ المتطوعين، والمراد به هنا: مَن تصدق بكثير.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ هم الذين لا يقدرون إلّا على القليل فيتصدقون به.

نزلت في أبي عقيل؛ تصدق بصاع من تمر، فقال المنافقون: إن الله غني عن صدقة هذا.

﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ أي: يستخفُّون بهم.

﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ تسميةٌ للعقوبة باسم الذنب[١].

---

(١) قال الشيخ عبد الرحمن البراك حفظه الله: قول ابن جزي رحمه الله: «تسمية للعقوبة باسم الذنب» أقول: معنى كلامه أن الله لا يسخر حقيقة بالمنافقين، بل هذا من تسمية العقوبة باسم الذنب الذي ارتكبوه، وهو سخريتهم بالمؤمنين المتصدقين، وهذا معنى قول بعضهم: هذا من قبيل المشاكلة، أي اللفظية، كما قالوا مثل ذلك في المكر والاستهزاء والخداع، والصواب: أن الله يمكر حقيقة بالماكرين من الكافرين والمنافقين، ويخدع المخادِعين، ويستهزئ بالمستهزئين، ومن ذلك إملاؤه تعالى للكافرين واستدراجهم، وإظهاره سبحانه قبول ما أظهره المنافقون من الإيمان، فيحسبون أنهم خدعوا الله بما أظهروه من العمل، وهو تعالى محمود على ذلك؛ لأنه عدلٌ. =

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يَحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون لفظَ أمْرٍ، ومعناه الشرط، بمعنى: إن استغفرت لهم أو لم تستغفرلهم لن يغفر الله لهم، كما جاء في سورة «المنافقين».

والآخر: أن يكون تخييرًا؛ كأنه قال: إن شئت فاستغفر، وإن شئت فلا تستغفر لهم، ثم أَعْلَمه الله أنه لا يغفر لهم، وهذا أرجح؛ لقول رسول الله ﷺ: «إن الله خيَّرني فاخترت»، وذلك حين قال عمر: أتصلي على عبد الله بن أبيٍّ وقد نهاك الله عن الصلاة عليه![1].

﴿سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ ذكَرها على وجه التمثيل للعدد الكثير.

= ومن مكر الله واستهزائه بالمنافقين يوم القيامة أنهم يكونون مع المؤمنين، فيعطون أنوارا حتى يظنوا أنهم ناجون، وليسوا بناجين، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ الآيات، ومن مكر الله بالكافرين ما ذكره في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾. والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٦)، ومسلم (٢٧٧٤).

[﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾].

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ أي: الذين خلَّفهم الله عن الغزو وأقعدهم عنه، وفي هذا تحقيرٌ وذمٌّ لهم، ولذلك لم يقل: «المتخلِّفون».

﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ أي: بقعودهم.

﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي: بعدَه حين خرج إلى تبوك، فـ﴿خِلَٰفَ﴾ على هذا ظرف.

وقيل: هو مصدر مِن خالَفَ؛ فهو على هذا مفعول من أجله.

﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾ قال هذه المقالة رجل من بني سَلِمَة ممن صعب عليه السفر إلى تبوكَ في الحرِّ.

﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ أمرٌ بمعنى الخبر، فضَحِكُهم القليل: في الدنيا مدة بقائهم فيها، وبكاؤهم الكثير: في الآخرة.

وقيل: هو بمعنى الأمر؛ أي: يجب أن يكونوا يضحكون قليلًا ويبكون كثيرًا في الدنيا؛ لما وقعوا فيه.

﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ إنما لم يقل: «إليهم»؛ لأن منهم من تاب من النفاق وندم على التخلُّف.

﴿لَن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ عقوبةٌ لهم فيها خزي وتوبيخ.

﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يعني: في غزوة تبوك.

﴿فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ أي: مع القاعدين؛ وهم النساء والصبيان.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ نزلت في شأن عبد الله بن أبي بن سلول وصلاةِ رسول الله ﷺ عليه حين مات.

فروي أنه صلى عليه فنزلت الآية بعد ذلك.

وروي أن رسول الله ﷺ لما تقدَّم ليصليَ عليه جاءه جبريل فجبَذ بثوبه، وتلا عليه: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ الآيةَ، فانصرف ﷺ ولم يصل عليه.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ قيل: يعني براءة، والأرجح أنه على الإطلاق.

﴿أَنْ ءَامِنُوا۟﴾ «أنْ» هنا مفسِّرة.

﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ أي: أولوا الغنى والمال الكثير.

﴿لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ﴾ الآيةَ؛ أي: إن تخلَّف هؤلاء فقد جاهد الرسول ومن معه.

﴿ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ تعمُّ منافع الدارين.

وقيل: هي الحور العين؛ لقوله: ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠].

* * *

[﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾].

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ هم: المعتذرون؛ ثم أُدغمت التاء في الذال، ونقلت حركتها إلى العين، واختلف هل كانوا في اعتذارهم صادقين أو كاذبين؟.

وقيل: هم المقصّرون؛ من عذّرَ في الأمر: إذا قصّر فيه ولم يَجِدَّ؛ فوزنه على هذا: المفعّلون.

وروي أنها نزلت في قوم من غِفَار.

﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ هم قوم لم يجاهدوا ولم يعتذروا عن تخلفهم؛ فكذبوا في دعواهم الإيمان.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي: من المعذِّرين.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ هذا رفعٌ للحرج عن أهل الأعذار الصحيحة من ضعف البدن والفقر إذا تركوا الغزو.

وقيل: إن الضعفاء هنا هم النساء والصبيان، وهذا بعيد.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ قيل: نزلت في بني مُقَرِّنٍ، وهم ستة إخوة صحبوا النبي ﷺ.

وقيل: في عبد الله بن مغفل المزني.

﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ﴾ يعني: بنيَّاتهم وأقوالهم، وإن لم يخرجوا للغزو.

﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ وصفهم بالمحسنين؛ لأنهم[1] نصحوا لله ورسوله، ورفع عنهم العقوبة والتعنيف واللوم.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ قيل: هم بنو مقرِّن.

وقيل: ابن مغفل.

وقيل: سبعة نفر من بطون شتى؛ وهم البكَّاؤون.

ومعنى ﴿لِتَحْمِلَهُمْ﴾: على الإبل.

---

(١) في أ، ب، هـ: «أنهم».

وجواب ﴿إِذَا﴾ يحتمل أن يكون: ﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ﴾ أو ﴿تَوَلَّوا﴾.

﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ يعني: من غزوة تبوك.

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لن نصدِّقكم.

﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ نعتٌ لمحذوف هو المفعول الثاني؛ تقديره: قد نبأنا الله جملةً من أخباركم.

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ هم أهل البوادي من العرب.

﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعني: أنهم أحقُّ أن لا يعلموا الشرائع؛ لبعدهم عن الحاضرة ومجالس العلم.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ أي: تثقل عليه الزكاة والنفقة في سبيل الله ثِقَلَ المغرم الذي ليس بحق عليه.

﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ أي: ينتظر بكم مصائب الدنيا.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ خبرٌ، أو دعاءٌ.

﴿وَصَلَوَاتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: دعواته لهم.

وهو عطفٌ على ﴿قُرُبَاتٍ﴾؛ أي: يَقصِدون بنفقاتهم التقرُّب إلى الله[١] واغتنامَ دعاء الرسول لهم.

وقيل: نزلت في بني مقرِّن.

---

(١) في أ، ج، هـ: «إليه».

[﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾].

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ قيل: هم من صلَّى للقبلتين.

وقيل: من شهد بدرًا.

وقيل: من حضر بيعة الرضوان.

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم﴾ سائر الصحابة، ويدخل في ذلك التابعون ومن بعدهم إلى يوم القيامة؛ بشرط الإحسان.

﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ أي: اجترؤوا عليه، **وقيل**: أقاموا عليه.

﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ العذاب العظيم: هو عذاب النار.

وأما المرّتان قبله:

فالثانية منهما: عذاب القبر.

والأولى: عذابهم بإقامة الحدود عليهم.

وقيل: فضيحتهم في النفاق.

﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ الآيةَ؛ **قيل**: إنها نزلت في أبي لبابة، فعمله الصالح: الجهاد، وعمله السيِّئ: نصيحته لبني قريظة.

وقيل: هي فيمن تخلَّف عن تبوك من المؤمنين، فعملهم الصالح: ما سبق لهم، وعملهم السيئ: تخلفهم عن تبوك، وروي أنهم ربطوا أنفسهم إلى سواري المسجد، وقالوا: لا نحُلُّ أنفسنا حتى يحلَّنا رسول الله ﷺ.

وقيل: هي عامة في الأمة إلى يوم القيامة.

قال بعضهم: ما في القرآن آية أرجى لهذه الأمة من هذه.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ **قيل**: نزلت في المتخلفين الذين ربطوا أنفسهم؛ لما تاب الله عليهم قالوا: يا رسول الله إنا نريد أن نتصدق بأموالنا، فنزلت هذه الآية، وأخذ ثلث أموالهم.

وقيل: هي الزكاة المفروضة؛ فالضمير على العموم لجميع المسلمين.

﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ خطاب للنبي ﷺ، في موضع صفة لـ ﴿صَدَقَةً﴾.

أو حال من الضمير في ﴿خُذْ﴾.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادْعُ لهم.

﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ أي: تَسْكُن به نفوسهم؛ فهو عبارةٌ عن صحة الاعتقاد.

أو عن طُمَأْنينة نفوسهم إذ علموا أن الله تاب عليهم.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ الضمير في ﴿يَعْلَمُوٓاْ﴾: للتائبين من التخلف.

وقيل: للذين تخلفوا ولم يتوبوا.

وقيل: عام.

وفائدة الضمير المؤكِّد: تخصيص الله تعالى بقبول التوبة دون غيره.

﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ قيل: معناه: يأمر بها.

وقيل: يقبلها من عباده.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ قيل: هم الثلاثة الذين خُلِّفوا قبل أن يتوب الله عليهم.

وقيل: هم الذين بنَوْا مسجد الضِّرار.

وقرئ ﴿مُرْجَوْنَ﴾ بالهمز وتركِه، وهما لغتان، ومعناه: التأخير.

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ قرئ ﴿الَّذِينَ﴾ بغير واو؛ صفةً لقوله: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾، أو على تقدير: هم الذين، وهذه القراءة جارية على قول من قال في الـ ﴿مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾: هم أهل مسجد الضرار.

وقرئ ﴿وَالَّذِينَ﴾ بالواو؛ عطفًا على ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾، وهذه القراءة جارية على قول من قال في المرجَيْن: إنهم الثلاثة الذين خلفوا.

﴿ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾ كان بنو عمرِو بن عوف من الأنصار قد بنوا مسجد قباء، وكان رسول الله ﷺ يأتيه ويصلي فيه، فحسدهم على ذلك قومهم بنو غَنْمِ بن عوف وبنو سالم بن عوف؛ فبنوا مسجدًا آخر مجاورًا له؛ ليقطعوا الناس عن الصلاة في مسجد قباء، وذلك هو الضرار الذي قصدوا، وسألوا من رسول الله ﷺ أن يأتيه، ويصليَ لهم فيه، فنزلت عليه فيه هذه الآية.

﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أرادوا أن يتفرَّق المؤمنون عن مسجد قباء.

﴿وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: انتظارًا لمن حارب الله ورسوله، وهو أبو عامرٍ الراهبُ الذي سمَّاه رسول الله ﷺ: الفاسقَ، وكان من أهل المدينة، فلما قدِمها رسول الله ﷺ جاهر بالكفر والنفاق، ثم خرج إلى مكة فحزَّب الأحزاب من المشركين، فلما فتحت مكة خرج إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف خرج إلى الشام، ليستنصر بقيصر فهلك هناك.

وكان أهل مسجد الضرار يقولون: إذا قدم أبو عامر المدينة يصلي في هذا المسجد.

والإشارةُ بقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ إلى ما فعل مع الأحزاب.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: الخَصلة الحسنى؛ وهي الصلاة وذكر الله، فأكْذَبهم الله في ذلك.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ نهيٌ عن إتيانه والصلاة فيه، فكان رسول الله ﷺ لا يمرُّ بطريقه.

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قيل: هو مسجد قباء.

وقيل: مسجد النبي ﷺ بالمدينة، وقد رُوي ذلك عن رسول الله ﷺ[1].

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ كانوا يستنجون بالماء، ونزلت في الأنصار على قول من قال: إن المسجد الذي أُسِّس على التقوى هو مسجد المدينة.

ونزلت في بني عمرو بن عوف خاصةً على قول من قال: إنه مسجد قباء.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ الآيةَ؛ استفهام بمعنى التقرير.

والذي أُسِّس على التقوى والرضوان: مسجد المدينة أو مسجد قباء، والذي أُسس على شفا جرف هارٍ: هو مسجد الضرار.

وتأسيس البناء على التقوى والرضوان: هو بحسن النية فيه، وقصد وجه الله، وإظهار شرعه.

والتأسيس على شفا جرف هار: هو بفساد النية، وقصد الرياء، والتفريق بين المؤمنين؛ فذلك على وجه الاستعارة والتشبيه البديع.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٦٨٣).

ومعنى ﴿شَفَا جُرُفٍ﴾: طرَفِه.

ومعنى ﴿هَارٍ﴾: ساقِط، أو واهٍ؛ بحيث أَشْفى على السقوط، وأصل «هارٍ»: هائِرٌ؛ فهو من المقلوب؛ لأن لامه جعلت في موضع العين.

﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي: طاح في جهنم، وهذا ترشيحٌ للمجاز؛ فإنه لما شُبِّه بالجرف وُصِف بالانهيار؛ الذي هو من شأن الجرف.

وقيل: إن ذلك حقيقة، وأنه سقط في نار جهنم وخرج الدخان من موضعه.

والصحيح أن رسول الله ﷺ أمر بهدمه فهُدِم.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: لا يزال في قلوب أهل مسجد الضرار ريبةٌ من بنيانه؛ أي:

شكٌّ في الإسلام بسبب بنيانه؛ لاعتقادهم صواب فعلهم.

أو غيظٌ بسبب هدمه.

﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: إلَّا أن يموتوا.

[﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ قيل: إنها نزلت في بيعة العقبة.

وحكمها عام في كل مؤمن مجاهد في سبيل الله إلى يوم القيامة.

قال بعضهم: ما أكرمَ اللهَ!؛ فإن أنفسَنا هو خلقها، وأموالنا هو رزقها، ثم وهبها لنا، ثم اشتراها منا بهذا الثمن الغالي، فإنها لصفقةٌ رابحة!.

﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جملةٌ في موضع الحال؛ بيانًا للشراء.

﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦ﴾ قال بعضهم: ناهيك من بيعٍ البائعُ فيه ربُّ العُلى، والثمن جنة المأوى، والواسطة محمد المصطفى ﷺ.

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ وما بعده: أوصاف المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسَهم وأموالهم؛ تقديره: هم التائبون.

﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ قيل: معناه الصائمون.

ويقال: ساح في الأرض: أي: ذهب.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ نزلت في شأن أبي طالب؛ فإنه لما امتنع أن يقول: «لا إله إلا الله» عند موته؛ قال له رسول الله ﷺ: «والله لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْه عنك»، فكان يستغفر حتى نزلت هذه الآية[1].

وقيل: إن النبي ﷺ استأذن ربه أن يستغفر لأُمّه؛ فنزلت الآية.

وقيل: إن المسلمين أرادوا أن يستغفروا لآبائهم المشركين؛ فنزلت.

﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ﴾ المعنى: لا حجة لكم أيها المؤمنون في استغفار إبراهيم لأبيه؛ فإن ذلك لم يكن إلَّا لوعد[2] تقدَّم، وهو قوله: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم: ٤٧].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

(٢) في أ، ب، هـ: «وعد».

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ قيل: تبين له ذلك بموت أبيه على الكفر.

وقيل: بأنه نُهي عن الاستغفار.

﴿لَأَوَّٰهٌ﴾ قيل: كثير الدعاء، وقيل: مُوقِنٌ، وقيل: فقيه، وقيل: كثير الذكر لله، وقيل: كثير التأوُّه من خوف الله.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ الآيةَ؛ نزلت في قوم من المسلمين؛ استغفروا للمشركين من غير إذن، فخافوا على أنفسهم من ذلك، فنزلت الآية؛ تأنيسًا لهم؛ أي: ما كان الله ليؤاخذكم بذلك قبل أن يبيِّن لكم المنع من ذلك.

﴿فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ يعني: حين محاولة غزوة تبوك.

والساعة هنا: بمعنى الحين والوقت، وإن كان مدةً.

و﴿ٱلْعُسْرَةِ﴾: الشدة وضيق الحال.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ يعني: تزيغ:

عن الثبات على الإيمان.

أو عن الخروج في تلك الغزوة؛ لِمَا رأوا من الضيق والمشقة.

وفي ﴿كَادَ﴾:

ضمير الأمر والشأن.

أو ترتفع بها القلوب.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: على هذا الفريق؛ أي: رجع بهم عما كادوا يقعون فيه.

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ هم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرَارة ابن الربيع، تخلَّفوا عن غزوة تبوك من غير عذر ومن غير نفاق ولا قصدٍ للمخالفة، فلما رجع رسول الله ﷺ عتَب عليهم، وأمر أن لا يكلمهم أحد، وأمرهم أن يعتزلوا نساءهم، فبقوا على ذلك مدَّةً إلى أن أنزل الله توبتهم، وقد وقع حديثهم في البخاري ومسلم[1] والسِّيَر.

ومعنى ﴿خُلِّفُوا﴾ هنا: عن الغزوة.

وقال كعب بن مالك: معناه: خُلفوا عن قبول العذر، وليس بالتخلُّف عن الغزو، ويقوِّي ذلك: كونه جَعل ﴿إِذَا ضَاقَتْ﴾ غايةً للتخلف.

﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ﴾ عبارةٌ عما أصابهم من الغم والخوف من الله.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ أي: رجَع بهم ليستقيموا على التوبة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾].

﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ يَحتمل أن يريد: صدق اللسان؛ إذ كان هؤلاء الثلاثةُ قد صدقوا ولم يعتذروا بالكذب، فنفعهم الله بذلك.

ويَحتمل أن يريد: أعمَّ من صدق اللسان، وهو الصدق في الأقوال والأفعال والمقاصد والعزائم.

والمراد بـ ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: المهاجرون؛ لقول الله في «الحشر»: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، وقد احتجَّ بها أبو بكر الصديق على الأنصار يوم السقيفة، فقال: نحن الصادقون، وقد أمركم الله أن تكونوا معنا؛ أي: تابعين لنا[١].

﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ الآيةَ؛ عتابٌ لمن تخلف عن غزوة تبوك من أهل يثرب ومن جاورها من قبائل العرب.

---

(١) أخرجه الواقدي في كتاب الردة (ص: ٣٦).

﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ أي: لا يمتنعوا من اقتحام المشقَّات التي تحملها هو ﷺ.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ﴾ تعليلٌ لما يجب من عدم التخلف.

﴿ظَمَأٌ﴾ أي: عطشٌ.

﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ أي: تعب.

﴿وَلَا مَخۡمَصَةٌ﴾ أي: جوع.

﴿وَلَا يَطَـُٔونَ﴾ بأرجلهم أو بدوابِّهم.

﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا﴾ عموم في كل ما يصيب الكفار.

﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ﴾ ابن عباس: هذه الآية في البعوث إلى الغزو والسرايا؛ أي: لا ينبغي خروج جميع المؤمنين في السرايا، وإنما يجب ذلك إذا خرج رسول الله ﷺ بنفسه، ولذلك عاتبهم في الآية المتقدمة على التخلف عنه، فالآية الأولى: في الخروج معه ﷺ، وهذه: في السرايا التي كان يبعثها.

وقيل: هي ناسخة لكل ما ورد من الأمر بخروج الجميع؛ فهو دليل على أن الجهاد فرض كفاية لا فرض عين.

وقيل: هي في طلب العلم؛ ومعناها: أنه لا تجب الرحلة في طلب العلم على الجميع، بل على البعض؛ لأنه فرض كفاية.

﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ﴾ تحضيضٌ على نفير بعض المؤمنين للجهاد، أو لطلب العلم.

﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ إن قلنا: إن الآية في الخروج إلى طلب العلم؛ فالضمير في ﴿يَتَفَقَّهُوا﴾ للفِرقة التي (تنفر -أي: ترحل-، وكذلك الضمير في ﴿يُنذِرُوا﴾ وفي ﴿رَجَعُوا﴾؛ أي: يُعلِّمون قومهم إذا رجعوا إليهم من الرِّحلة.

وإن قلنا: إن الآية في السرايا؛ فالضمير في ﴿يَتَفَقَّهُوا﴾ للفِرقة التي)[1] تقعد في المدينة ولا تخرج مع السرايا، وكذلك الضمير في ﴿يُنذِرُوا﴾، وأما الضمير في ﴿رَجَعُوا﴾ فهو للفرقة التي خرجت مع السرايا.

وقيل: إن التفقُّه يكون في حين خروجهم مع السَّرايا؛ فعلى هذا تكون الضمائر كلها للفِرقة التي خرجتْ مع السرايا.

﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ الضمير للقوم.

* * *

(١) سقط من أ، ب، ج، هـ.

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾].

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ أمرٌ بقتال الأقرب فالأقرب على تدريج.

وقيل: إنها إشارة إلى قتال الروم بالشام؛ لأنهم كانوا أقرب الكفار إلى أرض العرب، وكانت أرض العرب قد عمها الإسلام، وكانت العراق حينئذ بعيدةً.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ أي: من المنافقين من يقول بعضهم لبعض: أيكم زادته هذه إيمانًا؟ على وجه الاستخفاف بالقرآن؛ كأنهم يقولون: أيُّ عجبٍ في هذا؟ وأي دليل في هذا؟.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ وذلك لما يتجدَّد عندهم من البراهين والأدلة عند نزول كل سورة.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ المرض: عبارة عن الشك والنفاق.

ومعنى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ زادتهم كفرًا ونفاقًا إلى كفرهم ونفاقهم.

﴿يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ﴾ قيل: ﴿يُفْتَنُونَ﴾ أي: يختبرون بالأمراض والجوع.

وقيل: بالأمر بالجهاد.

واختار ابن عطية أن يكون المعنى: يفضحون بما يُكشَف من سرائرهم[1].

﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: تغامزوا، وأشار بعضهم إلى بعض؛ على وجه الاستخفاف بالقرآن، ثم قال بعضهم لبعض: ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ فينقل عنكم هذا الاستخفاف؟، فقولهم: ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ كان بسبب خوفهم أن يُنقَل عنهم ذلك.

وقيل: معنى ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾: على وجه التعجُّب مما ينزل في القرآن؛ من كشف أسرارهم، ثم قال بعضهم لبعض: ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾؛ أي: هل رأى أحدٌ أحوالكم فنقَلها عنكم؟ أو عُلِمت من غير نقل؟ فهذا أيضًا على وجه التعجُّب.

﴿ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ يَحتمل أن يريد:

الانصراف بالأبدان.

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٤/ ٤٣٩).

أو الانصراف بالقلوب عن الهدى.

﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ دعاءٌ، أو خبرٌ.

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ تعليلٌ لصرف قلوبهم.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يعني: النبي ﷺ، والخطاب: للعرب.

أو لقريش خاصة؛ أي: من قبيلتكم حيث تعرفون حسَبه وصِدْقَه وأمانته.

أو لبني آدم كلهم؛ أي: من جنسكم.

وقرئ: «مِنْ أنفَسِكُمْ» بفتح الفاء؛ أي: مِن أشرفكم.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يشقُّ عليه عنَتُكم، والعنَت: هو ما يضرهم في دينهم أو دنياهم.

و﴿عَزِيزٌ﴾ صفة للرسول، و﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ فاعلٌ بـ﴿عَزِيزٌ﴾، و«ما» مصدرية.

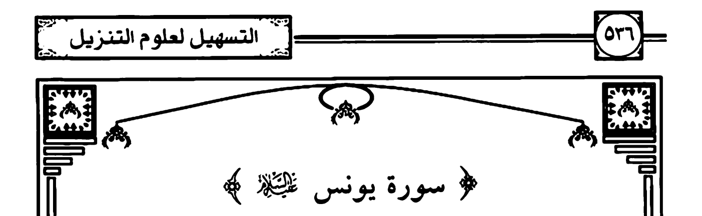
أو ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ مصدر، و﴿عَزِيزٌ﴾ خبر مقدَّم، والجملة في موضع الصفة.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: حريص على إيمانكم وسعادتكم.

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ سماه الله هنا باسمين من أسمائه.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ أي: إن أعرضوا عن الإيمان بك فاستعن بالله وتوكل عليه.

وقيل: إن هاتين الآيتين نزلتا بمكة.



﴿ سورة يونس عليه السلام ﴾

[﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ① أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ② إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ③ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ④ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ⑤ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ⑥ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ⑦ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ⑧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ⑨ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ⑩﴾].

﴿الٓر﴾ تكلَّمنا في أول «البقرة» على حروف الهجاء التي في أوائل السور[١].

---

(١) انظر: ١/ ٢٦١.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إشارةٌ إلى ما تضمَّنته السورة من الآيات، و﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ هنا: القرآن.

﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ مِن:

الحكمة.

أو من الحُكم.

أو من الإِحكام للأمر؛ أي: أَحْكَمه الله.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ الهمزة للإنكار، و﴿عَجَبًا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، و﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ اسمها، و﴿أَنْ أَنذِرِ﴾ تفسيرٌ للوحي.

والمراد بالناس هنا: كفار قريش وغيرهم، والرجل هنا: رسول الله ﷺ.

ومعنى الآية: الردُّ على من استبعدَ النبوة أو تعجَّبَ مِن أن يبعث الله رجلًا.

﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ أي: عملٌ صالح قدَّموه.

وقال ابن عباس: السعادة السابقة لهم في اللوح المحفوظ.

﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يعنون: ما جاء به من القرآن.

وقرئ ﴿لَسَٰحِرٌ﴾؛ يعنون به: النبي ﷺ.

ويَحتمل أن يكون كلامهم هذا:

تفسيرًا لما ذُكِر قبلُ مِن تعجبهم من النبوة.

أو يكون خبرًا مستأنفًا.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ تعريفٌ بالله وصفاته؛ ليعبدوه ولا يشركوا به، وفيه ردٌّ على من أنكر النبوة؛ كأنه يقول: إنما أدعوكم إلى عبادة ربكم الذي خلق السموات والأرض، فكيف تنكرون ذلك وهو الحق المبين؟!.

﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ أي: لا يشفع إليه أحدٌ إلَّا بعد أن يأذن له في الشفاعة، وفي هذا ردٌّ على المشركين الذين يزعمون أن الأصنام تشفع لهم.

﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ نصْبُ ﴿وَعْدَ﴾ على المصدر المؤكِّد للرجوع إلى الله، ونصْبُ ﴿حَقًّا﴾ على المصدر المؤكِّد لوعدِ الله.

﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: يبدؤه في الدنيا ويعيده في الآخرة، والبَدْأَة دليلٌ على العودة.

﴿لِيَجْزِيَ﴾ تعليلٌ للعودة؛ وهي البَعث[1].

﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي: بعدله في جزائهم.

أو: بقسطهم في أعمالهم الصالحة.

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَآءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ وصْفُ أفعال الله وقدرته وحكمته.

والضياء أعظم من النور.

﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ الضمير للقمر، والمعنى: قدَّر سَيْرَه في منازل.

---

(١) في أ، ب، ج، هـ: «البعثة».

﴿وَالْحِسَابَ﴾ يعني: حساب الأوقات؛ من الأشهر والأيام والليالي.

﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: ما خلقه عبثًا، والإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما تقدَّم من المخلوقات.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ قيل: معنى ﴿يَرْجُونَ﴾ هنا: يخافون.

وقيل: لا يرجون حسن لقائنا؛ فالرجاء على أصله.

وقيل: ﴿لَا يَرْجُونَ﴾: لا يتوقعونه أصلًا، ولا يخطر ببالهم.

﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: قنِعوا أن تكون حظَّهم ونصيبهم.

﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ أي: سكَنتْ نفوسهم عن ذكر الانتقال عنها.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ يحتمل:

أن تكون هي الفِرقة الأولى؛ فيكون من عطف الصفات.

أو تكون غيرها.

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ أي: يسدِّدهم بسبب إيمانهم إلى الاستقامة.

أو يهديهم في الآخرة إلى طريق الجنة، وهو أرجح؛ لما بعده.

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا﴾ أي: دعاؤهم.

[﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾].

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أي: لو يعجل الله للناس الشر كما يحبون تعجيل الخير لهلكوا سريعًا.

ونزلت الآية -عند قوم-: في دعاء الإنسان على نفسه وماله وولده.

وقيل: نزلت في الذين قالوا: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ

عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢].

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾ عتابٌ في ضمنه نهيٌ لمن يدعو الله عند الضر، ويَغفُل عنه عند العافية.

﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ أي: مضطجعًا، وروي أنها نزلت في أبي حذيفة بن المغيرة؛ لمرضٍ كان به.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ﴾ إخبارٌ في ضمنه وعيد للكفار.

﴿لِنَنظُرَ﴾ معناه: ليظهرَ في الوجود؛ فتقوم عليكم الحجة.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: على قريش.

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ما تلوته إلَّا بمشيئة الله؛ لأنه من عنده وما هو من عندي.

﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: ولا أعلمكم به.

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: بقيت بينكم أربعين سنة قبل البعث ما تكلمت في هذا حتى جاءني من عند الله.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ تنصُّلٌ من الافتراء على الله، وبيان لبراءته ﷺ مما نسبوه إليه من الكذب.

أو[1] إشارةٌ إلى كذبهم على الله في نسبة الشركاء له.

﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ بيانٌ لظلمهم في تكذيب رسول الله ﷺ.

---

(١) في د: «و».

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ الضمير في ﴿يَعْبُدُونَ﴾ لكفار العرب، و﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾: هي الأصنام.

﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ كانوا يزعمون أن الأصنام تشفع لهم.

﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ ردٌّ عليهم في قولهم بشفاعة الأصنام، والمعنى: أن شفاعة الأصنام ليست بمعلومةٍ لله الذي هو عالم بما في السموات والأرض، وكل ما ليس بمعلوم لله فهو عدمٌ محضٌ، ليس بشيء؛ فقوله: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾ تقرير لهم على وجه التوبيخ والتهكُّم؛ أي: كيف تعلِّمون الله بما لا يعلم؟.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ تقدَّم في «البقرة»[1] في قوله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ يعني: القضاء.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ كانوا يطلبون آية من الآيات التي اقترحوا، ولقد نزلت عليه آيات عظامٌ فما اعتدُّوا بها؛ لعنادهم وشدة ضلالهم.

﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، لا يطَّلع على ذلك أحد.

﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ أي: انتظروا نزول ما اقترحتموه.

﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ أي: منتظرٌ لعقابكم على كفركم.

---

(١) انظر: ١/ ٤٣٠.

[﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾].

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ﴾ هذه الآية في الكفار، وتتضمَّن النهي لمن كان كذلك من غيرهم، والمكر هنا: الطعن في آيات الله وترك شكره، ومكر الله الموصوف بالسرعة: هو عقابه لهم، سماه مكرًا؛ مشاكلةً لفعلهم

وتسميةً للعقوبة باسم الذنب[١].

﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ الضمير المؤنث في ﴿وَجَرَيْنَ﴾ للفُلك، والضمير في ﴿بِهِمْ﴾ للناس، وفيه الخروج من الخطاب إلى الغيبة، وهو الذي يسمى الالتفات.

وجواب ﴿إِذَا كُنتُمْ﴾ قوله: ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾.

وقوله: ﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾: قال الزمخشري: هو بدلٌ من ﴿وَظَنُّوا﴾[٢].

ومعناه: دعوا الله وحده وكفروا بمن دونه.

﴿مَّتَاعَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ رفعٌ على أنه:

خبر ابتداء مضمر؛ تقديره: وذلك متاع.

أو يكون خبر ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ﴾.

ويختلف الوقف باختلاف الإعراب.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ﴾ معنى الآية: تحقيرٌ للدنيا وبيان سرعة فنائها؛ فشبَّهها بالمطر الذي يخرج به النبات، ثم تصيب ذلك النباتَ آفةٌ عند حسنه وكماله.

﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ كالزرع والفواكه.

﴿وَالْأَنْعَٰمُ﴾ يعني: المرعى التي ترعاه من العشب وغيرها.

---

(١) انظر تعليق الشيخ عبد الرحمن البراك ١/ ٥٤٥، وصفحة ٥١٢ من هذا الجزء.

(٢) انظر: الكشاف (٧/ ٤٥٨).

﴿أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ تمثيل بالعَروس إذا تزينت بالثياب والحلي.

﴿قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أي: متمكِّنون من الانتفاع بها.

﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ أي: بعض الجوائح؛ كالريح، والصِّرِّ، وغير ذلك.

﴿فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا﴾ أي: جعلنا زرعها كالذي حُصِد وإن كان لم يُحصَد.

﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ كأن لم تَنْعَم.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ﴾ أي: إلى الجنة، وسمِّيت دار السلام؛ أي: دار السلامة من العناء والتعب.

وقيل: السلام هنا: اسم الله؛ أي: يدعو إلى داره.

﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ ذكَر الدعوةَ إلى الجنة عامة مطلقة، والهدايةَ خاصة بمن يشاء.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله.

وقيل: الحسنى: جزاء الحسنة بعشر أمثالها، والزيادة: التضعيف فوق ذلك إلى سبع مئة.

والأول أصح؛ لوروده في الحديث[1]، وكثرة القائلين به.

﴿قَتَرٌ﴾ أي: غبار يغيِّر الوجه.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ١٦١).

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ مبتدأ:

على حذف مضاف؛ تقديره: جزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها.

أو على تقدير: لهم جزاء سيئة بمثلها.

أو معطوفٌ على الذين أحسنوا؛ ويكون: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ﴾ مبتدأ، وخبره ﴿بِمِثْلِهَا﴾.

﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ﴾ أي: لا يعصمهم أحد من عذاب الله.

﴿قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ﴾ من قرأ بفتح الطاء: فهو جمع قطعة، وإعراب ﴿مُظْلِمًاۚ﴾ على هذه القراءة: حال من ﴿ٱلَّيْلِ﴾.

ومن قرأ ﴿قِطْعًا﴾ بإسكان الطاء: فـ﴿مُظْلِمًاۚ﴾: صفة له، أو حال من ﴿ٱلَّيْلِ﴾.

﴿مَكَانَكُمْ﴾ تقديره: الزموا مكانكم؛ أي: لا تبرحوا حتى تنظروا ما يُفعَلُ بكم.

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْۖ﴾ أي: فرَّقنا.

﴿تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْۚ﴾ أي: تَختبر ما قدَّمت من الأعمال.

وقرئ ﴿تَتْلُواْ﴾ بتاءين؛ بمعنى: تَتْبَع، أو تقرؤه في الصحائف.

[﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾].

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم﴾ الآيةَ؛ احتجاجٌ على الكفار بحجج كثيرة واضحة، لا محيص لهم عن الإقرار بها.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ مذكور في «آل عمران»[1].

﴿رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ أي: الثابت الربوبية، بخلاف ما يعبدون من دونه.

﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ أي: عبادة غير الله ضلالٌ بعد وضوح الحق.

وتدلُّ الآية على أنه ليس بين الحق والباطل منزلة في علم الاعتقادات؛ إذ الحق فيها في طرف واحد، بخلاف مسائل الفروع.

---

(١) انظر: ١/٥٢٧.

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟﴾ المعنى: كما حق الحق في الاعتقادات كذلك حقت كلمات ربك على الذين عتوا وتمردوا في كفرهم أنهم لا يؤمنون.

والكلمة يراد بها: القدر والقضاء.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ الآيةَ؛ احتجاجٌ على الكفار.

فإن قيل: كيف يُحتَجُّ عليهم بإعادة الخلق، وهم لا يعترفون بها؟.

فالجواب: أنهم معترفون أن شركاءهم لا يقدرون على الابتداء ولا على الإعادة؛ ففي ذلك إبطال لربوبيتهم، وأيضًا فوُضِعت الإعادة هنا موضع المتَّفق عليه؛ لظهور برهانها.

﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾ بتشديد الدال؛ معناه: لا يهتدي في نفسه، فكيف يهدي غيرَه؟.

وقرئ بالتخفيف؛ بمعنى: يَهدِي غيره.

والقراءة الأولى أبلغ في الاحتجاج.

﴿فَمَا لَكُمْ﴾ ﴿مَا﴾ استفهامية معناها تقرير وتوبيخ، و﴿لَكُمْ﴾ خبرها، ويوقف عليه.

﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: تحكمون بالباطل في عبادتكم لغير الله.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: غيرَ تحقيق؛ لأنه لا يستند إلى برهان.

﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ ذلك في الاعتقادات؛ إذ المطلوب فيها اليقين، بخلاف الفروع.

﴿تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ مذكور في «البقرة»[1].

﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ ﴿أَمۡ﴾ هنا بمعنى: «بل» والهمزة.

﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ﴾ تعجيز لهم، وإقامة حجة عليهم.

﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ يعني: مِن شركائكم وغيرهم من الجن والإنس.

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غير الله.

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾ أي: سارَعوا إلى التكذيب بما لم يفهموه ولم يعلموا تفسيره.

﴿وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ﴾ أي: عِلْمُ تأويله.

أو يعني بتأويله: الوعيدَ الذي لهم فيه.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ الآيةَ؛ فيها قولان:

أحدهما: إخبارٌ بما يكون منهم في المستقبل، وأن بعضهم يؤمن وبعضهم يتمادى على الكفر.

والآخر: أنها إخبارٌ عن حالهم؛ أن منهم من هو مؤمن به ويكتم إيمانه، ومنهم من هو مكذب.

* * *

(١) انظر: ١/٣٠٨.

[﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾].

﴿فَقُل لِّي عَمَلِي﴾ الآية موادعة، منسوخةٌ بالقتال.

﴿مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: يستمعون القرآن، وجمع الضمير بالحمْل على معنى «مَن».

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ المعنى: أتريد أن تسمع الصم؟ وذلك لا يكون؛ لا سيما إذا انضاف إلى الصَّمَم عدمُ العقل.

﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ المعنى: أتريد أن تهدي العمي؟ وذلك لا يكون؛ لا سيما إذا انضاف إلى عمى[1] البصر عمى البصيرة.

---

(١) في أ: «عدم».

والصَّمَم والعمَى: عبارةٌ عن قلة فهمهم.

﴿لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً﴾ تقليلٌ لمدة بقائهم في الدنيا، أو في القبور.

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: يومَ الحشر؛ فهو - على هذا - حال من الضمير في ﴿يَلْبَثُوٓاْ﴾.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ شرطٌ، جوابه: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾، والمعنى: إن أريناك بعض عذابهم في الدنيا فذلك، وإن توفيناك قبل ذلك فإلينا مرجعهم.

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ ذكرت «ثم» لترتيب الإخبار، لا لترتيب الأمر. قاله ابن عطية[١].

وقال الزمخشري: ذُكِرت الشهادة والمراد مقتضاها؛ وهو العقاب[٢]. فالترتيب على هذا صحيح.

﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ قيل: مجيئه في الآخرة للفصل.

وقيل: مجيئه في الدنيا؛ وهو بعثه.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ كلامٌ فيه استبعاد واستخفاف.

﴿بَيَٰتًا﴾ أي: بالليل.

﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ المعنى: أيُّ شيء تستعجلون من العذاب وهو ما لا طاقة لكم به!.

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٤/ ٤٨٨).

(٢) انظر: الكشاف (٧/ ٤٩٨).

وقوله: ﴿مَّاذَا﴾ جواب ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ﴾، والجملة متعلقة بـ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾.

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ دخلت همزة التقرير على «ثم» العاطفة، والمعنى: أإذا وقع العذاب وعاينتموه آمنتم به الآن؟!، وذلك لا ينفعكم؛ لأنكم كنتم تستعجلون به مكذِّبين به.

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي: يسألونك هل الوعيد حق؟.

أو: هل الشرع والدين حق؟.

والأول أرجح؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾؛ أي: لا تَفُوتون من الوعيد.

﴿قُلْ إِى﴾ أي: نعم.

* * *

[﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾].

﴿ظَلَمَتْ﴾ صفةٌ لـ ﴿نَفْسٍ﴾؛ أي: لو ملك الظالمُ الدنيا لافتدى بها من عذاب الآخرة.

﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ أي: أخفوها في نفوسهم، وقيل: أظهروها.

﴿مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني: القرآن.

﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: يَشفي ما فيها من الجهل والشكِّ.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ يتعلَّق ﴿بِفَضْلِ﴾ بقوله: ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾، وكرَّر الفاء في قوله: ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ تأكيدًا، والمعنى: الأمر أن يفرحوا بفضل الله وبرحمته لا بغيرهما.

والفضل والرحمة: عموم.

وقد قيل: الفضل: الإسلام، والرحمة: القرآن.

﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: فضل الله ورحمته خير مما يجمعون من حطام الدنيا.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ الآيةَ؛ مخاطبةٌ لكفار العرب الذي حرَّموا البَحِيرة والسائبة وغير ذلك.

﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ متعلِّق بـ ﴿أَرَءَيْتُم﴾، وكرَّر ﴿قُلْ﴾ للتأكيد، ولما قسَم الأمر إلى إذْن الله لهم وافترائهم ثبت افتراؤهم؛ لأنهم معترفون أن الله لم يأذن لهم في ذلك.

﴿وَمَا ظَنُّ﴾ وعيدٌ للذين يفترون.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ظرف منصوب بالظن، والمعنى: أي شيء يظنون أن يفعل بهم في ذلك اليوم؟!.

[﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾].

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ الشأن: الأمر، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد: هو جميع الخلق؛ ولذلك قال في آخرها: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ بمخاطبة الجماعة.

ومعنى الآية: إحاطة علم الله بكل شيء.

﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ الضمير عائد على القرآن وإن لم يتقدَّم ذِكْرُه؛ لدلالة ما بعده عليه؛ كأنه قال: ما تتلو شيئًا من القرآن.

وقيل: يعود على الشأن.

والأول أرجح؛ لأن الإضمار قبل الذِّكر تفخيمٌ للشيء.

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ يقال: أفاض الرجل في الأمر: إذا أخذ فيه بجِدٍّ.

﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ ما يغيب.

﴿مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ وزنها، والذرة: صغار النمل.

قال الزمخشري: إن قلتَ: لم قُدِّمت الأرض على السماء بخلاف سورة «سبأ»؟

فالجواب: أن السماء قدِّمت في «سبأ»؛ لأن حقَّها التقديم، وقدِّمت الأرض هنا؛ لمَّا ذُكِرت الشهادة على أهل الأرض[1].

﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ﴾ من قرأهما بالفتح: فهو عطفٌ على لفظ ﴿مِثْقَالِ﴾.

ومن قرأهما بالرفع: عطفه على موضعه، أو رفع بالابتداء.

﴿أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ اختلف الناس في معنى الولي اختلافًا كثيرًا، والحقُّ فيه ما فسَّره الله بعد هذا بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾، فمن جمع بين الإيمان والتقوى فهو الولي.

وإعراب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾:

صفةٌ للأولياء.

أو منصوبٌ على التخصيص.

---

(١) انظر: الكشاف (٧/ ٥١٩).

أو رفعٌ بإضمار: هم الذين.

ولا يكون ابتداءً مستأنفًا؛ لئلا ينقطع مما قبله.

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ أما بشرى الآخرة: فهي الجنة اتفاقًا.

وأما بشرى الدنيا: فهي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له، روي ذلك عن رسول الله ﷺ[1].

وقيل: محبة الناس للرجل الصالح.

وقيل: ما بشَّر به في القرآن من الثواب.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تغيير لأقواله ولا خُلْفَ لمواعده.

وقد استدلَّ بها ابن عمر على أن القرآن لا يقدر أحد أن يبدِّله.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ يعني: ما يقوله الكفار من التكذيب.

﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ إخبارٌ في ضمنه وعدٌ للنبي ﷺ بالنصر، وتسليةٌ له.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ فيها وجهان:

أحدهما: أن تكون ﴿مَا﴾ نافيةً، وأُوجِبت بقوله: ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، وكرَّر ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ توكيدًا، والمعنى: ما يتبع الكفار إلَّا الظن.

(١) أخرجه مسلم (٤٧٩).

والوجه الثاني: أن تكون ﴿مَآ﴾ استفهامية، ويتمُّ الكلام عند قوله: ﴿شُرَكَآءَ﴾، والمعنى: أيُّ شيء يتبعون؟ على وجه التحقير لما يتبعونه، ثم ابتدأ الإخبار بقوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾.

والعامل في ﴿شُرَكَآءَ﴾ على الوجهين: ﴿يَدْعُونَ﴾.

﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ من السُّكون؛ وهو ضدُّ الحركة.

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: مُضيئًا تبصرون فيه الأشياء.

﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ الضمير: للنصارى، ولمن قال: إن الملائكة بنات الله.

﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ وصفٌ يقتضي نفيَ الولد، والردَّ على من نسبه لله؛ لأن الغني المطلق لا يفتقر إلى اتخاذ ولد.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بيانٌ وتأكيد للغني، وباقي الآية توبيخ للكفار ووعيد لهم.

﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ تقديره: لهم متاع في الدنيا.

[﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾] .

﴿نُوحٍ﴾ روي أن اسمه عبد الغفار، وإنما سمي نوحًا؛ لكثرة نَوْحِه على نفسه من خوف الله .

﴿كَبُرَ عَلَيْكُم﴾ أي: صعب وشقّ .

﴿مَّقَامِى﴾ أي: قيامي لوعظكم والكلام معكم .

وقيل: معناه: مكاني؛ يعني: نفسه، كقولك: فعلت ذلك لمكان فلان .

﴿فَأَجْمِعُوٓاْ﴾ بقطع الهمزة؛ مِن أجمع الأمرَ: إذا عزَم عليه .

وقرئ بألف وصل؛ من الجمع .

﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: ما تعبدون من دون الله.

وإعرابه:

مفعول معه.

أو مفعول بفعل مضمر تقديره: ادعوا.

وهذا على القراءة بقطع الهمزة.

وأما على الوصل: فهو معطوف.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: لا يكون قصْدكم إلى إهلاكي مستورًا ولكن مكشوفًا تجاهرونني به، وهو من قولك: غُمَّ الهلال: إذا لم يَظهر.

والمراد بقوله: ﴿أَمْرَكُمْ﴾ في الموضعين: إهلاككم لنوح عليه السلام؛ أي: لا تقصِّروا في إهلاكي إن قدَرتم على ذلك.

﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ أي: انفُذوا فيما تريدون.

ومعنى الآية: أن نوحًا عليه السلام قال لقومه: إن صعب عليكم دعائي لكم إلى الله فاصنعوا بي غاية ما تريدون؛ فإني لا أبالي بكم؛ لتوكُّلي على الله وثقتي به سبحانه.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ أي: يخلفون مَن هلك بالغرق.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا﴾ يعني: هودًا وصالحًا وإبراهيم وغيرهم.

﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ قيل: إنه معمول ﴿أَتَقُولُونَ﴾؛ فهو من كلام قوم فرعون، وهذا ضعيف؛ لأنهم كانوا يصمِّمون على أنه سحر؛ لقولهم: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾، فكيف يستفهمون عنه؟.

وقيل: إنه من كلام موسى تقريرًا وتوبيخًا لهم، فيوقف على قوله: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾، ويكون معمول ﴿أَتَقُولُونَ﴾ محذوفًا؛ تقديره: أتقولون للحق لما جاءكم إنه لسحر، ويدلُّ على هذا المحذوف ما حكَى عنهم من قولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، فلما تمَّ الكلام ابتدأ موسى يوبِّخهم[1] بقوله: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾، وهذا هو اختيار شيخنا الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير رحمه الله.

﴿لِتَلْفِتَنَا﴾ أي: لتصرفنا وتردَّنا عن دين آبائنا.

﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ﴾ أي: الملك، والخطاب لموسى وأخيه عليهما السلام.

﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ﴾ ﴿مَا﴾ موصولةٌ مرفوعة بالابتداء، و﴿السِّحْرُ﴾ الخبر.

وقرئ ﴿آلسِّحْرُ﴾ بالاستفهام؛ فـ﴿مَا﴾ على هذا استفهامية، و﴿آلسِّحْرُ﴾ خبر ابتداء مضمر.

﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ﴾ يحتمل أن يكون:

من كلام موسى.

أو إخبارًا من الله تعالى.

* * *

---

(١) في ج، د: «توبيخهم».

[﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٍ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾].

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ الضمير عائد على موسى، ومعنى الذرية: شُبَّانٌ وفتيان من بني إسرائيل آمنوا به على خوفهم من فرعون.

وقيل: إن الضمير عائد على فرعون، فالذرية على هذا من قوم فرعون، وروي في هذا أنها امرأة فرعون وخازنُه[1] وامرأة خازنِه، وهذا بعيد؛ لأن هؤلاء لا يقال لهم ذرية، ولأن الضمير ينبغي أن يعود على أقرب مذكور.

﴿عَلَىٰ خَوۡفٍ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ﴾ الضمير يعود على الذرية؛ أي: آمنت الذرية من بني إسرائيل؛ على خوف من فرعون وملإ بني إسرائيل؛ لأن

---

(١) في أ، ب، ج، هـ: «وخازنته».

الأكابر من بني إسرائيل كانوا يمنعون أولادهم من الإيمان؛ خوفًا من فرعون.

وقيل: يعود على فرعون؛ بمعنى: آل فرعون، كما يقال: ربيعة ومضر، أو لأنه ذو أصحاب يأتمرون له.

﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ بدلٌ من ﴿فِرْعَوْنَ﴾.

﴿لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: متكبِّرٌ قاهر.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: لا تمكِّنهم من عذابنا فيقولون: لو كان هؤلاء على الحق ما عذَّبناهم، فيُفتنون بذلك.

﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ أي: اتَّخذَا[1] لهم بيوتًا للصلاة والعبادة.

وقيل: إنه أراد الإسكندرية.

﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: مساجد، **وقيل**: موجَّهة إلى جهة القبلة.

فإن قيل: لم خصَّ موسى وهارون بالخطاب في قوله ﴿أَن تَبَوَّءَا﴾، ثم خوطب معهما بنو إسرائيل في قوله: ﴿وَٱجْعَلُوا۟﴾؟

فالجواب: أن قوله ﴿تَبَوَّءَا﴾ من الأمور التي يختصُّ بها الأنبياء وأولوا الأمر.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أمرٌ لموسى عليه السلام، **وقيل**: لمحمد ﷺ.

﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ دعاءٌ بلفظ الأمر.

---

(١) في أ، ب، ج، هـ: «اتخذ».

وقيل: اللام لام كي، وتتعلَّق بقوله: ﴿ءَاتَيْتَ﴾.

﴿اطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: أهلِكها.

﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: اجعلها شديدة القسوة.

﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟﴾ جوابٌ للدعاء الذي هو ﴿وَاشْدُدْ﴾.

أو دعاءٌ بلفظ النفي.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ الخطاب لموسى وهارون؛ على أنه لم يذكر الدعاء إلى عن موسى وحده، ولكن كان موسى يدعو، وهارون يؤمِّن على دعائه.

﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ أي: اثبُتا على ما أنتما عليه من الدعوة إلى الله.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾ أي: لحقهم؛ يقال: تَبِعه حتى أَتْبَعه، هكذا قال الزمخشري[1].

وقال ابن عطية: أَتْبع بمعنى تَبع، وأما اتَّبع - بالتشديد - فهو طَلَبُ الأثر، سواءٌ أَدرك أو لم يدرك[2].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يعني: الله ﷻ، وفي لفظ فرعون مَجْهَلَةٌ وتلعثُمٌ؛ لكونه لم يصرح باسم الله.

﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ أي: قيل له: أتؤمن الساعةَ في وقت الاضطرار؟ وذلك لا يُقبل منك.

---

(١) انظر: الكشاف (٧/ ٥٥٥).

(٢) انظر: المحرر الوجيز (٤/ ٥٢١).

﴿نُنَجِّيكَ﴾ أي: نُبْعِدُك مما جرى لقومك من الوصول إلى قعر البحر.

وقيل: نلقيك على نجوةٍ من الأرض؛ أي: على موضع مرتفع.

﴿بِبَدَنِكَ﴾ أي: بجسدك جسدًا بدون روح.

وقيل: بدرعك، وكانت له درع من ذهب يعرف بها.

والمجرور[١] في موضع الحال، والباء للمصاحبة.

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ أي: لمن وراءك آية، وهم بنو إسرائيل.

* * *

(١) في أ، ب، ج، هـ: «والمحذوف»، والمثبت هو الصواب كما في الكشاف (٧/ ٥٦٠).

[﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾].

﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ منزلًا حسنًا، وهو مصر والشام.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ قيل: يريد اختلافهم في دينهم.

وقيل: اختلافهم في أمر محمد ﷺ.

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ قيل: الخطاب للنبي ﷺ، والمراد غيره.

وقيل: ذلك كقول القائل لابنه: إن كنت ابني فبرَّني، مع أنه لا يشك أنه ابنه، ولكن من شأن الشك أن يزول بسؤال أهل العلم، فأمره بسؤالهم، قال ابن عباس: لم يشكَّ النبي ﷺ ولم يَسأل.

وقال الزمخشري: ذلك على وجه الفرض والتقدير؛ أي: إن فرضت أن تقع في شك فاسأل[١].

﴿مِمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ قيل: يعني: القرآن والشرع بجملته، وهذا أظهر.

وقيل: يعني ما تقدَّم من أن بني إسرائيل ما اختلفوا إلَّا من بعدما جاءهم الحق.

﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ يعني: الذين يقرأون التوراة والإنجيل.

قال السهيلي: هم عبد الله بن سلَام ومُخَيرِيق ومَن أسلم من الأحبار[٢].

وهذا بعيد؛ لأن الآية مكية، وإنما أسلم هؤلاء بالمدينة، فحَمْلُ الآية على الإطلاق أولى.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ خطابٌ للنبي ﷺ والمراد غيره.

﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾ أي: قضى أنهم لا يؤمنون.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ «لولا» هنا للتَّحضيض؛ بمعنى «هلَّا»، وقرئ في الشاذ: «هلَّا».

والمعنى: هلَّا كانت قريةٌ من القرى المتقدمة آمنت قبل نزول العذاب فنفعها إيمانها!؛ إذ لا ينفع الإيمان بعد معاينة العذاب كما جرى لفرعون.

﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ استثناءٌ من القرى؛ لأن المراد أهلها، وهو استثناء

---

(١) انظر: الكشاف (٧/ ٥٦٤).

(٢) انظر: التعريف والإعلام، للسهيلي (ص: ١٣٤).

منقطع، بمعنى: ولكن قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم العذاب.

ويجوز أن يكون متصلًا، والجملة في معنى النفي؛ كأنه قال: ما آمنت قرية إلَّا قوم يونس.

وروي في قَصَصِهم: أن يونس عليه السلام أنذرهم بالعذاب، فلما رأوه قد خرج من بين أظهرهم علموا أن العذاب ينزل بهم، فتابوا وتضرعوا إلى الله تعالى، فرفعه الله عنهم.

﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ يريد: إلى آجالهم المكتوبة في الأزل.

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ الهمزة للإنكار؛ أي: أتريد أنت أن تكره الناس بإدخال الإيمان في قلوبهم وتضطرهم إلى ذلك؟ وليس ذلك إليك، إنما هو بيد الله.

وقيل: المعنى: أفأنت تكره الناس بالقتال حتى يؤمنوا؟، وكان هذا في صدر الإسلام قبل الأمر بالجهاد، ثم نُسخت بالسيف.

﴿ٱنظُرُوا۟﴾ أمرٌ بالاعتبار والنظر في آيات الله.

﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: من قضَى الله عليه أنه لا يؤمن.

و«ما»: نافية، أو استفهامية يراد بها النفي.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ الآيةَ؛ تهديدٌ.

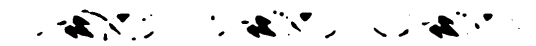
﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ اعتراضٌ بين العامل ومعموله، وهما: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ و﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

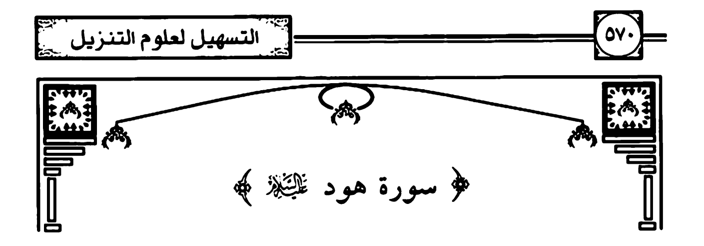
[﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾].

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ الوجه هنا بمعنى: القصد والدِّين.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ منسوخٌ بالقتال، وكذلك قوله: ﴿وَٱصْبِرْ﴾.

﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ وعدٌ بالنصر والظهور على الكفار.





﴿ سورة هود عليه السلام ﴾

[﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٧ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٨﴾].

﴿كِتَٰبٌ﴾ يعني: القرآن، وهو خبر ابتداء مضمرٍ.

﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ أي: أُتقنت؛ فهو من الإِحكام للشيء.

﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ قيل: معناه: بُيِّنتْ.

وقيل: قُطِّعت سورةً سورة.

و﴿ثُمَّ﴾ هنا ليست للترتيب في الزمان، وإنما هي لترتيب الأحوال؛

كقولك: فلان كريم الأصل ثم كريم الفعل.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ «أن»: مفسِّرة.

وقيل: مصدرية؛ في موضع مفعول من أجله، أو بدل من الآيات.

أو يكون كلامًا مستأنفًا، منقطِعًا عما قبله، على لسان رسول الله ﷺ، ويدلُّ على ذلك قوله: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي: استغفروه مما تقدَّم من الشرك والمعاصي، ثم ارجعوا إليه بالطاعة والاستقامة عليها.

﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ أي: ينفعكم[1] في الدنيا بالأرزاق، والنعم، والخيرات.

وقيل: هو طيب عيش المؤمن برجائه في الله ورضاه بقضائه؛ لأنه الكافر قد يُمتَّع في الدنيا بالأرزاق.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني: إلى الموت.

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ أي: يعطي في الآخرة كل ذي عمل جزاء عمله.

والضمير يَحتمل أن يعود:

على الله تعالى.

أو على ﴿ذِي فَضْلٍ﴾.

---

(١) في هـ: «يمتعكم».

﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ خطاب للناس، وهو فعل مستقبل حذفت منه إحدى التاءين.

﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ يعني: يوم القيامة، أو غيرَه كيوم بدر.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ قيل: كان الكفار إذا لقيهم رسول الله ﷺ يردُّون إليه ظهورهم؛ لئلا يرونه من شدة البُغضة والعداوة، والضمير في ﴿مِنْهُ﴾ على هذا يعود إلى رسول الله ﷺ.

وقيل: إن ذلك عبارة عما تنطوي عليه صدورهم من البغض والغِلّ.

وقيل: هو عبارة عن إعراضهم؛ لأن مَن أعرض عن شيء انثنى عنه وانحرف.

والضمير في ﴿مِنْهُ﴾ على هذا يعود على الله تعالى؛ أي: يريدون أن يستخفوا من الله تعالى؛ فلا يُطْلِع رسولَه والمؤمنين[1] على ما في قلوبهم.

﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: يجعلونها أَغْشِية وأغطية؛ كراهيةً لاستماع القرآن، والعامل في ﴿حِينَ﴾: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾.

وقيل: المعنى: يريدون أن يستخفوا حين يستغشون ثيابهم، فيوقف عليه على هذا، ويكون ﴿يَعْلَمُ﴾ استئنافًا.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ وعدٌ وضمان صادق.

فإن قيل: كيف قال: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ بلفظ الوجوب، وإنما هو تفضُّلٌ؛ لأن الله لا يجب عليه شيء؟.

---

(١) في أ، ب، د، هـ: «فلا يطلع رسولُه والمؤمنون».

فالجواب: أنه ذكَره كذلك تأكيدًا في الضمان؛ ولأنه لما وعد به صار واقعًا لا محالة؛ لأنه لا يخلف الميعاد.

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ المستقَر: صلب الأب، والمستودَع: بطن المرأة.

وقيل: المستقر: المكان في الدنيا، والمستودع: القبر.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ دليلٌ على أن العرش والماء كانا موجودين قبل خلق السموات والأرض.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي: ليختبرَكم اختبارًا تقوم به الحجة عليكم؛ لأنه كان عالمًا بأعمالكم قبل خلقكم، ويتعلق ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ بـ ﴿خَلَقَ﴾.

﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يَحتمل أن يشيروا:

إلى القرآن.

أو إلى القول بالبعث؛ يعنون أنه باطل كبطلان السحر.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ يَحتمل أن يريد: عذاب الدنيا، أو الآخرة.

﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ أي: إلى وقت محدود.

﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ أي: أيُّ شيء يمنع هذا العذابَ الموعودَ به؟ وقولهم ذلك على وجه التكذيب والاستخفاف.

[﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٣ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٤ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾].

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا﴾ الآيةَ؛ ذمٌّ لمن يقنط عند الشدائد، ولمن يفخر ويتكبر عند النعم.

والرحمة هنا والنعماء: يراد بهما الخيرات الدنيوية.

والإنسان: عام يراد به الجنس، والاستثناء على هذا متصل.

وقيل: المراد بالإنسان الكافر، فالاستثناء على هذا منقطع.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ الآيةَ؛ كان الكفار يقترحون على رسول الله ﷺ أن يأتي بكنز أو يأتي معه ملك، وكانوا يستهزؤن بالقرآن، فقال الله تعالى له: لعلك تترك أن تُلقِيَ إليهم بعض ما أنزل إليك ويَثقُلُ عليك تبليغهم من أجل استهزائهم، أو لعلك يضيق صدرك من أجل أن يقولوا: لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك.

والمقصد بالآية: تسليته ﷺ عن قولهم حتى يبلِّغ الرسالة، ولا يباليَ بهم.

وإنما قال ﴿وَضَآئِقُۢ﴾، ولم يقل «ضيِّق»؛ ليدلَّ على اتساع صدره ﷺ وقلة ضيقه.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ﴾ أي: ليس عليك إلَّا الإنذار والتبليغ، والله هو الوكيل الذي يقضي بما شاء من إيمانهم أو كفرهم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ﴾ «أم» هنا منقطعة بمعنى: «بل» والهمزة، والضمير في ﴿ٱفْتَرَىٰهُۖ﴾ لما يوحَى إليه.

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ تحدَّاهم أوَّلًا بعشر سور، فلما بان عجزهم عنها تحداهم بسورة واحدة فقال: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨]، والمماثلة المطلوبة: في فصاحته وعلومه.

﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ صفة لـ ﴿عَشْرِ سُوَرٍ﴾، وذلك مقابلةٌ لقولهم ﴿ٱفْتَرَىٰهُۖ﴾، وليست المماثلة في الافتراء.

﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ أي: استعينوا بمن شئتم.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ فيها وجهان:

أحدهما: أن تكون مخاطبة من الله للنبي ﷺ وللمؤمنين؛ أي: إن لم يستجب الكفار إلى ما دعوتموهم إليه من معارضة القرآن؛ فاعلموا أنه من عند الله، وهذا على معنى: دوموا على علمكم بذلك، أو زيدوا يقينًا به.

والثاني: أن يكون خطابًا من النبي ﷺ للكفار؛ أي: إن لم يستجب مَن تدعونه مِن دون الله إلى شيء من المعارضة ولا قَدَر جميعكم عليه؛ فاعلموا

أنه من عند الله، وهذا أقوى من الأول؛ لقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

ومعنى ﴿بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾:

بإذنه.

أو بما لا يعلمه إلَّا الله من الغيوب.

وقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ لفظه استفهام، ومعناه: استدعاء إلى الإسلام، وإلزام للكفار أن يسلموا، لمَّا قام الدليل على صحة الإسلام؛ لعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ الآيةَ؛ نزلت في الكفار الذين يريدون الدنيا، ولا يريدون الآخرة؛ إذ هم لا يصدِّقون بها.

وقيل: نزلت في أهل الرياء من المؤمنين الذين يريدون بأعمالهم الدنيا، حسَبما ورد في الحديث -في القارئ، والمنفق، والمجاهد الذين أرادوا أن يقال لهم ذلك- «إنهم أول من تسجر[1] بهم النار»[2].

والأول أرجح[3]؛ لتقدُّم ذكر الكفار المناقضين للقرآن، فإنما قصَد بهذه الآية أولئك.

﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ أي: نوفّ إليهم أجور أعمالهم بما نعطيهم في الدنيا من الصحة والرزق.

---

(١) في هامش أ: «خ: تسعر» وهو الموافق لما في الرواية.
(٢) أخرجه مسلم (١٩٠٥)، والترمذي (٢٣٨٢)، والنسائي في الكبرى (١٠/ ٣٩٥).
(٣) في أ، ب: «أوضح».

والضمير في ﴿فِيهَا﴾ يعود على الدنيا، والمجرور متعلّق بقوله: ﴿نُوَفِّ﴾ أو بـ ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ الضمير في ﴿فِيهَا﴾ هنا:

يعود على الآخرة إن تعلق المجرور بـ ﴿حَبِطَ﴾.

ويعود على الدنيا إن تعلق بـ ﴿صَنَعُوا﴾.

* * *

[﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾].

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الآية؛ معادِلةٌ لما تقدَّم، والمعنى: أمَن كان يريد الحياة الدنيا كمن كان على بينة من ربه.

والمراد بمن كان على بينة من ربه: النبي ﷺ والمؤمنون؛ لقوله بعد ذلك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

ومعنى البينة: البرهان العقلي والأمر الجلي.

﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ الضمير في ﴿وَيَتْلُوهُ﴾:

للبرهان؛ وهو البينة.

أو لمن كان على بينة من ربه.

والضمير في ﴿مِّنْهُ﴾ للرب تعالى.

و﴿وَيَتْلُوهُ﴾ هنا بمعنى: يتبع.

والشاهد يراد به: القرآن؛ فالمعنى: يَتْبعُ ذلك البرهانَ شاهدٌ من الله وهو القرآن، فيزيدُ وضوحَه وتعظيمَ دلالتِه[1].

وقيل: إن الشاهد المذكور هنا: هو علي بن أبي طالب.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي: ومِن قبل ذلك الشاهد كتابُ موسى، وهو أيضًا دليل آخر متقدِّم.

وقد قيل أقوالٌ كثيرة في معنى هذه الآية، وأرجحها ما ذكرنا.

﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي: من أهل مكة.

﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ جمع شاهد، كأصحاب، ويَحتمل أن يكون: من الشهادة؛ فيراد به: الملائكة والأنبياء.

أو من الشهود بمعنى الحضور؛ فيراد به: كلُّ من حضر الموقف.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يطلبون اعوجاجها، أو يصفونها بالاعوجاج.

﴿لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ﴾ أي: لا يُفلِتون.

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ إخبارٌ عن تشديد عذابهم، وليس بصفة لـ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾.

﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ الآيةَ؛ «ما» نافية، والضمير للكفار، والمعنى:

---

(١) في ب: «وتعظُّمَ دلالتُه».

وصْفُهم بأنهم لا يسمعون ولا يبصرون، كقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] الآية.

وقيل غير ذلك، وهو بعيد.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: لا بدَّ، ولا شكَّ.

﴿وَأَخْبَتُوٓاْ﴾ خشعوا، وقيل: أنابوا.

﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ يعني: المؤمنين والكافرين.

﴿كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ شبَّه الكافر بالأعمى وبالأصم، وشبَّه المؤمن بالبصير وبالسميع، فهو على هذا تمثيل للمؤمنين بمثالين، وتمثيل للكافرين بمثالين.

وقيل: التقدير كالأعمى الأصم، والبصير السميع، فالواو لعطف الصفات، فهو على هذا تمثيل للمؤمن بمثال واحد؛ وهو مَن جمع بين السمع والبصر، وتمثيل للكافر بمثال واحد؛ وهو مَن جمع بين العَمى والصَّمم.

* * *

[﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٥ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۝٢٦ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ۝٢٧ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ۝٢٨ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝٢٩ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣٠ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣١ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٣٣ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٣٤ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ۝٣٥﴾].

﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ وصْفُ اليوم بالأليم على وجه المجاز؛ لوقوع الألم فيه.

﴿أَرَاذِلُنَا﴾ جمع أَرْذَلٍ، وهم سَفِلَة الناس، وإنما وصفوهم بذلك لفقرهم؛ جهلًا منهم، واعتقادًا أن الشرف هو بالمال والجاه، وليس الأمر كما اعتقدوا، بل المؤمنون كانوا أشرف منهم على حال فقرهم وخمولهم في الدنيا.

وقيل: إنهم كانوا حاكَةً وحجَّامين.

واختار ابن عطية أنهم أرادوا: أراذلَ في أفعالهم؛ لقول نوح: ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢][1].

﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ أي: أولَ الرأي، من غير نظر ولا تدبُّر.

و﴿بَادِىَ﴾ منصوب على الظرفية، أصله: وقت حدوث أول رأيهم، والعامل فيه: ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ على أصح الأقوال، والمعنى: اتبعك الأراذل من غير نظر ولا تثبُّت.

وقيل: هو صفة لـ ﴿بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾؛ أي: غيرَ متثبِّت في الرأي.

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي: من زيادة وشرف، والخطاب لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن معه.

﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي: على برهان وأمر جليّ، وكذلك في قصة صالح وشعيب.

﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ يعني: النبوَّة.

﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: خَفِيت عليكم، والفاعل: البينة، أو الرحمة.

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي: أَنُكْرِهُكم على قَبولها قهرًا؟، وهذا هو جواب ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾.

ومعنى الآية: أن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لقومه: أرأيتم إن هداني الله وأضلكم أأُجبركم على الهدى وأنتم له كارهون؟.

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٦/ ٤٩٥).

﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ عائد على التَّبليغ.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يقتضي أنهم طلبوا منه طرد الضعفاء.

﴿إِنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ المعنى: أنه يجازيهم على إيمانهم.

﴿مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ أي: من يدفع عني عقاب الله إن ظلمتهم بالطَّرد.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ؛ أي: لا أدَّعي ما ليس لي فتنكرون قولي.

﴿تَزْدَرِىٓ﴾ أي: تحتقر؛ من قولك: زرَيت على الرجل: إذا قصَّرتَ به.

والمراد بالذين تزدري أعينهم: ضعفاء المؤمنين.

﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: إن قلتُ للمؤمنين: لن يؤتيهم الله خيرًا.

والخير هنا يَحتمل أن يراد به: خير الدنيا، أو الآخرة.

﴿جِدَٰلَنَا﴾ الجدال: هو المخاصمة والمراجعة في الحجة.

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي: بالعذاب.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ﴾ الآيةَ؛ جزاءُ قوله: ﴿إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ هو ما دلَّ عليه قوله: ﴿نُصْحِىٓ﴾، وجزاءُ قوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ هو ما دلَّ عليه قوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ﴾، فتقديرها: إن أراد الله أن يغويكم لم ينفعْكم نصحي إن نصحت لكم، ثم استأنف قوله: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾.

ولا يجوز أن يكون ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ جوابَ الشرط.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ﴾ الآيةَ؛ الضمير في ﴿يَقُولُونَ﴾ لكفار قريش، وفي ﴿افْتَرَىٰهُ﴾ لمحمد ﷺ، هذا قول جميع المفسرين.

واختار ابن عطية أن تكون في شأن نوح ﷺ، فيكون الضمير في ﴿يَقُولُونَ﴾ لقوم نوح، وفي ﴿افْتَرَىٰهُ﴾ لنوح؛ لئلا يعترض ما بين قصة نوح بغيرها، وهذا بعيد[١].

﴿إِجْرَامِى﴾ أي: ذنبي.

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٤/ ٥٦٩).

[﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾].

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: فلا تحزن.

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: تحت نظرنا وحفظنا.

﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي: وتعليمنا لك كيف تصنع الفلك.

﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: لا تشفع لي فيهم؛ فإني قد قضيت عليهم بالغرق.

﴿وَكُلَّمَا﴾ يَحتمل أن يكون جوابها: ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾، أو ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا﴾.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديدٌ، و﴿مَن يَأْتِيهِ﴾ منصوبٌ بـ ﴿تَعْلَمُونَ﴾.

﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ هو الغرق، والعذاب المقيم: عذاب النار.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ غايةٌ لقوله: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾.

﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ أي: فار بالماء، جعل الله تلك علامةً لنوح؛ ليركب حينئذ في السفينة.

والمراد: التنور[1] الذي يُوقَد فيه عند ابن عباس وغيره، ورُوي أنه كان تنور آدم خَلَص إلى نوح.

وقيل: التنور: وجه الأرض.

﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ المراد بالزوجين: الذكر والأنثى من الحيوان.

وقرئ ﴿مِن كُلِّ﴾ بغير تنوين؛ فعَمل ﴿احْمِلْ﴾ في ﴿اثْنَيْنِ﴾.

وقرئ بالتنوين؛ فعَمل ﴿احْمِلْ﴾ في ﴿زَوْجَيْنِ﴾، وجُعِل ﴿اثْنَيْنِ﴾ توكيدًا.

---

(١) في د: «بالتنور».

﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي: قرابتك، وهو معطوف على ما عَمل فيه ﴿ٱحْمِلْ﴾.

﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: من قُضي عليه بالعذاب، فهو مستثنى من أهله، والمراد بذلك: ابنُه الكافر وامرأته.

﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ معطوفٌ على ﴿وَأَهْلَكَ﴾؛ أي: احمل أهلك ومن آمن مِن غيرهم.

﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قيل: كانوا ثمانين، وقيل: عشرة، وقيل: ثمانية.

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ الضمير في ﴿قَالَ﴾ لنوح، والخطاب لمن كان معه، والضمير في ﴿فِيهَا﴾ للسفينة.

وروي أنهم ركبوا فيها أول يوم من رجب، واستقرَّت على الجودي يوم عاشوراء.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مُجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ اشتقاق ﴿مُجْر۪ىٰهَا﴾ من الجري، واشتقاق ﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾ من الإرساء، وهو الثبوت؛ أي[1]: وقوف السفينة.

ويمكن أن يكونا: ظَرْفَين للزمان أو للمكان، أو مصدرين.

ويَحتمل الإعراب وجهين:

أحدهما: أن يكون ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ في موضع الحال من الضمير في ﴿ٱرْكَبُوا۟﴾، والتقدير: اركبوا متبرِّكين باسم الله، أو قائلين بسم الله،

---

(١) في أ، ب: «أو من».

فيكون ﴿مُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَآ﴾ على هذا ظرفين للزمان، بمعنى: وقتَ إجرائها وإرسائها، أو ظرفين للمكان، ويكون العامل فيه[١] ما في قولك: «بسم الله» من معنى الفعل، ويكون قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ متصلًا مع ما قبله، والجملة كلام واحد.

والوجه الثاني: أن يكون كلامين، فيوقف على ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾، ويكون ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ في موضع خبر، و﴿مُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَآ﴾ مبتدأٌ بمعنى المصدر؛ أي: إجراؤها وإرساؤها، ويكون ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ على هذا مستأنَفًا غير متصل بما قبله، ولكنه من كلام نوح حسَبما روي أن نوحًا كان إذا أراد أن يَجري بالسفينة قال: «بسم الله» فتَجري، وإذا أراد وقوفَها قال: «بسم الله» فتقف.

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ روي أن الماء طبَّق ما بين السماء والأرض، فصار الكل كالبحر، قال ابن عطية: وهذا ضعيف، وأين كان الموج كالجبال على هذا؟[٢].

وصوَّبه الزمخشري، وقال: كانت تجري في موج كالجبال قبل التَّطبيق، وقبل أن يغمر الماء الجبالَ[٣].

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ كان اسمه: كَنْعان، وقيل: يامٌ، وكان له ثلاثة بنون[٤] سواه؛ وهم: سامٌ وحامٌ ويافثٌ، ومنهم تناسل الخلق.

---

(١) في د: «فيهما».
(٢) انظر: المحرر الوجيز (٤/ ٥٨٠).
(٣) انظر: الكشاف (٨/ ٨٠).
(٤) في د: «بنين».

﴿فِي مَعْزِلٍ﴾ في ناحية.

﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ يَحتمل أربعة أوجه:

أحدها: أن يكون ﴿عَاصِمَ﴾ اسم فاعل، و﴿مَن رَّحِمَۚ﴾ كذلك بمعنى الراحم، فالمعنى: لا عاصم إلَّا الراحم؛ وهو الله تعالى.

والثاني: أن يكون ﴿عَاصِمَ﴾ بمعنى: ذي عصمة؛ أي: معصوم، و﴿مَن رَّحِمَۚ﴾ بمعنى مفعول؛ أي: من رحمه الله، فالمعنى: لا معصوم إلَّا من رحمه الله.

والاستثناء على هذين الوجهين متصل.

والثالث: أن يكون ﴿عَاصِمَ﴾ اسم فاعل، و﴿مَن رَّحِمَۚ﴾ بمعنى المفعول والمعنى: لا عاصم من أمر الله، لكن من رحمه الله فهو المعصوم.

والرابع: عكسه.

والاستثناء على هذين منقطع.

﴿ٱبْلَعِي مَآءَكِ﴾ عبارةٌ عن جفوف الأرض من الماء.

﴿أَقْلِعِي﴾ أي: أمسكي عن المطر، ورُوي أنها أمطرت من كل موضع منها.

﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ أي: نقَص.

﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: تمَّ وكمل.

﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّۖ﴾ أي: استقرت السفينة على الجودي؛ وهو جبل بالموصِل.

﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾ أي: هلاكًا، وانتصابه على المصدر.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ يَحتمل أن يكون هذا النداء:

قبل الغرق؛ فيكون العطف من غير ترتيب.

أو يكون بعده.

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ أي: وقد[1] وعدتني أن تنجيَ أهلي.

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم؛ لأنه كافر.

وقال الحسن: لم يكن ابنَه، ولكن خانته امرأته، وكان لغير رِشْدةٍ، وهذا ضعيف؛ لأن الأنبياء ﷺ قد عصمهم الله من أن يزني نساؤهم، ولقوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾.

﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ فيه ثلاثة تأويلات على قراءة الجمهور:

أحدها: أن يكون الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ لسؤال نوحٍ نجاةَ ابنه.

والثاني: أن يكون الضمير لابن نوح، وحُذِف مضافٌ من الكلام؛ تقديره: إنه ذو عملٍ غير صالح.

والثالث: أن يكون الضمير لابن نوح، و﴿عَمَلٌ﴾ مصدر وصف به مبالغةً، كقولك: رجل صومٌ.

وقرأ الكسائي: ﴿عَمِلَ﴾ بفعل ماض ﴿غَيْرَ صَٰلِحٍ﴾ بالنصب، والضمير

---

(١) في أ، ب، ج، هـ: «قد» بلا واو.

على هذا لابن نوح بلا إشكال.

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: لا تطلب مني أمرًا لا تعلم أصوابٌ هو أم غير صواب حتى تقف على كُنْهِه.

فإن قيل: لم سمِّي نداؤه سؤالًا، ولا سؤال فيه؟.

فالجواب: أنه تضمَّن السؤال وإن لم يصرِّحْ به.

﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ «أن» في موضع مفعول من أجله؛ تقديره: أعظك؛ كراهةَ أن تكون من الجاهلين، وليس في ذلك وصفٌ[1] له بالجهل، بل فيه ملاطفة وإكرام.

﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ أي: اهبط من السفينة بسلامة.

﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ أي: ممن معك في السفينة.

واختار الزمخشري أن يكون المعنى: مِن ذرية مَن معك، ويعني به: المؤمنين إلى يوم القيامة، فـ«مِن» على هذا لابتداء الغاية، والتقدير: على أمم ناشئة ممن معك[2].

وعلى الأول: تكون «مِن» لبيان الجنس.

﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ يعني: نمتعهم متاع الدنيا - وهم الكفار - إلى يوم القيامة.

---

(١) أ، ب، ج، هـ: «وصفًا».

(٢) انظر: الكشاف (٨/ ٩٨).

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ إشارةٌ إلى القصة، وفي الآية دليلٌ على أن القرآن من عند الله؛ لأن النبي ﷺ لم يكن يعلم ذلك قبل الوحي.

* * *

[﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾].

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ يعني: في عبادتهم لغير الله.

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ السماء هنا: المطر، و﴿مِّدْرَارًا﴾ بناءُ تكثيرٍ؛ من الدَّرِّ، يقال: درَّ المطر واللبن وغيره.

وفي الآية دليل على أن الاستغفار والتوبة سببٌ لنزول الأمطار، ورُوي أن عادًا كان المطر قد حُبس عنهم ثلاث سنين، فأمرهم بالتوبة والاستغفار، ووعدهم على ذلك بالمطر.

والمراد بالتوبة هنا: الرجوع عن الكفر، ثم عن الذنوب؛ لأن التوبة من الذنوب لا تصحُّ إلَّا بعد الإيمان.

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي: بمعجزة، وذلك كذب منهم وجحود. أو يكون معناه: بآية تضطرنا إلى الإيمان بك، وإن كان قد أتاهم بآية نظرية.

﴿عَن قَوْلِكَ﴾ أي: بسبب قولك.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ معناه: ما نقول إلَّا أن بعض آلهتنا أصابتك بجنون لما سببْتَها ونهيتنا عن عبادتها.

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ هذا أمرٌ بمعنى التعجيز؛ أي: لا تقدرون أنتم ولا آلهتكم على شيء، ثم ذكر سبب قوته في نفسه وعدم مبالاته بهم، فقال: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ﴾ الآيةَ.

﴿مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أي: هي في قبضته وتحت قهره، والأخذ بالناصية تمثيل لذلك، وهذه الجملة تعليل لقوة توكُّله على الله وعدم مبالاته بالخلق.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يريد: أن أفعال الله جميلة، وقوله صدق، ووعده حق، فالاستقامة تامة.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾ أصل ﴿تَوَلَّوْا﴾ هنا: تتولوا؛ لأنه فعل مستقبل حذفت منه تاء المضارعة.

فإن قيل: كيف وقع الإبلاغ جوابًا للشرط، وقد كان الإبلاغ قبل التولِّي؟.

فالجواب: أن المعنى إن تتولوا فلا عتْبَ عليَّ؛ لأني قد أبلغتكم رسالة ربي.

﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تنقُصونه شيئًا إذا أهلككم واستخلف غيركم.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ إن قيل: لم قال هنا وفي قصة شعيب ﴿وَلَمَّا﴾ بالواو وقال في قصة صالح ولوط ﴿فَلَمَّا﴾ بالفاء؟

فالجواب على ما قال الزمخشري: أنه وقع ذلك في قصة صالح ولوط بعد الوعيد؛ فجيء بالفاء التي تقتضي التَّسبيب، كما تقول: وعدته فلما جاء الميعاد..، بخلاف قصة هود وشعيب؛ فإنه لم يتقدم ذلك فيهما فعطف بالواو[1].

﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يَحتمل أن يريد به عذاب الآخرة؛ ولذلك عطَفه على النجاة الأولى التي أراد بها النجاة من الريح.

ويَحتمل أن يريد بالثاني أيضًا الريح، وكرَّره؛ إعلامًا بأنه عذاب غليظ، وتعديدًا للنعمة في نجاتهم.

﴿وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ﴾ في جمع الرسل هنا وجهان:

أحدهما: أن من عصى رسولًا واحدًا لزمه عصيان جميعهم؛ فإنهم متفقون على الإيمان بالله وعلى توحيده.

والثاني: أن يراد الجنس؛ كقولك: فلان يركب الخيل، وإن لم يركب إلَّا فرسًا واحدًا.

﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ هذا تشنيع لكفرهم، وتهويل بحرف التنبيه، وبتكرار اسم عاد.

---

(١) انظر: الكشاف (٨/ ١٨٤).

﴿أَلَا بُعْدًا﴾ أي: هلاكًا، وهذا دعاء عليهم، وانتصابه بفعل مضمر.

فإن قيل: كيف دعا عليهم بالهلاك بعد أن هلَكوا؟.

فالجواب: أن المراد: أنهم أهْلٌ لذلك.

﴿لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ بيانٌ؛ لأن عادًا اثنان؛ أحدهما: قوم هود، والآخر[1]: إِرَم.

* * *

(١) في ج، هـ: «والأخرى».

[﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾].

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لأن آدم خلق من تراب.

﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: جعلكم تَعمُرونها؛ فهو من العمران للأرض.

وقيل: هو من العُمر؛ نحو: استبقاكم من البقاء.

﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ أي: كنا نرجو أن ننتفع بك حتى قلت ما قلت.

وقيل: المعنى: كنا نرجو أن تدخل في ديننا.

﴿فِى دَارِكُمْ﴾ أي: بلدكم.

﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ قيل: إنها الخميس والجمعة والسبت؛ لأنهم عقروا الناقة يوم الأربعاء، وأخذهم العذاب يوم الأحد.

﴿وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ معطوف على ﴿نَجَّيْنَا﴾ أي: نجيناهم من خزي يومئذ.

﴿جَٰثِمِينَ﴾ ذُكِر في «الأعراف»[١].

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ كأن لم يقيموا فيها، والضمير للديار، وكذلك في قصة شعيب.

---

(١) انظر صفحة ٣٦٢.

[﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾].

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الرسل هنا: الملائكة.

﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ بشّروه بالولد.

﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ نصب على المصدر، والعامل فيه فعل مضمر؛ تقديره: سلّمنا عليكم سلامًا.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ تقديره: عليكم سلام، أو سلام عليكم، وهذا على أن يكون

بمعنى التحية، وإنما رُفِع جوابه؛ ليدلَّ على إثبات السلام، فيكون قد حيَّاهم بأحسن مما حيَّوه.

ويَحتمل أن يكون السلام بمعنى السلامة، ونُصِب الأول؛ لأنه في معنى الطلب، ورُفِع الثاني؛ لأنه في معنى الخبر.

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ﴾ أي: ما لبث مجيئُه، بل عَجِل، و«ما» نافية، و﴿أَن جَآءَ﴾ فاعل بـ ﴿لَبِثَ﴾.

﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أي: مشويٌّ، وفعيل هنا بمعنى مفعول.

﴿نَكِرَهُمْ﴾ أي: أنكرهم ولم يعرفهم؛ يقال: نَكِر وأنكر بمعنى واحد.

﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ قيل: إنه لم يعرفهم، فخاف منهم لما لم يأكلوا طعامه.

وقيل: عرف أنهم ملائكة، ولكن خاف أن يكونوا أُرسلوا بما يُخَاف، فأمَّنوه بقولهم: ﴿لَا تَخَفْ﴾.

﴿وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ﴾ قيل: قائمة خلف سِترٍ.

وقيل: قائمة في الصلاة.

وقيل: قائمة تخدم القوم، واسمها سارة.

﴿فَضَحِكَتْ﴾ قيل: معناه حاضت، وهو ضعيف.

وقال الجمهور: هو الضَّحِك المعروف، واختلفوا من أيِّ شيء ضحكت؟.

فقيل: سرورًا بالولد الذي بُشِّرت به؛ ففي الكلام على هذا تقديم وتأخير.

وقيل: سرورًا بالأمن بعد الخوف.

وقيل: سرورًا بهلاك قوم لوط.

﴿فَبَشَّرۡنَـٰهَا بِإِسۡحَـٰقَ﴾ أسند البشارة إلى ضمير الله تعالى؛ لأنها كانت بأمره.

﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَـٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ أي: من بعده، وهو ولده.

وقيل: الوراء ولد الولد.

و﴿يَعۡقُوبُ﴾ بالرفع: مبتدأ، وبالفتح: معطوف على ﴿إِسۡحَـٰقَ﴾.

﴿قَالَتۡ يَـٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ الألف فيه مبدلة من المتكلم، كذلك في «يا لهفَا» و«يا أسفَا» و«يا عجبًا»، ومعناه: التعجُّب من الوِلادة، وروي أنها كانت حينئذ بنت تسع وتسعين سنة، وإبراهيم ابن مئة سنة.

﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ يَحتمل الدعاءَ والخبر.

﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ أي: أهل بيت إبراهيم، وهو منصوبٌ بفعل مضمر على الاختصاص، أو منادى.

﴿حَمِيدٞ﴾ أي: محمود.

﴿مَّجِيدٞ﴾ من المجد؛ وهو العلو والشرف.

﴿يُجَـٰدِلُنَا﴾ هذا جواب ﴿فَلَمَّا﴾، على أن يكون المضارع في موضع الماضي، أو على تقدير: ظلَّ أو أخذ يجادلنا.

أو يكون ﴿يُجَـٰدِلُنَا﴾ مستأنفًا، والجواب محذوف.

ومعنى جداله: كلامُه مع الملائكة في رفع العذاب عن قوم لوط.

وقد ذُكِر في «اللغات» ﴿حَلِيمٌ﴾[١]، وفي «براءة» ﴿أَوَّٰهٌ﴾[٢].

﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآ﴾ أي: قلنا: يا إبراهيم أعرض عن هذا؛ يعني: عن المجادلة فيهم، فقد نفَذ القضاء بعذابهم.

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ الرسل هم الملائكة، ومعنى ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ أصابه سوءٌ وضجر؛ لما ظن أنهم من بني آدم، وخاف عليهم من قومه.

﴿يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ أي: شديد.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ أي: يُسرِعون، وكانت امرأة لوط قد أخبرتهم بنزول الأضياف عنده، فأسرعوا ليعملوا بهم عملهم الخبيث.

﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ أي: كانت عادتهم إتيانَ الفواحش في الرجال.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ المعنى: فتزوجوهنَّ، وإنما قال ذلك ليقِيَ أضيافه ببناته.

وقيل: اسم بناته الواحدة ريثا[٣]، والأخرى غوثا[٤]، وأن اسم امرأته الهالكة والهة، واسم امرأة نوح والغة.

---

(١) انظر المادة (١٢٩) في اللغات.

(٢) انظر صفحة ٥٢٨.

(٣) في ب، ج، هـ: «زينا».

(٤) في ب، ج، هـ: «رغوثا».

﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: ما لنا فيهنَّ أَرَبٌ.

﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ يعنون: نكاح الذكور.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً﴾ جواب «لو» محذوف؛ تقديره: لو كانت لي قدرة على دفعكم لفعلت.

ويَحتمل أن تكون «لو» للتمني.

﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ معنى ﴿ءَاوِىٓ﴾ ألجأُ، والمراد بالركن الشديد: ما يلجأ إليه من عشيرة أو أنصار يحمونه من قومه، وكان رسول الله ﷺ يقول: «يرحم الله أخي لوطًا؛ لقد كان يأوي إلى ركن شديد»[1] يعني: إلى الله وملائكته.

﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ الضمير في ﴿قَالُوا۟﴾ للملائكة، والضمير في ﴿لَن يَصِلُوٓا۟﴾ لقوم لوط، وذلك أن الله طمس على أعينهم حينئذٍ.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ أي: اخرج بهم بالليل؛ فإن العذاب ينزل بأهل هذه المدائن.

وقرئ ﴿ فَاسْرِ ﴾ بوصل الألف وقطعها، وهما لغتان؛ يقال: سَرى وأَسرى.

﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: قطعةٍ منه.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ نُهوا عن الالتفات؛ لئلا تتفطَّر أكبادهم على قريتهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١).

وقيل: ﴿يَلْتَفِتْ﴾ معناه: يتلوَّى[١].

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ قرئ بالنصب والرفع:

فالنصب: استثناءٌ من قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾، فيقتضي هذا أنه لم يُخرِجْها مع أهله.

والرفع: بدلٌ من ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾، ورُوي على هذا أنه أخرجها معه، وأنها التفتتْ وقالت: يا قوماه!، فأصابها حجر فقتلها.

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ أي: وقت عذابهم الصبح.

﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ ذُكِر أنهم لما قالوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ قال لهم لوط: هلَّا عُذِّبوا الآن! فقالوا له: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ الضمير للمدائن، رُوي أن جبريل أدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط، واقتلعها فرفعها حتى سمع أهل السماء صُراخ الدِّيكة ونباح الكلاب، ثم أرسلها مقلوبة.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً﴾ أي: على المدائن، والمراد أهلها، روي أنه من كان منهم خارج المدائن أصابته حجارة من السماء، وأما من كان في المدائن فهلَك لما قُلِبت.

﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ قيل: معناه من ماء وطين، وإنها كان مثل[٢] الآجُرِّ المطبوخ.

---

(١) قال في المحرر الوجيز (٤/ ٦٢٥): «وقالت فرقة: هي من لَفتَ الشيءَ يَلفِتُه: إذا ثنّاه ولوَاه، فمعناها: ولا يتثبَّطْ».

(٢) في د: «من».

وقيل: مِن سَجَله: إذا أرسله.

وقيل: هو لفظ أعجمي.

﴿مَنضُودٍ﴾ أي: مضموم بعضه فوق بعض.

﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ معناه: معلَّمة بعلامة، رُوي أنه كان فيها بياض وحمرة.

وقيل: كان في كل حجر اسم صاحبه.

﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ الضمير للحجارة، والمراد بـ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كفار قريش، فهذا تهديدٌ لهم؛ أي: ليس الرمي بالحجارة ببعيد منهم؛ لأجل كفرهم.

وقيل: الضمير للمدائن، فالمعنى: ليست ببعيدة منهم أفلا يعتبرون بها؛ كقوله: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفرقان: ٤٠].

وقيل: إن ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على العموم.

[﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾].

﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ يعني: رخص الأسعار، وكثرة الأرزاق.

﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ يوم القيامة، أو يوم عذابهم في الدنيا.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: ما أبقاه الله لكم من رزقه ونعمته.

﴿أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ الصلاة: هي المعروفة، ونَسب الأمر إليها مجازًا، كقوله: ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

والمعنى: أصلواتك تأمرك أن نترك عبادة الأوثان؟، وإنما قال الكفار هذا على وجه الاستهزاء.

﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ يعنون: ما كانوا عليه من بخْس المكيال والميزان.

و﴿أَن نَّفْعَلَ﴾ عطفٌ على ﴿أَن نَّتْرُكَ﴾ [(١)].

﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ قيل: إنهم قالوا ذلك على وجه الاستهزاء والتهكُّم.

وقيل: معناه: الحليم الرشيد عند نفسك.

﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي: سالمًا من الفساد الذي أدخلتم في أموالكم.

وجواب ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ محذوف، يدلُّ عليه المعنى، وتقديره: أرأيتم إن كنت على بينة من ربي أيصح[(٢)] لي ترك تبليغ رسالته؟.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ يقال: خالفني فلان إلى كذا: إذا

---

(١) كذا في جميع النسخ الخطية!، ولعل الصواب -كما في المحرر الوجيز-: أنها عطف على ﴿مَا يَعْبُدُ﴾ أي: أصلواتك تأمرك أن نترك عبادة الأوثان أو أن نترك أن نفعل في أموالنا ما نشاء!، قال في المحرر الوجيز (٥/ ٥): «﴿أنْ﴾ الثانية عطفٌ على ﴿ما﴾، لا على ﴿أنْ﴾ الأولى؛ لأن المعنى يصير: أصلواتك تأمرك أن نفعل في أموالنا ما نشاء؟، وهذا قلْب ما قصدوه»، وانظر: حاشية الطِّيبي على الكشاف (٨/ ١٦٧).

(٢) في د: «أيصلح».

قصدَه وأنت مُوَلٍّ عنه، وخالفني عنه: إذا ولَّى عنه وأنت قاصده.

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ﴾ أي: لا تُكْسِبْكم عدواتي أن يصيبكم مثلُ عذاب الأمم المتقدمة، و﴿شِقَاقِيٓ﴾ فاعل، و﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ مفعول.

﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ يعني: في الزمان؛ لأنهم كانوا أقرب الأمم الهالكين إليهم.

ويَحتمل أن يريد: في البلاد.

﴿مَا نَفۡقَهُ﴾ أي: ما نفهمُ.

﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾ أي: ضعيف الانتصار والقدرة، وقيل: نَحِيل البدن، وقيل: أعمى.

﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ الرَّهْط: القرابة، والرَّجم: بالحجارة، أو بالسبِّ.

﴿أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هذا توبيخٌ لهم.

فإن قيل: إنما وقع كلامهم فيه وفي رهطه وأنهم هم الأعزَّة دونه، فكيف طابق جوابه كلامهم؟.

فالجواب: أنَّ تهاونهم به وهو رسول الله تهاونٌ بالله؛ فلذلك قال: ﴿أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ الضمير في ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ﴾ لله تعالى، أو لدينه وأمره.

والظِّهريُّ: ما يُطَّرح وراء الظهر ولا يُعبأ به، وهو منسوب إلى الظهر بتغيير النسب.

﴿اَعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ تهديدٌ، ومعنى ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ تمكُّنكم في الدنيا وعزَّتكم فيها.

﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ عذاب الدنيا والآخرة.

﴿وَارْتَقِبُوٓاْ﴾ تهديدٌ.

[﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: بالمعجزات.

﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: برهان بيِّن.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾ أي: يتقدَّم قُدَّامهم للنار، كما كانوا في الدنيا يتَّبعونه على الضلال والكفر.

﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ الورود هنا بمعنى: الدخول، وذكره بلفظ الماضي؛ لتحقُّق وقوعه.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ عطفٌ على ﴿فِى هَٰذِهِۦ﴾؛ فإن المراد به: في الدنيا.

﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ أي: العطية المعطاة.

﴿قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ باقٍ وداثرٌ.

﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾ حجة على التوحيد ونفي الشرك.

﴿تَتْبِيبٍ﴾ أي: تخسير.

﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: يُجمَعون فيه للحساب، والثواب والعقاب.

وإنما عبَّر باسم المفعول دون الفعل؛ ليدلَّ على ثبوت الجمع لذلك اليوم؛ لأن لفظ ﴿مَّجْمُوعٌ﴾ أبلغ من لفظ «يُجمَع».

﴿يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي: يحضره الأولون والآخرون.

﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ العامل في الظرف: ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾، أو مضمر.

وفاعل ﴿يَأْتِ﴾ ضمير:

يعود على ﴿يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾.

وقال الزمخشري: يعود على الله تعالى؛ كقوله: ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، ويعضُده عَوْد الضمير عليه في قوله: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾[1].

﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ الضمير يعود على أهل الموقف الذي دلَّ عليهم قوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾.

﴿زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ الزفير: إخراج النفس، والشهيق: ردُّه.

وقيل: الزفير: صوت المحزون، والشهيق: صوت الباكي.

---

(١) انظر: الكشاف (٨/ ١٩٥).

وقيل: الزفير من الحلق، والشهيق من الصدر.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن يراد بها سماوات الآخرة وأرضها، وهي دائمة أبدًا.

والآخر: أن يكون عبارة عن التَّأبيد، كقول العرب: ما لاح كوكب، وما ناح الحمام، وشبه ذلك مما يقصد به الدوام.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ في هذا الاستثناء ثلاثة أقوال:

قيل: إنه على طريق التأدُّب مع الله، كقولك: «إن شاء الله» وإن كان الأمر واجبًا.

وقيل: المراد به: زمان خروج المذنبين من النار، ويكون ﴿ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾ على هذا يعمُّ الكفار والمذنبين.

وقيل: استثنى مدة كونهم في الدنيا وفي البرزخ.

وأما الاستثناء في أهل الجنة فيصح فيه القول الأول والثالث، دون الثاني.

﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي: غير مقطوع.

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المرية: الشك، والإشارةُ إلى عبَدة الأصنام؛ أي: لا تشك في فساد دين هؤلاء.

﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم﴾ أي: هم متبعون لآبائهم، تقليدًا من غير برهان.

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ يعني: من العذاب.

[﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾].

﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ يعني: القدر، وذلك أن الله قضى أن يَفصِل بينهم يوم القيامة، فلا يفصل في الدنيا.

﴿وَإِن كُلًّا﴾ قرئ: بتشديد ﴿إنَّ﴾، وبتخفيفها وإعمالها عمل الثقيلة.

والتنوين في ﴿كُلًّا﴾ عوضٌ من المضاف إليه؛ يعني: كلُّهم.

واللام في ﴿لَمَا﴾ موطِّئة للقسم، و«ما» زائدة، و﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ خبر ﴿إنَّ﴾.

وقرئ ﴿لَّمَّا﴾ بالتشديد؛ على أن تكون ﴿إِن﴾ نافيةً، و﴿لَّمَّا﴾ بمعنى «إلَّا».

﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يعني: جزاء أعمالهم.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ يعني: الكفار، وقيل: إنهم الظَّلَمة من الولاة وغيرهم.

﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ مستأنَفٌ غير معطوف، وإنما ذكر بـ ﴿ثُمَّ﴾ لبعد النصرة.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآيةَ؛ يراد بها الصلوات المفروضة، فالطرف الأول: الصبح، والطرف الثاني: الظهر والعصر، والزُّلَف من الليل: المغرب والعشاء.

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ لفظه عام، وخصَّصه أهل التأويل بأن الحسنات الصلوات الخمس، ويمكن أن يكون ذلك على وجه التمثيل.

رُوي أن رجلًا قبَّل امرأة، ثم ندم، فذَكر ذلك للنبي ﷺ، وصلى معه الصلاة، فنزلت الآية، فقال النبي ﷺ: **«أين السائل؟»**، فقال: ها أنا ذا، فقال: **«قد غُفر لك»**، فقال الرجل: ألي خاصة أو للمسلمين عامة؟، فقال: **«للمسلمين عامة»**[1]، والآية على هذا مدنية.

وقيل: إن الآية كانت قبل ذلك، وذكرها النبي ﷺ للرجل مستدلًّا بها، والآية على هذا مكية كسائر السورة.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٦)، ومسلم (٢٧٦٣).

وإنما تُذهِب الحسناتُ - عند الجمهور - الصغائرَ إذا اجتُنبت الكبائر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة:

إلى الصلوات.

أو إلى كل ما تقدَّم من وعظ ووعد ووعيد.

﴿فَلَوْلَا﴾ تحضيض بمعنى «هلَّا».

﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ أي: أولو خير ودين بقي لهم دون غيرهم.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء منقطع، معناه: ولكنَّ قليلًا ممن أنجينا من القرون ينهون عن الفساد في الأرض.

وقيل: هو متصل، فإن الكلام الذي قبله في حكم النفي؛ كأنه قال: ما كان فيهم من ينهى عن الفساد في الأرض إلَّا قليلًا، على أن الوجه في مثل هذا البدل، ويجوز فيه النصب.

﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ يعني: الذين لم ينهوا عن الفساد.

﴿بِظُلْمٍ﴾ هذا المجرور في موضع الحال من ﴿رَبُّكَ﴾، والمعنى: أنه لا يُهلِك أهل القرى ظالمًا لهم، تعالى الله عن ذلك.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يعني: مؤمنة، لا خلاف بينهم في الإيمان.

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ يعني: في الأديان، والملل، والمذاهب.

﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قيل: الإشارة إلى الاختلاف.

وقيل: إلى الرحمة.

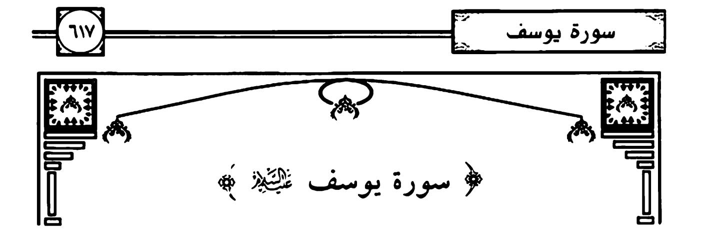
وقيل: إليهما.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ﴾ انتصب ﴿كُلًّا﴾ بـ ﴿نَقُصُّ﴾، و﴿مَآ﴾ بدلٌ من ﴿كُلًّا﴾.

﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ الإشارةُ إلى السورة.

﴿ٱعْمَلُوا۟﴾ ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ تهديدٌ.

* * *



[﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾].

﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ يعني: القرآن، و﴿ٱلْمُبِينِ﴾ يَحتمل:

أن يكون بمعنى البيِّن، فيكون غير متعدٍّ.

أو يكون متعديًا، بمعنى أنه أبان الحقَّ؛ أي: أظهره.

﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يتعلَّق بـ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، أو بـ﴿عَرَبِيًّا﴾.

﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ يعني: قصة يوسف، أو قِصص الأنبياء على الإطلاق.

و﴿ٱلْقَصَصِ﴾ يكون مصدرًا، أو اسم مفعول؛ بمعنى المقصوص.

فإن أريد به هنا المصدر فمفعول ﴿نَقُصُّ﴾ محذوفٌ؛ لأن ذِكْر القرآن يدلُّ عليه.

﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ الضمير في ﴿قَبْلِهِۦ﴾ للقَصص؛ أي: من الغافلين عن معرفته، وفي هذا احتجاج على أنه من عند الله؛ لكونه جاء به من غير تعليم.

﴿إِذْ قَالَ﴾ العامل فيه: «اذكر» المضمر، أو ﴿ٱلْقَصَصِ﴾.

﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ أي: يا أبي، والتاء للمبالغة.

وقيل: للتأنيث، وكُسِرت دلالةً على ياء المتكلم، والتاء عوض من ياء المتكلم.

﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ كرَّر الفعل لطول الكلام، وأجرى الكواكب والشمس والقمر مجرى العقلاء في ضمير الجماعة؛ لما وصفها بفعل مَن يعقل، وهو السجود.

وتأويل الكواكب في المنام: إخوته، والشمس والقمر: أبواه، وسجودهم له: تواضعهم له ودخولهم تحت كنفه وهو مَلِك.

﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ إنما قال ذلك؛ لأنه علم أن تأويلها ارتفاع منزلته، فخاف عليه من الحسد.

﴿يَجْتَبِيكَ﴾ يختارك.

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ قيل: هي عبارة الرؤيا، واللفظ أعم من ذلك.

﴿ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ يعني: ذريتَه.

* * *

[﴿ ۞ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾].

﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: لمن سأل عنها، رُوي أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف، أو أمروا قريشًا أن يسألوه عنها، فهم السائلون على هذا، واللفظ أعم من ذلك.

﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ هو بنيامين، وهو أصغر من يوسف، ويقال إنه شقيق يوسف، وكان أصغر أولاد يعقوب.

﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة نقدر على النفع والضر بخلاف الصَّغيرَين، والعصبة: العشرة فما فوقها إلى الأربعين.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في خطإٍ وخروجٍ عن الصواب بإفراط حبة ليوسف وأخيه.

﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أي: لا يشارككم غيره في محبته لكم وإقباله عليكم.

﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ أي: بالتوبة والاستقامة.

وقيل: هو صلاح حالهم مع أبيهم.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ هو يهوذا، وقيل: روبيل.

﴿غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ غَوْره، وما غاب منه.

﴿ٱلسَّيَّارَةِ﴾ جمع سيَّارٍ، وهم القوم الذين يسيرون في الأرض للتجارة، وغيرها.

﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي: هذا هو الرأي إن فعلتموه.

﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي: لم تخاف عليه منا؟.

وقرأ السبعة ﴿تَأْمَ۫نَّا﴾ بالإدغام والإشمام؛ لأن أصله بضم النون الأولى.

﴿يَرْتَعِ﴾ مَن قرأه بكسر العين فهو من الرَّعي:

أي: من رعْي الإبل.

أو من رَعْي بعضهم لبعض، وحراسته.

ومن قرأه بالإسكان، فهو من الرَّتْع؛ وهو الإقامة في الخِصب والتنعُّم، والتاء على هذا أصلية، ووزن الفعل «يَفْعَلُ».

ووزنه على الأول «يَفْتَعِلُ».

ومن قرأ ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ بالياء: فالضمير ليوسف.

ومن قرأ بالنون: فالضمير للمتكلِّمين؛ وهم إخوته.

وإنما قالوا: ﴿نَلْعَبْ﴾؛ لأنهم لم يكونوا حينئذ أنبياء، أو كان اللعب من المباح لتعلم القتال، كالمسابقة بالخيل.

﴿وَأَجْمَعُوٓاْ﴾ أي: عزموا، وجواب ﴿فَلَمَّا﴾ محذوف.

وقيل: إنه ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ﴾، أو ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾ على زيادة الواو.

﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾ يَحتمل أن يكون هذا الوحي: بواسطة ملك، أو بإلهام.

والضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ ليوسف، وقيل: ليعقوب، والأول هو الصحيح.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ في موضع الحال:

من ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾؛ أي: لا يشعرون حين تنبئهم، فيكون خطابًا ليوسف عليه السلام.

أو من ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾؛ أي: لا يشعرون حين أوحينا إليه، فيكون خطابًا للمحمد ﷺ.

﴿نَسْتَبِقُ﴾ أي: نجري على أقدامنا لننظر أيُّنا يسبق.

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي: بمصدِّقٍ لمقالتنا.

﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ أي: لا تصدِّقُنا ولو كنا عندك من أهل الصدق، فكيف وأنت تتهمنا!.

وقيل: معناه: لا تصدقُنا وإن كنا صادقين في هذه المقالة، فذلك على وجه المغالطة منهم.

والأول أظهر.

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ﴾ أي: ذي كذب، أو وُصِف بالمصدر مبالغة.

وروي أنهم لطَخوا قميصه بدم جَدْيٍ، وقالوا ليعقوب: هذا دمه في قميصه، فقال لهم: ما بال الذئب أكله ولم يَخرِق قميصه؟، فاستدلَّ بذلك على كذبهم.

﴿سَوَّلَتْ﴾ زيَّنت.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ﴾ وعد من نفسه بالصبر، وارتفاعه على أنه:

مبتدأ، تقديره: صبر جميل أمثل.

أو خبر مبتدإ، تقديره: شأني صبر جميل.

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ رُوي أن هؤلاء[1] السيارة من مَدْين، وقيل: هم أعراب.

﴿وَارِدَهُمْ﴾ الوارد: هو الذي يستقي الماء لجماعة، ونقل السهيلي أن اسم هذا الوارد: مالك بن دُعْرٍ من العرب العاربة، ولم يكن له ولد، فسأل يوسفَ أن يدعو له بالولد فدعا له، فرزقه الله اثني عشر ولدًا، أعقب كلُّ واحد منهم قبيلةً[2].

(١) في أ، ب، هـ: «هذه».

(٢) انظر: التعريف والإعلام، للسهيلي (١٤٤).

﴿قَالَ يَـٰبُشْرَايَ﴾ أي: نادى البُشرى، كقولك: يا حسرة، وأضافها إلى نفسه.

وقرئ: ﴿يَـٰبُشْرَىٰ﴾ بحذف ياء المتكلم، والمعنى كذلك.

وقيل على هذه القراءة: نادى رجلًا منهم اسمه بشرى، وهذا بعيد.

ولما أدلى الواردُ الحبلَ في الجب تعلّق به يوسف فحينئذ قال: ﴿يَـٰبُشْرَايَ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ﴾.

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً﴾ الضمير الفاعل للسيارة، والضمير المفعول ليوسف، أي: أخفوه من الرُّفقة، وقالوا لهم: دفعَهُ لنا قوم لنبيعه لهم بمصر.

﴿وَشَرَوْهُ﴾ أي: باعوه، والضمير أيضًا للذين أخذوه.

وقيل: الضمير لإخوة يوسف، وأنهم رجعوا إليه فقالوا للسيارة: هذا عبدنا.

﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ أي: ناقصٍ عن قيمته.

وقيل: البخس هنا: الظلم.

﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ عبارةٌ عن قلّتها.

﴿وَكَانُوا۟﴾ الضمير للذين أخذوه، أو لإخوته.

[﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾].

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ﴾ يعني: العزيز، وكان حاجب الملك وخازنه، وقال السهيلي: اسمه قِطْفِير[1].

﴿مِن مِّصْرَ﴾ هو البلد المعروف، ولذلك لم ينصرف.

وكان يوسف قد سِيق إلى مصر، فنودي عليه في السوق حتى بلغ ثمنُه وزنَه ذهبًا، وقيل: فضةً، فاشتراه العزيز.

﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ قد تقدَّم.

---

(١) انظر: التعريف والإعلام، للسهيلي (١٤٤).

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ في عودةِ الضمير وجهان:

أحدهما: أن يعود على الله؛ فالمعنى: أنه يفعل ما يشاء لا رادَّ لأمره.

والثاني: أنه يعود على يوسف؛ أي: يدبِّر الله أمره بالحفظ له والكرامة.

﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قيل: الأشدُّ البلوغ، **وقيل**: ثمانَ عشرة سنة، **وقيل**: ثلاث وثلاثون، **وقيل**: أربعون.

﴿حُكْمًا﴾ هو الحِكمة أو[1] النبوة.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: طلبت منه ما يكون من الرجل إلى المرأة[2]، وهي زَلِيخَا امرأة العزيز.

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ روي أنها كانت سبعة أبواب.

﴿هَيْتَ لَكَ﴾ اسم فعل معناه: تعال وأقبل.

وقرئ بفتح الهاء وكسرها، وبفتح التاء وكسرها وضمها، والمعنى في ذلك كله واحد، وحركات التاء للبناء.

وأما من قرأه بالهمز؛ فهو فعل من تهيَّأتُ، كقولك: جِئت.

﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ منصوب على المصدرية، والمعنى: أعوذ بالله.

﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ يَحتمل أن يكون الضمير:

لله تعالى.

---

(١) في ج: «و».

(٢) في أ، ب، هـ: «للمرأة».

أو للذي اشتراه؛ لأن السيد يقال له ربٌّ، فالمعنى لا ينبغي لي أن أخونه.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الضمير للأمر والشأن، ويحتمل ذلك في الأوَّل.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ أكثرَ الناسُ الكلام في هذه الآية حتى ألَّفوا فيها التواليف، فمنهم مُفْرِط ومُفَرِّط.

وذلك أن منهم من جعل همَّ المرأة وهمَّ يوسف من حيث الفعل الذي أرادته، وذكروا في ذلك رواياتٍ من جلوسه بين رجليها، وحلِّه للتِّكة وغير ذلك، مما لا ينبغي أن يقال به؛ لضعف نقله، ولنزاهة الأنبياء عن مثله.

ومنهم من جعل أنها همَّت به لتضربه على امتناعه، وهمَّ بها ليقتلها، أو يضربها ليدفعها، وهو بعيدٌ، يرده قوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾.

ومنهم من جعل همَّها به من حيث مرادها، وهمه بها ليدفعها، وهذا أيضًا بعيد؛ لاختلاف سياق الكلام.

والصواب إن شاء الله: أنها همت به من حيث مرادُها، وهمَّ بها كذلك، لكنه لم يعزم على ذلك، ولم يبلغ إلى ما ذُكِر مِن حلِّ التكة وغيرها، بل كان همُّه خطْرةً خطرت على قلبه لم يُطِعْها، ولم يتابعها، ولكنه بادر إلى التوبة والإقلاع عن تلك الخطرة حتى محاها من قلبه لما رأى برهان ربه، ولا يَقْدَحُ هذا في عصمة الأنبياء؛ لأن الهمَّ بالذنب ليس بذنب، ولا نقص عليه في ذلك؛ فإنه من همَّ بذنب ثم تركه كتبت له حسنة.

﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ جوابه محذوف، تقديره: لو لا أن رأى برهان ربه لخالطها، وإنما حذف؛ لأن قوله ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ يدلُّ عليه.

وقد قيل: إن ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هو الجواب، وهذا ضعيف؛ لأن جواب «لولا» لا يتقدَّم عليها.

واختُلف في البرهان الذي رآه:

فقيل: ناداه جبريل: يا يوسف تكون في ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء!.

وقيل: رأى يعقوب ينهاه.

وقيل: تفكَّر فاستبصر.

وقيل: رأى زَليخا غطَّت وجه صنم لها حياءً منه، فقال: أنا أولى أن أستحييَ من الله.

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ﴾ الكاف:

في موضع نصب، متعلقة بفعل مضمر، التقدير: ثبتناه مثل ذلك التثبيت.

أو في موضع رفع، تقديره: الأمرُ مثل ذلك.

﴿السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ﴾ خيانة سيده، والوقوع في الزنا.

﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ قرئ بفتح اللام حيث وقع؛ أي: الذين أخلصهم الله لطاعته.

وبالكسر؛ أي: أخلصوا دينهم لله.

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ معناه: سابق كل واحد منهما صاحبه إلى الباب، فقصَد هو الخروجَ والهروب عنها، وقصَدتْ هي أن تردَّه.

فإن قيل: كيف قال هنا: ﴿ٱلْبَابَ﴾ بالإفراد، وقد قال بالجمع: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾؟

فالجواب: أن المراد هنا الباب البرَّاني الذي هو المخرج من الدار.

﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ أي: قطعته من وراء، وذلك أنها قبضت في قميصه من خلفه لتردَّه، فتخرَّق القميص، والقدُّ: القطع بالطول، والقَطُّ: بالعرض.

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ أي: وجدا زوجها عند الباب.

﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾ لما رأت الفضيحة عكست القضية، وادَّعت أن يوسف راودها عن نفسها، فذكرت جزاء كلٍّ من فعل ذلك على العموم، ولم تصرِّح بذكر يوسف؛ لدخوله في العموم، وبناء على أن الذنب ثابت عليه بدعواها.

و﴿مَا جَزَآءُ﴾ يَحتمل أن تكون «ما»: نافيةً، أو استفهامية.

﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ برَّأ نفسه من دعواها.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ قيل: هو ابن عمها، وقيل: كان طفلًا في المهد فتكلم.

وكونه من أهلها أوجبُ للحجة عليها وأوثقُ لبراءة يوسف.

وكونه لم يتكلم قط، ثم تكلم بذلك كرامةٌ ليوسف عليه السلام.

والتقدير: شهد شاهد فقال، أو ضُمِّنت الشهادة معنى القول.

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ﴾ لأنها كانت تدافعه فتقدُّ قميصه من قبل.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ﴾ لأنها جبذته إلى نفسها حين فرَّ منها، فقدَّت[1] قميصه من دبر.

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ فاعل ﴿رَءَا﴾: زوجها، أو الشاهد.

﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ الضمير للأمر، أو لقولها: ﴿مَا جَزَآءُ﴾.

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أي: اكتمه ولا تحدَّثْ به، و﴿يُوسُفُ﴾ منادى حذف منه حرف النداء؛ لأنه قريب، وفي حذف الحرف إشارةٌ إلى تقريبه وملاطفته.

﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ خطابٌ لها، وذلك من كلام زوجها، أو من كلام الشاهد.

﴿مِنَ الْخَاطِـِٔينَ﴾ جاء بلفظ التذكير، ولم يقل «من الخاطئات»؛ تغليبًا للذكور.

* * *

(١) في أ، ب، هـ: «فقد».

[﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾].

﴿نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: في مصر، روى أنهن خمس نسوة: امرأة الساقي، وامرأة الخباز، وامرأة صاحب الدواب، وامرأة صاحب السجن، وامرأة الحاجب.

﴿فَتَىٰهَا﴾ أي: خادمها، والفتى يقال بمعنى الشاب، وبمعنى الخادم.

﴿شَغَفَهَا﴾ بلغ شغاف قلبها وهو غلافُه.

وقيل: السُّويداء منه.

وقيل: الشغاف: داءٌ يصل إلى القلب.

﴿سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي: بقولهن، وسماه مكرًا؛ لأنه كان في خفية.

وقيل: كانت قد استكتمتهنَّ سرَّها فأفشَيْنَه عليها.

﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ أي: أعتدت لهن ما يُتَّكأ عليه من الفرش ونحوها.

وقيل: المتكأ: طعام.

وقرئ في الشاذ: «مُتْكًا» بسكون التاء وتنوين الكاف، وهو الأُتْرُجُّ.

وإعطاؤها السكاكين لهنَّ يدلُّ على أن الطعام كان مما يقطع بالسكاكين كالأترج، وقيل: كان لحمًا.

﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ أمرٌ ليوسف، وإنما أطاعها؛ لأنه كان مملوك زوجها.

﴿أَكْبَرْنَهُ﴾ أي: عظَّمن شأنه وجماله.

وقيل: معنى أكبرن: حِضْنَ، والهاء للسكت، وهذا بعيد جدًّا.

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي اشتغلن بالنظر إليه، وبُهِتْنَ من جماله حتى قطَّعن أيديهن وهنَّ لا يشعرن كما يقطع الطعام.

﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ معناه براءة وتنزيه؛ أي: تنزيهٌ لله وتعجب من قدرته على خلقة مثله.

و«حاش» في باب الاستثناء تَخفض على أنها حرف، وأجاز المبرد النصب بها على أن تكون فعلًا.

وأما هنا: فقال أبو علي الفارسي: إنها فعل، والدليل على ذلك من وجهين:

أحدهما: أنها دخلت على لام الخبر وهو اللام في قوله ﴿لِلَّهِ﴾، ولا يدخل الحرف على حرف.

والآخر: أنها حذفت منها الألف على قراءة الجماعة، والحروف لا يحذف منها شيء، وقرأها أبو عمرو بالألف على الأصل، وإنما تحذف من الأفعال كقولك: لم يكُ، ولا أدرِ.

والفاعل بـ ﴿حَٰشَ﴾ ضمير يعود على يوسف، تقديره: بَعُدَ يوسفُ عن الفاحشة لخوف الله.

وقال الزمخشري: إن ﴿حَٰشَ﴾ وُضِع موضع المصدر، كأنه قال: «تنزيهًا»، ثم قال: «لله»؛ ليبين من ينزه، قال: وإنما حذف منه التنوين مراعاةً لأصله من الحرفية[1].

﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ أخرجنه من البشر، وجعلنه من الملائكة؛ مبالغة في وصفه بالحسن.

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ توبيخٌ لهن على اللوم)[2].

﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي: طلب العصمة، وامتنع مما أرادت منه.

﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: أَمِل[3]، وكلامه هذا تضرُّعٌ إلى الله.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ أي: ظهر، والفاعل محذوف، تقديره: رأيٌ، والضمير في ﴿لَهُم﴾:

لزوجها وأهلها.

أو[4] من تشاور معه في ذلك.

﴿رَأَوُا ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: الأدلةَ على براءته.

---

(١) انظر: الكشاف (٨/ ٣١٧).

(٢) سقط من أ، ب، ج، هـ.

(٣) في أ، ب، ج، هـ: «أميل».

(٤) في أ، ب، د، هـ: «و».

[﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾].

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ أي: شابَّان، وقَبْلَ هذا محذوفٌ لا بد منه، وهو: فسجنوه.

وكان يوسف قد قال لأهل السجن: إني أَعْبُرُ الرؤيا، فلذلك سأله الفتيان عن منامهما.

وقيل: إنهما استعملاها ليُجَرِّباه.

وقيل: رأيا ذلك حقًّا.

﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ قيل فيه: سمَّى العنبَ خمرًا بما يؤول إليه.

وقيل: هي لغة.

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ **قيل**: معناه: في تأويل الرؤيا.

وقيل: إحسانه إلى أهل السجن.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ الآيةَ؛ تقتضي أنه وصف لهما نفسَه بكثرة العلم؛ ليجعل ذلك وُصْلةً إلى دعائهما لتوحيد الله.

وفيه وجهان:

أحدهما: أنه قال: إنه يخبرهما بكل مايأتيهما في الدنيا من طعام قبل أن يأتيهما، وذلك من الإخبار بالغيوب الذي هو معجزةٌ للأنبياء.

والآخر: أنه قال: لا يأتيكما طعام في المنام إلَّا أخبرتكما بتأويله قبل أن يظهر تأويله في الدنيا.

﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ رُوي أنهما قالا له: من أين لك هذا العلم وأنت لست بكاهن ولا منجِّم؟ فقال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾.

﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ يَحتمل أن يكون هذا الكلام:

تعليلًا لما قبله من قوله: ﴿عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾.

أو يكون استئنافًا.

﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ﴾ نسَبهما إلى السجن:

إمَّا لأنهما سكَناه.

أو لأنهما صَحِباه فيه، فكأنه قال: يا صاحبيَّ في السجن.

﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ﴾ الآيةَ؛ دعاهما إلى توحيد الله، وأقام عليهما

الحجة؛ رغبةً في إيمانهما.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ أوقع الأسماءَ هنا موقع المسمَّيات، والمعنى: سميتم آلهةً ما لا يستحق الإلهية، ثم عبدتموها[١].

﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: حجة وبرهان.

﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ يعني: الملِكَ.

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ الظن هنا يَحتمل:

أن يكون بمعنى اليقين؛ لأن قوله: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ يقتضي ذلك.

أو يكون على بابه؛ لأنه عبارة الرؤيا ظنٌّ.

﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: عند الملِك.

﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ قيل: الضمير ليوسف؛ أي: نسي في ذلك الوقت أن يذكر الله، ورجا غيره، فعاقبه الله على ذلك بأن لبث في السجن.

وقيل: الضمير للذي نجا منهما، وهو السَّاقي؛ أي: نسي ذِكْرَ يوسف عند ربه، فأضاف الذِّكر إلى ربه؛ إذ هو عنده، والربُّ على هذا التأويل: الملِك.

﴿بِضْعَ سِنِينَ﴾ البِضعُ: من الثلاثة إلى العشرة، وقيل: إلى التسعة.

وروي أن يوسف عليه السلام سُجِن خمسَ سنين أولًا، ثم سجن بعد قوله ذلك سبعَ سنين.

---

(١) في ب: «تسميتُهم آلهةً ما لا يستحق الإلهية، ثم عبدوها».

[﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ۖ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾].

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ هو ملك مصر الذي كان العزيز خادمًا له، واسمه ريَّان بن الوليد، وقيل: مصعب بن الرَّيان، وكان من الفراعنة.

وقيل: إنه فرعون موسى، عُمِّر أربع مئة سنة حتى أدركه موسى، وهذا بعيد.

﴿إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ﴾ يعني: في المنام.

﴿عِجَافٌ﴾ أي: ضِعافٌ في غاية الهُزال.

﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ خطابٌ لجلسائه وأهل دولته.

﴿لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ أي: تعرفون تأويلها، يقال: عبَرتُ الرؤيا بتخفيف الباء، وأنكر بعضهم التشديد، وهو مسموعٌ من العرب.

وأدخلت اللام على المفعول به لمَّا تقدَّم عن الفعل.

﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ أي: تَخاليطُها وأباطيلها، وما يكون منها من

حديث نفسٍ ووسوسة شيطانٍ بحيث لا يُعْبَرُ.

وأصل الأضغاث: ما جُمِع من أخْلاط النبات، واحده: ضِغْثٌ.

فإن قيل: لم قال ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ بالجمع، وإنما كانت الرؤيا واحدةً؟.

فالجواب: أن هذا كقولك: فلان يركب الخيل، وإن ركب فرسًا واحدًا.

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ إمَّا أن يريدوا:

تأويلَ الأحلام الباطلة.

أو تأويل الأحلام على الإطلاق، وهو الأظهر.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ هو ساقي الملك.

﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد حينٍ.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ يُقدَّر قبله محذوفٌ لا بد منه، وهو: فأرسلوه فقال: يا يوسف.

وسمَّاه صديقًا؛ لأنه كان قد جرَّب صِدْقَه في تعبير الرؤيا وغيرها، والصدِّيق مبالغة في الصِّدق.

﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ﴾ أي: فيمن رأى سبع بقرات، وكان الملك قد رأى سبع بقرات سمان أكلتهن سبع عجاف، فعجب كيف غلبتهنَّ؟ وكيف وسعت في بطونهنَّ؟، ورأى سبع سنبلات خضر، وقد التفَّتْ بها سبعٌ يابسات، حتى غطَّتْ خضرتها.

﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ﴾ هذا تعبيرٌ للرؤيا، وذلك أنه عبَر البقرات السِّمان

بسبع سنين مخصِبةٍ، وعبَر البقرات العجاف بسبع سنين مجدِبة، وكذلك السنبلات الخضر واليابسة.

﴿دَأَبًا﴾ بسكون الهمزة وفتحها، مصدر دأَب على العمل: إذا داوم عليه، وهو مصدر في موضع الحال.

﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ هذا رأيٌ أرشدهم يوسف إليه، وذلك أن أرض مصر لا يبقى فيها الطعام عامين، فعلَّمهم حيلةً يبقى بها من السنين المخصبة إلى السنين المجدبة، وهي أن يتركوه في سنبله غير مدروس[1]، فإن الحبة إذا بقيت في غشائها انحفظت.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: لا تَدْرُسوا منه إلَّا ما يُحتَاج للأكل خاصة.

﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ يعني: سبع سنين ذات شدَّةٍ وجوعٍ.

﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي: تأكلون فيهنَّ ما اختزنتم من الطعام في سنبله، وأسند الأكل إلى السنين مجازًا.

﴿مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أي: تُحْرِزون[2] وتُخَبِّئون.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ﴾ هذا زيادةٌ على ما تقتضيه الرؤيا، وهو الإخبار بالعام الثامن.

﴿يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ يَحتمل أن يكون:

من الغيث؛ أي: يُمطَرون.

---

(١) درَس الحنطةَ دِرَاسًا: إذا داسها. لسان العرب (٧/ ٣٨٢).

(٢) في د: «تخزنون».

أو من الغوث؛ أي: يفرِّجُ الله عنهم.

﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي: يعصرون الزيتون والعنب والسمسم وغير ذلك مما يعصر.

[﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾].

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ﴾ قبلَ هذا محذوفٌ، وهو: فرجع الرسول إلى الملِك فقصَّ عليه مقالة يوسف، فرأى علمه وعقله، فقال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ﴾.

﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ﴾ لما أمر الملك بإخراج يوسف من السجن وإتيانه إليه، أراد يوسف أن يبرِّئ نفسه مما نُسِب إليه من مراودة امرأة العزيز عن نفسها، وأن يُعلِم الملك وغيره أنه سُجن ظلمًا، فذَكَر طرفًا من قصّته لينظرَ الملك فيها فيتبيَّنَ له الأمر، وكان هذا الفعل من يوسف صبرًا وحلمًا، إذا لم يُجِبْ إلى الخروج من السجن ساعةَ دُعِيَ إلى ذلك بعد طول المدَّة، ومع ذلك فإنه لم يذكر امرأة العزيز؛ رعْيًا لذِمَام زوجها وسَترًا لها، بل ذكر النسوة اللّاتي قطّعن أيديهنَّ.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ الآيةَ؛ جمع الملك النسوة وامرأة العزيز معهنَّ، فسألهنَّ عن قصة يوسف، وأسند المراودة إلى جميعهن؛ لأنه لم يكن عنده علم بأنَّ امرأة العزيز هي التي راودته وحدها.

﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تبرئةٌ ليوسف.

أو تبرئةٌ لأنفسهن من مراودته، وتكون تبرئة يوسف بقولهن: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.

﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: تبيَّن وظهر، ثم اعترفتْ على نفسها بالحق.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ قيل: إنه من كلام امرأة العزيز متصلًا بما قبله، والضمير في ﴿لِيَعْلَمَ﴾ و﴿أَخُنْهُ﴾ على هذا ليوسف ﷺ؛ أي: ليعلم يوسف أني لم أكذب عليه في حال غَيبته، والإشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى توبتها وإقرارها.

وقيل: إنه من كلام يوسف ﷺ، فالضمير للعزيز؛ أي: لم أخنه في زوجته في غَيبته، بل تعفَّفتُ عنها، والإشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى توقُّفه عن الخروج من السجن حتى تظهر براءته.

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ اختُلف أيضًا هل هو من كلام امرأة العزيز، أو من كلام يوسف؟.

فإن كان من كلامها: فهو اعترافٌ بعد الاعتراف.

وإن كان من كلامه:

فهو اعترافٌ بما همَّ به على وجه خُطورِه على قلبه، لا على وجه العزم والقصد.

أو قاله في عموم الأحوال على وجه التواضع.

﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ النفس هنا للجنس، والنفوس ثلاثة أنواع:

أمارة بالسوء، ولوَّامة؛ وهي التي تلوم صاحبها، ومطمئنة.

﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ استثناءٌ من ﴿ٱلنَّفْسَ﴾؛ إذ هي بمعنى النُّفوس، أي: إلَّا النفس المرحومة وهي المطمئنة، فـ «ما» على هذا بمعنى الذي.

ويَحتمل أن تكون ظرفية؛ أي: إلَّا حينَ رحمة الله.

﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ أي: أجعله خاصَّتي وخلاصتي، قال أولًا: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾، فلما تبين له حاله قال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي: لما رأى حُسن كلامه وعرَف وفور عقله وعلمه قال: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، والمكين: من التَّمكين، والأمين: من الأمانة.

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ لما فهم يوسف من الملك أنه يريد تصريفه والاستعانة به قال له ذلك، وإنما طلب منه الولاية رغبةً منه في العدل وإقامة الحق والإحسان، وكان هذا الملك كافرًا.

ويُستدَلُّ بذلك على أنه يجوز للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر إذا علم أنه يُصلِح بعض الأحوال.

وقيل: إن الملك أسلم.

وأراد بقوله: ﴿خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾: أرض مصر؛ إذ لم يكن للملك غيرها، والخزائن: كل ما يختزن من طعام ومال وغير ذلك.

﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ صفتان تعمُّ[1] وجوه المعرفة والضبط للخزائن.

---

(١) في هامش أ: «تعمَّان».

وقيل: حفيظٌ للحساب، عليمٌ بالألسن، واللفظ أعم من ذلك.

ويُستدَلُّ بذلك أنه يجوز للرجل أن يعرِّفَ بنفسه ويمدحَ نفسه بالحق إذا جُهل أمره، وإذا[1] كان في ذلك فائدة.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الإشارة بـ «ذلك» إلى ما تقدَّم من جميل صنع الله به.

ورُوي أن الملك ولَّاه في موضع العزيز، وأسند إليه جميع الأمور حتى تغلَّب على أمره، وأن امرأة العزيز شاخت وافتقرت، فتزوجها يوسف ودعا الله، فردَّ عليها جمالها وشبابها، وأنه باع من أهل مصر في أعوام القحط الطعام بالدنانير والدراهم في السنة الأولى حتى لم يبق لهم شيء منها، ثم بالحلي، ثم بالدواب، ثم بالضِّياع والعقَار، ثم برقابهم حتى تملَّكهم جميعًا، ثم أعتقهم وردَّ عليهم أملاكهم.

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ الرحمة هنا: يراد بها الدنيا، وكذلك الأجر في قوله: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ بدليل قوله بعد ذلك: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾، فأخبر تعالى أن رحمته في الدنيا يصيب بها من يشاء من مؤمن وكافر ومطيع وعاص، وأن المحسن لا بدَّ له مِن أجْرِه في الدنيا، فالأول: في المشيئة، والثاني: واقعٌ لا محالة، ثم أخبر أن أجر الآخرة خيرٌ من ذلك كلِّه للذين آمنوا وكانوا يتقون.

وفي الآية إشارةٌ إلى أن يوسف عليه السلام جمع الله له بين خيري الدنيا والآخرة.

---

(١) في أ، هـ: «أو إذا».

[﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾].

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ كان سبب مجيئهم أنهم أصابتهم مجاعة في بلادهم فخرجوا إلى مصر ليشتروا بها من الطعام الذي ادَّخره يوسف.

﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ إنما أنكروه لبعد العهد به وتغيُّر سنِّه، أو لأنه كان متلثِّمًا.

وروي أنهم دخلوا عليه وهو على[1] هيئة عظيمة من الملْك، وأنه سألهم

(١) في د: «في».

عن أحوالهم، وأخبروه أنهم تركوا أخًا لهم (عند أبيهم)[١]، فحينئذ قال لهم: ﴿ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ﴾، وهو بنيامين شقيق يوسف.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ﴾ الجَهاز: ما يَحتاج إليه المسافر من زاد وغيره، والمراد به هنا: الطعام الذي باع منهم.

﴿خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ أي: المضِيفين.

﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ أي: نفعل ذلك لا محالةَ.

﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ﴾ جمع فتًى، وهو الخادم سواء كان حرًّا أو عبدًا.

﴿ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ﴾ أمر أن يجعلوا البضاعة التي اشتروا منه بها الطعام في أوعيتهم.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ﴾ أي: لعلهم يعرفون اليد والكرامة في ردِّ البضاعة إليهم، وليس الضمير للبضاعة.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ أي: لعل معرفتهم بها تدعوهم إلى الرجوع، وقصَد ردِّ البضاعة إليهم مع الطعام استئلافَهم بالإحسان إليهم.

﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ إشارةٌ إلى قوله: ﴿فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي﴾، فهو خوف من المنع في المستقبل.

﴿نَكۡتَلۡ﴾ وزنه نَفْتَعِل من الكيل.

﴿مَا نَبۡغِيۖ﴾ ﴿مَا﴾ استفهامية، و﴿نَبۡغِيۖ﴾ بمعنى: نطلب، والمعنى: أيُّ شيءٍ نطلبه بعد هذه الكرامة، وهي ردُّ البضاعة مع الطعام؟.

(١) لم ترد في أ، ج، هـ

ويحتمل أن تكون ﴿مَا﴾ نافية، و﴿نَبْغِى﴾ من البغي؛ أي: لا نتعدَّى على أخينا ولا نَكْذِب على الملك.

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: نسوق لهم الطعام.

﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ يريدون بَعيرَ أخيهم؛ إذ كان يوسف لا يعطي إلَّا كيل بعير من الطعام لإنسان، فأعطاهم عشرة أبعرة، ومنعهم الحادي عشر؛ لغَيبة صاحبه حتى يأتي، والبعير: الجمل.

﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ إن كانت الإشارة إلى الأحمال فالمعنى: أنها قليلة لا تكفيهم حتى يضاف إليها كيل بعير.

وإن كانت الإشارة إلى ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ فالمعنى: أنه يسيرٌ على يوسف؛ أي: قليل عنده أو سهلٌ عليه، فلا يمنعهم منه.

﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أراد أن يحلفوا له، و﴿لَتَأْتُنَّنِى﴾ جواب اليمين.

﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلَّا أن تُغلَبوا، فلا تطيقون الإتيان به.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ خاف عليهم من العين إن دخلوا مجتمعين؛ إذ كانوا أهل جَمالٍ وهيئة.

﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم﴾ جواب ﴿وَلَمَّا﴾، والمعنى: أن ذلك لا يدفع ما قضى الله.

﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ استثناءٌ منقطع، والحاجة هنا: هي شفقته عليهم ووصيته لهم.

[﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾].

﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أي: ضمَّه.

﴿قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ أخبره بأنه أخوه، واستكتمه ذلك.

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: لا تحزن؛ وهو من البؤس.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الضمير لإخوة يوسف، ويعني: ما فعلوا بيوسف وأخيه.

ويَحتمل أن يكون لفتيانه؛ أي: لا تبالي بما تراه من تحيُّلي في أخذك.

﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ السِّقاية هي الصُّواع، وهو إناءٌ يَشرب به

الملك، ويكال به الطعام، وكان من فضة، وقيل: من ذهب.

وقصَد بجعْلِه في رحل أخيه أن يَحتال على إمساكه معه؛ إذ كان شَرْعُ يعقوب أنَّ مَن سرَق استعْبَده المسروقُ له.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي: نادى منادٍ.

﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾ أي: أيتها الرُّفقة.

﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ خطابٌ لأخوة يوسف، وإنما استحلَّ أن يرميَهم بالسرقة لما في ذلك من المصلحة من إمساك أخيه.

وقيل: إن حافظ السقاية نادى: إنكم لسارقون، بغير أمر يوسف، وهذا بعيدٌ؛ لتفتيش الأوعية.

﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أي: لمن وجده ورده حِملُ بعير من طعام على وجه الجُعْل.

﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ أي: ضامنٌ لحمل البعير لمن ردَّ الصواع، وهذا من كلام المنادي.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استشهدوا بعلمهم؛ لما ظهر لهم من ديانتهم في دخولهم أرضهم، حتى كانوا يجعلون الأكِمَّة في أفواه إبلهم؛ لئلا تنال زروع الناس.

﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ أي: قال فتيان يوسف: ما جزاء آخِذ الصُّواع إن كنتم كاذبين في قولكم: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾، فالضمير في قوله: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ يعود على الآخِذ المفهوم من الكلام.

﴿قَالُوا جَزَٰؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰؤُهُۥ﴾ المعنى: أن إخوة يوسف أفتوا فيما سُئلوا عنه فقالوا: جزاء السارق أن يُستعْبَد، ويُؤخَذَ في السرقة.

وأما الإعراب فيَحتمل وجهين:

الأول: أن يكون ﴿جَزَٰؤُهُۥ﴾ الأول مبتدأ، و﴿مَن﴾ مبتدأ وهي شرطية أو موصولة، وخبرها ﴿فَهُوَ جَزَٰؤُهُۥ﴾، والجملة خبر ﴿جَزَٰؤُهُۥ﴾ الأول.

والوجه الثاني: أن يكون ﴿مَن﴾ خبر المبتدإ الأول على حذف مضاف، وتقديره: جزاؤه أخْذُ مَن وُجِد في رحله، وتمَّ الكلام، ثم قال: ﴿فَهُوَ جَزَٰؤُهُۥ﴾؛ أي: هذا الحكم جزاؤه.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مِن كلام إخوة يوسف؛ أي: هذا حُكْمنا في السارق.

وقد كان هذا الحكم في أول الإسلام، ثم نسخ بقطع الأيدي.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ هذا تمكينٌ للحيلة، ورفعٌ للتهمة.

﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ ليصحَّ له بذلك إمساكه معه، وإنما أنَّث الصواع في هذا الموضع؛ لأنه سقاية، أو لأن الصواع يذكَّر ويؤنث.

﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي: صنعنا له هذا الصُّنع.

﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أي: في شَرْعِه أو عادته؛ لأنه إنما كان جزاءُ السارق عنده أن يُضرَب ويُضْعَفَ عليه الغرمُ، ولكن حكَم في هذه القضية بحكم آل يعقوب.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ يعني: الرِّفعة بالعلم؛ بدليل ما بعده.

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أي: فوق كل عالم مَن هو أعلم منه من البشر، أو اللهُ ﷻ.

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ الضمير في ﴿قَالُوٓاْ﴾ لإخوة يوسف، وأشاروا إلى يوسف، ومعنى كلامهم: إن يسرق بنيامين فقد سرق أخوه يوسف من قبل؛ فهذا الأمر إنما صدر من ابنَي راحيل[1]، لا مِنَّا، وقصدوا بذلك رفع المعرَّة عن أنفسهم، ورموا بها يوسف وشقيقه.

واختُلف في السرقة التي رموا بها يوسف على ثلاثة أقوال:

الأول: أن عمَّته ربَّته، فأراد والده أن يأخذه منها، وكانت تحبه ولا تصبر عنه، فجعلت عليه مِنطَقةً لها، ثم قالت: إنه أخذها، فاستعبدته بذلك، وبقي عندها إلى أن ماتت.

والثاني: أنه أخذ صنمًا لجدِّه والدِ أمه فكسَره.

والثالث: أنه كان يأخذ الطعام من دار أبيه ويعطيه المساكين.

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾ قال الزمخشري: الضمير للجملة التي بعد ذلك؛ وهي قوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾، والمعنى: قال في نفسه: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾[2].

وقال ابن عطية: الضمير للحزازة التي وجَد في نفسه من قولهم: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾، أسَرَّ كراهيَة مقالتهم، ثم جاهرهم بقوله: ﴿أَنتُمْ

---

(١) راحيل: اسم أمِّ يوسف وبنيامين.
(٢) انظر: الكشاف (٨/ ٤٠١-٤٠٣).

شَرٌّ مَّكَانًا﴾؛ أي: لسوء أفعالكم[1].

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ إشارةٌ إلى كذبهم فيما وصفوه به من السرقة.

﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ استعطافٌ، وكانوا قد أعلموه بشدَّة محبة أبيه فيه.

﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ على وجه: الضمان، أو[2] الاسترهان، أو الاستعباد، وهذا هو الأظهر؛ لقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾.

﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: أحسنت إلينا فيما فعلت معنا قبلُ، أو على الإطلاق.

* * *

(١) انظر: المحرر الوجيز (٥/ ١٢٦).

(٢) في ب: «و».

[﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾].

﴿ٱسْتَيْـَٔسُوا۟﴾ أي: يئسوا.

﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ أي: انفردوا عن غيرهم يناجي بعضهم بعضًا.

والنجيُّ يكون: بمعنى المناجي، ومصدرًا.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ **قيل**: كبيرهم في السن؛ وهو روبيل.

وقيل: كبيرهم في الرأي؛ وهو شمعون.

وقيل: يهوذا.

﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ **تحتمل** ﴿مَا﴾ **وجوهًا**:

الأول: أن تكون زائدةً.

والثاني: أن تكون مصدريةً، ومحلها الرفع بالابتداء، تقديره وقع من قبلُ[1] تفريطكم في يوسف.

والثالث: أن تكون موصولةً، ومحلها أيضًا الرفع كذلك.

والأول أظهر.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ يريد: الموضع الذي وقعت فيه القصة.

﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ﴾ مِن قول كبيرهم.

وقيل: مِن قول يوسف، وهو بعيد.

﴿إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ قرأ الجمهور بفتح السين والراء.

وروي عن الكسائي «سُرِّقَ» بضم السين وكسر وتشديد الراء؛ أي: نُسِبتْ له السرقة.

﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ أي: قولنا لك: ﴿إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ إنما هي شهادة بما علمنا من ظاهر ما جرى.

---

(١) في هامش ب زيادة «هذا».

﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ أي: لا نعلم الغيب هل ذلك حقٌّ في نفس الأمر، أم لا؛ إذ يمكن أن دُسَّ الصُّواع في رحله من غير علمه.

وقال الزمخشري: المعنى: ما شهدنا إلَّا بما علمنا من سرقته وتيقَّنَّاه؛ لأن الصواع استُخرِج من وعائه، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ أي: ما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الميثاق[1].

وقراءة ﴿سَرَقَ﴾ بالفتح تعضد قول الزمخشري، والقراءة بالضم تعضد القول الأول.

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ تقديره: واسأل أهل القرية، وكذلك: أهل العير؛ يعنون الرُّفقة، هذا قول الجمهور.

وقيل: المراد سؤال القرية بنفسها والعير بنفسها، ولا يبعد أن تخبره الجمادات؛ لأنه نبيٌّ.

والأول أظهر وأشهر على أنه مجاز.

والقرية هنا: هي مصر.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾ قبله محذوفٌ تقديره: فرجعوا إلى أبيهم فقالوا له هذا الكلام، فقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ الآيةَ.

﴿بِهِمْ جَمِيعًا﴾ يعني: يوسف، وأخاه بنيامين، وأخاهم الكبير الذي قال: لن أبرح الأرض.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ لما لم يصدِّقهم أعرض عنهم، ورجع إلى التأسُّف.

---

(١) انظر: الكشاف (٨/ ٤١٠).

﴿وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ تأسَّف على يوسف، دون أخيه الثاني والثالث الذاهبَينِ؛ لأن حُزْنَه عليه كان أشدَّ؛ لإفراط محبته، ولأن مصيبتَه كانت السابقة.

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ أي: من البكاء الذي هو ثمرة الحزن، فقيل: إنه عَمِيَ، وقيل: إنه كان يدرك إدراكًا ضعيفًا.

وروي عن النبي ﷺ: أن يعقوب حَزِن حُزْنَ سبعين ثكلى، وأُعطِي أجر مئة شهيد، وما ساءَ ظنُّه بالله قطُّ[1].

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ قيل: إنه فعيل بمعنى فاعل؛ أي: كاظم لحزنه لا يظهره لأحد، ولا يشكو إلَّا إلى لله[2].

وقيل: بمعنى مفعول، كقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨]؛ أي: مملوءُ القلبِ بالحزن، أو بالغيظ على أولاده.

وقيل: الكظيم: الشديدُ الحُزْنِ.

﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟﴾ أي: لا تفتؤ، والمعنى: لا تزال، وحذف حرف النفي؛ لأنه لا يلْتبسُ بالإثبات؛ لأنه لو كان إثباتًا لكان مؤكَّدًا باللام والنون.

﴿حَرَضًا﴾ أي: مشفيًا[3] على الهلاك.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ردَّ عليهم تفنيدَهم له؛ أي: إنما

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٣٠٧-٣٠٨).

(٢) في أ، ب: «إلَّا لله».

(٣) في د: «مشرفًا».

أشكو إلى الله، لا إليكم ولا لغيركم.

والبثُّ: أشدّ الحزن.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم من لطفه ورأفته ورحمته ما يوجب حسن ظنِّي به، وقوةَ رجائي فيه.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ﴾ يعني: إلى الأرض التي تركتم بها أخوَيْكم.

﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي: تعرَّفوا خبرَهما، والتحسُّسُ: طلب الشيء بالحواس؛ السمع والبصر.

وإنما لم يذكر الولد الثالث؛ لأنه بقي هناك اختيارًا منه، ولأن يوسف وأخاه كانا أحبَّ إليه.

﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ أي: مِن رحمة الله.

﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إنما جعل اليأس من صفة الكافر؛ لأن سببَه تكذيبٌ الربوبية، أو جهلٌ بصفات الله من قدرته وفضله ورحمته.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ أي: على يوسف، وقَبْلَ هذا محذوفٌ؛ تقديره: فرجعوا إلى مصر.

﴿ٱلضُّرُّ﴾ يريدون به: المجاعة، أو الهمَّ على إخوتهم.

﴿بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ يعنون الدراهم التي جاؤوا بها لشراء الطعام، والمزجاة: القليلة، وقيل: الرديئة، وقيل: الناقصة.

وقيل: إن بضاعتهم كانت عُروضًا؛ فلذلك قالوا هذا.

﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ قيل: يعنون بما بين الدراهم الجياد ودراهمهم.

وقيل: أوف لنا الكيل الذي هو حقُّنا، وزدنا على حقِّنا، وسموا الزيادة صدقة، ويقتضي هذا أن الصدقة كانت حلالًا للأنبياء قبل محمد ﷺ.

وقيل: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ بردِّ أخينا إلينا.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ قال النقاش: هو من المعاريض؛ وذلك أنهم كانوا يعتقدون أنه كافر؛ لأنهم لم يعرفوه، فظنوا أنه على دين أهل مصر، فلو قالوا: إن الله يَجزِيك بصدقتك كذَبوا، فقالوا لفظًا يوهم أنهم أرادوه وهم لم يريدوه.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ لما شكَوا إليه رَقَّ لهم وعرَّفهم بنفسه.

ورُوِي أنه كان يكلمهم وعلى وجهه لثامٌ، ثم أزال اللثام ليعرفوه.

وأراد بقوله: ﴿مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ التفريقَ بينهما في الصغر، ومضرَّتهم ليوسف، وإذايةَ أخيه من بعده؛ فإنهم كانوا يُذِلُّونه ويَشتِمونه.

﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ اعتذارٌ عنهم؛ فيَحتمل أن يريد: الجهل بقبح ما فعلوه، أو جهل الشباب.

﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ قرئ بالاستفهام، والخبر.

فالخبر على أنهم عرفوه.

والاستفهام على أنهم توهَّموا أنه هو ولم يحقِّقوه.

﴿مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ قيل: أراد مَن يتق في ترك المعصية، ويصبر على السجن.

واللفظ أعمُّ من ذلك.

﴿ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: فضَّلك.

﴿لَخَٰطِـِٔينَ﴾ أي: عاصين، وفي كلامهم استعطافٌ واعترافٌ.

﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ عفوٌ جميل، والتثريب: التعنيف، أو العقوبة.

وقوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ راجعٌ إلى ما قبله فيوقف عليه، وهو يتعلَّق بالتثريب، أو بالمقدَّر في ﴿عَلَيۡكُمُ﴾ من معنى الاستقرار.

وقيل: إنه يتعلَّق بـ ﴿يَغۡفِرُ﴾، وذلك بعيد؛ لأنه تحكُّمٌ على الله؛ وإنما ﴿يَغۡفِرُ﴾ دعاءٌ، فكأنه أسقط حقَّ نفسه بقوله: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾، ثم دعا الله[١] أن يغفر لهم حقَّه.

﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي﴾ روي أن هذا القميص كان لإبراهيم، كساه الله له حين أُخرِج من النار، وكان من ثياب الجنة، ثم صار لإسحاق، ثم ليعقوب، ثم دفعه يعقوب ليوسف، وهذا يَحتاج إلى سند يوثق به.

والظاهر: أنه كان قميص يوسف الذي بمنزلة قميص كلِّ أحدٍ.

﴿يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ الظاهر: أنه عَلِمَ ذلك بوحيٍ من الله.

* * *

(١) في ب، د، هـ: «دعا إلى الله».

[﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾].

﴿فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ أي: خرجت من مصر متوجهةً إلى يعقوب.

﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ كان يعقوب ببيت المقدس، ووجد ريح القميص وبينهما مسافة بعيدة.

﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي: تلومونني أو تردون عليَّ قولي.

وقيل: معناه: تقولون: ذهب عقلك؛ لأن الفَنَد هو الخَرَفُ.

﴿لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ أي: ذهابك عن الصواب؛ بإفراط محبتك في يوسف قديمًا.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ روي أن البشير يهوذا؛ لأنه كان جاء بقميص الدَّمِ،

فقال لإخوته: إني ذهبت إليه بقميص التَّرْحة؛ فدعوني أذهب إليه بقميص الفرحة.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ وعدَهم بالاستغفار لهم، فقيل: سوَّفهم إلى السَّحَر؛ لأن الدعاء يستجاب فيه، وقيل: إلى ليلة الجمعة.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ هنا محذوفاتٌ يدلُّ عليها الكلام؛ وهي: فرحَلَ يعقوب بأهله حتى بلغوا يوسف.

﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ أي: ضمَّهما، أراد[١] بالأبوين: أباه وأمه.

وقيل: أباه وخالته؛ لأن أمه كانت قد ماتت، وسمَّى[٢] الخالةَ على هذا أمًّا.

﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ راجعٌ إلى الأمن الذي في قوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي: على سرير الملك.

﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ كان السجود عندهم تحيةً وكرامة، لا عبادة.

﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ يعني: حين رأى الأحد عشر كوكبًا والشمس والقمر يسجدون له.

وكان بَيْنَ رؤياه وبين ظهور تأويلها ثمانون عامًا، وقيل: أربعون.

﴿أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ يقال: أحسن به وإليه.

---

(١) في د: «وأراد».

(٢) في د: «وتسمَّى».

﴿أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ إنما لم يقل أخرجني من الجبِّ لوجهين:

أحدهما: أن في ذكر الجب خِزْيُ إخوته، وتعريفُهم بما فعلوا؛ فترَك ذكره؛ توقيرًا لهم.

والآخر: أنه خرج من الجب إلى الرقِّ، ومن السجن إلى الملك؛ فالنعمة به أكثر.

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ أي: من البادية، وكانوا أصحاب إبل وغنم، فعدَّ في النِّعم مجيئَهم للحاضرة.

﴿نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: أفسد وأغوى.

﴿لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ أي: لطيفُ التدبير لما يشاء من الأمور.

﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ «مِن» للتبعيض؛ لأنه لم يعطه الله إلَّا بعض مُلك الدنيا، بل بعض ملك مصر.

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ لما عدَّد النعم التي أنعم الله عليه اشتاق إلى لقاء ربه ولقاء الصالحين من سلفه وغيرهم، فدعا بالموت.

وقيل: ليس ذلك دعاءً بالموت، وإنما دعا أن الله يتمُّ عليه النعم بالوفاة على الإسلام إذا حان أجله.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ احتجاجٌ على صحة نبوة النبي ﷺ بإخباره بالغيوب.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ؛ تأكيدًا لحجته، والضمير لإخوة يوسف.

﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟﴾ أي: عزموا.

﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ يعني: فِعْلَهم بيوسف.

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ عمومٌ؛ لأن الكفار أكثر من المؤمنين.

وقيل: أراد أهل مكة.

﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ اعتراضٌ؛ أي: لا يؤمنون، ولو حرَصتَ على إيمانهم.

﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: لست تسألهم أجرًا على الإيمان، فيثقل عليهم بسبب ذلك.

وهكذا معناه حيث وقع.

[﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾].

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ﴾ يعني: المخلوقات والحوادث الدالَّة على الله سبحانه.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ نزلت في كفار العرب الذي يُقِرُّون بالله ويعبدون معه غيره.

وقيل: في أهل الكتاب؛ لقولهم: عزير ابن الله، (والمسيح ابن الله)[1].

﴿غَٰشِيَةٌ﴾ هي ما يَغشى ويَغمُّ.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ إشارةٌ إلى شريعة الإسلام.

﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: أدعو الناس إلى عبادة الله، وأنا على

---

(١) سقط من أ، ب، هـ

بصيرة من أمري وحجة واضحة.

﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾: ﴿أَنَا۠﴾ تأكيدٌ للضمير في ﴿أَدۡعُوٓاْ﴾، و﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ معطوفٌ عليه، و﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ في موضع الحال.

وقيل: ﴿أَنَا۠﴾ مبتدأٌ، و﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ خبره، فعلى هذا: يوقف على قوله: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾، وهذا ضعيف.

﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تقديره: وأقول: سبحان الله.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ ردٌّ على من أنكر أن يكون النبي من البشر.

وقيل: فيه إشارةٌ إلى أنه لم يبعث رسولًا من النساء.

﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ أي: من أهل المدن، لا من أهل البوادي؛ فإن الله لم يبعث رسولًا من أهل البادية؛ لجفائهم[1].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ متصلٌ في المعنى بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ إلى قوله: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾.

ويأسُهم يَحتمل أن يكون:

من إيمان قومهم.

أو من النصر.

والأول أحسن.

---

(١) في ب: «لجهالتهم».

﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ قرئ بتشديد الذال وتخفيفها .

فأما التشديد: فالضمير في ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ و﴿كُذِّبُوا﴾ للرسل .

والظن يَحتمل أن يكون : على بابه ، أو بمعنى اليقين ؛ أي : علم الرسل أن قومَهم قد كذَّبوهم فيئسوا من إيمانهم .

وأما التخفيف : فالضميران فيه للقوم المرسَلِ إليهم ؛ أي : ظنُّوا أن الرسل قد كذَبوهم فيما ادَّعَوْا من الرسالة ، أو من النُّصرة عليهم .

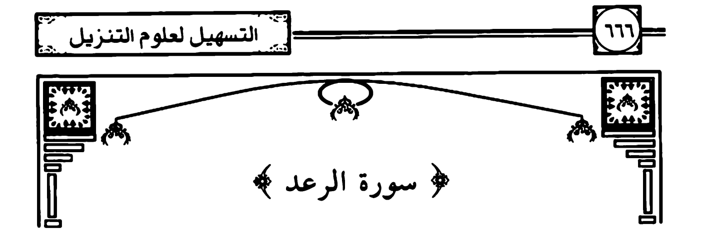
﴿فِى قَصَصِهِمْ﴾ الضمير : للرسل على الإطلاق ، أو ليوسف وإخوته .

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ يعني : القرآن .

﴿وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ تقدَّم معناه في «البقرة»[١] .

---

(١) انظر : ١/ ٣٠٨.



﴿ سورة الرعد ﴾

[﴿الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾].

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: آيات هذه السورة.

ويَحتمل أن يريد: آياتِ الكتب على الإطلاق.

ويَحتمل أن يريد: القرآنَ، وهذا بعيدٌ؛ لتكرار ذكر القرآن بعد ذلك.

﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾ يعني: القرآنَ، وإعرابه: مبتدأٌ، وخبره ﴿ٱلْحَقُّ﴾.

﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾ أي: بغير شيءٍ تقف عليه إلَّا قدرة الله.

﴿تَرَوۡنَهَاۖ﴾ قيل: الضمير للسموات، فـ ﴿تَرَوۡنَهَاۖ﴾ على هذا: في موضع الحال، أو استئنافٌ.

وقيل: الضمير للعَمَد؛ أي: ليس لها عمَدٌ مرئيةٌ، فيقتضي المفهومُ: أن لها عَمدًا لا تُرى.

وقيل: إن عمَدَها هو جبل قاف المحيطُ بالدنيا.

وقال الجمهور: لا عمَد لها ألبتَّةَ، فالمراد: نفيُ العمَدِ ونفيُ رؤيتِها.

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ هنا لترتيب الإخبار، لا لترتيب وقوع الأمر؛ فإن العرش كان قبل خلق السموات. وتقدَّم الكلام على الاستواء في «الأعراف»[1].

﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ يعني: أمرَ الملكوت.

﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ يعني آيات كتبه[2].

﴿مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾ يقتضي أنها بَسيطةٌ لا كورةٌ، وهو ظاهر الشريعة.

وقد يترتَّب لفظ البَسط والمدِّ مع التَّكوير؛ لأن كل قطعة من الأرض ممدودةٌ على حِدَتِها، وإنما التكوير لجملة الأرض.

﴿رَوَٰسِيَ﴾ يعني: الجبالَ الثابتة.

---

(١) انظر صفحة ٣٤٩.

(٢) في د: «كتابه».

﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ يعني: صنفين من الثمر، كالأسود والأبيض، والحلو والحامض.

فإن قيل: تقتضي الآية أنه تعالى خلق مِن كل ثمرة صنفين، وقد خلق من كثير من الثمرات أصنافًا كثيرةً!.

فالجواب: أن ذلك زيادةٌ في الاعتبار، وأعظم في الدلالة على القدرة، فذكر الاثنين؛ لأن دلالة غيرها[1] من باب أولى.

وقيل: إن الكلام تمَّ في قوله: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ثم ابتدأ بقوله: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ﴾ يعني الذكر والأنثى.

والأول أحسن.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: يلبسه إياه، فيصير له كالغشاء، وذلك تشبيهٌ.

﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ يعني: قرى[2] متلاصقة، ومع تلاصقها فإن أرضها تتنوع إلى طيب ورديء، وصَلبٍ ورِخْوٍ، وغير ذلك، وكلُّ ذلك دليل على الصانع المختار المريد القادر.

﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ الصنوان: هي النخَلات الكثيرة، ويكون أصلها واحدًا، وغير الصنوان: المفترق فردًا فردًا، وواحد الصنوان: صِنْوٌ.

﴿تُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ حجةٌ وبرهان على أنه تعالى قدير مُريد؛ لأن اختلاف مذاقها وأشكالها وألوانها مع اتفاق الماء

(١) في د: «غيرهما».

(٢) في أ، ب: «قطعًا».

الذي تسقى به دليلٌ على القدرة والإرادة، وفي ذلك ردٌّ على القائلين بالطبيعة.

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي: إن تعجب يا محمد فإن إنكارهم للبعث حقيقٌ أن يُتعَجَّب منه؛ فإن الذي قدَر على إنشاء ما ذكرنا من السموات والأرض والثمار قادرٌ على إنشاء الخلق بعد موتهم.

﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا إِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هذا هو قول الكفار المنكرين للبعث.

واختَلف القراء في هذا الموضع وفي سائر المواضع التي فيها استفهامان، وهي أحدَ عشر موضعًا، أولها: هذا، وفي «الإسراء» موضعان، وفي «المؤمنين» موضع، وفي «النمل» موضع، وفي «العنكبوت» موضع، وفي ﴿الٓمٓ ۝١﴾ «السجدة» موضع، وفي «الصافات» موضعان، وفي «الواقعة» موضع، وفي «النازعات» موضع:

فمنهم من قرأ بالاستفهام في الأول والثاني.

ومنهم من قرأ بالاستفهام في الأول فقط، وهو نافع.

ومنهم من قرأ بالاستفهام في الثاني فقط.

وأصل الاستفهام في المعنى إنما هو عن الثاني في مثل هذا الموضع؛ فإن همزة الاستفهام معناها الإنكار، وإنما أنكروا أن يكونوا خلقًا جديدًا، ولم ينكروا أن يكونوا ترابًا.

فمن قرأ بالاستفهام في الثاني فقط: فهو على الأصل.

ومن قرأ بالاستفهام في الأول: فإنما القصد بالاستفهام الثاني.

ومن قرأ بالاستفهام فيهما: فذلك للتأكيد.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ﴾ يحتمل:

أن يريد الأغلالَ في الآخرة، فيكون حقيقة.

أو يريد أنهم ممنوعون من الإيمان، كقوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا﴾ [يس: ٨]، فيكون مجازًا يَجري مجرى الطبع والختم على القلوب.

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ أي: بالنقمة قبل العافية، والمعنى: أنهم طَلبوا العذاب على وجه الاستخفاف.

﴿وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾ جمع مَثُلَةٍ على وزن «سَمُرَةٍ»، وهي العقوبة العظيمة التي تَجعل الإنسانَ مثَلًا، والمعنى: كيف يطلبون العذاب وقد أصابت العقوباتُ الأممَ الذين كانوا قبلهم؟ أفلا يخافون مثل ذلك؟.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾ يريد: سَتره وإمهاله في الدنيا للكفار والعصاة.

وقيل: يريد مغفرته لمن تاب.

والأول أظهر هنا.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآيةَ؛ اقترحوا نزول آية على النبي ﷺ، مِن نزول ملَك معه أو شبه ذلك، ولم يعتبروا بالقرآن ولا بغيره من الآيات العِظام التي جاء بها، وذلك منهم معاندةٌ.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ﴾ أي: إنما عليك إنذارُهم، وليس عليك أن تأتيَهم بآية، إنما ذلك إلى الله.

﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن يراد بالهادي اللهُ تعالى، فالمعنى: إنما عليك الإنذار والله هو الهادي لمن يشاء إذا شاء.

والوجه الثاني: أن يريد بالهادي النبيَّ ﷺ، فالمعنى: إنما أنت نبيٌّ منذر، ولكل قوم هادٍ من الأنبياء ينذرهم، فليس أمرك ببِدْعٍ ولا مستنكر.

الثالث: رُوي أنها لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «أنا المنذر، وأنت يا عليٌّ الهادي»[1].

***

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٤٤٢-٤٤٣).

[﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ۚ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾].

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ كقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤]، وهي من الخمس التي لا يعلمها إلا الله، ويعني: يعلم هل هو ذكر أو أنثى، أو تامٌّ أو مُخْدَجٌ، أو حسَن أو قبيح، أو غير ذلك.

﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ معنى ﴿تَغِيضُ﴾: تنقص، ومعنى ﴿تَزْدَادُ﴾: من الزيادة.

وقيل: إن الإشارة لدم الحيض(١)؛ فإنه يقِلُّ ويكثر.

وقيل: للولد، فالغيض: السِّقط، أو الوِلادة لأقل من تسعة أشهر، والزيادة: إبقاؤه أكثر من تسعة أشهر.

ويَحتمل أن تكون «ما» في قوله: ﴿مَا تَحْمِلُ﴾، ﴿وَمَا تَغِيضُ﴾، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾:

موصولةً.

أو مصدريةً.

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ المعنى: إن الله يسمع كل شيء، فالجهر والإسرار عنده سواء.

وفي هذا وما بعده تقسيم، وهو من أدوات البيان؛ فإنه ذكر أربعة أقسام، وفيه أيضًا مطابقة.

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ المعنى: سواء عند الله المستخفي بالليل وهو في غاية الاختفاء، مع السَّارب بالنهار، وهو في غاية الظهور.

ومعنى السارب: المتصرِّف في سَرْبِه -بالفتح-؛ أي: في طريقه ووجهه.

والسارب والمستخفي اثنان، قصَد التسويةَ بينهما في اطّلاع الله عليهما، مع تباين حالهما.

---

(١) في أ: «إلى دم الحيض».

وقيل: إن المستخفي بالليل والسارب بالنهار صفتان لموصوف واحد، يستخفي بالليل، ويظهر بالنهار، ويعضد هذا كونُه قال: ﴿وَسَارِبٌۢ﴾، فعطفه عطْفَ الصفات، ولم يقل: «ومن هو سارب» بتكرار «مَن» كما قال: ﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾.

إلا أنَّ جَعْلهما اثنين أرجح؛ ليقابل ﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾، فيكمل التقسيم إلى أربعة على هذا، ويكون قوله: ﴿وَسَارِبٌۢ﴾ عطفًا على الجملة وهي قوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ﴾، لا على ﴿مُسْتَخْفٍۭ﴾ وحده.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ المعقبات هنا: جماعة الملائكة، وسمِّيت معقبات؛ لأن بعضهم يعقب بعضًا، والضمير في ﴿لَهُۥ﴾ يعود على «من» المتقدِّمة، كأنه قال: لمن أسر ولمن جهر ولمن استخفى ولمن ظهر معقباتٌ.

وقيل: يعود على الله، وهو قول ضعيف؛ لأن الضمائر التي بعده تعود على العبد باتفاق.

﴿يَحْفَظُونَهُۥ﴾ صفة للمعقبات، وهذا الحفظ يَحتمل أن يراد به:

حفظ أعماله.

أو حفظه وحراسته من الآفات.

﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ صفة للمعقبات؛ أي: معقباتٌ مِن أجل أمر الله؛ إذْ أمَرَهم بحفظه، وقرئ: «بأمر الله»، وهذه القراءة تعضد ذلك، ولا يتعلَّق ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ على هذا بـ ﴿يَحْفَظُونَهُۥ﴾.

وقيل: يتعلَّق به؛ على أنهم يحفظونه مِن عقوبة الله إذا أذنب؛ بدعائهم له واستغفارهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ المعنى: إن الله لا يغير ما بقوم من العافية والنعم حتى يغيروا هم ما بأنفسهم بالمعاصي، فيقتضي ذلك: أن الله لا يَسلب النعم، ولا يُنزِل النقم إلَّا بالذنوب.

﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ الخوف يكون من البرق من الصواعق والأمور الهائلة، والطمع في المطر الذي يكون معه.

﴿ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ وصفها بالثِّقَلِ؛ لأنها تحمل الماء.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ الرعد: اسم ملك، وصوته المسموع تسبيح.

وقد جاء في الأثر: أن صوته زجْرٌ للسحاب[1]، فعلى هذا يكون تسبيحه غير ذلك.

﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ قيل: إنها إشارةٌ إلى الصاعقة التي نزلت على أَرْبَدَ الكافرِ وقتلته، حين همَّ بقتل النبي ﷺ هو وأخوه عامر بن الطفيل.

واللفظ أعم من ذلك.

﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ يعني: الكفار، والواو: للاستئناف، أو للحال.

﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي: شديد القوة، والمحال: مشتق من الحِيلة، فالميم زائدة، ووزنه مِفْعَل.

وقيل: معناه: شديد المكر؛ من قولك: مَحَلَ بالرجل: إذا مكَر به، فالميم على هذا أصلية، ووزنه فِعَال، وتأويل المكر على هذا القول كتأويله

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٣٥٧-٣٦٠).

في المواضع التي ورد[١] في القرآن[٢].

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ قيل: هي لا إله إلا الله، والمعنى: أن دعوة العباد بالحق لله، ودعوتهم بالباطل لغيره.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ يعني بـ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ما عُبِد من دون الله من الأصنام وغيرهم، والضمير في ﴿يَدْعُونَ﴾ للكفار.

والمعنى: أن المعبودِين لا يستجيبون لمن عبَدهم.

﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ شبَّه إجابة الأصنام لمن عبدهم بإجابة الماء لمن بسَط إليه كفَّيْهِ، وأشار إليه بالإقبال إلى فيه، ولا يبلغ فمَه على هذا أبدًا؛ لأن الماء جمادٌ لا يعقل المراد، فكذلك الأصنام.

والضمير في قوله: ﴿وَمَا هُوَ﴾ للماء، وفي ﴿بِبَٰلِغِهِۦ﴾ للفم.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ «مَن» لا تقع إلَّا على من يعقل، فهي هنا يراد بها: الملائكة والإنس والجن.

فإن جعلنا السجود بمعنى الانقياد لأمر الله وقضائه؛ فهو عامٌّ في الجميع، من شاء منهم، ومن أبى، ويكون ﴿طَوْعًا﴾ لمن أسلم، ﴿وَكَرْهًا﴾ لمن كره وسخط.

---

(١) في د: «وردت».

(٢) انظر تعليق الشيخ عبد الرحمن البراك ١/ ٥٤٥، وصفحة ٤٢٢، ٥١٢ من هذا الجزء.

وإن جعلنا السجود هو المعروف بالجسد، فيكون سجود الملائكة والمؤمنين من الإنس والجن طوعًا، وأما الكَره؛ فهو سجود المنافق، أو[١] سجود ظل الكافر.

﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ معطوف على ﴿مَن﴾، والمعنى: أن الظلال تسجد غدوةً وعشية، وسجودها: انقيادها للتصرُّف بمشيئة الله ﷻ.

وقيل: سجودها: فيئها بالعشي.

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ جواب عن السؤال المتقدِّم، وهو ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وإنما جاء الجواب والسؤال من جهة واحدة؛ لأنه أمرٌ واضحٌ لا يمكن جحده ولا المخالفة فيه، ولذلك أقام به الحجة على المشركين بقوله: ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ الأعمى تمثيل للكافر، والبصير تمثيل للمؤمن، و﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ الكفر، ﴿وَٱلنُّورُ﴾ الإيمان، وذلك كله على وجه التشبيه والتمثيل.

﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿أَمْ﴾ هنا بمعنى «بل» والهمزة، و﴿خَلَقُوا۟﴾ صفة لـ ﴿شُرَكَآءَ﴾، والمعنى: أن الله وقَّفهم هل خلق شركاؤهم خلقًا كخلق الله فحمَلهم ذلك واشتباهُه بما خلق الله على أن جعلوا إلهًا غير الله؟، ثم أبطل ذلك بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فحصل الردُّ عليهم.

---

(١) في د، هـ: «و».

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ الآيةَ؛ هذا مثلٌ ضربه الله للحق وأهله، والباطل وحزبه، فمثَّل الحق وأهلَه:

بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به الأودية، وتنتفع به الأرض.

وبالذهب والفضة والحديد والصُّفْر وغيرها من المعادن التي ينتفع بها الناس.

وشبَّه الباطل في سرعة اضمحلاله وزواله:

بالزبَد الذي يَرمي به السيل.

وبزبد تلك المعادن التي يطفو فوقها إذا أذيبت، وليس في الزبد منفعةٌ، وليس له دوام.

﴿بِقَدَرِهَا﴾ يَحتمل أن يريد:

ما قُدِّر لها من الماء.

ويَحتمل أن يريد بقَدْر ما تحتمله، على قَدْر صغرها وكبرها.

﴿زَبَدًا رَّابِيًاۚ﴾ الزَّبد: ما يحمله السيل من غُثَاءٍ ونحوه، والرَّابي: المنتفخ الذي ربا، ومنه الربوة.

﴿وَمِمَّا تُوقِدُونَ﴾ المجرور في موضع خبر مقدم، والمبتدأ ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ﴾؛ أي: يَنشأ من الأشياء التي يوقَد عليها زبدٌ مثل زبد السيل.

﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ﴾ الذي يُوقَد عليه ابتغاءَ الحَلْيِ: هو الذهب والفضة، والذي يوقد عليه ابتغاء متاع: هو الحديد والرصاص والنحاس والصُّفر وشبه ذلك.

ومعنى المتاع: ما يَستمتع الناس به في مرافقهم وحوائجهم.

﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: يضرب أمثال الحق والباطل.

﴿جُفَآءً﴾ يَجفَؤه السيل؛ أي: يرمي به.

﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يريد: الخالص من الماء، ومن تلك الأحجار.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الذين استجابوا: هم المؤمنون، وهذا استئناف كلام، والحسنى: الجنة، وإعرابها: مبتدأ، وخبرها: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟﴾.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟﴾ مبتدأ، وخبره: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآيةَ، فيوقَف على ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾، وعلى ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

وقيل: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟﴾ يتعلَّق بـ ﴿يَضْرِبُ﴾، و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ مصدر من معنى ﴿ٱسْتَجَابُوا۟﴾؛ أي: استجابوا الاستجابة الحسنى، ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟﴾ معطوف على ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟﴾، والمعنى: يضرب الله الأمثال للطائفتين، وعلى هذا إنما يوقف على: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾.

﴿سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: المناقشة والاستقصاء.

[﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾].

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾ تقريرٌ، والمعنى: أسواء من آمن ومن لم يؤمن؟.

والأعمى هنا: من لم يؤمن بالنبي ﷺ.

وقيل: إنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وأبي جهل لعنه الله.

﴿يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ القرابات وغيرها.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ قيل: يدفعون الشرك بقول: لا إله إلا الله.

وقيل: يدفعون من أساء إليهم بالتي هي أحسن.

والأظهر: يفعلون الحسنات؛ فيدرؤن بها السيئات، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وقيل: إن هذه الآية نزلت في الأنصار، ثم هي عامة في كل مؤمن اتصف بهذه الصفات.

﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ يعني: الجنة، ويَحتمل أن يريد بالدار: الآخرةَ، وأضاف العقبى إليها؛ لأنها فيها.

ويَحتمل أن يريد بالدار: الدنيا، وأضاف العقبى إليها؛ لأنها عاقبتها.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بدلٌ من ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

أو خبر ابتداء مضمر؛ تفسيرًا لـ ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

﴿وَمَن صَلَحَ﴾ أي: مَن كان صالحًا.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ أي: يقولون لهم: سلام عليكم.

﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ يتعلَّق بمحذوف تقديره: هذا بما صبرتم.

ويجوز أن يتعلَّق بـ ﴿سَلَٰمٌ﴾؛ أي: نسلِّم[1] عليكم بما صبرتم.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية؛ أوصافٌ مضادَّة لما تقدَّم.

وقيل: إنها في الخوارج، والأظهر: أنها في الكفار.

﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ يَحتمل أن يراد بها: الدنيا، أو الآخرة[2].

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسِّع على من يشاء، ويضيِّق على من يشاء، وهذا تفسيره حيث وقع.

﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إخبارٌ في ضمنه ذمٌّ وتسفيه لمن فرح بالدنيا، ولذلك حقرها بقوله: ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾؛ أي: قليلٌ بالنظر إلى الآخرة.

---

(١) في ج، هـ: «يسلم».
(٢) في أ، ب: «في الدنيا والآخرة».

[﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾].

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ خرج به مخرج التعجُّب منهم لما طلبوا آيةً، أي: قد جاءكم محمد ﷺ بالقرآن وبآيات كثيرة فعَمِيتم عنها، وطلبتم غيرها، وتماديتم على الكفر؛ لأنّ الله يضل من يشاء مع ظهور الآيات، وقد يهدي من يشاء دون ذلك.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بدلٌ مِن ﴿مَنْ أَنَابَ﴾، أو خبر ابتداء مضمر.

و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بدل ثانٍ، أو مبتدأ.

﴿طُوبَىٰ﴾ مصدر مِن: طاب، كبُشْرى، ومعناها: أصبت خيرًا وطيبًا.

وقيل: هي شجرة في الجنة.

وإعرابها: مبتدأ.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ الكاف تتعلَّق بالمعنى الذي في قوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾.

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ قيل: إنها نزلت في أبي جهل.

وقيل: نزلت في قريش حين عاهدهم رسول الله ﷺ عام الحديبية، فكتب الكاتب: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال قائلهم: نحن لا نعرف الرحمن، وهذا ضعيف؛ لأن الآية نزلت قبل ذلك، ولأن تلك القصة إنما أنكروا فيها التسمية فقط.

ومعنى الآية: أنهم يكفرون بالله مع تلاوة القرآن عليهم.

﴿مَتَابِ﴾ مَفْعَل من التوبة، وهو اسم مصدر.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ الآيةَ؛ جواب «لو» محذوف تقديره: لو أن قرآنًا على هذه الصفة مِن تسيير الجبال به، وتقطيع الأرض، وتكليم الموتى؛ لم يؤمنوا به، فالمعنى كقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧].

وقيل: تقديره: لو أن قرآنًا على هذه الصفة لكان هذا القرآن الذي هو غايةٌ في التَّذكير، ونهايةٌ في الإنذار، كقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا﴾ [الحشر: ٢١].

وقيل: هو متعلِّق بما قبله، والمعنى: وهم يكفرون بالرحمن ولو أن قرآنًا سيرت به الجبال.

﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ﴾ معناه: أفلم يعلم، وهي لغة هوازن، وقرئ: «أو لم يَتبيَّن».

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: كفار قريش والعرب.

﴿قَارِعَةٌ﴾ يعني: مصيبةٌ في أنفسهم وأولادهم وأموالهم، أو غزَوات المسلمين إليهم.

﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ الفاعل ضمير القارعة، والمعنى: إما أن تصيبهم، وإما أن تقرب منهم.

وقيل: التاء للخطاب، والفاعل ضمير المخاطَب؛ وهو النبي ﷺ.

والأول أظهر.

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ هو فتح مكة.

وقيل: قيام الساعة.

* * *

[﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾].

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ﴾ الآيةَ؛ مَقصِدها: تأنيسٌ وتسلية للنبي ﷺ، وهكذا حيث وقع.

﴿فَأَمْلَيْتُ﴾ أي: أمهلتُهم.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ هو الله تعالى؛ أي: حفيظ رقيب على عمل كل أحد.

والخبر محذوف تقديره: «أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت أحقُّ أن يعبد أم غيره؟»، ويدلُّ على ذلك قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾.

﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: اذكروا أسماءَهم.

﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ المعنى: أن الله لا يعلم لنفسه شركاء، وإذا لم يعلمْهم هو فليسوا بشيء، فكيف تفترون الكذب في عبادتهم،

وتعبدون الباطل؟، وذلك كقولك: قل لي من زيد؟، أم هو أقلُّ من أن يعرف؛ فهو كالعدم.

﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ المعنى: أتسمونهم شركاء بظاهر اللفظ من غير أن يكون لذلك حقيقة؟، كقوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ [النجم: ٢٣].

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني: بالقتل والأسر والخوف وغير ذلك.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ هنا وفي «القتال»: أي: صفتُها، وليس بضرب مثلٍ لها.

والخبر:

عند سيبويه: محذوف مقدم تقديره: فيما يتلى عليكم: صفةُ الجنة.

وقال الفرَّاء: الخبر مؤخَّر، وهو: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾.

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ يعني: ما يؤكَل فيها من الثمرات وغيرها، والأُكل - بضم الهمزة -: المأكول، ويجوز فيه ضم الكاف وإسكانها، والأَكل - بفتح الهمزة -: المصدر.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني: من أسلم من اليهود والنصارى، كعبد الله بن سلَام والنجاشي وأصحابِه.

وقيل: يعني: المؤمنين، و﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ على هذا: القرآن.

﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ قيل: هم بنو أمية، وبنو المغيرة من قريش.

والأظهر: أنها في سائر كفار العرب.

وقيل: هم اليهود والنصارى؛ لأنهم لا ينكرون القِصاص والأشياء التي في كتبهم، وإنما ينكرون البعض مما لا يعرفونه أو مما حرَّفوه.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ وجه اتصاله بما قبله: أنه جوابٌ للمنكرين، وردٌّ عليهم، كأنه قال: إنما أمرت بعبادة الله وتوحيده، فكيف تنكرون هذا؟.

﴿مَئَابِ﴾ مَفْعَل من الأَوْب؛ وهو الرجوع، أي: مرجعي في الآخرة، أو مرجعي بالتوبة.

[﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾].

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ ردٌّ على من أنكر أن يكون الرسول من البشر، أو يَحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر من النساء والذرية، فالمعنى: لستَ ببِدْعٍ في ذلك، بل أنت كمن تقدَّم من الرسل.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ردٌّ على الذين اقترحوا الآيات.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ قال الفراء: لكل كتابٍ أجلٌ بالعكس.

وهذا لا يلزم، بل المعنى صحيح من غير عكس، أي: لكل أجل كتاب كتبه الله في اللوح المحفوظ.

﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ قيل: يعني ينسخ ما يشاء من القرآن والأحكام، ويُثبِت منها ما يشاء.

وقيل: هي في آجال بني آدم، وذلك أن الله تعالى في ليلة القدر -وقيل: في ليلة النصف من شعبان- يكتب آجال من يموت في ذلك العام، فيُمحَى[1]

(١) في أ، ب: «فيمحوا».

من ديوان الأحياء، ويُثبت من لا يموت في ذلك العام.

وقيل: إن المحو والإثبات على العموم في جميع الأشياء.

وهذا تردُّه القاعدة المتقررة: أن القضاء لا يتبدَّل، وأن علم الله لا يتغير، فقال بعضهم: المحو والإثبات في كل شيء إلَّا في السعادة والشقاوة الأخراوية، والآجال.

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أصلُ كلِّ كتاب، وهو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الأشياء كلها.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ «إن» شرط دخلت عليها «ما» المؤكِّدة، وجوابها: ﴿فَإِنَّمَا﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ الإتيان هنا: بالقدرة والأمر، والأرض: أرض الكفار، ونقصها: هو بما يفتح[1] الله للمسلمين منها، والمعنى: أو لم يروا ذلك فيخافوا أن نمكِّنك منهم.

وقيل: الأرض: جنس، ونقصها: بموت الناس، وهلاك الثمرات، وخراب البلاد، وشبه ذلك.

﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ المعقِّب: الذي يَكرُّ على الشيء فيبطله.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ تسمية للعقوبة باسم الذنب[2].

---

(١) في أ، ب، د: «فتح».

(٢) انظر تعليق الشيخ عبد الرحمن البراك ١/ ٥٤٥، وصفحة ٤٢٢، ٥١٢ من هذا الجزء.

﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ﴾ تهديدٌ، والمراد بالكافر: الجنس؛ بدليل قراءة ﴿ٱلْكُفَّٰرُ﴾ بالجمع.

و﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾: الدنيا، أو[1] الآخرة.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أمَره الله أن يستشهد اللهَ على صحة نبوته.

وشهادة الله له هي: علمه بذلك، أو[2] إظهاره الآيات الدالَّة على ذلك.

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ معطوفٌ على اسم الله؛ على وجه الاستشهاد به.

فقيل: المراد عبد الله بن سلَام ومَن أسلم من اليهود والنصارى الذين يعلَمون صفته ﷺ من التوراة والإنجيل.

وقيل: المراد: المؤمنون الذين يعلمون علم القرآن ودلالته على النبوَّة.

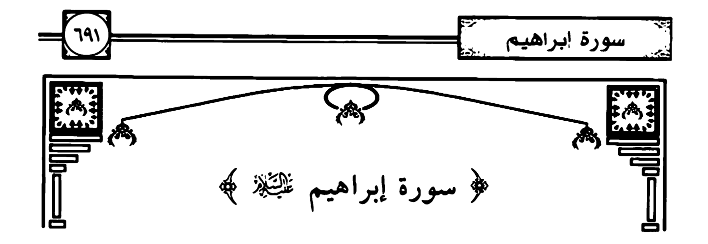
وقيل: المراد: الله تعالى؛ فهو الذي عنده علم الكتاب، ويَضْعُف هذا، لأنه عطْفُ صفةٍ على موصوف، ويقويه قراءة: «ومِن عندِه» بـ «مِن» الجارة وخفض «عنده».

* * *

---

(١) في أ، ب، د: «و».

(٢) في ج، د: «و».



﴿ سورة إبراهيم عليه السلام ﴾

[﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾].

﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والظلمات: الكفر والجهل، والنور: الإيمان والعلم.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بأمره، (وهو إرساله)(١).

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ بدلٌ من إلى ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

---

(١) سقط من أ، ب، ج، هـ.

﴿ٱللَّهِ﴾ قرئ بالرفع: وهو مبتدأ، أو خبر مبتدإٍ مضمرٍ.

وبالخفض: بدل.

﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ أي: يؤثرون.

﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ قد ذُكِر [1].

﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ أي: بلغتهم وكلامهم.

﴿أَنْ أَخْرِجْ﴾ «أنْ» مفسِّرة، أو مصدرية على تقدير: بأن.

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ أي: عقوبته للأمم المتقدمة.

وقيل: إنعامه على بني إسرائيل.

واللفظ يعمُّ النعم والنقم.

وعبَّر عنها بالأيام؛ لأنها كانت في أيام، وفي ذلك تعظيمٌ لها، كقولهم: يوم كذا ويوم كذا.

﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ ذُكِر هنا بالواو؛ ليدلَّ على أن سوء العذاب: غيرُ الذبح.

أو أعمُّ من ذلك، ثم جرَّد الذبح، كقوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨].

وذُكِر في «البقرة» بغير واو؛ تفسيرًا للعذاب.

---

(١) انظر: ١/ ٥٦٥.

[﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٠ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١١ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝١٢﴾].

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ مِن كلام موسى، و﴿تَأَذَّنَ﴾ بمعنى: آذن؛ أي: أعلم، كقولك: توعَّدَ وأَوْعَد، وإعلامُ الله مقترنٌ بإنفاذ ما أعلم به.

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ هذا معمولُ ﴿تَأَذَّنَ﴾؛ لأنه يتضمن معنى «قال».

ويَحتمل أن تكون الزيادة:

من خير الدنيا.

أو من الثواب في الآخرة.

أو منهما.

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ يَحتمل أن يريد:

كفر النعم.

أو الكفر بالإيمان.

والأول أرجح؛ لمقابلته بالشكر.

﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ عبارةٌ عن كثرتهم، كقوله: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨].

﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الضمائر لقوم الرسل، والمعنى: أنهم ردُّوا أيديَهم في أفواه أنفسهم:

غيظًا من الرسل، كقوله: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

أو استهزاءً وضَحِكًا، كمن غلَبه الضَّحِك فوضع يده على فمه.

والثاني: أن الضمائر لهم، والمعنى: أنهم ردُّوا أيديَهم في أفواه أنفسهم؛ إشارةً على الأنبياء بالسكوت.

والثالث: أنهم ردُّوا أيديَهم في أفواه الأنبياء تسكيتًا لهم، ودفعًا لقولهم.

﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ **المعنى**: أفي وجود الله شك، أو في إلهيته؟.

وقيل: في وَحدانيته.

والهمزة للتقرير والتوبيخ؛ لأنه لا يَحتمل الشكَّ؛ لظهور الأدلة، ولذلك وَصَفه[1] بعدُ بقوله: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

---

(١) في ج، هـ: «وُصِف».

﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ قيل: إن «مِن» زائدة.

ومنع سيبويه زيادتها في الواجب، وهي عنده للتبعيض، ومعناه: أنه يغفر للكافر إذا أسلم ما تقدَّم من ذنوبه قبل الإسلام، ويبقى ما يذنب بعده في المشيئة، فوقعت المغفرة للبعض.

ولم يأت في القرآن غفران بعض الذنوب إلَّا للكفار، كهذا الموضع، والذي في «الأحقاف» وسورة «نوح».

وجاء للمؤمنين بغير «مِن»، كالذي في «الصفّ».

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال الزمخشري وأهل مذهبه من المعتزلة: معناه: يؤخِّركم إن آمنتم إلى آجالكم، وإن لم تؤمنوا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت[1].

وهذا بناء على قولهم بالأجلين، وأهل السنة يأبَون هذا؛ فإن الأجل عندهم واحدٌ محتوم[2].

---

(١) انظر: الكشاف (٨/ ٥٦٣).

(٢) قال الشيخ عبد الرحمن البراك حفظه الله: قول ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا بناء على قولهم - أي المعتزلة - بالأجلين»، أقول: هذا صحيح عن المعتزلة؛ معناه أن المعتزلة يقولون: إن المقتول ومن يعاجَل بالعقوبة له أجل متأخر لو لم يُقتل أو يعاجَل لانتهى إليه، ولقتلِه أو تعجيل عقوبته أجلٌ متقدم، وقال بعضهم عن المعتزلة: إن الأجل واحد، وهو الأجل المسمَّى، وأن المقتول مقطوعٌ عليه أجله، وكذا من يعاجَل بالعقوبة بسبب كفره، والحقُّ أن الأجل الذي قدَّره الله في علمه وكتابه واحدٌ، سواء كان متقدما أو متأخرا، ولا يقع إلا هو، فالمتقدم لا يتأخر، والمتأخر لا يتقدم، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا =

﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ يحتمل أن يكون قولهم: استبعادًا لتفضيل بعض البشر على بعض بالنبوة.

أو يكون إحالةً لنبوة البشر.

والأول أظهر؛ لطلبهم البرهان في قولهم: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، ولقول الرسل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: بالتفضيل بالنبوة.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ المعنى: أي: شيءٍ يمنعنا من التوكُّل على الله.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ إن قيل: لم كرَّر الأمر بالتوكل؟.

فالجواب عندي: أن قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ راجعٌ إلى ما تقدَّم من طلب الكفار لسلطان مبين؛ أي: حجة ظاهرة، فتوكُّل الرسل في ورودها على الله، وأما قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ فهو راجعٌ إلى قولهم: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ أي: نتوكل على الله في دفع أذاكم.

وقال الزمخشري: إن هذا الثاني بمعنى الثبوت على التوكل[1].

= ﴿كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾، وهذا معنى ما أشار إليه المؤلف في قوله: «وأهل السنة يأبون هذا؛ فإن الأجل عندهم واحدٌ محتوم». والله أعلم.

(١) انظر: الكشاف (٨/ ٥٦٥).

[﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾].

﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ ﴿أَوْ﴾ هنا:

بمعنى «إلّا أنْ».

أو على أصلها؛ لوقوع أحد الشيئين.

والعَوْدُ هنا: بمعنى الصَّيرورة، وهو كثير في كلام العرب، ولا يقتضي أن الرسل كانوا في ملَّةِ الكفار قبل ذلك.

﴿خَافَ مَقَامِى﴾ فيه ثلاثة أوجه هنا، وفي ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ في «الرحمن»:

فالأول: أن معناه: مقام الحساب في القيامة.

والثاني: أن معناه: قيام الله على عباده بأعمالهم.

والثالث: أن معناه: خافني، وخاف ربه[1]، على إقحام المقام، أو على التعبير به عن الذات.

﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾ الضمير للرسل؛ أي: استنصروا بالله، وأصله: طلب الفتح، وهو الحُكْم.

﴿جَبَّارٍ﴾ أي: قاهرٍ، أو متكبرٍ.

﴿عَنِيدٍ﴾ مخالفٍ لا ينقاد.

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾ في الموضعين: الوراء هنا: بمعنى ما يستقبل من الزمان. وقيل: معناه هنا: أمامه، وهو بعيد.

﴿وَيُسْقَىٰ﴾ معطوفٌ على محذوف تقديره: من ورائه جهنم يلقى فيها ويسقى، وإنما ذَكر هذا السَّقْيَ تجريدًا بعد ذكر جهنم؛ لأنه من أشدِّ عذابها.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي: يتكلَّف جَرْعَه، وتصعب عليه إساغته.

ونفي «كاد» يقتضي وقوعَ الإساغة بعد جُهْدٍ.

ومعنى ﴿يُسِيغُهُۥ﴾: يبتلعه.

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: يجد ألمًا مثل ألم الموت وكرباته من جميع الجهات.

﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي: لا يُرَاحُ بالموت.

---

(١) قوله: «وخاف ربَّه» هذا تفسيرٌ لآية «الرحمن»: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مذهب سيبويه والفراء فيه كقولهما في: ﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ التي في «الرعد» و«القتال».

والخبر عند سيبويه: محذوف تقديره: فيما يتلى عليكم.

والخبر عند الفراء: الجملة التي بعد.

والمثَل هنا بمعنى التَّشبيه.

﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ شبهها بالرماد في ذهابها وتلاشيها.

﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي: شديد الريح، والعُصوف في الحقيقة من صفة الريح.

﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي: لا يرون له منفعة.

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ﴾ أي: ظهروا، ومعنى الظُّهور هنا:

خروجهم من القبور.

وقيل: معناه صاروا بالبَراز، وهي الأرض المتسعة.

﴿تَبَعًا﴾ جمع تابع، أو مصدر وصف به مبالغة، أو على حذف مضاف.

﴿مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ «من» الأولى: للبيان، والثانية: للتبعيض.

ويجوز أن يكونا للتبعيض معًا. قاله الزمخشري[1].

والأظهر: أن الأولى: للبيان، والثانية: زائدة، والمعنى: هل أنتم

---

(١) انظر: الكشاف (٨/ ٥٧٧).

دافعون أو متحمِّلون عنا شيئًا من عذاب الله.

﴿مَّحِيصٍ﴾ أي: مهربٍ، حيث وقع، ويَحتمل أن يكون: مصدرًا، أو اسم مكان.

* * *

[﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾].

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ يعني: إبليس الأقدم، روي أنه يقوم خطيبا بهذا الكلام: يوم القيامة.

أو في النار يقوله لأهلها.

﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ إن كان كلام إبليس في القيامة: فمعنى ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾: تعيَّن قومٌ للنار وقومٌ للجنة.

وإن كان في النار: فمعنى ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾: حصل أهل النار في النار وأهل الجنة في الجنة.

﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ استثناءٌ منقطع.

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ أي: ما أنا بمغيثكم وما أنتم بمغيثين لي.

﴿بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ﴾ «ما» مصدرية؛ أي: بإشراككم لي مع الله في الطاعة.

﴿مِن قَبۡلُ﴾ يتعلَّق بـ ﴿أَشۡرَكۡتُمُونِ﴾.

ويَحتمل أن يتعلَّق بـ ﴿كَفَرۡتُ﴾.

والأول أظهر وأرجح.

﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ استئنافٌ، من كلام الله تعالى.

ويَحتمل أن يكون حكايةً عن إبليس.

﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ يتعلَّق بـ ﴿وَأُدۡخِلَ﴾، أو بـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾، والأول أحسن.

﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ ابن عباس وغيره: هي: «لا إله إلا الله».

(وقيل: كلُّ كلمة حسنة)[1].

﴿كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ﴾ هي النخلة في قول الجمهور.

واختار ابن عطية: أنها شجرة غير معينة، إلَّا أنها كلُّ ما اتصف بتلك الصفات[2].

﴿وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: في الهواء، وذلك عبارةٌ عن طولها.

﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ﴾ الحين في اللغة: وقت غير محدود، وقد تقترن به قرينة تَحدُّه؛ فقيل في: ﴿كُلَّ حِينِۭ﴾: كل سنة لأن النخلة تُطعِم في كل سنة، وقيل غير ذلك.

---

(١) سقط من أ، ب، هـ.

(٢) انظر: المحرر الوجيز (٥/ ٢٤٤).

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي كلمة الكفر، وقيل: كل كلمة قبيحة.

﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي الحنظلة عند الجمهور، واختار ابن عطية: غير معينة[1].

﴿اجْتُثَّتْ﴾ أي: اقتلعت، وحقيقة الاجتثاث: أخذ الجُثَّة، وهذا في مقابلة قوله: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾.

﴿بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ هو «لا إله إلا الله»، والإقرار بالنبوة.

﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: إذا فُتِنوا لم يَزِلُّوا.

﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ هو عند السؤال في القبر عند الجمهور.

* * *

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٥/ ٢٤٦).

[﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾].

﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ نعمة الله هنا: هو محمد ﷺ ودينه، أنعم الله به على قريش فكفروا النعمة ولم يقبلوها، والتقدير: بدلوا شكر نعمة الله كفرًا.

﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ أي: مَن أطاعهم واتبعهم.

﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ فسَّرها بقوله: ﴿جَهَنَّمَ﴾.

﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟﴾ هي جواب شرط مقدَّرٍ، يتضمَّنه قوله: ﴿قُل﴾، تقديره: إن تقل لهم أقيموا يقيموا، ومعمول القول على هذا محذوف.

وقيل: جُزم بإضمار لام الأمر، تقديره: ليقيموا.

﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ من الخُلَّة، وهي المودة.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يريد الجنسَ.

[﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾].

﴿ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ ذُكِر في «البقرة»[1].

﴿وَٱجْنُبْنِى﴾ أي: امنعني، والماضي منه: جنَب، يقال: جنَب وجنَّب -بالتشديد- وأجنب بمعنى واحد.

﴿وَبَنِىَّ﴾ يعني: بنيه من صلبه، وفيهم أجيبت دعوته، وأما أعقاب بنيه فعبدوا الأصنام.

﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ يريد: من عصاه بغير الكفر، أو عصاه بالكفر ثم تاب منه، فهو الذي يصح أن يدعى له بالمغفرة، ولكنه ذكر اللفظ بالعموم؛ لِمَا كان فيه عليه السلام من الرحمة للخلْق وحسن الخلُق.

﴿أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ يعني: ابنَه إسماعيل عليه السلام، لما وَلَدته أمه هاجر غارت بها[2] سارة زوجة إبراهيم، فحمله مع أمه من الشام إلى مكة.

---

(١) انظر: ١/ ٣٦٢.

(٢) في د: «منه».

﴿بِوَادٍ﴾ يعني: مكة، والوادي: ما بين جبلين وإن لم يكن فيه ماء.

﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ يعني الكعبة:

فإما أن يكون البيت أقدم من إبراهيم على ما جاء في بعض الروايات.

وإما أن يكون إبراهيم قد علم أنه سيُبنَى هناك بيتٌ[١].

﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ اللام يَحتمل أن تكون:

لام الأمر بمعنى الدعاء.

أو لام «كي»، وتتعلَّق بـ ﴿أَسْكَنتُ﴾.

وجمْعُ الضمير يدل على أنه كان قد عَلِمَ أن ابنه يُعْقِبُ هنالك نسلًا.

﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: تسير بجِدٍّ وإسراع، ولهذه الدعوة حبَّب الله حج البيت إلى الناس، على أنه قال ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ بالتبعيض.

قال بعضهم: لو قال: «أفئدة الناس» لحجته فارس والروم.

﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: ارزقهم في ذلك الوادي مع أنه غيرُ ذي زرع، وأجاب الله دعوته فجعل مكة تُجبَى[٢] إليها ثمراتُ كل شيء.

﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾ الآيةَ؛ يَحتمل أن تكون: من كلام الله تعالى، أو حكايةً عن إبراهيم.

﴿وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ روي: أنه ولد له إسماعيل وهو

---

(١) في ج: «سيَبني هناك بيتًا».

(٢) في أ، ب، هـ: «تجيء».

ابن مئةٍ وسبعةَ عشرَ عامًا، وروي أقل من هذا، وإسماعيل أسنُّ من إسحاق.

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ إن أراد بالدعاء: الطلبَ والرغبة فمعنى القَبول: الاستجابة.

وإن أراد بالدعاء: العبادة، فالقبول على حقيقته.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ قيل: إنما دعا بالمغفرة لأبويه الكافرين بشرط إسلامهما.

والصحيح: أنه دعا لهما قبل أن يتبيَّن له أنه عدوٌّ لله، حسَبما ورد في «براءة».

* * *

[﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾].

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾ هذا وعيدٌ للظالمين، وهم الكفار هنا على الأظهر.

فإن قيل: لمن هذا الخطاب هنا وفي قوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ﴾؟

فالجواب: أنه يَحتمل أن يكون خطابًا للنبي ﷺ، أو لغيره.

فإن كان لغيره فلا إشكال.

وإن كان له فهو مشكلٌ؛ لأن النبي ﷺ لا يَحسَبُ أن الله غافلٌ، وتأويل ذلك بوجهين:

أحدهما: أن المراد: الثبوت على علمه بأن الله غير غافل وغيرُ مخلف وعده.

والآخر: أن المراد: إعلامُه بعقوبة الظالمين، فمقصد الكلام الوعيد لهم.

﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: تُحِدُّ النظرَ من الخوف.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ قيل: الإهطاع: الإسراع.

وقيل: شدَّة النظر مِن غير أن يَطرِف.

﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ قيل: الإقناع هو رفع الرأس.

وقيل: خفْضُه من الذِّلة.

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: لا يَطرِفون بعيونهم؛ من الحذر والجزع.

﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ أي: منخرقة، لا تعي شيئًا؛ من شدَّة الجزع، فشبهها بالهواء في تفرُّغه من الأشياء.

ويَحتمل أن يريد مضطربةً في صدورهم.

﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني: يوم القيامة، وانتصاب ﴿يَوْمَ﴾ على أنه مفعول ثان لـ ﴿أَنذِرِ﴾، ولا يجوز أن يكون ظرفًا.

﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ﴾ تقديره: يقال لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ﴾ الآيةَ.

﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ هو المقسَم عليه، ومعنى ﴿مِّن زَوَالٍ﴾: أي: من الأرض بعد الموت؛ أي: حلَفتم أنكم لا تبعثون.

﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: جزاءُ مكرِهم.

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ «إن» هنا نافية، واللام لام

الجحود، والجبال يراد بها: الشَّرائع والنبوات، شبهت بالجبال في ثبوتها، والمعنى: تحقيرُ مكرهم؛ لأنه لا تزول منه تلك الجبال الثابتة الراسخة.

وقرأ الكسائي: ﴿لَتَزُولُ﴾ بفتح اللام ورفع ﴿تَزُولُ﴾، و«إن» - على هذه القراءة - مخففةٌ من الثقيلة، واللام للتأكيد، والمعنى: تعظيم مكرهم؛ أي: إنَّ مكرَهم من شدته بحيث تزول منه الجبال، ولكن الله عصم ووقَى منه.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ يعني: الوعد بالنصر على الكفار.

فإن قيل: هلا قال: «مخلف رسلِه وعدَه»، ولم قدَّم المفعول الثاني على الأول؟.

فالجواب: أنه قدَّم الوعد ليُعلَم أنه لا يُخلف الوعد أصلًا على الإطلاق، ثم قال: ﴿رُسُلَهُۥٓ﴾؛ ليُعلَم أنه إذا لم يخلف وعد أحدٍ من الناس، فكيف يخلف وعد رسله وخِيرةِ خلقه؟، فقدَّم الوعد أولًا؛ لقصد الإطلاق، ثم ذكَر الرسل؛ لقصد التخصيص.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾ العامل في الظرف: ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾، أو محذوفٌ.

وتبديل الأرض: بأن تكون يوم القيامة بيضاءَ عفراءَ كقُرْصة النَّقِي، هكذا ورد في الحديث الصحيح[1].

﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ تبديلها: بانشقاقها، وانتثار كواكبها، وخسوف شمسها وقمرها.

وقيل: تبدَّل أرضًا من فضة، وسماءً من ذهب، وهذا ضعيف.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٢١)، ومسلم (٢٧٩٠).

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: الكفار.

﴿مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ أي: مربوطين في الأغلال.

﴿سَرَابِيلُهُم﴾ أي: قمصهم، والسِّربال: القميص.

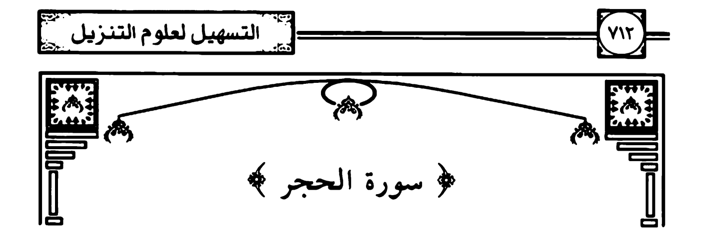
﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ هو الذي تُهْنَأُ به الإبل، وللنار فيه اشتعالٌ شديد، فلذلك جعل الله قمص أهل النار منه.

﴿لِيَجْزِيَ﴾ متعلِّقٌ بمحذوف؛ أي: فعل الله ذلك ليجزيَ.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ﴾ إشارةٌ: إلى القرآن، أو إلى ما تضمَّنته هذه السورة.

﴿وَلِيُنذَرُوا۟﴾ معطوفٌ على محذوف تقديره: ليُنصحوا به وليُنذروا.

* * *



﴿ سورة الحجر ﴾

[﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥﴾].

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ يَحتمل أن يريد بالكتاب: الكتب المتقدمة، وعطف القرآن عليها.

والظاهر: أنه القرآن، وعُطف عطف الصفات.

﴿رُّبَمَا﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد، وهما لغتان، و«ما» حرفٌ، كافَّةٌ لـ«رُبَّ».

ومعنى «رب»: التقليل، وقد تكون للتكثير.

وقيل: إن هذه منه.

وقيل: إنما عبَّر عن التكثير بأداة التقليل على وجه التهكُّم؛ كقوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ [البقرة: ١٤٤]، و﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور: ٦٤].

وقيل: إن معنى التقليل في هذه: أنهم لو كانوا يودُّون الإسلام مرةً واحدة لوجب أن يسارعوا إليه، فكيف وهم يودونه مرارًا كثيرة؟.

ولا تدخل «رُبَّ» إلَّا على الماضي، وإنما دخلت هنا على المستقبل؛ لأنه في التَّحقيق كالماضي.

﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ قيل: إن ذلك عند الموت.

وقيل: في القيامة.

وقيل: إذا خرج عصاة المسلمين من النار، وهذا هو الأرجح؛ لحديثٍ روي في ذلك[1].

﴿ذَرْهُمْ﴾ وما بعده: تهديدٌ.

﴿كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي: وقت محدود.

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾ الضمير في ﴿وَقَالُوا۟﴾ لكفار قريش، وقولهم: ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾[2] على وجه الاستخفاف؛ أي: بزعمك ودعواك.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٨/١٤).

(٢) في هـ زيادة: «يعنون».

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ﴿لَّوْ مَا﴾ عرضٌ وتَحضيضٌ، والمعنى: أنهم طلبوا من النبي ﷺ أن يأتيهم بالملائكة معه.

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ ردٌّ عليهم فيما اقترحوا، والمعنى: أن الملائكة لا تتنزل إلَّا بالحق؛ من الوحي والمصالح، التي يريدها الله، لا باقتراح مقترِح واختيار كافر معترض.

وقيل: الحق هنا: العذاب.

﴿وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ ﴿إِذًا﴾ حرف جواب وجزاء، والمعنى: لو أنزل الملائكة لم يؤخَّرْ عذاب هؤلاء الكفار الذين اقترحوا نزولهم؛ لأن مِن عادة الله أن مَن اقترح آيةً فرآها ولم يؤمن أنه يعجَّل له العذاب، وقد عَلِم الله أن هؤلاء القوم يؤمن كثيرٌ منهم، ويؤمن أعقابهم فلم يفعل بهم ذلك.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ الذِّكر هنا: هو القرآن، وفي قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ ردٌّ لإنكارهم واستخفافهم في قولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ ولذلك أكَّده بـ ﴿نَحْنُ﴾، واحتجَّ عليه بحفظه.

ومعنى حفظه: حراسته عن التَّبديل والتَّغيير، كما جرى في غيره من الكتب، فتولى الله حفظ القرآن، فلم يَقدِر أحدٌ على الزيادة فيه، ولا النقصان منه، ولا تبديلِه، بخلاف غيره من الكتب؛ فإنَّ حفْظَها موكولٌ إلى أهلها؛ لقوله: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الشِّيَع: جمع شِيعة، وهي الطائفة التي تتشيع لمذهب أو رجل.

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ معنى ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾: نُدخِله.

والضمير في ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ يَحتمل:

أن يكون للاستهزاء الذي دلَّ عليه قوله: ﴿بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

أو يكون للقرآن؛ أي: نسلكه في قلوبهم مستهزَءًا به، ويكون قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تشبيهًا للاستهزاء المتقدِّم، و﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ تفسيرٌ لوجه إدخاله في قلوبهم، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ للقرآن.

﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: تقدَّمت طريقتهم على هذه الحالة من الكفر والاستهزاء، حتى هلَكوا بسبب ذلك، ففي الكلام تهديدٌ لقريش.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ الضمائر لكفار قريش المعاندين المحتوم عليهم بالكفر.

وقيل: الضمير في ﴿ظَلُّوا۟﴾ و﴿يَعْرُجُونَ﴾ للملائكة، وفي ﴿قَالُوٓا۟﴾ للكفار.

ومعنى ﴿يَعْرُجُونَ﴾: يَصعَدون.

والمعنى: أن هؤلاء الكفار لو رأوا أعظم آية لقالوا: إنها تخييل أو سحر.

وقرئ ﴿سُكِّرَتْ﴾ بالتشديد والتخفيف، ويَحتمل أن يكون مشتقًّا:

من السُّكْر، فيكون معناه: حُيِّرت أبصارنا فرأينا الأمر على غير حقيقته.

أو من السَّكْر، وهو السَّدُّ، فيكون معناه: منعت أبصارنا من النظر.

* * *

[﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾].

﴿بُرُوجًا﴾ يعني: المنازل الاثني عشر.

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ استثناءٌ مِن حفظ السموات، فهو في موضع نصب.

﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ أي: مقدَّر بقصْدٍ وإرادة؛ فالوزن على هذا مستعار.

وقيل: المراد: ما يوزن حقيقةً كالذهب والأطعمة، والأول أعمُّ وأحسنُ.

﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ يعني: البهائم والحيوانات، و﴿مَن﴾ معطوفٌ على ﴿مَعَـٰيِشَ﴾.

وقيل: على الضمير في ﴿لَكُمْ﴾، وهذا ضعيف في النحو؛ لأنه عطفٌ على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض، وهو قويٌّ في المعنى؛ أي: جعلنا في الأرض معايش لكم وللحيوانات.

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ قيل: يعني المطر، واللفظ أعم من ذلك.

والخزائن: المواضع الخازنة، وظاهر هذا أن الأشياء موجودةٌ قد خُلِقت.

وقيل: ذلك تمثيل، والمعنى: وإن من شيء إلَّا نحن قادرون على إيجاده وتكوينه.

﴿بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: بمقدار محدود.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ يقال: لَقِحَت الناقة والشجرة: إذا حمَلت فهي لاقحة، وألْقَحت الريحُ الشجرَ فهي مُلْقِحةٌ، و﴿لَوَٰقِحَ﴾:

جمع لاقحة؛ لأنها تحمل الماء.

أو جمع ملقحة؛ على حذف الميم الزائدة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ الآيةَ؛ يعني: الأولين والآخرين من الناس، وذكَر ذلك على وجه الاستدلال على الحشر الذي ذُكِر بعد ذلك في قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾؛ لأنه إذا أحاط بهم علمًا لم تصعب عليه إعادتهم وحشرهم.

وقيل: يعني: مَن استقدم وِلادةً وموتًا، ومن تأخَّر.

وقيل: من تقدَّم إلى الإسلام ومن تأخَّر عنه.

[﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ﴾ الإنسان هنا هو: آدم عليه السلام، والصلصال: الطين اليابس الذي يصلصل؛ أي: يصوِّت، وهو غير مطبوخٍ، فإذا طُبخ فهو فخَّارٌ.

﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ الحمأ: الطين الأسود، والمسنون: المتغيِّر المنتن.

وقيل: إنه مِن أَسَنَ الماءُ: إذا تغيَّر، والتَّصريف يردُّ هذا القول.

وموضع ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ صفةٌ لـ ﴿صَلْصَالٍ﴾؛ أي: من صلصال كائنٍ من حمأ.

﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ﴾ يراد به: جنس الشياطين.

وقيل: إبليس الأول، وهذا أرجح؛ لقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾، وتناسلت الجن من إبليس، وهو للجن كآدم للناس.

﴿ٱلسَّمُومِ﴾ شدَّة الحر.

﴿خَٰلِقُۢ بَشَرًا﴾ يعني: آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ يعني: الروح التي في الجسد، وأضاف الله تعالى الروح إلى نفسه إضافةَ مُلْك إلى مالك؛ أي: من الروح الذي هو لي، وخَلْقٌ من خلقي.

وتقدَّم الكلام على سجود الملائكة في «البقرة»[١].

﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة، أو من السماء.

﴿قَالَ رَبِّ﴾ يقتضي إقراره بالربوبية، وأن كفره كان بوجهٍ غيرِ الجحود، وهو اعتراضه على الله في أمره بالسجود لآدم.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨﴾ اليوم الذي طلب إبليس أن يُنظَرَ إليه: هو يوم القيامة.

ويوم الوقت المعلوم الذي أُنظِر إليه: هو يوم النفخ في الصور النفخةَ الأولى؛ حين يموت من في السموات ومن في الأرض.

وكان سؤال إبليس الإنظار إلى يوم القيامة جهلًا منه ومغالطةً؛ إذ سأل ما لا سبيل إليه؛ لأنه لو أعطي ما سأل لم يمت أبدًا؛ لأنه لا يموت أحد بعد البعث، فلما سأل ما لا سبيل إليه أَعرض الله عنه، وأعطاه الإنظارَ إلى النفخة الأولى.

﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ الباء للسببية؛ أي: لأغوينهم بسبب إغوائك لي.

---

(١) انظر: ١/ ٣٠٠.

وقيل: للقسَم؛ كأنه قال: بقُدْرتك على إغوائي لأغوينهم.

والضمير لذرية آدم.

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝﴾ القائل لهذا هو الله تعالى، والإشارة بـ ﴿هَٰذَا﴾:

إلى نجاة المخلصين من إبليس، وأنه لا يقدر عليهم.

أو إلى تقسيم الناس إلى غويٍّ ومُخْلَص.

﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ يَحتمل أن يريد بالعباد:

جميعَ الناس؛ فيكون قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ استثناءً متصلًا.

أو يريد بالعباد المخلَصين؛ فيكون الاستثناء منقطعًا.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ﴾ الضمير للغاوين.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ روي: أنها سبعة أطباق، في كل طبقة باب، فأعلاها: للمذنبين من المسلمين، والثاني: لليهود، والثالث: للنصارى، والرابع: للصابئين، والخامس: للمجوس، والسادس: للمشركين، والسابع: للمنافقين.

* * *

[﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾].

﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ تقديره: يقال لهم: ادخلوها، والسَّلام هنا يَحتمل أن يكون: التحيةَ، أو السلامةَ.

﴿إِخْوَٰنًا﴾ يعني: أخوَّة المودَّة والإيمان.

﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أي: يقابل بعضهم بعضًا على الأسِرَّة.

﴿نَصَبٌ﴾ أي: تعبٌ.

﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾ الآيةَ؛ أَعْلِمهم، والآية آية ترجية وتخويف.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾﴾ ﴿ضَيْفِ﴾ هنا: واقعٌ على جماعة، وهم الملائكة الذين جاؤوا إلى إبراهيم بالبشرى.

﴿وَجِلُونَ﴾ أي: خائفون، والوجَل: الخوف.

﴿لَا تَوْجَلْ﴾ أي: لا تخفْ.

﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ هو إسحاق.

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ المعنى: أبشرتموني بالولد مع أنني قد كَبِرَ سنّي!.

وكان حينئذ ابن مئة سنة، وقيل: أكثر.

﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ قال ذلك:

على وجه التعجُّب مِن ولادته في كِبَرِه.

أو على وجه الاستبعاد لذلك.

وقرئ ﴿تُبَشِّرُونِّ﴾:

بتشديد النون وكسرها؛ على إدغام نون الجمع في نون الوقاية.

وبالكسر والتخفيف؛ على حذف إحدى النونين.

وبالفتح؛ وهي نون الجمع.

﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: باليقين الثابت، فلا تستبعده ولا تشُكَّ فيه.

﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ دليلٌ على تحريم القنوط.

وقرئ ﴿يَقْنَطُ﴾: بفتح النون وكسرها، وهما لغتان.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: ما شأنكم؟، وبأي شيء جئتم؟.

﴿إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعنون: قوم لوط.

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ يحتمل:

أن يكون استثناءً من ﴿قَوْمٍ﴾؛ فيكون منقطعًا؛ لوصف القوم بالإجرام،

ولم يكن آلُ لوط مجرمين.

ويَحتمل أن يكون استثناءً من الضمير في ﴿مُجۡرِمِينَ﴾؛ فيكون متصلًا؛ كأنه قال: إلى قوم قد أجرموا كلهم إلَّا آل لوط فلم يجرموا.

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ استثناءٌ من ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾، فهو استثناءٌ من استثناء.

وقال الزمخشري: إنما هو استثناءٌ من الضمير المجرور في قوله: ﴿لَمُنَجُّوهُمۡ﴾[1]. وذلك هو الذي يقتضيه المعنى.

﴿قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ الغابر: يقال بمعنى الباقي، وبمعنى الذاهب.

وإنما أَسند الملائكةُ فعلَ التَّقدير إلى أنفسهم، وهو لله وحده؛ لما لهم من القرب والاختصاص بالله، لا سيما في هذه القضية، كما تقول خاصة الملِك للملِك: دبَّرنا كذا.

ويَحتمل أن يكون حكاية عن الله.

* * *

---

(١) انظر: الكشاف (٩/٤٦).

[﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾].

﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: لا يعرفهم[1].

﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: جئناك بالعذاب لقومك.

ومعنى ﴿يَمْتَرُونَ﴾: يشكُّون فيه.

﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ أي: كنْ خلفهم وفي سَاقَتِهم؛ حتى لا يبقى منهم أحد، وليكونوا قدَّامه؛ (فلا يشتغل قلبه بهم لو كانوا وراءه؛ لخوفه عليهم)[2].

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ تقدَّم في «هود»[3].

﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ قيل: هو مصر، وقيل: «حيث» هنا للزمان؛ إذ لم يُذكَر مكانٌ.

---

(١) في أ، ب: «قوم لا نعرفهم».

(٢) في أ، ب: «ولو كانوا وراءه لاشتغل بخوفه عليهم».

(٣) انظر صفحة..

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ هو من القضاء والقدر، وإنما تعدى بـ «إلى»؛ لأنه ضُمِّن معنى: «أوحينا».

وقيل: معناه: أعلمناه بذلك الأمر.

﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾ هذا هو تفسيرٌ لـ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾.

ودابر القوم: أصلهم، والإشارة إلى قوم لوط.

﴿مُصْبِحِينَ﴾ في الموضعين: أي: إذا أصبحوا ودخلوا في الصباح.

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ المدينة هي سَدُوم، واستبشار أهلها بالأضياف؛ طمعًا أن ينالوا منهم الفاحشة.

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾ كانوا قد نهوه أن يُضِيفَ أحدًا.

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ دعاهم إلى تزويج بناته؛ ليقي بذلك أضيافَه.

﴿لَعَمْرُكَ﴾ قسمٌ، والعَمْر: الحياة؛ ففي ذلك كرامةٌ للنبي ﷺ، لأن الله أقسم بحياته.

وقيل: هو من قول الملائكة للوط.

وارتفاعه: بالابتداء، وخبره محذوف تقديره: لعمرك قسمي، واللام للتوطئة.

﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ الضمير لقوم لوط، و﴿سَكْرَتِهِمْ﴾: ضلالهم وجهلهم، و﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي: يتحيَّرون.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ أي: صيحة جبريل، وهي أَخْذُه لهم.

﴿مُشْرِقِينَ﴾ أي: داخلين في الشروق، وهو وقت بزوغ الشمس.

وقد تقدَّم تفسير ما بعد هذا من قصتهم في «هود»[١].

﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أي: للمتفرِّسين، ومنه: فِراسة المؤمن.

وقيل: للمعْتبرين.

وحقيقة التوسُّم: النظر إلى السِّمَة.

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ أي: بطريقٍ ثابت يراه الناس، والضمير: للمدينة[٢] المهلَكة.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ أصحاب الأيكة: قوم شعيب، والأيكة: الغَيْضة من الشجر، لما كفروا أضرمها الله عليهم نارًا.

﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ الضمير في ﴿وَإِنَّهُمَا﴾:

قيل: إنه لمدينة قوم لوط وقوم شعيب، فالإمام على هذا: الطريق؛ أي: إنهما بطريق واضح يراه الناس.

وقيل: الضمير للوط وشعيب؛ أي: إنهما على طريق من الشَّرع واضح.

والأول أظهر.

---

(١) انظر صفحة ٦٠٤.

(٢) في ج، هـ: «للمدائن».

[﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾].

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾ هم ثمود قوم صالح، والحجر: واديهم، وهو بين المدينة والشام.

﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ذكره بالجمع وإنما كذبوا واحدًا، وفي ذلك تأويلان:

أحدهما: أن من كذَّب واحدًا من الأنبياء لزمه تكذيب الجميع؛ لأنهم جاؤوا بأمر متفق من التوحيد.

والثاني: أنه أراد الجنس، كقولك: فلان يركب الخيل، وإن لم يركب إلَّا فرسًا واحدًا.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ يعني: الناقة، وما كان فيها من العجائب.

﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ النحت: النَّقر بالمعاويل وشبهها في الحجر

والعود وشبه ذلك، وكانوا ينقرون بيوتهم في الجبال.

﴿ءَامِنِينَ﴾ يعني: آمنين مِن تهدُّم بيوتهم لوثاقتها، وقيل: آمنين من عذاب الله.

﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ يعني: أنها لم تُخْلَقْ عبثًا.

﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ قيل: إن الصفح الجميل هو الذي ليس معه عقاب ولا عتاب.

وفي الآية مهادنةٌ للكفار منسوخة بالسيف.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ قيل: يعني: أم القرآن؛ لأنها سبع آيات.

وقيل: يعني السُّور السبع الطِّوال؛ وهي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال مع براءة.

والأول أرجح؛ لوروده في الحديث[١].

و﴿ٱلۡمَثَانِي﴾: مشتق من التثنية، وهو التكرير؛ لأن الفاتحة تُكرَّر قراءتها في الصلاة، ولأن غيرها من السور تُكرَّر فيها القَصص وغيرها.

وقيل: هي مشتقة من الثَّناء؛ لأن فيها ثناءً على الله.

و﴿مِّنَ﴾ تَحتمل أن تكون: للتَّبعيض، أو لبيان الجنس.

وعطَف القرآن على السبع المثاني؛ لأنه يعني ما سواها من القرآن، فهو عموم بعد الخصوص.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٤).

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: لا تنظرْ إلى ما متَّعناهم به في الدنيا، ومعنى الآية: تزهيدٌ في الدنيا؛ كأنه يقول: قد آتيناك السبع المثاني والقرآن العظيم، فلا تنظر إلى الدنيا؛ فإن الذي أعطيناك أعظمُ منها.

﴿أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ يعني: أصنافًا من الكفار.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا تتأسف لكفرهم.

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ أي: تواضع ولِنْ للمؤمنين، **والجَناح هنا**: استعارة.

﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ الكاف من ﴿كَمَا﴾ متعلِّقة بقوله: ﴿أَنَا النَّذِيرُ﴾؛ أي: أُنذِرُ قريشًا عذابًا مثل العذاب الذي أنزل على المقتسمين.

وقيل: تتعلَّق بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ أي: أنزلنا عليك كتابًا كما أنزلنا على المقتسمين.

واختُلف في المقتسمين:

فقيل: هم أهل الكتاب الذين آمنوا ببعض كتابهم وكفروا ببعضه، فاقتسموا إلى قسمين.

وقيل: هم قريش، اقتسموا أبواب مكة في الموسم، فوقف كل واحد منهم على باب، يقول أحدهم: هو شاعر، ويقول الآخر: ساحر، وغير ذلك.

﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي: أجزاءً، وقالوا فيه أقوالًا مختلفة، وواحد ﴿عِضِينَ﴾ عِضَةٌ.

وقيل: هو من العَضْهِ، وهو السِّحر، والعاضِه: الساحر، والمعنى على هذا: قالوا إنه سحر.

والكلمة محذوفة اللام، ولامها على القول الأول: واو، وعلى الثاني: هاء.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ إن قيل: كيف يُجمَع بين هذا وبين قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن: ٣٩]؟

فالجواب: أن السؤال المثبت هو على وجه الحساب والتوبيخ، وأن السؤال المنفي هو على وجه الاستفهام المحض؛ لأن الله يعلم الأعمال فلا يحتاج إلى السؤال عنها.

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: صرِّح به وأنفِذْه.

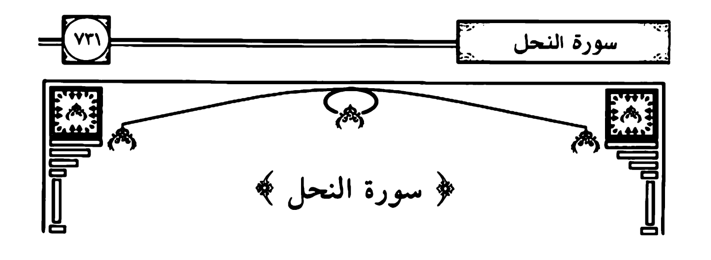
﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ يعني قومًا من أهل مكة؛ أهلكهم الله بأنواع الهلاك من غير سعي النبي ﷺ، وكانوا خمسة: الوليد بن المغيرة، والعاصي بن وائل، والأسود بن عبد المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن غَيْطَلة، وقصة هلاكهم مذكورة في السِّيَرِ.

وقيل: هم الذين قُتِلوا ببدرٍ؛ كأبي جهل، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط وغيرهم.

والأول أرجح؛ لأن الله كفاه إياهم بمكة قبل الهجرة.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ تسليةٌ للنبي ﷺ وتأنيسٌ.

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ أي: الموتُ.



﴿ سورة النحل ﴾

[﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٤ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٩﴾].

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ **قيل**: يعني القيامةَ.

وقيل: النصر على الكفار.

وقيل: عذاب الكفار في الدنيا.

ووضع الماضي موضع المستقبل؛ لتحقُّق وقوع الأمر، ولقربه.

وروي أنها لما نزلت وثب رسول الله ﷺ قائمًا فلما قال: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ سكَن[1].

---

(١) لم أقف عليه مسندًا، وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص: ١٨٧) عن ابن عباس، =

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ أي: بالنبوة، وقيل: بالوحي.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: من نطفة المنيِّ، والمراد: جنس الإنسان.

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن معناه متكلِّم يخاصم عن نفسه.

والثاني: يخاصم في ربه ودينه، وهذا في الكفار.

والأول أعمُّ.

﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أي: ما يُتدفَّأُ به، يعني: ما يُتَّخذ من جلود الأنعام وأصوافها من الثياب.

ويَحتمل أن يكون قوله: ﴿لَكُمْ﴾ متعلِّق: بما قبله، أو بما بعده، ويختلف الوقف باختلاف ذلك.

﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ يعني: شربَ ألبانها، والحرث بها، وغير ذلك.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يَحتمل أن يريد بالمنافع:

ما عدا الأكل؛ فيكون الأكل أمرًا زائدًا عليها.

أو يريد بالمنافع: الأكل وغيره، ثم جرَّد ذكر الأكل؛ لأنه أعظم المنافع.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ الجمال: حسن المنظر،

= وفي الدر المنثور (٩/ ٥): «وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ ذُعِر أصحاب الرسول حتى نزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فسكنوا».

و﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾: يعني: حين تردُّونها بالعشي إلى المنازل، ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾: حين تردُّونها بالغداة إلى الرعي، وإنما قدَّم ﴿تُرِيحُونَ﴾ على ﴿تَسْرَحُونَ﴾؛ لأن جمال الأنعام بالعشيِّ أكثر؛ لأنها ترجع وبطونها ملأى وضروعها حافلة.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ يعني: الأمتعةَ وغيرها، وقيل: أجساد بني آدم.

﴿إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ أي: إلى أيِّ بلدٍ توجهتم، وقيل: يعني مكة.

﴿بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ أي: بمشقة.

﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ استدلَّ بعض الناس به على تحريم أكل الخيل والبغال والحمير؛ لكونه علَّل خِلْقَتها بالركوب والزينة دون الأكل.

ونَصْبُ ﴿زِينَةً﴾ على أنه مفعول من أجله، وهو معطوف على موضع ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾.

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ عبارةٌ على العموم؛ أي: أن مخلوقات الله لا يحيط البشر بعلمها.

وكلُّ مَن ذَكر في هذه الآية شيئًا مخصوصًا فهو على وجه المثال.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: على الله تقويم طريق الهدى، بنصب الأدلة وبعث الرسل.

والمراد بالسبيل هنا: الجنس، ومعنى القصد: القاصد الموصِل، وإضافته إلى السبيل من إضافة الصفة إلى الموصوف.

﴿وَمِنۡهَا جَآئِرٞ﴾ الضمير في ﴿مِنۡهَا﴾ يعود على السبيل؛ إذ المراد به: الجنس، ومعنى الجائر: الخارج عن الصواب؛ أي: ومن الطريق جائر، كطريق اليهود والنصارى وغيرهم.

* * *

[﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٤ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝١٩ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١﴾].

﴿مَآءً لَّكُم﴾ يحتمل أن يتعلَّق ﴿لَّكُم﴾ بـ ﴿أَنزَلَ﴾.

أو يكون في موضع خبر لـ ﴿شَرَابٌ﴾.

أو صفةً لـ ﴿مَآءً﴾.

﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ يعني: ما يَنبت بالمطر[1] من الشجر.

﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: ترعون أنعامكم.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: الحيوان والأشجار والثمار وغير ذلك.

---

(١) في أ، ب: «ما يُنبِت المطرُ».

﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ أي: أصنافه وأشكاله.

﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعني: الحوتَ.

﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ يعني: الجواهر والمرجان.

﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ جمع ماخرة، يقال: مخَرت السفينةُ، والمخْر: شقُّ الماء.

وقيل: صوت جرْي الفلك بالرياح.

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعني: في التجارة، وهو معطوف على ﴿لِتَأْكُلُوا﴾.

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ الرواسي: الجبال، واللفظ مشتقٌّ من رسا إذا ثبت، و﴿أَن تَمِيدَ﴾ في موضع مفعول من أجله، والمعنى: أنه ألقى الجبال في الأرض لئلا تميد الأرض.

وروي أنه لما خلق الله الأرض جعلت تمور، فقالت الملائكة: لا يستقرُّ على ظهر هذه أحدٌ، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال.

﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ قال ابن عطية: ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ منصوب بفعل مضمر تقديره: وجعل أو خلق أنهارًا، قال: وإجماعهم على إضمار هذا الفعل دليلٌ على أن ﴿وَأَلْقَىٰ﴾ أخصُّ من «جعل» و«خلق»، ولو كانت ﴿وَأَلْقَىٰ﴾ بمعنى «خلق» لم يحتجْ إلى هذا الإضمار[1].

﴿وَسُبُلًا﴾ يعني: الطرقَ.

---

(١) المحرر الوجيز (٥/٣٣٨).

﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ﴾ يعني: ما يستدلُّ به على الطرق من الجبال والمناهل وغير ذلك، وهو معطوف على ﴿وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا﴾.

وقال ابن عطية: هو نصبٌ على المصدر؛ أي: لعلكم تعتبرون وعلامات أي: عبرةً وإعلامًا[١].

﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يعني: الاهتداءَ بالليل في الطرق، والنجم هنا: جنس.

وقيل: المراد الثريا والفَرْقَدان.

فإن قيل: قوله: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ مُخرَجٌ عن سَنن الخطاب، وقدَّم فيه النجم، كأنه يقول: وبالنجم خصوصًا هؤلاء خصوصًا يهتدون، فمن المراد بـ ﴿هُمْ﴾؟

فالجواب: أنه أراد قريشًا؛ لأنهم كان لهم في الاهتداء بالنجم في سيرهم علْمٌ لم يكن لغيرهم، وكان الاعتبار ألزمَ لهم فخُصِّصوا. قال ذلك الزمخشري[٢].

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ﴾ تقريرٌ يقتضي الردَّ على مَن عبد غير الله، وإنما عبَّر عنهم بـ «مَن»:

لأن فيهم مَن يعقل ومن لا يعقل.

أو مشاكلةً لقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾.

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٥/ ٣٣٩).

(٢) انظر: الكشاف (٩/ ٩٥-٩٦).

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ ذكر من أول السورة إلى هنا أنواعًا من مخلوقاته تعالى على وجه الاستدلال بها على وحدانيته، ولذلك أعقبها بقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾.

وفيها أيضًا تَعدادٌ لنعمه على خلقه؛ ولذلك أعقبها بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾، ثم أعقب ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يغفر لكم التقصير في شكر نعمه.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ نفى عن الأصنام صفات الربوبية، وأثبت لهم أضدادها، وهي أنهم مخلوقون غير خالقين، وغير أحياء، وغير عالمين بوقت البعث، فلما قام البرهان على بطلان ربوبيتهم أثبت الربوبية لله وحده فقال: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ أي: لم تكن لهم حياة قط ولا تكون، وذلك أَغرقُ في موتها ممن تقدَّمتْ له حياة ثم مات، ثم يَعقُب موتَه حياةٌ.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ الضمير في ﴿يَشْعُرُونَ﴾ للأصنام، وفي ﴿يُبْعَثُونَ﴾ للكفار الذين عبدوهم.

وقيل: إن الضميرين للكفار.

* * *

[﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾].

﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ أي: تنكر وحدانية الله تعالى وجل.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: لا بدَّ، ولا شكَّ.

وقيل: إن ﴿لَا﴾ نفيٌ لما تقدَّم، و﴿جَرَمَ﴾ معناه: وَجب، أو حُقَّ، و«أنَّ» فاعلةٌ بـ ﴿جَرَمَ﴾.

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما سطره الأولون، وكان النضر بن الحارث قد اتَّخذ كتب(١) تواريخ، وكان يقول: إنما يحدِّث محمد بأساطير الأولين، وحديثي أجمل من حديثه.

و﴿مَاذَآ﴾ يجوز أن يكون:

اسمًا واحدًا مركبًا من «ما» و«ذا»، ويكون منصوبًا بـ ﴿أَنزَلَ﴾.

أو أن تكون «ما» استفهامية في موضع رفع بالابتداء، و«ذا» بمعنى الذي، وفي ﴿أَنزَلَ﴾ ضمير محذوف.

﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ﴾ اللام لام العاقبة والصيرورة؛ أي: قالوا أساطير الأولين، فأوجب ذلك أن حملوا أوزارهم وأوزار غيرهم.

---

(١) في أ، ب: «كتاب».

ويَحتمل أن تكون للأمر.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال: من المفعول في ﴿يُضِلُّونَهُم﴾، أو من الفاعل.

* * *

[﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾].

﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ الآيةَ؛ قيل: المراد بالذين من قبلهم: نمروذ؛ فإنه بنى صرحًا ليصعد فيه إلى السماء بزعمه، فلما علا فيه فرسخين هدمه الله وخرَّ سقفُه عليه.

وقيل: المراد بالذين من قبلهم: كلُّ من كفر من الأمم المتقدمة، ونزلت به عقوبةُ الله، فالبنيان والسقف والقواعد على هذا تمثيل.

﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ توبيخٌ للمشركين، وأضاف الشركاء إلى نفسه؛ أي: على زعمكم ودعواكم، وفيه تهكُّمٌ بهم.

﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونِ فِيهِمْ﴾ أي: تعادونِ من أجلهم.

فمن قرأ بكسر النون: فالمفعول ضمير المتكلم وهو الله ﷻ.

ومن قرأ بفتحها: فالمفعول محذوف تقديره: تعادونَ المؤمنين من أجلهم.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ هم الأنبياء والعلماء من كل أمة.

وقيل: يعني الملائكة.

واللفظ أعم من ذلك.

﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ حالٌ من الضمير المفعول في ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾.

﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: استسلموا للموت.

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ أي: قالوا ذلك، ويَحتمل قولهم لذلك: أن يكونوا قصدوا الكذب؛ اعتصامًا به، كقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

أو يكونوا أخبروا على حسب اعتقادهم في أنفسهم، فلم يقصدوا الكذب ولكنه كذبٌ في نفس الأمر.

﴿بَلَىٰٓ﴾ مِن قول الملائكة للكفار؛ أي: قد كنتم تعملون السوء.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ﴾ لما وصف مقالة الكفار الذين قالوا أساطير الأولين؛ قابل ذلك بمقالة المؤمنين.

فإن قيل: لم نصب جواب المؤمنين، وهو قولهم: ﴿خَيْرًا﴾، ورفع جواب الكافرين وهو ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؟

فالجواب: أن قولهم ﴿خَيْرًا﴾ منصوب بفعل مضمر تقديره: أنزل خيرًا، ففي ذلك اعتراف بأن الله أنزله، وأما ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فهو خبر ابتداء مضمر تقديره: هو أساطير الأولين، فلم يعترفوا بأن الله أنزله؛ فلا وجه لنصبه، ولو كان منصوبًا لكان الكلام متناقضًا؛ لأن قولهم: أساطير الأولين يقتضي التكذيب بأن الله أنزله، والنصب بفعل مضمر يقتضي التصديق بأن الله أنزله؛ لأن تقديره: أنزل.

فإن قيل: يلزم مثل هذا في الرفع؛ لأن تقديره: هو أساطير الأولين؛ فإنه غير مطابق للسؤال الذي هو: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾؟

فالجواب: أنهم عدَلُوا بالجواب عن السؤال، فقالوا: هو أساطير الأولين، ولم ينزله الله.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ ارتفع ﴿حَسَنَةٌ﴾ بالابتداء، و﴿لِلَّذِينَ﴾ خبره.

والجملة بدلٌ من ﴿خَيْرًا﴾، وتفسيرٌ للخير الذي قالوه.

وقيل: هي استئنافُ كلامِ الله تعالى، لا من كلام الذين قالوا خيرًا.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ يَحتمل أن يكون هو اسم الممدوح بـ﴿نِعْمَ﴾، فيكون: مبتدأ وخبره فيما قبله.

أو خبر ابتداء مضمر.

ويَحتمل أن يكون مبتدأ، وخبره: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾، أو مضمر تقديره: لهم جنات عدن.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون، والضمير للكفار.

﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يعني: لقبض أرواحهم.

﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ يعني: قيام الساعة، أو العذاب في الدنيا.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي: أصابهم جزاء سيئات ما عملوا.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: أحاط بهم العذاب الذين كانوا به يستهزؤون، وهذا تفسيره حيث وقع.

* * *

[﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ قالوا ذلك على وجه المجادلة والمخاصمة والاحتجاج على صحة فعلهم؛ أي: إنَّ فِعْلَنا هو بمشيئة الله فهو صواب، ولو شاء الله أن لا نفعله ما فعلناه.

والرَّدُّ عليهم: بأن الله نهى عن الشرك ولكنه قضاه على من يشاء من عباده.

ويَحتمل أن يكونوا قالوا ذلك في الآخرة على وجه التمني؛ فإن «لو» تكون للتمني، والمعنى على هذا: أنهم لما رأوا العذاب تمنوا أن يكونوا لم يعبدوا غيره، ولم يحرِّموا ما أحلَّ الله من البَحيرة وغيرها.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُهْدَىٰ مَن يُضِلُّ﴾ قرئ بضم الياء مِن ﴿يُهْدَىٰ﴾ وفتح الدال على البناء للمفعول؛ أي: لا يَهدي غيرُ الله مَن يضله الله.

وقرئ ﴿يَهْدِى﴾ بفتح الياء وكسر الدال، والمعنى على هذا: لا يهدي الله من قضى بإضلاله.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ الضمير عائد على ﴿مَن يُضِلُّ﴾؛ لأنه في معنى الجمع.

﴿بَلَىٰ﴾ ردٌّ على الذين أقسموا لا يبعث الله من يموت؛ أي: أنه يبعث.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ اللام تتعلَّق بما دل عليه ﴿بَلَىٰ﴾؛ أي: يبعثهم ليبين لهم، وهذا برهان على البعث؛ فإن الناس مختلفون في أديانهم ومذاهبهم، فيبعثهم الله ليبين لهم الحق فيما اختلفوا فيه.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ﴾ الآيةَ؛ برهانٌ أيضًا على البعث؛ لأنه داخل تحت قدرة الله تعالى.

* * *

[﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾].

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ يعني: الذين هاجروا من مكة إلى أرض الحبشة؛ لأن الهجرة إلى المدينة كانت بعد هذا.

وقيل: نزلت في أبي جندل بن سهيل وخبره مذكور في السِّيَرِ في قصة الحديبية، وهذا بعيد؛ لأن السورة نزلت قبل ذلك.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ وعدٌ أن ينزلهم بقعةً حسنة، وهي المدينة التي استقرُّوا بها.

وقيل: إن ﴿حَسَنَةً﴾ صفة لمصدر؛ أي: نبوئنهم تبوئةً حسنة.

وقرئ «لَنُثْوِيَنَّهُمْ» بالثاء؛ من الثَّواءِ.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ وصفٌ للذين هاجروا، ويَحتمل إعرابه أن يكون: نعتًا.

أو على تقدير: هم الذين، أو أمدح الذين.

﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ ردٌّ على من استبعد أن يكون الرسول من البشر.

﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ يعني: أحبار اليهود والنصارى؛ أي: لأن جميعهم يشهدون أن الرسول[1] من البشر.

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ يتعلَّق:

بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ الذي في أول الآية على التقديم والتأخير في الكلام.

أو بـ «أرسلنا» مضمرًا.

أو بـ ﴿يُوحَىٰٓ﴾.

أو بـ ﴿تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ يعني: القرآن.

﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ يَحتمل أن يريد:

لتبين القرآن بسَرْدِك نصَّه وتعليمه للناس.

أو لتبين معانيَه؛ بتفسير مشكله، فيدخل في هذا ما بينته السنة من الشريعة.

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يعني: كفار قريش عند جمهور المفسرين.

و﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ تَحتمل وجهين:

أحدهما: أن يريد بها الأعمالَ السيئات؛ أي: المعاصيَ، فيكون ﴿مَكَرُواْ﴾ يتضمن معنى: عملوا.

---

(١) في ج، هـ: «الرسل».

والآخر: أن يريد: المكَرات السيئاتِ؛ أي: مَكْرَهم بالنبي ﷺ؛ فيكون المكر على بابه.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ يعني: في أسفارهم.

﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بمُفْلِتين، حيث وقع.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن معناه: على تنقُّصٍ؛ أي: ينتقَّصُ أموالهم وأنفسهم شيئًا بعد شيء حتى يَهلِكوا، من غير أن يُهْلِكهم جملةً واحدةً؛ ولهذا أشار بقوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لأن الأخذ هكذا أخفُّ من غيره، وقد كان عمر بن الخطاب أشكل عليه معنى التخوُّف في الآية، حتى قال له رجل من هذيل: التخوف التنقص في لغتنا[1].

والوجه الثاني: أنه من الخوف؛ أي: يهلك قومًا قبلهم، فيتخوَّفوا هم ذلك، فيأخذهم بعد أن توقَّعوا العذاب وخافوه، وذلك خلاف قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[2].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ﴾ معنى الآية: اعتبارٌ بانتقال الظل، ويعني بقوله: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ الأجرامَ التي لها ظِلالٌ؛ من الجبال والشجر والحيوان وغير ذلك؛ وذلك أن الشمس من وقت طلوعها إلى وقت الزوال يكون ظلُّها إلى جهةٍ، ومن الزوال إلى الليل إلى جهة

---

(١) لم أقف عليه مسندًا، وذكر الثعلبي في تفسيره (٦/ ١٩) عن سعيد بن المسيب عن عمر رضي الله عنه، وأخرجه بنحوه الطبري في تفسيره (١٤/ ٢٣٦).

(٢) لعلّ مراده الآية السابقة: (من حيث لا يشعرون)!.

أخرى، ثم يمتدُّ الظل ويعمُّ بالليل إلى طلوع الشمس.

وقوله: ﴿يَتَفَيَّؤُا﴾ مِن الفيء؛ وهو الظل الذي يرجع بعكس ما كان غُدْوةً، وقال رؤبة بن العجّاج: يقال بعد الزوال: ظل وفيء، ولا يقال قبله إلّا: ظل، ففي لفظ: ﴿يَتَفَيَّؤُا﴾ هنا تجوُّزٌ مّا؛ لوقوع الخصوص في موضع العموم؛ لأن المقصود الاعتبار من أول النهار إلى آخره، فوضع ﴿يَتَفَيَّؤُا﴾ موضع ينتقل أو يميل(١).

والضمير في ﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾ يعود على: ﴿مَا﴾، أو على ﴿شَيْءٍ﴾.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ يعني: عن الجانبين؛ أي: يرجع الظل من جانب إلى جانب، و﴿ٱلْيَمِينِ﴾ بمعنى الأيمان، واستعار هنا الأيمان والشمائل للأجرام؛ فإن اليمين والشمال إنما هما في الحقيقة للإنسان.

﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ حالٌ من الظِّلال.

وقال الزمخشري: حال من الضمير في ﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾، إذ هو بمعنى الجمع؛ لأنه يعود على قوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾(٢).

فعلى الأول: يكون السجود من صفة الظِّلال.

وعلى الثاني: يكون من صفة الأجرام.

---

(١) في أ، ب، جـ هـ: «تنتقل أو تميل».

(٢) إعراب الزمخشري إنما هو لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾، وليس لقوله: ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾، حيث قال في الكشاف (٩/ ١٢٨): «﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾: حالٌ من الظِّلال، ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾: حال من الضمير في ﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾»، قال الطِّيبي في حاشيته على الكشاف: «فالمعنى: ظلالهم ساجدة، وهم في أنفسهم متواضعون صاغرون، فيتَّفق الباطن مع الظاهر».

واختُلِف في معنى هذا السجود:

فقيل: عبَّر به عن الخضوع والانقياد.

وقيل: هو سجود حقيقة.

﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: صاغرون، وجمع بالواو؛ لأن الدُّخُور من أوصاف العقلاء.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ يَحتمل أن يكون ﴿مِن دَابَّةٍ﴾:

بيانًا لما في السموات وما في الأرض معًا؛ لأن كل حيوان يصحُّ أن يوصف بأنه يَدِبُّ.

ويَحتمل أن يكون بيانًا لما في الأرض خاصة.

وإنما قال: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ ليعم العقلاء وغيرهم، ولو قال: «من في السموات» لم يدخل في ذلك غير العقلاء. قاله الزمخشري[1].

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ إن كان قوله: ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ بيانًا لما في السموات والأرض: فقد دخل الملائكة في ذلك، وكرَّر ذكرهم؛ تخصيصًا لهم بالذكر وتشريفًا.

وإن كان ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ لما في الأرض خاصةً: فلم تدخل الملائكة في ذلك، فعطفهم على ما قبلهم.

---

(١) انظر: الكشاف (٩/ ١٣١).

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ هذا إخبارٌ عن الملائكة، وهو بيان نفي الاستكبار.

ويَحتمل أن يريد:

فوقيةَ القدرة والعظمة.

أو يكون من المشكلات التي يمسك عن تأويلها.

وقيل: معناه يخافون أن يُرسِل عليهم عذابًا من فوقهم[1].

* * *

(١) قال الشيخ عبد الرحمن البراك حفظه الله: قول ابن جزي: «هذا إخبار عن الملائكة، وهو بيان نفي الاستكبار» إلخ، أقول: بيان نفي الاستكبار، يريد أن قوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾ تفسير لقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، ثم تردد - رحمه الله وعفا عنا وعنه - في توجيه قوله تعالى: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ بين التفويض والتأويل، فقال: «ويحتمل أن يريد: فوقية القدرة والعظمة»، وهذا تأويل، وقال: «أو يكون من المشكلات التي يمسك عن تأويلها»، وهذا تفويضٌ، قال: «وقيل: معناه يخافون أن يرسل عليهم عذابًا من فوقهم»، وهذا تأويل؛ لأنه صرف للفظ عن ظاهره، وهو في الحقيقة تحريف؛ لأنه لا دليل يوجبه، ولجوء المؤلف في توجيه الآية إلى التفويض والتأويل، راجع إلى نفي الفوقية الحقيقية لله تعالى بذاته فوق جميع المخلوقات، وهو مذهب الأشاعرة، وعلى هذا فالمؤلف يذهب مذهبهم، ومذهب أهل السنة أن الله بذاته فوق سماواته، على عرشه، بائن من خلقه.

[﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٥١ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝٥٢ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ۝٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ۝٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٥٥ وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ۝٥٦ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ۝٥٧ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٥٩ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٦٠ ﴾].

﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ وصْفُ ﴿إِلَٰهَيۡنِ﴾ بـ ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ تأكيدًا وبيانًا للمعنى.

وقيل: إن ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ مفعول أول و﴿إِلَٰهَيۡنِ﴾ مفعول ثاني، فلا يكون في الكلام تأكيد.

﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ خرج من الغيبة إلى التكلم؛ لأن الغائب هو المتكلم، و﴿فَإِيَّٰيَ﴾ مفعول بفعل مضمر، ولا يعمل فيه ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾؛ لأنه قد أخذ معموله.

﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ أي: واجبًا وثابتًا، وقيل: دائمًا.

وانتصابه: على الحال من ﴿ٱلدِّينُ﴾.

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ يَحتمل أن تكون الواو: للاستئناف.

أو للحال؛ فيكون الكلام متصلًا بما قبله؛ أي: كيف تتقون غير الله، وما بكم من نعمة فمنه وحده؟.

﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ أي: ترفعون أصواتكم بالاستغاثة والتضرُّع.

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ اللام: لام الأمر على وجه التهديد؛ لقوله بعدها: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، فعلى هذا يبتدئ بها.

وقيل: هي لام العاقبة؛ فعلى هذا توصل بما قبلها؛ لأنها في الأصل لام كي، وذلك بعيد في المعنى.

والكفر هنا يَحتمل أن يريد به:

كفر النعم؛ لقوله: ﴿بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾.

أو كفر الجحود والشرك؛ لقوله: ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾ يريد التمتع في الدنيا، وذلك أمرٌ على وجه التهديد.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ الضمير في ﴿يَجْعَلُونَ﴾ لكفار العرب؛ فإنهم كانوا يجعلون للأصنام نصيبًا من ذبائحهم وغيرها.

والمراد بقوله: ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأصنامُ، والضمير في ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ للكفار؛ أي: لا يعلمون ربوبيتهم ببرهان ولا بحجة.

وقيل: الضمير في ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ للأصنام؛ أي: لأشياءَ غيرِ عالمةٍ، وهذا بعيد.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ إشارةٌ إلى قول الكفار: إن الملائكة بنات الله، ثم

نزَّه تعالى نفسه عن ذلك بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾.

﴿وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾ المعنى: أنهم يجعلون لأنفسهم ما يشتهون؛ يعني بذلك: الذكور من الأولاد.

وأما الإعراب: فيجوز أن يكون ﴿مَّا يَشۡتَهُونَ﴾:

مبتدأ، وخبره المجرور قبله.

وأن يكون مفعولًا بفعل مضمر تقديره: ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون.

وأن يكون معطوفًا على ﴿ٱلۡبَنَٰتِ﴾؛ على أن هذا يمنعه البصريون؛ لأنه من باب: «ضربتُنِي»، وكان يَلزم عندهم أن يقال: لأنفسهم.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا﴾ إخبارٌ عن حال العرب في كراهتهم البنات.

و﴿ظَلَّ﴾ هنا يَحتمل أن تكون: على بابها، أو بمعنى صار.

والسَّوَاد: عبارةٌ عن العبوس والغم، وقد يكون معه سوادٌ حقيقةً.

و﴿كَظِيمٞ﴾ قد ذُكِر في «يوسف»[1].

﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾ أي: يستخفي من أجل سوء ما بشِّر به.

﴿أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ﴾ المعنى: يدبِّر وينظر هل يمسك الأنثى التي بُشِّر بها على هوان وذُلّ لها، أو يدفنها في التراب حيةً، وهي المؤودة، وهذا معنى: ﴿يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ﴾.

---

(١) انظر صفحة ٦٥٥.

﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: صفة السَّوء؛ من الحاجة إلى الأولاد وغير ذلك من صفات الافتقار والنقص.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: الوصف الأعلى؛ من الغنى عن كل شيء، والنزاهة عن صفات المخلوقين.

[﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾].

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ﴾ يعني: لو يعاقبهم في الدنيا.

﴿بِظُلْمِهِم﴾ أي: بكفرهم ومعاصيهم.

﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ الضمير للأرض.

﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ يعمُّ[1] بني آدم وغيرَهم، وهذا يقتضي أن تَهلِكَ الحيوانات بذنوب بني آدم، وقد ورد ذلك في الأثر.

وقيل: يعني بني آدم خاصة.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ يعني: البناتِ.

﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ﴿أَنَّ﴾ بدلٌ من ﴿ٱلْكَذِبَ﴾.

و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هنا: قيل: هي الجنة، وقيل: ذكور الأولاد.

﴿وَأَنَّهُم مُّفْرِطُونَ﴾ بكسر الراء والتخفيف: من الإفراط؛ أي: متجاوزون الحدَّ في المعاصي.

---

(١) في ج، د: «يعني».

وبفتح الراء والتخفيف: من الفَرْط أي معجَّلون إلى النار.

وبكسر الراء والتشديد: من التَّفريط.

﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ يَحتمل أن يريد بـ ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: وقت نزول الآية، أو يوم القيامة.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ معطوفان على موضع ﴿لِتُبَيِّنَ﴾، وانتصبا على أنهما مفعولٌ من أجلهما؛ أي: لأجل البيان والهدى والرحمة.

* * *

[﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾].

﴿نَّسْقِيكُم﴾ بفتح النون وضمها: لغتان، يقال: سقَى وأسقَى.

﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ الضمير للأنعام، وإنما ذُكِّرَ:

لأنه مفرد بمعنى الجمع، كقولهم: ثوبٌ أخلاقٌ[1].

أو لأنه اسم جنس.

وإذا أنِّث فهو جمع نَعَم.

﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ الفرث: هو ما في الكَرِش من القَذَر، والمعنى: أن الله يخلق اللبن متوسِّطًا بين الفرث والدم يكتنفانه، ومع ذلك فلا يغيِّران له لونًا ولا طعمًا ولا رائحةً.

و«مِن» في قوله: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ للتبعيض، وفي قوله: ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ﴾ لابتداء الغاية.

---

(١) أخلاقٌ جمع خَلَقٍ أي: بالٍ، ضدّ الجديد، كذا في اللسان (١١/ ٣٧٦) ثم قال: «وقد يُقال: ثوبٌ أخلاقٌ يصفون به الواحد إذا كانت الخُلوقة فيه كلّه».

﴿سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ يعني: سهلًا للشرب، حتى قيل: لم يَغَصَّ أحدٌ قطّ باللبن.

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ﴾ المجرور يتعلق بفعل محذوفٍ تقديره: نسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب؛ أي: من عصيرها، ويدلُّ عليه ﴿نُّسْقِيكُم﴾ الأول.

أو يكون ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ﴾ معطوفًا على ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾.

أو يتعلَّق ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ﴾ بـ ﴿تَتَّخِذُونَ﴾، وكرَّر ﴿مِنْهُ﴾ توكيدًا.

أو يكون ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ صفة لمحذوف تقديره: شيءٌ تتخذون.

﴿سَكَرًا﴾ يعني: الخمر، ونزل ذلك قبل تحريمها، فهي منسوخة بالتحريم.

وقيل: إن هذا على وجه المنَّة بالمنفعة التي في الخمر، ولا تعرُّض فيها لتحليل ولا تحريم، فلا نسخ.

وقيل: السَّكَر: المائع من هاتين الشجرتين كالخَلِّ والرُّبِّ.

والرزق الحسن: العنب والتمر والزبيب.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ الوحي هنا: بمعنى الإلهام؛ فإن الوحي على ثلاثة أنواع: وحي كلام، ووحي منام، ووحي إلهام.

﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ﴿أَنِ﴾ مفسِّرة للوحي الذي أُوحِي إلى النحل، وقد جعل الله بيوت النحل في هذه الثلاثة الأنواع؛ إما في

الجبال وكِوَاها[١]، وإما في متجوَّف الأشجار، وإما فيما يعرش بنو آدم من الأجباح[٢] والحيطان ونحوها.

و«مِن» في المواضع الثلاثة للتبعيض؛ لأن النحل إنما تتخذ بيوتًا في بعض الجبال، وبعض الشجر، وبعض الأماكن.

وعرَشَ: معناه: هيَّأ أو بنى، وأكثر ما يستعمل فيما يكون من الأغصان والخشب.

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ عطف ﴿كُلِي﴾ على ﴿ٱتَّخِذِى﴾، و«من» للتبعض؛ وذلك إنها إنما تأكل النُّوَّارَ[٣] من الأشجار.

وقيل: المعنى: من كل الثمرات التي تشتهيها.

﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ﴾ يعني: الطرق في الطيران[٤]، وأضافها إلى الرب؛ لأنها مُلكه وخَلْقه.

﴿ذُلُلًا﴾ أي: مطيعةً منقادة، ويَحتمل أن يكون:

حالًا من السبل، قال مجاهد: لم يتوعَّرْ قطُّ على النحل طريق.

أو حالًا من النحل؛ أي: منقادةً لما أمرها الله به.

---

(١) في اللسان (٢٠/ ١٠١): «والكَوُّ والكَوَّةُ: الخَرْق في الحائط والثَّقب في البيت ونحوه.. وجمع الكَوَّة كِوًى بالقصر نادرٌ وكِواءٌ بالمد، والكاف مكسورة فيهما».

(٢) الأجباح جمع جبْح - مثلث الجيم -، وهو خليلة العسل. القاموس المحيط.

(٣) النوار على وزن رُمَّان: الزهر من الأشجار. القاموس المحيط.

(٤) في أ: «الغيران».

﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ يعني: العسلَ.

﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي: منه أبيض وأصفر وأحمر.

﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ الضمير للعسل؛ لأن أكثر الأدوية مستعملةٌ من العسل، كالمعاجين والأشربة النافعة من الأمراض، وكان ابن عمر يتداوى به من كل شيء؛ فكأنه أخذه على العموم، وعلى ذلك الحديث عن النبي ﷺ أن رجلًا جاء إليه، فقال: إن أخي يشتكي بطنه، فقال: «**اسقه عسلًا**»، فذهب ثم رجع فقال: فقد سقيته فما نفع، قال: «**فاذهب فاسقه عسلًا؛ فقد صدق الله وكذب بطن أخيك**»، فسقاه فشفاه الله ﷻ[1].

﴿إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أي: إلى أخسّه وأحقره، وهو الهرَم.

وقيل: حدُّه خمسة وسبعون عامًا، وقيل: ثمانون، والصحيح: أنه لا ينحصر إلى مدة معينة، وأنه يختلف بحسَب الناس.

﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ اللام لام الصيرورة؛ أي: يصير إذا هَرِم لا يعلم شيئًا بعد أن كان يعلم قبل الهرَم، وليس المراد نفي العلم بالكلية، بل ذلك عبارة عن قلة العلم؛ لغلبة النسيان.

وقيل: المعنى لئلا يعلم زيادةً على علمه شيئًا.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٥٦٨٤)، ومسلم (٢٢١٧).

[﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًاۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾].

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ﴾ الآية؛ في معناها قولان:

أحدهما: أنها احتجاجٌ على الوحدانية؛ كأنه يقول: أنتم لا تسوُّون بين أنفسكم وبين مماليككم في الرزق، ولا تجعلونهم شركاء لكم، فكيف تجعلون عبيدي شركاء لي؟!.

والآخر: أنها عتابٌ وذم لمن لا يحسن إلى مملوكه؛ حتى يردَّ ما رزقه الله عليه، كما جاء في الحديث: «أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون»[1].

والأول أرجح.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١).

﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ الجحد هنا:

على المعنى الأول: إشارةٌ إلى الإشراك بالله، وعبادة غيره.

وعلى المعنى الثاني: إشارةٌ إلى بخْس[1] المماليك فيما يجب لهم من الإنفاق.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ يعني: الزوجات.

و﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يَحتمل:

أن يريد: من نوعكم وعلى خِلْقتكم.

أو يريد: أن حواء خلقت من آدم، وأسند ذلك إلى بني آدم لأنهم من ذريتهما.

﴿وَحَفَدَةً﴾ جمع حافِدٍ، ابن عباس: هم أولاد البنين، وقيل: الأصهار، وقيل: الخدم، وقيل: البنات؛ لأن لفظ البنين المذكَّر لا يدل عليهن.

والحَفْد[2] في اللغة: الخِدْمة.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ؛ توبيخٌ للكفار، وردٌّ عليهم في عبادتهم للأصنام، وهي لا تملك لهم رزقًا.

وانتصب ﴿رِزْقًا﴾؛ لأنه[3] مفعول بـ﴿يَمْلِكُ﴾، ويَحتمل أن يكون: مصدرًا، أو اسمًا لما يُرزَق.

---

(١) في ج، د: «جنس».

(٢) في أ، ب، د: «والحفدة».

(٣) في ب، د: «على أنه».

فإن كان مصدرًا: فإعراب ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول به؛ لأن المصدر ينصب المفعول.

وإن كان اسمًا: فإعراب ﴿شَيْـًٔا﴾ بدل منه.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ الضمير عائد على ﴿مَا﴾؛ لأن المراد به الآلهة.

ونفَى الاستطاعة بعد نفي الملك؛ لأن نفيها أبلغ في الذم.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ الآيةَ؛ مثلٌ لله تعالى وللأصنام، فالأصنام كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، والله تعالى له الملك، وبيده الرزق، ويتصرَّف فيه كيف يشاء، فكيف يسوَّى بينه وبين الأصنام؟!.

وإنما قال: ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾؛ لأن بعض العبيد يقدرون على بعض الأمور كالمُكاتَب والمأذون له.

﴿وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ﴾ «مَن» هنا نكرة موصوفة، والمراد بها: من هو حرٌّ قادر؛ كأنه قال: حرًّا رزقناه؛ ليطابق ﴿عَبْدًا﴾.

ويَحتمل أن تكون موصولة.

﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ أي: هل يستوي العبيد والأحرار الذي ضرب بهم المثل؟!.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ شكرٌ لله على بيان هذا المثال ووضوح الحق.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: الكفار.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ الآيةَ؛ مثلٌ لله تعالى وللأصنام، كالذي قبله، والمقصود منهما: إبطال مذاهب المشركين،

وإثبات الوحدانية لله تعالى.

وقيل: إن الرجل الأبكم: أبو جهل، والذي يأمر بالعدل: عمار بن ياسر.

والأظهر: عدم التعيين.

﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ الكَلُّ: الثقيل؛ يعني: أنه عِيالٌ على وليه أو سيده، وهو مثالٌ للأصنام، والذي يأمر بالعدل: هو الله تعالى.

* * *

[﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾].

﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ بيانٌ لقدرة الله على إقامتها، وأن ذلك يسير عليه؛ كقوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

وقيل: المراد سرعة إتيانها.

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ الأمهات: جمع أمٍّ، زيدت فيه الهاء؛ فرقًا بين من يعقل ومن لا يعقل.

وقرئ: بضم الهمزة، وبكسرها؛ إتْباعًا للكسرة قبلها.

﴿فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: في الهواء البعيد من الأرض.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ السَّكَن: مصدر يوصف به.

وقيل: هو فَعَلٌ بمعنى مفعول.

ومعناه: ما يسكن فيه كالبيوت، أو يسكن إليه.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ يعني: بيوتَ[١] الأَدم من القِباب وغيرها.

﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي: تجدونها خفيفةً.

﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ يعني: في السفر والحضر، واليوم هنا بمعنى الوقت، ويقال: ظعَن الرجل: إذا رحلَ.

وقرئ ﴿ظَعَنِكُمْ﴾ بفتح العين، وإسكانها؛ تخفيفًا.

﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ الأصواف: للغنم، والأوبار: للإبل والأشعار: للمَعْز والبقر.

﴿أَثَٰثًا﴾ الأثاث: متاع البيت من البُسط وغيرها.

وانتصابه: على أنه مفعول بفعل مضمر تقديره: جعل.

﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى وقت غير معين.

ويَحتمل أن يريد: إلى أن تَبلى وتفنى، أو إلى أن تموتوا.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ نعمةٌ عدَّدها الله عليهم بالظل؛ لأن الظل في بلادهم مطلوب محبوب؛ لشدَّة حرها، ويعني بما خلق: من الشجر وغيرها.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ الأكنان: جمع كِنٍّ، وهو ما يقي من المطر والريح وغير ذلك، ويعني بذلك الغِيران والبيوت المنحوتة في الجبال.

---

(١) لم ترد هذه الكلمة في أ، ب، د.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ السَّرابيل: هي الثياب من القمص وغيرها.

وذكر وقاية الحر ولم يذكر البرد؛ لأن وقاية الحر أهم عندهم؛ لحرارة بلادهم.

وقيل: لأن ذِكْر أحدهما يغني عن ذكر الآخر.

﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ يعني: دروع[1] الحديد.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر من النعم من أول السورة إلى هنا.

والضمير في ﴿يَعْرِفُونَ﴾ للكفار، وإنكارهم لنعم الله: إشراكهم به وعبادة غيره.

وقيل: ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ هنا: نبوة محمد ﷺ.

---

(١) في أ، ب، هـ: «درع».

[﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾].

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي: يشهد عليهم بإيمانهم أو كفرهم.

﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لا يؤذن لهم في الاعتذار.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يسترضون، وهو من العتبى بمعنى الرضا.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يحتمل أن يكون:

بمعنى التأخير.

أو بمعنى النظر؛ أي لا ينظر الله إليهم.

﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ الضمير في ﴿فَأَلْقَوْا﴾ للمعبودِين، والمعنى: أنهم كذَّبوهم في قولهم إنهم كانوا يعبدونهم، كقولهم: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨].

فإن قيل: كيف كذبوهم وهم قد كانوا يعبدونهم؟.

فالجواب: أنهم لما كانوا غير راضين بعبادتهم؛ فكأن عبادتهم لم تكن عبادة.

ويَحتمل أن يكون تكذيبهم لهم في تسميتهم شركاء لله، لا في العبادة.

﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: استسلموا له[1] وانقادوا.

﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ رُوي أن الزيادة في العذاب هي حيات وعقارب كالبغال تلسعهم.

* * *

(١) في أ، ب، هـ: «إلى الله».

[﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٩٢ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٣ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩٥ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠﴾].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ يعني بالعدل: فِعْلَ الواجبات، وبالإحسان: المندوبات، وذلك في حقوق الله تعالى وفي حقوق المخلوقين.

قال ابن مسعود: هذه أجمع آية في كتاب الله تعالى[١].

﴿وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ الإيتاء: مصدر آتى بمعنى أعطى، وقد دخل ذلك

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/ ٣٣٧).

في العدل والإحسان، ولكنه جرَّده بالذِّكر؛ اهتمامًا به.

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ **قيل**: يعني الزنا، واللفظ أعم من ذلك.

﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ هو أعم من الفحشاء؛ لأنه يعم جميع المعاصي.

﴿وَٱلْبَغْىِ﴾ يعني: الظلم.

﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ هذا في الأيمان التي في الوفاء بها خيرٌ، وأما ما كان تركه أولى فلْيكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير منه، كما جاء في الحديث[1].

أو تكون الأيمان هنا: ما يحلفه الإنسان في حق غيره، أو معاهدةً لغيره.

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ أي: رقيبًا ومتكفِّلًا بوفائكم بالعهد.

وقيل: إن هذه الآية نزلت في بيعة النبي ﷺ.

وقيل: فيما كان بين العرب من حِلْفٍ في الجاهلية.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ شبَّه الله من يحلف ولا يفِي بيمينه بالمرأة التي تغزل غزلًا قويًا ثم تنقضه.

ويروى أنه كان بمكة امرأة حمقاء تسمى رَيْطَةَ بنت سعد، كانت تفعل ذلك، وبها وقع التشبيه.

وقيل: إنما شبه بامرأة غير معينة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم (١٦٥٢).

﴿أَنكَٰثًا﴾ جمع نِكْثٍ، وهو ما يُنكَث؛ أي: ينقض، وانتصابه على الحال.

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ الدَّخَل: الدَّغَل، وهو قصْدُ الخديعة.

﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ ﴿أَن﴾ في موضع المفعول من أجله؛ أي: بسبب أن تكون أمة.

ومعنى ﴿أَرْبَىٰ﴾: أكثر عددًا، أو أقوى.

ونزلت الآية في العرب الذين كانت القبيلة منهم تحالف الأخرى، فإذا جاءها قبيلةٌ أقوى منها غدرت الأولى وحالفت الثانية.

وقيل: الإشارة بالأربى هنا[١]: إلى كفَّار قريش؛ إذ كانوا حينئذٍ أكثر من المسلمين.

﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ الضمير:

للأمر بالوفاء.

أو لكون أمة أربى من أمة؛ فإن بذلك يَظهر من يحافظ على الوفاء أو لا.

﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ استعارةٌ في الرجوع عن الخير إلى الشر، وإنما أفرد القدَم ونكَّرها؛ لاستعظام الزَّلَل في قدم واحدة، فكيف في أقدام كثيرة؟!.

﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ يعني: في الدنيا.

﴿بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يدلُّ على أن الآية فيمن بايع النبي ﷺ.

---

(١) في أ، ب، ج، هـ: «منها».

﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني: في الآخرة.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الثمن القليل: عرَض الدنيا، وهذا نهيٌ لمن بايع النبي ﷺ أن يَنكُث لأجل ضعف الإسلام حينئذٍ وقوة الكفَّار، ورجائه الانتفاع في الدنيا إن رجع عن البيعة.

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾ أي: يفنى.

﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ يعني: في الدنيا؛ فقال ابن عباس: هي الرزق الحلال، وقيل: هي القناعة.

وقيل: هي حياة الآخرة.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ ظاهر اللفظ: أن يستعاذ بعد القراءة؛ لأن الفاء تقتضي الترتيب، وقد شذَّ قومٌ فأخذوا بذلك.

وجمهور الأمة: على أن الاستعاذة قبل القراءة، وتأويل الآية: إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ، أو إذا أخذت في قراءة القرآن فاستعذ بالله.

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ليس له عليهم سبيل، ولا يقدر على إضلالهم.

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ أي: يتخذونه وليًا.

﴿بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ الضمير لإبليس، والباء سببية.

[﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾].

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ التبديل هنا: النسخ، كان الكفار إذا نُسِخت آية، يقولون: هذا افتراء، ولو كان من عند الله لم يبدل.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ جملة اعتراض بين الشرط وجوابه، وفيها ردٌّ على الكفار؛ أي: الله أعلم بما يَصلح للعباد في وقت، ثم ما يصلح لهم بعد ذلك.

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ يعني: جبريل.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: مع الحق في أوامره ونواهيه وأخباره.

ويَحتمل أن يكون قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: بمعنى حقًّا، أو بمعنى أنه واجب النزول.

﴿أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ كان بمكة غلام أعجمي اسمه يعيش، وقيل: كانا غلامين اسم أحدهما جَبْر والآخر يسار، فكان النبي ﷺ يجلس إليهما ويدعوهما إلى الإسلام، فقالت قريش: هذان يعلِّمان محمدًا.

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ اللسان هنا: بمعنى اللغة والكلام.

و﴿يُلْحِدُونَ﴾ مِن ألحد: إذا مال، وقرئ بفتح الياء، مِن لَحَدَ، وهما بمعنى.

وهذا ردٌّ عليهم بأن الشخص الذي أشاروا إليه أنه يعلمه أعجميُّ اللسان؛ وهذا القرآن عربي في غاية الفصاحة فلا يمكن أن يأتي به أعجمي.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ هذا في حقِّ من علم الله منه أنه لا يؤمن، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦﴾ [يونس: ٩٦]، فاللفظ عام يراد به الخصوص، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ٦] الآيةَ.

وقال ابن عطية: المعنى: إن الذين لا يهديهم الله لا يؤمنون بالله، ولكنه قدَّم في هذا الترتيب وأخَّر؛ تهمُّمًا بتقبيح أفعالهم[١].

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ردٌّ على قولهم: ﴿إِنَّمَآ

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٥/ ٤١٠).

أَنتَ مُفۡتَرِۢۚ﴾؛ يعني: إنما يليق الكذب بمن لا يؤمن؛ لأنه لا يخاف الله، وأما من يؤمن بالله فلا يكذب عليه.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ الإشارة إلى الذين لا يؤمنون بالله؛ أي: هم الذين عادتهم الكذب؛ لأنهم لا يبالون بالوقوع في المعاصي.

ويَحتمل أن يكون الكذبُ المنسوب إليهم قولَهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۢۚ﴾.

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ الآيةَ؛ «مَن» شرطية في موضع رفع بالابتداء، وكذلك «مَن» في قوله: ﴿مَّن شَرَحَ﴾؛ لأنه تخصيص من الأول.

وقوله: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ﴾:

جواب على الأولى والثانية؛ لأنهما بمعنى واحد.

أو يكون جوابًا للثانية، وجوابُ الأولى محذوف يدلُّ عليه جواب الثانية.

وقيل: ﴿مَن كَفَرَ﴾ بدل:

من ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

أو من المبتدإ في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾.

أو من الخبر.

﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ استثناءٌ من قوله: ﴿مَن كَفَرَ﴾ وذلك أن قومًا ارتدوا عن الإسلام، فنزلت فيهم الآية، وكان فيهم مَن أُكرِه على الكفر فنطق بكلمة الكفر وهو يعتقد الإيمان؛ منهم: عمار بن ياسر، وصهيب، وبلال؛ فعذَرهم الله، روي: أن عمار بن ياسر شكا إلى رسول الله ﷺ ما صُنِع به من العذاب وما سامح به من القول، فقال له رسول الله ﷺ: «كيف تجد قلبك؟»

قال: أجده مطمئنًا بالإيمان، قال: «فأجبهم بلسانك؛ **فإنه لا يضرك**»[١].

وهذا الحكم فيمن أُكره بالنطق على الكفر.

وأما الإكراه على فعلٍ هو كفر، كالسجود للصنم؛ فاختلف هل تجوز الإجابة إليه أم لا؟.

فأجازه الجمهور.

ومنعه قوم.

وكذلك قال مالك: لا يلزم المكرَه يمينٌ، ولا طلاق، ولا عِتق، ولا شيء فيما بينه وبين الله، ويَلزمه ما كان من حقوق الناس، ولا تجوز له الإجابة إليه كالإكراه على قتل أحد أو أخذ ماله.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ الإشارةُ إلى العذاب، والباء للتعليل، فعلَّل عذابهم بعلتين:

إحداهما: إيثارهم الحياة الدنيا.

والأخرى: أن الله لا يهديهم.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟﴾ قراءة الجمهور ﴿فُتِنُوا۟﴾ بضم الفاء؛ أي: عُذِّبوا، فالآية -على هذا- في عمارٍ وشبهه من المعذَّبين على الإسلام.

وقرأ ابن عامر بفتح الفاء؛ أي: عَذَّبوا المسلمين؛ فالآية على هذا فيمن

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/ ٣٧٤).

عذَّب المسلمين، ثم هاجر وجاهد، كالحضرمي[1] وأشباهه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كرَّر ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ تأكيدًا، والضمير في ﴿بَعۡدِهَا﴾ يعود على الأفعال المذكورة؛ وهي: الهجرة، والجهاد، والصبر.

* * *

(١) هو عامر بن الحضرمي، وكان يعذِّب غلامه جبرًا ويكرهه على الكفر، وهو الغلام الأعجمي النصراني الذي كانوا يزعمون أنه يعلم محمدًا ﷺ، ثم أسلم الحضرمي. انظر: الكشاف (٩/ ٢٠٦)، والإصابة (٥/ ٤٩٧).

[﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾].

﴿يَوْمَ تَأْتِي﴾ يحتمل أن يتعلَّق:

بـ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أو بمحذوف تقديره: اذكر، وهذا أظهر.

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ النفس هنا: بمعنى الجملة؛ كقولك: إنسان.

والنفس في قوله ﴿عَن نَّفْسِهَا﴾ بمعنى الذات المعينة التي نَقِيضُها الغَيْرُ؛ أي: تجادل عن ذاتها لا عن غيرها، كقولك: جاء زيدٌ نفسُه وعينه.

﴿تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ أي: تحتجُّ وتعتذر.

فإن قيل: كيف الجمع بين هذا وبين قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المرسلات: ٣٥ - ٣٦]؟

فالجواب: أن الحال مختلف باختلاف المواطن والأشخاص.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ الآية؛ قيل: إن القرية المذكورة مكة، كانت بهذه الصفة التي ذكرها الله، ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ يعني: بنبوة محمد ﷺ، فأصابهم الجدب والخوف من غزو النبي ﷺ إليهم.

وقيل: إنما قصد قريةً غير معينة أصابها ذلك، فضرب الله بها مثلًا لمكة[1]، وهذا أظهر؛ لأن المراد وعظ أهل مكة بما جرى لغيرهم.

والضمائر في قوله: ﴿فَكَفَرَتْ﴾ و﴿فَأَذَٰقَهَا﴾ يراد بها أهل القرية؛ بدليل قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ الإذاقة واللِّباس هنا مستعاران.

أما الإذاقة فقد كثر استعمالها في البلايا حتى صارت كالحقيقة.

وأما اللباس فاستعير للجوع والخوف؛ لاشتمالهما على اللابس، ومباشرتهما له كمباشرة الثوب.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ إن كان المراد بالقرية مكة: فالرسول هنا: محمد ﷺ، والعذاب الذي أخذهم: القحط وغيره.

وإن كانت القرية غير معينة: فالرسول: من المتقدمين كهود وشعيب وغيرهما، والعذاب: ما أصابهم من الهلاك.

---

(١) لم ترد هذه الكلمة في أ، ب، هـ.

﴿فَكُلُوا۟﴾ وما بعده مذكور في «البقرة»[١].

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ هذه الآية مخاطِبةٌ للعرب الذين أحلُّوا أشياء وحرموا أشياء كالبَحيرة وغيرها مما ذكر في سورة «المائدة» و«الأنعام»، ثم يدخل فيها كل من قال: هذا حلال أو حرام بغير علم.

وانتصب ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ بـ ﴿لَا تَقُولُوا۟﴾، ويكون قوله: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ بدلًا من ﴿ٱلْكَذِبَ﴾، و«ما» في قوله: ﴿لِمَا تَصِفُ﴾ موصولة.

ويجوز أن ينتصب ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ بقوله: ﴿تَصِفُ﴾، وتكون «ما» على هذا مصدرية، ويكون قوله: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ معمول[٢] ﴿لَا تَقُولُوا۟﴾.

﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ يعني: عيشهم في الدنيا، وانتفاعهم بما فعلوه من التحليل والتحريم.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ يعني قوله في «الأنعام»: ﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] إلى آخر الآية، فذكر ما حرم على المسلمين وما حرم على اليهود؛ ليُعلم أن تحريم ما عدا ذلك افتراءٌ على الله، كما فعلت العرب.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ هذه الآية تأنيسٌ لجميع الناس وفتح باب التوبة[٣].

---

(١) انظر: ١/ ٣٩٤.

(٢) في هـ: «مفعول».

(٣) في ج: «للتوبة».

[﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾].

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه كان وحدَه أمةً من الأمم؛ لكماله وجمعه لصفات الخير، كقول الشاعر:

وليس لله[1] بمستنكرٍ ... أن يجمع العالم في واحدِ[2]

والآخر: أن يكون أمة بمعنى إمام، كقوله: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، قال ابن مسعود: والأمة معلِّمُ الناسِ الخيرَ.

وقد ذُكِر معنى القانت[3] والحنيف[4].

---

(١) في ب، ج، د، هـ: «وليس على الله»، والمبثت موافق لما في الديوان.

(٢) البيت لأبي نواس الحسن بن هانئ، كما في ديوانه (ص: ٢١٨)

(٣) انظر: المقدمة في اللغات مادة (٤٦٠).

(٤) انظر: المقدمة في اللغات مادة (١٣١).

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ يعني: لسان الصِّدق، وأن جميع الأمم متفقون عليه.

وقيل: يعني المال والأولاد.

﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: من أهل الجنة.

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ نفى عنه الشرك؛ لقصد الردِّ على المشركين من العرب الذين كانوا ينتمون إليه.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أمر موسى بني إسرائيل أن يجعلوا يوم الجمعة مختصًا للعبادة، فرضي بعضهم بذلك، وقال أكثرهم: بل يكون يوم السبت، فألزمهم الله يوم السبت، فاختلافهم فيه: هو ما ذُكِر، والسبت على هذا: هو اليوم.

وقيل: اختلافهم فيه: هو أنَّ منهم من حرَّم الصيد فيه، ومنهم من أحلَّه، فعاقبهم الله بالمسخ قردةً، فالمعنى: إنما جُعل وبال السبت على الذين اختلفوا فيه، والسبت على هذا: مصدرٌ مِن سبَت: إذا عظَّم يوم السبت. قاله الزمخشري[1].

وتقتضي الآية: أن السبت لم يكن من ملة إبراهيم ﷺ.

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ المراد بالسبيل هنا: الإسلام.

---

(١) انظر: الكشاف (٩/ ٢٢٣).

والحكمة: هي الكلام الذي يظهر صوابه.

والموعظة: هي الترغيب والترهيب.

والجدال: هو الردُّ على المخالف.

وهذه الأشياء الثلاثة يسميها أهل العلوم العقلية بالبرهان والخَطابة والجدَل(١).

وهذا الآية تقتضي مهادنةً نُسِخت بالسيف.

وقيل: إن الدعاء إلى الله بهذه الطريقة من التلطُّف والرفقِ غيرُ منسوخ، وإنما السيف لمن لا تنفعه هذه الملاطفة من الكفار.

وأما العصاة فهي في حقِّهم مُحْكَمة إلى يوم القيامة باتفاق.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ المعنى: إن صُنِع بكم صنيع سوء فافعلوا مثله ولا تزيدوا عليه، والعقوبة في الحقيقة إنما هي الثانية، وسميت الأولى عقوبةً لمشاكلة اللفظ.

ويَحتمل أن يكون ﴿عَاقَبْتُمْ﴾، بمعنى: أصبتم عُقْبى؛ كقوله في «الممتحنة»: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ [الممتحنة: ١١]، بمعنى: غَنِمتم، فيكون في الكلام تجنيسٌ.

وقال الجمهور: إن الآية نزلت في شأن حمزة بن عبد المطلب، لما بقَر المشركون بطنه يوم أحد قال النبي ﷺ: «والله لئن أظفرني الله بهم لأمثلن

---

(١) في أ، ب: «والجدال».

بسبعين منهم»، فنزلت الآية، فكفَّر النبي ﷺ عن يمينه، وترك ما أراد من المُثْلة[١].

ولا خلاف أن المثلة حرام، وقد وردت الأحاديث بذلك؛ ويقتضي ذلك أنها مدنية.

ويَحتمل أن تكون الآية عامة، ويكون ذكرهم لحمزة على وجه المثال، وتكون على هذا مكيةً كسائر السورة.

واختلف العلماء فيمن ظلمه رجل في مال ثم ائتَمن الظالمُ المظلوم على مال، هل يجوز له خيانته في القدر الذي ظلمه؟.

فأجاز ذلك قوم؛ لظاهر الآية.

ومنعه مالك؛ لقوله ﷺ: **«أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»**[٢].

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ هذا ندبٌ إلى الصبر وترك عقوبة مَن أساء إليك؛ فإن العقوبة مباحة، وتركها أفضل، والضمير راجع إلى الصبر.

ويَحتمل أن يراد بالصابرين هنا:

العموم.

أو يراد به المخاطبون؛ كأنه قال: خير لكم.

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ هذا عزمٌ على النبي ﷺ في خاصَّته

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/ ٤٠٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٣٥)، والترمذي (١٢٦٤).

على الصبر، ويروى أنه قال لأصحابه: «أما أنا فأَصبرُ كما أُمِرت، فماذا تصنعون؟» قالوا: نصبر كما نُدِبْنا[١]. ثم أخبره أنه لا يصبر إلَّا بمعونة الله.

وقد قيل: إن ما في هذه الآية من الأمر بالصبر منسوخ بالسيف، وهذا إن كان الصبر يراد به ترك القتال، وأما إن كان الصبر يراد به ترك المثلة التي فُعِل مثلها بحمزة فذلك غير منسوخ.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا تتأسَّفْ لكفرهم.

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: لا يضقْ[٢] صدرك بمكرهم، والضَّيْق - بفتح الضاد - تخفيف من ضَيِّق، كميِّت وميْت.

وقرئ بالكسر، وهو مصدر.

ويجوز أن يكون الضَّيْق والضِّيق مصدرين.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ يريد أنه معهم بمعونته ونصره.

﴿وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ الإحسان هنا: يَحتمل أن يراد به: فعل الحسنات.

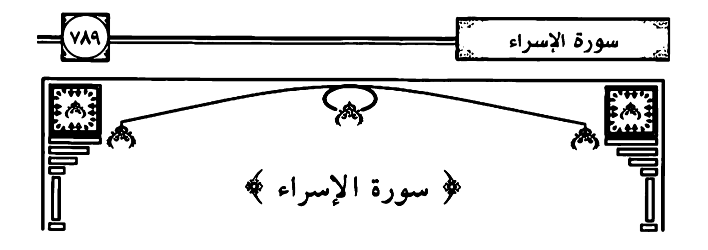
أو المعنى الذي أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه»[٣] وهذا هو الأظهر؛ لأنه رتبه فوق التقوى.

* * *

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٨٨).

(٢) في أ، ب، ج، هـ: «لا يضيقُ»

(٣) تقدم تخريجه ١/ ١٥٥.



﴿ سورة الإسراء ﴾

[﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾].

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ معنى ﴿سُبْحَٰنَ﴾ تنزيهٌ، وهو مصدر غير متصرِّف.

وأسرى وسرى: لغتان، وهو فعل غير متعدٍّ.

واختار ابن عطية أن يكون ﴿أَسْرَىٰ﴾ هنا متعديًا؛ أي: أسرى الملائكةَ بعبده[١]، وهذا بعيد.

والعبد هنا: هو نبينا محمد ﷺ، وإنما وصفه بالعبودية؛ تشريفًا له وتقريبًا.

﴿لَيْلًا﴾ **إن قيل**: ما فائدة قوله: ﴿لَيْلًا﴾ مع أن السُّرَى هو السير بالليل؟.

فالجواب: أنه أراد بقوله: ﴿لَيْلًا﴾ بلفظ التنكير تقليلَ مدَّة الإسراء، وأنه أسرى به في بعض الليل مسيرة أربعين ليلة، وذلك أبلغ في الأعجوبة.

﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ يعني بالمسجد الحرام: مسجد مكة المحيط بالكعبة، وقد روي في الحديث أنه ﷺ قال: «**بينما أنا نائم في الحجر إذ جاءني جبريل..**»[٢].

وقيل: كان النبي ﷺ ليلة الإسراء في بيته، فالمسجد الحرام على هذا: مكة؛ أي: بلد المسجد الحرام.

وأما المسجد الأقصى: فهو بيت المقدس الذي بإيلياءَ، وسُمِّيَ الأقصى؛ لأنه لم يكن وراءه حينئذ مسجد.

ويَحتمل أن يريد بـ﴿ٱلْأَقْصَا﴾: الأبعد؛ فيكون المقصد إظهار العجب في الإسراء إلى هذا الموضع البعيد في ليلة.

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٥/ ٤٣٤).
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

واختلف العلماء في كيفية الإسراء:

فقال الجمهور: كان بجسد النبي ﷺ وروحه.

وقال قوم: كان بروحه خاصة وكانت رؤيا نوم حقٌّ.

فحجة الجمهور: أنه لو كان منامًا لم تنكره قريش، ولم يكن في ذلك ما يكذِّب به الكفار، ألَا ترى قول أم هانئٍ له: لا تخبرْ بذلك فيكذبَك قومك؟.

وحجة من قال: إن الإسراء كان منامًا: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ﴾ [الإسراء: ٦٠]، وإنما تقال الرؤيا في المنام، ويقال فيما يُرى بالعين: رؤية، وفي الحديث أنه ﷺ قال: «**بينما أنا بين النائم واليقظان. .**»[١] وذكَر الإسراء، وقال في آخر الحديث: «**فاستيقظت وأنا في المسجد الحرام. .**».

وجمع بعض الناس بين الأدلة فقال: إن الإسراء كان مرتين: إحداهما: بالجسد، والأخرى: بالروح، وأن الإسراء بالجسد كان من مكة إلى بيت المقدس، وهو الذي أنكرته قريش، وأن الإسراء بالروح كان إلى السموات السبع، ليلة فرضت الصلوات الخمس، ولقي الأنبياء في السموات.

﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ صفة للمسجد الأقصى، والبركة حوله بوجهين:

أحدهما: ما كان فيه وفي نواحيه من الأنبياء.

والآخر: كثرة ما فيه من الزروع والأشجار التي خصَّ الله بها الشام.

﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ أي: لنريَ محمدًا ﷺ تلك الليلة من العجائب، فإنه

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

رأى السموات والجنة والنار وسدرة المنتهى والملائكة والأنبياء، وكلّمه الله تعالى حسَبما ورد في أحاديث الإسراء، وهي في مصنفات الحديث فأغنى ذلك عن ذكرها هنا.

﴿وَجَعَلْنَهُ هُدًى﴾ يَحتمل أن يعود الضمير: على ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، أو على ﴿مُوسَىٰ﴾.

﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ أي: ربًّا تكِلُون إليه أمركم.

و«أنْ» يَحتمل أن تكون: مصدريةً، أو مفسِّرة.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ منادى، وفي ندائهم بذلك تلطُّفٌ وتذكير بنعمةٍ.

وقيل: هو مفعول ﴿تَتَّخِذُوا﴾.

ويتعيَّن معنى ذلك على قراءة مَن قرأ ﴿يَتَّخِذُواْ﴾ بالياء.

ويعني بـ﴿مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾: أولادَه الثلاثة؛ وهم: سامٌ وحامٌ ويافثٌ، ونساءَهم، ومنهم تناسل الناس بعد الطوفان.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ أي: كثير الشكر، كان يحمد الله على كل حال، وهذا تعليلٌ لما تقدَّم؛ أي: كونوا شاكرين كما كان أبوكم نوح.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ قيل: إن ﴿قَضَيْنَآ﴾ هنا بمعنى: أعلمنا وأخبرنا، كما قيل في: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ [الحجر: ٦٦]، والكتاب على هذا: التوراة.

وقيل: قضينا إليه: من القضاء والقدر، والكتاب على هذا: اللوح

المحفوظ الذي كُتبت فيه مقادير الأشياء، و«إلى» بمعنى على.

﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ هذه الجملة بيانٌ للمقضيِّ، وهي في موضع جواب ﴿قَضَيْنَآ﴾ إذا كان من القضاء والقدر؛ لأنه جرى مجرى القسم.

وإن كان بمعنى أعلمنا: فهو جواب قسم محذوف، تقديره: والله لتفسدن، والجملة في موضع معمول ﴿قَضَيْنَآ﴾.

والمرَّتان المشار إليهما: إحداهما: قتل زكريا، والأخرى: قتل يحيى عليه السلام.

﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ مِن العلوّ وهو الكِبر[1] والتَّجبُّر.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ معناه: أنهم إذا أفسدوا في المرة الأولى بعث الله عليهم عبادًا له؛ لينتقمَ منهم على أيديهم.

واختلف في هؤلاء العبيد:

فقيل: جالوت وجنوده.

وقيل: بُخْتُ نَصَّرَ[2] ملك بابل.

﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ الدِّيَارِ﴾ أي: تردَّدوا بينها بالفساد، روي أنهم قتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة وخربوا المساجد وسَبَوْا منهم سبعين ألفًا.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الدَّولة والغلَبة على الذين بُعِثوا

---

(١) في ب: «التكبر».
(٢) انظر التعليق في ١/ ٤٨٠.

عليكم، ويعني: رجوعَ الملْك إلى بني إسرائيل، واستنقاذَ أسراهم، وقتل بخت نصَّر.

وقيل: قتل داود لجالوت.

﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي: أكثر عددًا، وهو:

مصدر من قولك: نفَر الرجل: إذا خرج مسرعًا.

أو جمع نَفْرٍ.

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ ﴿أَحْسَنتُمْ﴾ الأول: بمعنى: فعل الحسنات، والثاني: بمعنى الإحسان، كقولك: أحسنتُ إلى فلان، ففيه تجنيسٌ، واللام فيه بمعنى «إلى»، وكذلك اللام في قوله: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ يعني: إذا أفسدوا في المرة الآخرة، بعث الله عليهم أولئك العباد للانتقام منهم، فـ ﴿الْآخِرَةِ﴾ صفة للمرة.

ومعنى ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾: يجعلونها تظهر فيها آثار الشر والسُّوء كقوله: ﴿سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الملك: ٢٧].

واللام: لام كي، وهي تتعلَّق بـ «بعثنا» المحذوف؛ لدلالة الأول عليه.

وقيل: هي لام الأمر.

﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ يعني: بيت المقدس.

﴿وَلِيُتَبِّرُوا﴾ من التَّبار، وهو الإهلاك وشدَّة الفساد.

﴿مَا عَلَوۡاْ﴾ ﴿مَا﴾ مفعول ﴿ يُتَبِّرُواْ ﴾؛ أي: يُهلِكوا ما غلَبوا عليه من البلاد.

وقيل: إن ﴿مَا﴾ ظرفيةٌ؛ أي: يفسدوا مدَّة عُلُوِّهم.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ﴾ خطابٌ لبني إسرائيل، ومعناه: ترجيةٌ لهم بالرحمة إن تابوا بعد المرة الثانية.

﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ﴾ خطاب - أيضًا - لبني إسرائيل؛ أي: إن عدتم إلى الفساد عدنا إلى عقابكم، وقد عادوا؛ فبعث الله عليهم محمدًا ﷺ وأمته يقتلونهم ويُذِلُّونهم إلى يوم القيامة.

﴿حَصِيرًا﴾ أي: سجنًا، وهو من الحَصْر.

وقيل: أراد به ما يفرش ويبسط، كالحصير المعروف.

﴿يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ أي: الطريقة والحالة التي هي أقوم.

وقيل: يعني لا إله إلا الله.

واللفظ أعم من ذلك.

[﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾].

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ المعنى: ذمٌّ وعتابٌ لما يفعله الناس عند الغضب من الدعاء على أنفسهم وأموالهم وأولادهم، وأنهم يدعون بالشر في ذلك الوقت كما يدعون بالخير وفي وقت التثبُّت(١).

وقيل: إن الآية نزلت في النضر بن الحارث حين قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢] الآيةَ، وقد تقدَّم أن الصحيح في قائلها أنه أبو جهل(٢).

---

(١) في ب، هـ: «التثبيت».

(٢) انظر صفحة ٤٥٥.

﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾ الإنسان هنا وفي الذي قبله: اسم جنس.

وقيل: يعني هنا آدم، وهو بعيد.

﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن يراد أن الليل والنهار آيتان في أنفسهما، فتكون الإضافة في آية الليل وآية النهار كقولك: مسجد الجامع؛ أي: الآية التي هي الليل، والآية التي هي النهار، ومحْوُ آية الليل على هذا: كونُه مظلمًا.

والوجه الثاني: أن يراد بآية الليل القمر، وآية النهار الشمس، ومحْوُ آية الليل على هذا: كون القمر لم يُجعَل له ضوء كضوء الشمس.

﴿وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ يَحتمل أن يريد: النهار بنفسه، أو الشمس.

ومعنى ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾ تُبصَر فيها الأشياء.

﴿لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: لتتوصَّلوا بضوء النهار إلى التصرُّف في معايشكم، ولتعلموا - باختلاف الليل والنهار، أو بمسير الشمس والقمر -: عددَ السنين وحسابَ الأشهر والأيام.

﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾ انتصبَ ﴿وَكُلَّ﴾ بفعل مضمر، والتَّفصيل: البيان.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ﴾ انتصب ﴿وَكُلَّ﴾ بفعل مضمر، والطائر هنا: العمَل، والمعنى: أن عمله لازمٌ له.

وقيل: ﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾ ما قُدِّر عليه وله من خير وشر، والمعنى على هذا: أن كل ما يلقى الإنسان قد سبق به القضاء، وإنما عبَّر عن ذلك بالطائر؛ لأن العرب

كانت عادتها التيمُّن والتشاءم بالطير.

وقوله: ﴿فِي عُنُقِهِۦ﴾ أي: هو كالقِلادة أو الغُلّ، لا ينفكُّ عنه.

﴿كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ يعني: صحيفة أعماله بالحسنات والسيئات.

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ تقديره: يقال له: اقرأ.

﴿حَسِيبًا﴾ أي: محاسِبًا، أو من الحساب؛ بمعنى العدد.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ معناه حيث وقع: لا يؤاخَذ أحدٌ بذنب أحد، والوزر في اللغة: الثِّقَل والحِمْل، ويراد به هنا: الذنوب.

ومعنى ﴿تَزِرُ﴾ تحمل، و﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: وزر نفس أخرى.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ قيل: إن هذا في حكم الدنيا؛ أي: أن الله لا يهلك أمةً إلَّا بعد الإعذار إليهم بإرسال رسول إليهم.

وقيل: هو عام في الدنيا والآخرة، وأن الله لا يعذب في الآخرة قومًا إلَّا وقد أرسل إليهم رسولًا فكفروا به وعصوه، ويدلُّ على ذلك قوله: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الملك: ٨ - ٩]، ومن هذا يؤخذ حكم أهل الفَتَرات.

واستدلَّ أهل السنة بهذه الآية على أن التكليف لا يلزم العباد إلَّا من الشرع، لا من مجرد العقل.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ في تأويل ﴿أَمَرْنَا﴾ هنا ثلاثة أوجه:

أحدهما: أن يكون في الكلام حذف تقديره: أمرنا مترفيها بالخير

والطاعة فعصوا وفسقوا.

والثاني: أن يكون ﴿أَمَرْنَا﴾ عبارةً عن القضاء عليهم بالفسق؛ أي: قضينا عليهم ففسقوا.

والثالث: أن يكون ﴿أَمَرْنَا﴾ بمعنى كثَّرنا، واختاره أبو علي الفارسي.

وأما على قراءة ﴿آمَرْنَا﴾ بمدِّ الهمزة فهو بمعنى كثّرنا.

وأما على قراءة ﴿أَمَّرْنَا﴾ بتشديد الميم فهو من الإمارة؛ أي: جعلناهم أمراء ففسقوا.

والمترَف: الغنيُّ المتنعِّم بالدنيا.

﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ أي: القضاء الذي قضاه الله.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ القرن: مئة سنة، **وقيل**: أربعون.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ الآية في الكفار الذين يريدون الدنيا، ولا يؤمنون بالآخرة، على أن لفظها أعم من ذلك.

والمعنى: أنهم يعجِّل الله لهم حظًّا من الدنيا بقيدين:

أحدهما: تقييد المقدار المعجَّل بمشيئة الله.

والآخر: تقييد الشخص المعجَّل له بإرادة الله، و﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ بدلٌ من ﴿لَهُۥ﴾، وهو بدل بعضٍ من كل.

﴿مَّدْحُورًا﴾ أي: مبعَدًا، أو مهانًا.

﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي: عمل لها عملها.

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ ﴾ انتصب ﴿ كُلًّا ﴾ بـ ﴿نُّمِدُّ﴾، وهو من المدَد، ومعناه: نزيدهم من عطائنا.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ بدلٌ من ﴿ كُلًّا ﴾، والإشارة إلى الفريقين المتقدِّمَين.

﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ يعني: رزق الدنيا.

وقيل: من الطاعات لمن أراد الآخرة، ومن المعاصي لمن أراد الدنيا.

والأول أظهر.

﴿مَحْظُورًا﴾ أي: ممنوعًا.

﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يعني: في رزق الدنيا.

﴿لَّا تَجْعَلْ﴾ خطابٌ لواحد، والمراد به جميع الخلق؛ لأن المخاطَب غير معين.

﴿مَذْمُومًا﴾ أي: يذمُّه الله وخيار عباده.

﴿مَّخْذُولًا﴾ أي: غيرَ منصور.

* * *

[﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾].

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي: حكَم وألزم وأوجب.

أو أمر، ويدلُّ على ذلك ما في مصحف ابن مسعود: «ووصَّى ربك».

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ «أن» مفسِّرة، أو مصدرية على تقدير: بأن لا تعبدوا.

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ﴾ هي «إن» الشرطية دخلت عليها «ما» المؤكِّدة، وجوابها: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾.

والمعنى: الوصية ببر الوالدين إذا كَبِرا، أو كَبِر أحدهما، وإنما خصَّ حاله الكِبَر؛ لأنهما حينئذ أحوجُ إلى البر والقيام بمؤنتهما؛ لضعفهما.

ومعنى ﴿عِندَكَ﴾ أي: في بيتك وتحت كنَفِك.

﴿أُفٍّ﴾ حيث وقعت: اسم فعل، معناها: قولٌ مكروه يقال عند الضجر ونحوه، وإنما المراد بها أقل كلمة مكروهة تصدر من الإنسان، فنهى الله تعالى أن يقال ذلك للوالدين، فأولى وأحرى أن لا يقال لهما ما فوقَ ذلك.

ويجوز في «أفّ» الكسر والفتح والضم، وهي حركات بناء، وأما تنوينها فهو للتنكير.

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ من الانتهار؛ وهو الإغلاظ في القول.

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ استعارةٌ في معنى التواضع لهما والرفق بهما، فهو كقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، وأضافه إلى الذُّل مبالغةً في المعنى؛ كأنه قال: الجناح الذليل.

و«من» في قوله: ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ للتعليل؛ أي: من أجل إفراط الرحمة لهما والشفقة عليهما.

﴿لِلْأَوَّٰبِينَ﴾ قيل: معناه الصالحين، وقيل: المسبِّحين، وهو مشتقٌّ من الأَوْبة بمعنى الرجوع؛ فحقيقته: الراجعين إلى الله.

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ خطابٌ لجميع الناس لصلة قرابتهم والإحسان إليهم.

وقيل: هو خطاب خاص بالنبي ﷺ أن يؤتيَ قرابته حقَّهم من بيت المال.

والأول أرجح.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ﴾ الآيةَ؛ معناها: إن أعرضت عن ذوي القربى والمساكين وابن السبيل إذا لم تجد ما تعطيهم؛ فقل لهم كلامًا حسنًا، وكان النبي ﷺ إذا سأله أحد فلم يكن عنده ما يعطيه أعرض عنه، حياءً منه، فأُمِر بحسن القول مع ذلك، وهو أن يقول: رزقكم الله وأعطاكم الله وشبه ذلك.

والميسور: مشتق من اليُسر.

﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ مفعول من أجله، يَحتمل:

أن يتعلَّق بقوله: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ والمعنى على هذا: أنه يعرض عنهم انتظارًا لرزق يأتيه، فيعطيه إياهم، فالرحمة على هذا: هو ما يرتجيه من الرزق.

أو يتعلق بقوله: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾؛ أي: ابتغ رحمة ربك بقولٍ ميسور، والرحمة على هذا: هي الأجر والثواب.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ استعارةٌ في معنى: غاية البخل؛ كأن البخيل حبست يده عن الإعطاء(١)، وشُدَّت إلى عنقه.

---

(١) في ب: «العطاء».

﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ استعارةٌ في معنى: غاية الجود، فنهى الله عن الطرفين، وأمر بالتوسُّط بينهما، كقوله: ﴿إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ [الفرقان: ٦٧].

﴿مَلُومًا﴾ أي: يلومك صديقك على كثرة عطائك وإضرارك بنفسك.

أو يلومك من يستحقُّ العطاء؛ لأنك لم تترك ما تعطيه.

أو يلومك سائر الناس على التبذير في العطاء.

﴿مَّحْسُورًا﴾ أي: منقطعًا بك لا شيء عندك، وهو من قولهم: حسَر السفرُ البعيرَ: إذا أتعبَه حتى لم تبقَ له قوةٌ(١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسِّع على من يشاء، ويضيق على من يشاء؛ فلا تهتمَّ بما تراه من ذلك؛ فإن الله أعلم بمصالح عباده.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ ذُكِر في «الأنعام»(٢).

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ الحقُّ الموجب لقتل النفس: هو ما ورد في الحديث من قوله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، أو زنا بعد إحصان، أو قتل نفس أخرى»(٣).

وتتصل(٤) بهذه الأشياء أشياء أُخَر؛ لأنها في معناها، كالحرابة،

---

(١) في ب، هـ: «يُبقِ له قوةً».
(٢) انظر صفحة ٣٢٠.
(٣) تقدم تخريجه في صفحة ٣٢٠.
(٤) في أ، ب، هـ: «ويتصل».

وترك الصلاة، ومنع الزكاة.

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ المظلوم هنا: مَن قُتِل بغير حق.

والولي: هو ولي المقتول وسائر العَصَبة، وليس النساء من الأولياء عند مالك.

والسلطان الذي جعل الله له: هو القصاص، أو تخييره[١] بين العفو والقِصاص.

﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ نهى عن أن يسرف وليُّ المقتول؛ بأن يقتل غير قاتل وليه، أو يقتل اثنين بواحد، أو غير ذلك من وجوه التعدي.

وقرئ ﴿فلا تُسْرِف﴾ بالتاء؛ خطابًا للقاتل، أو لوليِّ المقتول.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ الضمير: للمقتول، أو لوليه، ونصره: هو القصاص.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ ذُكِر في «الأنعام»[٢].

قال بعضهم[٣]: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟﴾ و﴿لَا تَقْتُلُوٓا۟﴾ معطوفاتٌ على ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾[٤].

والظاهر: أنها مجزوماتٌ بالنهي؛ بدليل قوله بعدها: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ ﴿وَلَا تَمْشِ﴾.

---

(١) في أ، ب، هـ: «وتخيره».

(٢) انظر صفحة ٣٢١.

(٣) قاله الطبري في تفسيره (١٤/ ٥٧٧).

(٤) في ج زيادة: «وذلك خطأ»، ولم ترد في شيء من النسخ الأخرى، ويظهر أنها زيادة مقحمة؛ بدليل أنه أن ابن جزيٍ وجَّه هذا الإعراب كما سيأتي قريبًا.

ويصحُّ أن تكون معطوفات إذا جعلنا ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ مجزومًا على النهي، و«أن» مفسِّرة.

﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ﴾ عامٌّ في العهود مع الله، ومع الناس.

﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ يَحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون من معنى[1] الطلب؛ أي: يُطلَب الوفاء به.

والثاني: أن يكون المعنى: يُسأل عنه يوم القيامة، هل وفَّى به أم لا.

﴿وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ﴾ **قيل**: القسطاس الميزان، **وقيل**: العدل.

وقرئ بكسر القاف، وهي لغةٌ.

﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: أحسن عاقبةً ومآلًا، وهو مِن آلَ: إذا رجعَ.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾ المعنى: لا تقل ما لا تعلم من ذمِّ الناس وشبه ذلك، واللفظ مشتق مِن قَفَوْتُه: إذا اتبعتَه.

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشـارةٌ إلى السمع والبصر والفؤاد، وإنما عاملها معاملة العقلاء في الإشارة بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لأنها حواسٌّ لها إدراك.

والضمير في ﴿عَنْهُ﴾ يعود على ﴿كُلُّ﴾، ويتعلَّق ﴿عَنْهُ﴾ بـ ﴿مَسْـُٔولًا﴾ والمعنى: أن الإنسان يُسأل عن سمعه وبصره وفؤاده.

وقيل: الضمير يعود على: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾، والمعنى على هذا: أن السمع والبصر والفؤاد هي التي تُسأل عما ليس لها به علم، وهذا بعيد.

---

(١) لم ترد هذه الكلمة في أ، ب، هـ.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ المرَح: الخيلاء والكِبْر في المشية.

وقيل: هو إفراط السرور بالدنيا.

وإعرابه: مصدر في موضع الحال.

﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: لن تجعل فيها خَرْقًا بمشيك عليها، والخَرْق هو: القطع.

وقيل: معناه: لا تقدر أن تستوفيَ جميعَها بالمشي.

والمراد بذلك: تعليل النهي عن الكبر والخيلاء؛ أي: إذا كنت أيها الإنسان لا تقدر على خرق الأرض، ولا على مطاولة الجبال؛ فكيف تتكبَّر وتختال في مشيك؟!، وإنما الواجب عليك التواضع.

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ الإشارة إلى ما تقدم من المنهيات، والمكروه هنا: بمعنى الحرام، لا على اصطلاح الفقهاء في أن المكروه دون الحرام.

وإعراب ﴿مَكْرُوهًا﴾: نعت لـ ﴿سَيِّئَةً﴾، أو بدلٌ منها، أو خبر ثان لـ ﴿كَانَ﴾.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ خطابٌ على وجه التوبيخ للعرب الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله، والمعنى: كيف يَجعل لكم الأعلى من النسل وهو الذكور، ويتخذُ لنفسه الأدنى وهو البنات؟!.

ومعنى ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ﴾: خصَّكم.

﴿قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أي: عظيم النُكْر والشناعة.

[﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾].

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ هذا احتجاج على الوحدانية، وفي معناه قولان:

أحدهما: أن المعنى: لو كان مع الله آلهةٌ لابتغوا سبيلًا إلى التقرب إليه بعبادته وطاعته، فيكون من جملة عباده.

والآخر: لابتغوا سبيلًا إلى إفساد مُلْكِه ومعاندته في قدرته، ومعلوم أن ذلك لم يكن؛ فلا إله إلا هو.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ﴾ الآيةَ؛ اختلف في كيفية هذا التسبيح:

فقيل: هو تسبيحٌ بلسان الحال؛ أي: بما تدلُّ عليه صنعتها من قدرة وحكمة.

وقيل: إنه تسبيح حقيقة، وهذا أرجح؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾.

﴿جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا﴾ في معناه قولان:

أحدهما: أن الله أخبر نبيه ﷺ أنه يستره من الكفار إذا أرادوا به شرًّا، ويحميه(١) منهم.

والآخر: أنه يحجب(٢) الكفار عن فهم القرآن، وهذا أرجح؛ لما بعده.

والمستور هنا:

قيل: معناه مستور عن أعين الخلق؛ لأنه من لطف الله وكفايته، فهو من المغيبات.

وقيل: معناه ساترًا.

﴿أَكِنَّةً﴾ جمع كِنَان؛ وهو الغطاء، و﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ مفعول من أجله تقديره: كراهةَ أن يفقهوه، وهذه كلها استعاراتٌ في إضلالهم.

﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ﴾ الآية؛ معناها: إذا ذكرت في القرآن وحدانية الله تعالى فرَّ المشركون عن ذلك؛ لما فيه من رفض آلهتهم وذمِّها.

و﴿نُفُورٗا﴾ مصدر في موضع الحال.

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ كانوا يستمعون القرآن على وجه الاستهزاء، والضمير في ﴿بِهِۦٓ﴾ عائدٌ على «ما»؛ أي: نعلم ما يستعمون به من الاستهزاء.

---

(١) في ج، د: «ويحجبه».
(٢) في ب، هـ: «حجب».

﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ جماعةٌ يتناجون، أو هم ذو نجوى، والنجوى: كلام السِّرِّ.

﴿رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ **قيل**: معناه جُنَّ فسُحِر.

وقيل: معناه ساحر.

وقيل: هو من السَّحر - بفتح السين -؛ وهو الرئة؛ أي: بشرًا ذا سَحر مثلكم، وهذا بعيد.

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ أي: مثَّلوك بالساحر، والشاعر، والمجنون.

﴿فَضَلُّوا﴾ عن الحق.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى الهدى؛ ونزلت الآية في الوليد بن المغيرة، وأصحابه من الكفار.

﴿وَقَالُوٓا أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ الآيةَ؛ معناها: إنكارهم للبعث، واستبعادهم أن يخلقهم الله خلقًا جديدًا بعد فنائهم.

والرُّفات: الذي بَلِيَ حتى صار غبارًا وفتاتًا.

وقد ذُكِر في «الرعد» اختلاف القراء في الاستفهامين[١].

﴿۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ المعنى: لو كنتم حجارة أو حديدًا لقَدَرْنا على بعثكم وإحيائكم، مع أن الحجارة والحديد أصلب الأشياء وأبعدها عن

---

(١) انظر صفحة ٦٦٩.

الرطوبة التي في الحياة؛ فأولى وأحرى أن نبعث أجسادكم ونحييَ عظامكم البالية، فذَكر الحجارة والحديد تنبيهًا بهما على ما هو أسهل في الحياة منهما.

ومعنى قوله: ﴿كُونُوا۟﴾ أي: كونوا في الوهم والتقدير، وليس المراد به التَّعجيز كما قال بعضهم في ذلك.

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ قيل: يعني السموات والأرض والجبال.

وقيل: بل أحال على فكرتهم عمومًا في كل ما هو كبير عندهم؛ أي: لو كنتم حجارة أو حديدًا أو شيئًا أكبر عندكم من ذلك وأبعد عن الحياة؛ لقدَرْنا على بعثكم.

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: يحرِّكونها تحريك المستبعد للشيء، أو المستهزئ.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ أي: متى يكون البعث.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ الدعاء هنا: عبارةٌ عن البعث بالنفخ في الصور.

والاستجابة: عبارةٌ عن قيامهم من القبور طائعين منقادين.

و﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ في موضع الحال؛ أي: حامدين له.

وقيل: معنى ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾: بأمره.

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني: لبثتم في الدنيا، أو في القبور.

[﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾].

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ العباد هنا: المؤمنون؛ أمرهم أن يقول بعضهم لبعض كلامًا لينًا طيبًا.

وقيل: أن يقولوه للمشركين، ثم نسخ بالسيف.

وإعراب ﴿يَقُولُوا۟﴾ كقوله: ﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣١] في «إبراهيم»، وقد ذكر[١].

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ قيل: يعني الملائكة.

---

(١) انظر صفحة ٧٠٤.

وقيل: عيسى وأمه وعُزيرًا[1].

وقيل: نفرٌ من الجن كان العرب يعبدونهم.

والمعنى: أنهم لا يقدرون على كشف الضرِّ عنكم، فكيف تعبدونهم؟!.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ المعنى: أن أولئك الآلهة الذين تدعون من دون الله يبتغون القربة إلى الله، ويرجونه، ويخافونه، فكيف تعبدونهم معه؟!.

وإعراب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ صفة له، و﴿يَبْتَغُونَ﴾ خبره، والفاعل في ﴿يَدْعُونَ﴾ ضميرٌ للكفار[2]، وفي ﴿يَبْتَغُونَ﴾ للآلهة[3] المعبودين.

وقيل: إن الضمير في ﴿يَدْعُونَ﴾ و﴿يَبْتَغُونَ﴾ للأنبياء المذكورين قبلُ في قوله: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

و﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾ هي ما يُتوسَّل به ويُتقرب.

﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ بدلٌ من الضمير في ﴿يَبْتَغُونَ﴾؛ أي: يبتغي الوسيلة من هو أقرب منهم، فكيف بغيره؟.

أو ضمِّن معنى «يَحرِصون»؛ فكأنه قال: يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله بالاجتهاد في طاعته.

---

(١) في ج، د: «وعزيرَ» بالمنع من الصرف، وهو مختلف في صرفه ومنعه من الصرف، كما سبق كلام ابن جزي عنه في سورة التوبة، صفحة ٤٨٨.

(٢) في ج، د: «الكفار» بدون لفظة «ضمير».

(٣) في ب، ج: «الآلهة».

ويَحتمل أن يكون المعنى: أنهم يتوسلون بأيهم أقرب.

﴿مَحْذُورًا﴾ من الحذر؛ وهو الخوف.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يَحتمل هذا الكلام وجهين:

أحدهما: أن يكون بالموت والفناء الذي لا بدَّ منه.

والآخر: أن يكون بأمر من الله يأخُذُ[1] المدينة دَفعةً فيهلكها، وهذا أظهر؛ لأن الأول معلوم لا يفتقر إلى الإخبار به.

والهلاك والتعذيب المذكوران في الآية هما في الحقيقة لأهل القرى؛ أي: مهلكو أهلِها أو معذِّبوهم.

وروي: أن هلاك مكة بالحبشة، والمدينة بالجوع، والكوفة بالتُّرْك، والأندلس بالخيل.

وسئل الأستاذ أبو جعفر بن الزبير عن غرناطة، فقال: أصابها العذاب يومَ قتْل الموحدين بها في ثورة ابن هود، وأما هلاك قرطبة وإشبيلية وطليطلة وغيرها فأخْذُ الروم لها.

﴿فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾ يعني: اللوح المحفوظ.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ الآيات هنا يراد بها: التي يقترحها الكفار، فإذا رأوها ولم يؤمنوا أهلكهم الله.

---

(١) في أ، ب، ج، هـ: «بأخذِ».

وسبب الآية: أن قريشًا اقترحوا على رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصَّفا ذهبًا، فأخبر الله أنه لم يفعل ذلك لئلا يكذِّبوا فيهلكوا، وعبَّر بالمنع عن ترك ذلك.

و﴿أَن نُّرۡسِلَ﴾ في موضع نصب، و﴿أَن كَذَّبَ﴾ في موضع رفع.

ثم ذكر ناقة ثمود تنبيهًا على ذلك؛ لأنهم اقترحوها فكانت[1] سبب هلاكهم.

ومعنى ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾: بينةً واضحةَ الدلالة.

﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ إن أراد بالآيات هنا المقترَحة: فالمعنى: أنه يرسل بها تخويفًا من العذاب العاجل وهو الإهلاك.

وإن أراد المعجزات غير المقترحة: فالمعنى: أنه يرسل بها تخويفًا من عذاب الآخرة؛ ليراها الكافر فيؤمن.

وقيل: المراد بالآيات هنا الزلازل والرعد والكسوف وغير ذلك من المخاوف.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ المعنى: اذكر إذ أوحينا إليك أن ربك أحاط بقريش؛ يعني: بشَّرناك بقتلهم يوم بدر، وذلك قوله: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ [القمر: ٤٥]، وإنما قال: ﴿أَحَاطَ﴾ بلفظ الماضي وهو لم يقع؛ لتحقيقه[2] وصحة وقوعه بَعْدُ.

---

(١) في أ، ب، هـ: «وكانت».

(٢) في ب: «التحققه».

وقيل: المعنى: أحاط بالناس في منعك وحياطتك منهم، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ اختُلف في هذه الرؤيا:

فقيل: إنها الإسراء:

فمن قال إنه كان في اليقظة: فالرؤيا بمعنى الرؤية بالعين.

ومن قال إنه كان في المنام: فالرؤيا منامية(١).

والفتنة على هذا: تكذيب الكفار بذلك، وارتداد بعض المسلمين حينئذ.

وقيل: إنها رؤيا النبي ﷺ في منامه هزيمةَ الكفار وقتلَهم ببدر، والفتنة على هذا: تكذيب قريش بذلك وسخريتهم به.

وقيل: إنها رؤياه أنه يدخل مكة، فعجَّل في سنة الحديبيَة فرُدَّ عنها، فافتتن بعض المسلمين بذلك.

وقيل: رأى في المنام أن بني أمية يصعدون على منبره؛ فاغتمَّ بذلك(٢).

﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ يعني: شجرة الزقوم، وهي معطوفة على ﴿ٱلرُّءۡيَا﴾؛ أي: جعل الرؤيا والشجرة فتنة للناس؛ وذلك أن قريشًا لما سمعوا أن في جهنم شجرة زقوم سخروا من ذلك وقالوا: كيف تكون شجرة في النار والنار تَحرق الشجر؟ وقال أبو جهل: ما أعرف الزقوم إلَّا التمر بالزُّبْد.

---

(١) في ب، ج، هـ: «منامة»، وفي د: «منامه».

(٢) في ج، د: «لذلك».

فإن قيل: أين لُعنت شجرة الزقوم في القرآن؟

فالجواب: أن المراد: لعنةُ آكلِها.

وقيل: اللعنة بمعنى الإبعاد؛ لأنها في أصل الجحيم.

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ الضمير لكفار قريش.

* * *

[﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾].

﴿طِينًا﴾ تمييزٌ، أو حالٌ مِن ﴿مَنْ﴾، أو مِن مفعول ﴿خَلَقْتَ﴾.

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ الكاف من ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ للخطاب، لا موضع لها من الإعراب، و﴿هَٰذَا﴾ مفعول بـ«أرأيت»، والمعنى: أخبرني عن هذا الذي كرَّمته علي - أي: فضَّلته -؛ لم فضلته وأنا خير منه؟، فاختصر الكلام بحذْف(١) ذلك.

وقال ابن عطية: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ هنا بمعنى: أتأمَّلتَ ونحوه، لا بمعنى أخبرني(٢).

---

(١) في ج: «فحذف».

(٢) المحرر الوجيز (٥/٥٠٦).

﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ معناه: لأُمِيلَنَّهم وأقودهم، وهو مأخوذ من: تحنيك الدابة؛ وهو أن يشدَّ على حنَكِها بحبلٍ فتنقاد.

﴿قَالَ ٱذْهَبْ﴾ قال ابن عطية: ﴿ٱذْهَبْ﴾ وما بعده من الأوامر: صيغة أمر على وجه التَّهديد[1].

وقال الزمخشري: ليس المراد الذهاب الذي هو ضدُّ المجيء، وإنما معناه: امض لشأنك الذي اخترتَه؛ خذلانًا له وتخلية[2].

ويَحتمل عندي: أن يكون معناه: الطرد والإبعاد.

﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ كان الأصل أن يقال: «جزاؤهم» بضمير الغيبة؛ ليرجع إلى ﴿مَن تبعك﴾، ولكنه ذكَره بلفظ الخطاب؛ تغليبًا للمخاطَب على الغائب، وليدخل إبليس معهم.

﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ مصدر في موضع الحال، والموفور: المكمَّل.

﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ أي: اخدع واستخفَّ.

﴿بِصَوْتِكَ﴾ قيل: يعني الغناء والمزامير.

وقيل: الدعاء إلى المعاصي.

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ أي: هوِّل، وهو من الجلَبة، وهو الصياح.

﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ الخيل هنا يراد به[3]: الفرسان الراكبون على خيل،

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٥/٥٠٨).

(٢) انظر: الكشاف (٩/ ٣٣٠).

(٣) في أ، د، هـ: «بها».

والرَّجْل: جمع راجل؛ وهو الذي على رجليه:

فقيل: هو مجاز واستعارة بمعنى: افعل جَهْدَك.

وقيل: إن له من الشياطين خيلًا ورجلًا.

وقيل: المراد: فرسان الناس ورجالهم المتصرِّفون في الشر.

﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ مشاركته في الأموال: هي بكسبها بالربا، وإنفاقها في المعاصي وغير ذلك.

ومشاركته في الأولاد: هي بالاستيلاد بالزنا، وتسمية الولد عبد شمس وعبد الحارث وشبه ذلك.

﴿وَعِدْهُمْ﴾ يعني: المواعِد الكاذبة؛ من شفاعة الأصنام وشبه ذلك.

﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ يعني: المؤمنين الذين يتوكلون على الله؛ بدليل قوله بعد ذلك: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾، ونحوه: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل: ٩٩].

﴿يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ أي: يجريها ويسيرها، والفلك هنا: جمع، وابتغاءُ الفضل: في التجارة وغيرها.

﴿ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ يعني: خوف الغرق.

﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ضلَّ هنا: بمعنى تَلف وفُقِد؛ أي: تلف عن أوهامكم وخواطركم كل من تدعونه إلَّا الله وحده، فلجأتم إليه حينئذ دون غيره، فكيف تعبدون غيره وأنتم لا تجدون في تلك الشدة إلَّا إياه؟!.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾ أي: كفورًا بالنعم، والإنسان هنا: جنس.

﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ الهمزة للتوبيخ، والفاء للعطف؛ أي: أنجوتم من البحر فأمنتم الخسفَ في البر؟!.

﴿حَاصِبًا﴾ يعني: حجارةً، أو ريحًا شديدة ترمي بالحصباء.

﴿وَكِيلًا﴾ أي: قائمًا بأموركم، وناصرًا لكم.

﴿قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾ يعني: الذي يقصف ما يلقَى؛ أي: يكسره.

﴿تَبِيعًا﴾ أي: مطالبًا بثأركم؛ أي: لا تجدون مَن ينتصر لكم منا، كقوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٥].

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ يعني: فضَّلهم على الجن وعلى سائر الحيوان، ولم يفضلهم على الملائكة؛ ولذلك قال: ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ﴾، وأنواع التفضيل كثيرة لا تحصى، وقد ذكر المفسرون منها: كون الإنسان يأكل بيده، وكونه منتصب القامة، وهذه أمثلة.

* * *

[﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧١ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٧٦ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ۝٧٧﴾].

﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ قيل: يعني بنبيهم؛ يقال: يا أمة فلان.

وقيل: يعني: كتابهم الذي نزل عليهم.

وقيل: كتابهم الذي فيه أعمالهم.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ الفتيل: هو الخيط الذي في شقِّ نواة التمرة، والمعنى: أنهم لا يظلمون من أعمالهم قليلًا ولا كثيرًا، فعبر بأقل الأشياء؛ تنبيهًا على الأكثر.

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ الإشارةُ بـ ﴿هَٰذِهِ﴾ إلى الدنيا.

والعمى يراد به: عمى القلب؛ أي: من كان في الدنيا أعمى عن الهدى[1] والصواب فهو في يوم القيامة أعمى؛ أي: حيرانُ يائس من الخير.

ويَحتمل أن يريد بالعمى في الآخرة: عمى البصر؛ كقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

---

(١) في ب: «الهداية».

وإنما جعل الأعمى في الآخرة أضل سبيلًا ؛ لأنه حينئذ لا ينفعه الاهتداء.

ويجوز في ﴿أَعۡمَىٰ﴾ الثاني :

أن يكون صفةً كالأول.

وأن يكون من «أفعل» التي للتفضيل، وهذا أقوى ؛ لقوله ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ فعطف ﴿وَأَضَلُّ﴾ الذي هو من «أفعل من كذا» على ما هو شبهه.

وقال سيبويه : لا يجوز أن يقال : هو أعمى من كذا.

ولكن إنما يمتنع ذلك في عمى البصر، لا في عمى القلب.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ الآيةَ ؛ سببها : أن قريشًا قالوا للنبي ﷺ: اقبلْ[1] بعض أمرنا ونُقبل على بعض أمرك.

وقيل : إن ثقيفًا طلبوا من النبي ﷺ أن يؤخِّرهم بعد إسلامهم سنة يعبدون فيها اللات والعزى، والآية على هذا القول مدنية.

﴿لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ﴾ الافتراء هنا يراد به : مخالفة ما أوحى إليه في القرآن أو في غيره.

﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾ أي : لو فعلت ما أرادوا منك لاتخذوك خليلًا.

﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤﴾ «لولا» تدل على امتناع شيء لوجود غيره، فدلت هنا على امتناع مقاربة النبي ﷺ الركونَ إليهم ؛ لأجل تثبيت الله له وعصمته.

---

(١) في د زيادة : «على».

و﴿ كِدتَّ﴾ تقتضي -أيضًا- نفيَ الركون؛ لأن معنى كاد فلان يفعل كذا: أنه لم يفعله؛ فانتفى الركون إليهم ومقاربته، فليس في ذلك غضٌّ من جانب النبي ﷺ؛ لأن التثبيت منَعه من مقاربة الركون إليهم، ولو لم يثبِّته الله لكانت مقاربته للركون إليهم شيئًا قليلًا، وأما مع التثبيت فلم يركن قليلًا ولا كثيرًا، ولا قارب ذلك.

﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي: ضعف عذابهما لو فعل ذلك.

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ الضمير لقريش، كانوا قد همُّوا أن يخرجوا النبي ﷺ من مكة، وذلك قبل الهجرة، فالأرض هنا يراد بها: مكة؛ لأنها بلده.

﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لو أخرجوك لم يلبثوا بعد خروجك من مكة إلَّا قليلًا، فلما خرج النبي ﷺ مهاجرًا من مكة إلى المدينة، لأجل إذاية قريش له ولأصحابه، لم يبقوا بعد ذلك إلَّا قليلًا، وقتلوا يوم بدر.

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ انتصب ﴿سُنَّةَ﴾ على المصدر، ومعناه: العادة؛ أي: هذه عادة الله مع رسله.

* * *

[﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾].

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ هذه الآية إشارةٌ إلى الصلوات المفروضة:

فدلوك الشمس: زوالها، والإشارة إلى الظهر والعصر.

وغسق الليل: ظلمته، وذلك إشارة إلى المغرب والعشاء.

وقرآن الفجر: صلاة الصبح.

وانتصب ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾:

بالعطف على موضع اللام في قوله: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾؛ فإن اللام فيه ظرفية بمعنى «عند».

وقيل: هو عطف على ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

وقيل: مفعول بفعل مضمر تقديره: اقرأْ قرآنَ الفجر.

وإنما عبَّر عن صلاة الصبح بقرآن الفجر؛ لأن القرآن فيها أكثر من غيرها؛ لأنها تصلى بسورتين طويلتين.

﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي: تشهده ملائكة الليل والنهار، فيجتمعون فيه؛ إذ تصعد ملائكة الليل وتنزل ملائكة النهار.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ لما أمر بالفرائض أمر بعدها بالنوافل. و﴿مِنَ﴾ للتبعيض، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ للقرآن.

والتهجُّد: السهر؛ وهو ترك الهجود، ومعنى الهجود: النوم؛ فالتفعُّل هنا: للخروج عن الشيء، كالتحرُّج والتأثُّم في الخروج عن الإثم والحرج.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ يعني: الشفاعة يوم القيامة، وانتصب ﴿مَقَامًا﴾ على الظرف.

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ الآيةَ؛ المدخل: دخوله إلى المدينة، والمخرج: خروجه من مكة.

وقيل: المدخل: في القبر، والمخرج: إلى البعث.

واختار ابن عطية أن يكون على العموم في جميع الأمور(١).

﴿سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾ قيل: معناه: حجة تنصرني بها وتُظهِر(٢) بها صدقي.

وقيل: قوة ورياسة تنصرني بها على الأعداء، وهذا أظهر.

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ﴾ الحق: الإيمان، والباطل: الكفر.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ ﴿مِنَ﴾: لبيان الجنس، أو للتبعيض.

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٥/ ٥٣٠).

(٢) في أ، ب: «ويَظهَر».

والمراد بالشفاء: أنه يَشفِي القلوب من الريب[1] والجهل.

ويَحتمل أن يريد: نفعه من الأمراض؛ بالرُّقى به والتعويذ.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ الآيةَ؛ المراد بالإنسان هنا: الجنس؛ لأن ذلك من سجيَّة الإنسان.

وقيل: إنما يراد الكافر؛ لأنه هو الذي يُعرِض عن الله.

﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي: بعُد، وذلك تأكيدٌ وبيان للإعراض.

وقرئ ﴿نَاءَ﴾، وهو بمعنى واحد.

﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي: مذهبه وطريقته التي تشاكله.

* * *

(١) في أ، ب: «الريبة».

[﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾].

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ السائلون: اليهود، وقيل: قريش بإشارة اليهود.

والروح هنا:

عند الجمهور: هو الذي في الجسم، وقد يقال فيه: النفس.

وقيل: الروح هنا جبريل.

وقيل: القرآن.

والأول هو الصواب لدلالة ما بعده على ذلك.

﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي: من الأمور التي استأثر الله بها، ولم يُطلِع عليها خلقَه.

وكانت اليهود قد قالت لقريش: اسألوه عن الروح، فإن لم يجبكم فيه بشيء فهو نبيٌّ، وذلك أنه كان عندهم في التوراة: أن الروح مما انفرد الله بعلمه.

وقال ابن بريدة: لقد مضى النبي ﷺ وما يعرف الروح[(١)].

ولقد كثر اختلاف الناس في النفس والروح، وليس في أقوالهم في ذلك ما يعوَّل عليه.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ خطاب عام لجميع الناس؛ لأن علمهم قليل بالنظر إلى علم الله.

وقيل: خطاب لليهود خاصة.

والأول أظهر؛ لأن فيه إشارةً إلى أنهم لا يَصِلون إلى العلم بالروح.

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: إن شئنا ذهبنا بالقرآن، فمحوناه من الصدور والمصاحف.

وهذه الآية متَّصلةُ المعنى بقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: في قدرتنا أن نذهب بالذي أوحينا[(٢)] إليك فلا يبقى عندكم شيءٌ من العلم.

﴿وَكِيلًا﴾ أي: من يتوكل بردِّه وإعادته بعد ذهابه.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ يَحتمل أن يكون:

استثناء متصلًا؛ بمعنى: أن رحمة ربك تردُّ القرآن بعد ذهابه لو ذهب.

أو استثناء منقطعًا؛ بمعنى: أن رحمة ربك تمسكه عن الذهاب.

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ عجز الخلقُ عن الإتيان بالقرآن؛ لما تضمنه من العلوم الإلهية، والبراهين

---

(١) أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني بإسناده إلى عبد الله بن بريدة في كتاب العظمة (٣/ ٨٦٧).

(٢) في أ، ب، هـ: «أوحي».

الواضحة، والمعاني العجيبة التي لم يكن الناس يعلمونها، ولا يصلون إليها، ثم جاءت فيه على الكمال.

وقال أكثر الناس: إنهم عجَزوا عنه لفصاحته وحسن نظمه.

ووجوه إعجازه كثيرة قد ذكرنا في غير هذا منها خمسة عشر وجهًا[1].

﴿ظَهِيرًا﴾ أي: معينًا.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: بيَّنا لهم كل شيء من العلوم النافعة، والبراهين القائمة، والحجج الواضحة.

وهذا يدلُّ على إن إعجاز القرآن بما فيه من المعاني والعلوم كما ذكرنا.

﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ الكفور: الجحود، وانتصب بقوله: ﴿أَبَىٰ﴾؛ لأنه في معنى النفي.

﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠﴾ الذين قالوا هذا القول: هم أشراف قريش، طلبوا من النبي ﷺ أنواعًا من خوارق العادات، وهي التي ذكرها الله في هذه الآية.

وقيل: إن الذي قاله عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، وكان ابن عمة النبي ﷺ، ثم أسلم بعد ذلك.

والينبوع: العين، قالوا له: إن مكة قليلة الماء ففجِّرْ لنا فيها عينًا من الماء.

---

(١) ذكر في المقدمة في الباب الحادي عشر عشرةَ أوجهٍ من الإعجاز، وذكر هذه الأوجه العشرة أيضًا في كتابه «النور المبين في قواعد عقائد الدين» (ص: ٦٧).

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ﴾ إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ: ٩].

﴿كِسَفًا﴾ بفتح السين: جمع كِسْفة؛ وهي القطعة.

وقرئ بالإسكان؛ أي: قِطْعًا واحدًا.

﴿قَبِيلًا﴾ قيل: معناه مقابلة ومعاينة.

وقيل: ضامنًا شاهدًا بصدقك، والقَبالة في اللغة: الضمان.

﴿بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي: من ذهب.

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ تعجُّبٌ من اقتراحاتهم، و[١] تنزيهٌ لله عن قولهم: ﴿تَأْتِيَ بِٱللَّهِ﴾، وعن أن يَطلُب منه هذه الأشياء التي طلبها الكفار؛ لأن ذلك سوءُ أدبٍ.

﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أي: إنما أنا بشر؛ فليس في قدرتي شيءٌ مما طلبتم، وأنا رسول؛ فليس علي إلَّا التبليغ.

---

(١) في ج: «أو».

[﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾].

﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ المعنى: أن الذي منع الناس من الإيمان هو إنكارهم لبعث الرسل[1] من البشر.

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ الآية؛ معناها: أنه لو كان أهل الأرض ملائكةً لكان الرسول إليهم ملكًا، ولكنهم بشر؛ فالرسول إليهم بشر من جنسهم.

ومعنى ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾: ساكنين في الأرض.

﴿شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ ذُكِر في «الأنعام»[2].

﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ قيل: هي استعاراتٌ بمعنى أنهم يوم القيامة حَيارى.

---

(١) في أ، د، هـ: «الرسول».

(٢) انظر صفحة ٢٤٩.

وقيل: هي حقائق، وأنهم يكونون عميًا وبكمًا وصمًّا حين قيامهم من قبورهم.

﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ معناه في اللغة: سكن لهبها، والمراد هنا: كلما أكلت لحومَهم فسكن لهبها بُدِّلوا أجسادًا أُخرَ، ثم صارت ملتهبة أكثر مما كانت.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾ استبعادٌ للحشر، وقد تقدَّم معنى الرفات[1]، والكلام في الاستفهامين[2].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ الآيةَ؛ احتجاج على الحشر؛ فإن السموات والأرض أكبر من الإنسان، فكما قدَر الله على خِلْقتها؛ فأولى وأحرى أن يقدر على إعادة جسد الإنسان بعد فنائه.

والرؤية في الآية رؤية قلب.

﴿أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ القيامة، أو أجل الموت.

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ﴾ «لو» حرف امتناع، ولا يليها إلَّا الفعلُ ظاهرًا أو مضمرًا، فلا بد من فعل يقدَّر هنا بعدها تقديره: لو تملكون، ثم فسَّره بـ﴿تَمْلِكُونَ﴾ الظاهر، و﴿أَنتُمْ﴾ تأكيد للضمير الذي في «تملكون» المضمر.

﴿خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ أي: الأموال والأرزاق.

﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ أي: لو ملكتم الخزائن لأمسكتم عن الإعطاء خشية الفقر، فالمراد بالإنفاق: عاقبة الإنفاق؛ وهو الفقر.

---

(١) انظر صفحة ٨١٠.

(٢) انظر سور الرعد صفحة ٦٦٩.

ومفعول ﴿لَأَمْسَكْتُمْ﴾: محذوفٌ.

وقال الزمخشري: لا مفعول له؛ لأن معناه: بَخِلتم؛ من قولهم للبخيل: ممسك[١].

ومعنى الآية: وصف الإنسان بالشح وخوف الفقر، بخلاف وصف الله تعالى بالجود والغنى.

* * *

(١) انظر: الكشاف (٩/ ٣٨٦).

[﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾].

﴿تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ الخمس منها: الطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، والأربع: انقلاب عصاه حية، وإخراج يده بيضاء، وحلُّ العُقْدة من لسانه، وفَلْق البحر.

وقد عُدَّ فيها: رفع الطور فوقهم، وانفجار الماء من الحجر، على أن يسقط اثنان من الأُخر.

وقد عدَّ فيها -أيضًا-: السنون، والنقص من الثمرات.

وروي أن بعض اليهود سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «هي ألا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تمشوا ببريءٍ إلى سلطان ليقتله، ولا تسحروا،

ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا المحصنات، ولا تفروا يوم الزحف، وعليكم خاصةَ اليهود أن لا تعدوا في السبت»[١].

﴿فَسْئَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: اسأل المعاصرين لك من بني إسرائيل عما ذكرنا من قصة موسى؛ لتزداد يقينًا، والآية -على هذا- خطاب لمحمد ﷺ.

وقال الزمخشري: إن المعنى: قلنا لموسى: اسأل بني إسرائيل مِن فرعون؛ أي: اطلب منه أن يرسلهم معك، فهو كقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥]، فالأمر في قوله ﴿فَسْئَلْ﴾ لموسى على إضمار القول.

وقال -أيضًا-: يَحتمل أن يكون المعنى: اسأل بني إسرائيل أن يعضدوك ويكونوا معك[٢].

وهذا أيضًا على أن يكون الخطاب لموسى.

والأول أظهر.

﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾ الضمير لبني إسرائيل، والمراد: آباؤهم الأقدمون.

والعامل في ﴿إِذْ﴾:

على القول الأوَّل: ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ﴾، أو فعل مضمر.

والعامل فيه على قول الزمخشري: القول المحذوف.

﴿مَسْحُورًا﴾ هنا وفي «الفرقان»: أي: سُحِرتَ فاختَلط عقلك.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٠٩٢)، والترمذي (٢٧٣٣)، (٣١٤٤)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٤٩)، (٨/ ٤٣).

(٢) انظر: الكشاف (٩/ ٣٨٨).

وقيل: معناه: ساحر.

﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ - بفتح التاء - خطاب لفرعون، والمعنى: أنه علم أن الله أنزل الآيات، ولكنه كفر بها[1] عنادًا، كقوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

والإشارةُ بـ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلى الآيات.

﴿مَثْبُورًا﴾ أي: مُهلَكًا، وقيل: مغلوبًا، وقيل: مصروفًا عن الخير.

قابل موسى قولَ فرعون: ﴿لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ بقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾.

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: أرض مصر.

﴿ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني: أرض الشام.

﴿لَفِيفًا﴾ أي: جميعًا مختلطين.

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ الضمير للقرآن، و﴿بِٱلْحَقِّ﴾ معناه في الموضعين: بالواجب من المصلحة والسَّداد.

وقيل: معنى الأول كذلك، ومعنى الثاني: ضد الباطل؛ أي: بالحق في أخباره وأوامره ونواهيه.

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ انتصب بفعل مضمر يدل عليه ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾، ومعناه: بيَّناه وأوضحناه.

---

(١) في ج، هـ: «كذَّبها».

﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ قيل: معناه على تمهُّلٍ وترتيل في قراءته.

وقيل: على طول مدة نزوله شيئًا فشيئًا من حين بعث النبي ﷺ إلى وفاته، وذلك عشرون سنة، وقيل: ثلاث وعشرون.

﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ أُمِرَ باحتقارهم وعدم الاكتراث بهم، كأنه يقول: سواء آمنتم أو لم تؤمنوا؛ لأنكم لستم بحجة، وإنما الحجة أهل العلم مِن قبله، وهم المؤمنون من أهل الكتاب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ يعني: المؤمنين من أهل الكتاب.

وقيل: الذين كانوا على الحنيفية قبل البعثة؛ كزيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل.

والأول أظهر.

وهذه الجملة تعليلٌ لما تقدَّم، والمعنى: إن لم تؤمنوا به أنتم، فقد آمن به من هو أعلم منكم.

﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ أي: لناحية الأذقان، كقولهم: خرَّ لليدين وللفم.

والأذقان: جمع ذَقَنٍ، وهو أسفل الوجه حيث اللحية.

وإنما كرَّر ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾؛ لأن الأول للسجود، والثاني للبكاء.

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ سببها: أن الكفار سمعوا رسول الله ﷺ يدعو: «يا الله يا رحمن»، فقالوا: كان محمد يأمرنا بدعاء إله واحد، وها هو يدعو إليهن!، فنزلت الآية مبينة أن قوله: «الله أو الرحمن» اسمان لمسمى واحد، وأنه مخيَّرٌ في الدعاء بأيِّ الاسمين شاء.

والدعاء في الآية بمعنى التسمية؛ كقولك: دعوت ولدي زيدًا، لا بمعنى النداء.

﴿أَيًّا مَا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ﴿أَيًّا﴾ اسم شرط منصوب بـ ﴿تَدْعُواْ﴾، والتنوين فيه عوضٌ من المضاف إليه، و﴿مَّا﴾ زائدة للتأكيد، والضمير في ﴿لَهُ﴾ لله تعالى، وهو المسمَّى، لا الاسم.

والمعنى: أيَّ هذين الاسمين تدعو فحسنٌ؛ لأن الله له الأسماء الحسنى فوَضع قوله: ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ موضع الجواب، وهو في المعنى تعليل للجواب؛ لأنه إذا حسُنت أسماؤه كلُّها حسُن هذان الاسمان.

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ المخافتة: هي الإسرار.

وسبب الآية: أن رسول الله ﷺ جهر بالقرآن في الصلاة، فسمعه المشركون، فسبُّوا القرآن ومن أنزله، فأُمر رسول الله ﷺ بالتوسُّط بين الإسرار والجهر؛ ليُسمِع أصحابه الذين يصلون معه، ولا يُسمِع المشركين.

وقيل: المعنى: لا تجهر بصلاتك كلها، ولا تخافت بها كلها، واجعل منها سرًّا وجهرًا، حسَبما أحْكَمته السنة.

وقيل: الصلاة هنا الدعاء.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: ليس له ناصر يمنعه مِن الذُّلِّ؛ لأنه تعالى عزيز، فلا يفتقر إلى وليٍّ يحميه، فنفَى الولاية على هذا المعنى؛ لأنه غنيٌّ عنها، ولم ينف الولاية على وجه المحبة والكرامة لمن شاء من عباده.

وحكى الطبري أن قوله: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ ردٌّ على النصارى واليهود، الذين

نسبوا الله ولدًا، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ﴾ ردٌّ على المشركين، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ ردٌّ على الصابئين في قولهم: لولا أولياء الله لذلَّ الله، تعالى الله عن قولهم[1].

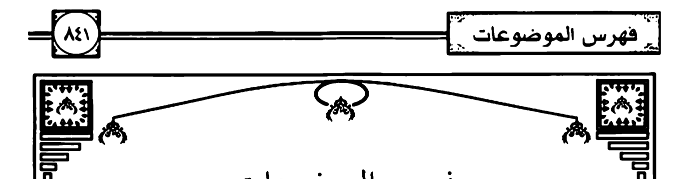
﴿وَكَبِّرْهُ﴾ معطوف على ﴿قُلِ﴾، ويَحتمل هذا التكبير:

أن يكون بالقلب؛ وهو التعظيم.

أو باللسان؛ وهو أن يقول: «الله أكبر» مع قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الآيةَ.

* * *

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ١٣٩).



فهرس الموضوعات